دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم (٥)

تاريخ
العراق - إيران - آسيا الصغرى

دكتور
أحمد أمين سليم
أستاذ تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم
بجامعتي الإسكندرية وبيروت العربية

٢٠٠٠

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي - ت ٥٩٧٣١٤٦

دار المعرفة الجامعية
للطبع والنشر والتوزيع

* الإدارة : ٤٠ شارع سوتير
الأزاريطة - الاسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣
* الفرع : ٣٨٧ شارع قنال السويس
الشاطبى - الاسكندرية
ت : ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

[سورة الممتحنة، آية: ٤]

إهـداء

إلـى زوجتـي

وولـديّ

شيـرين ومحمـد

تقـديـم

امتازت منطقة الشرق الأدنى القديم بتراثها الحضاري المتنوع الموغل في أعماق التاريخ، فلقد عاش الإنسان في هذه المنطقة منذ أقدم العصور، واستطاع أن يكون حضارة متميزة انصبغت بالتأثيرات البيئية المحلية مما أدى إلى بعض مظاهر الاختلاف في الانتاج الحضاري والتطور السياسي بين بلدان الشرق الأدنى.

وتمثل بلدان العراق وإيران وآسيا الصغرى منطقة هامة ورئيسية في الشرق الأدنى القديم، فلقد ارتبطت التطورات السياسية الخاصة بها بباقي مناطق الشرق القديم وبخاصة مصر التي كانت تمثل حجر الزاوية في تاريخ العالم القديم الذي ارتبط بها وارتبطت به فكانت التطورات السياسية في أي بلد من هذه البلدان ليست بمعزل عن القوى الأخرى، حيث أثرت وتأثرت بها بشكل أو بآخر.

ونظراً لأهمية دراسة تاريخ هذه المنطقة الخاصة بالعراق وإيران وآسيا الصغرى، فلقد جاء الباحثون والعلماء من مختلف أنحاء العالم للبحث والتنقيب عن آثارها الدفينة ومحاولة ترميم ما تهشم منها وفك طلاسم كتابتها، لمعرفة تطورها السياسي والحضاري وما قدمته للعالم في مختلف الميادين. ولقد أسهمت هذه الأبحاث في زيادة معارفنا بتاريخ هذه المنطقة وإزالة بعض الغموض الذي كان يكتنف الكثير من الموضوعات.

وعلى ذلك فبعد ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب والتي قامت بإصدارها دار النهضة العربية ببيروت، رأيت من واجبي أن أضيف بعض

المعلومات التي توافرت بعد صدوره، وأن أدعم الكتاب ببعض الأشكال والصور والخرائط التي تساعد في فهم المادة العلمية، وفي الوقت ذاته فلقد حرصت على أن تكون المادة العلمية في متناول الطالب الجامعي فلم أشق عليه بالكثير من التفصيلات أو المناقشات العلمية التي قد يصعب عليه استيعابها، ومع ذلك فلقد دعمت الكتاب بحواشي تضم الكثير من المصادر والمراجع التي تساعد الباحثين والدارسين المتخصصين في معرفة المصادر والمراجع المتصلة بالموضوعات التي يرغبون الاستزادة فيها.

وتجدر الإشارة إلى أن موضوع هذا الكتاب يبحث في التاريخ السياسي للعراق وإيران وآسيا الصغرى منذ أقدم العصور وحتى الفتح المقدوني، أما التاريخ الحضاري لهذه المنطقة، فموضوعه مؤلف آخر يبحث في المظاهر الحضارية المتعددة من فكر ديني ونظم سياسية وإدارية وعسكرية وقضائية ويبحث أيضاً في نظم الحياة الاجتماعية والقيم الأخلاقية والسلوكية وتطور العمارة والفنون وغيرها من المظاهر الحضارية.

ولقد قسمت هذا المؤلف حسب المناطق التي يبحث فيها إلى ثلاثة أبواب رئيسية، خصصت الباب الأول منها لتاريخ العراق القديم، والباب الثاني لتاريخ إيران القديم، أما الباب الثالث والأخير فقد خصصته لتاريخ آسيا الصغرى في العصور القديمة.

ويتناول الباب الأول من هذا الكتاب تاريخ العراق القديم، ولقد قسمته إلى تسعة فصول رئيسية، تناولت في الفصل الأول منها وعنوانه «دراسات تمهيدية» ثلاثة موضوعات رئيسية، ناقشت في الأول منها التسميات المتعددة التي أطلقت على العراق، ومنها التسمية «ميزوبوتاميا» التي أطلقها المؤرخون اليونان على هذه المنطقة وسار على دربهم الكثير من الباحثين حتى الوقت الحاضر، وأوضحت أن هذه التسمية لا تؤدي الغرض منها حيث أنها تعني «أرض ما بين النهرين» بينما كانت الحضارة العراقية القديمة تمتد خارج النهرين

وداخلهما، كما ألقيت الضوء على التسميات الأخرى مثل العراق والسواد، وأشرت أيضاً إلى التسميات القديمة التي أطلقت على البلاد مثل «مات شوميري» التي تعني «بلاد سومر»، و «مات بابل» و «مات آشور» التي تعني أرض بابل وأرض آشور على التوالي. وتناولت في الموضوع الثاني الظروف الجغرافية للعراق والمظاهر الجغرافية البارزة التي أثرت على التاريخ السياسي والحضاري للعراق القديم، ولا شك أن نهري دجلة والفرات يمثلان شريان الحياة الرئيسي وارتبطت بهما وبمجراهما الحضارة العراقية القديمة، وتناولت ظاهرة تقسيم البلاد إلى قسمين شمالي وجنوبي وناقشت العوامل التي أدت إلى ذلك وأثر تلك الظاهرة على تاريخ البلاد. أما الموضوع الثالث فقد خصصته لتاريخ الكشف الأثري في العراق، وتتبعت تاريخ الاهتمام بآثار بلاد النهرين منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وحتى الوقت الحالي الذي تنوعت فيه مظاهر الاهتمام بآثار هذه المنطقة حتى أصبحنا نرى الكثير من دول العالم تقوم بعمل حفائر فيها لاستجلاء تاريخ وحضارة هذه المنطقة.

ويتصل الفصل الثاني من الباب الأول بدراسة مصادر تاريخ بلاد النهرين، ولقد قسمت هذه المصادر إلى أربعة أنواع، تناولت في الأول منها المصادر الأثرية والتي من أهم ما يخص الباحث في التاريخ السياسي فيها القوائم الملكية، ومنها قائمة الملوك السومرية التي ترجع من الناحية الزمنية إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد ولكنها تتضمن مادة تاريخية ترجع إلى بداية العصر التاريخي، وهناك أيضاً قائمة ملوك لجش التي كشف عنها حديثاً، وتسجل حوليات ملوك لجش، إلا أنها لم تتضمن جميع حكام لجش المعروفين لنا. أما القوائم والحوليات الآشورية فهي تتضمن القوائم المعروفة باسم: قوائم الـ «ليمو»، وقوائم الملوك الآشورية، والقوائم الملكية المتزامنة، وكذلك الحوليات الملكية وتتضمن قوائم الملوك البابلية القوائم المعروفة بالقائمة A والقائمة B والقائمة C، كما توجد قوائم أخرى تغطي الفترة الواقعة ما بين أسرة أور الثالثة وحمورابي. وآخر هذه المصادر الأثرية ما سجله المؤرخ الوطني

برجوشا والذي أطلق عليه اليونان بيروسوس ولقد عاش في القرن الثالث قبل الميلاد.

وأشرت في الموضوع الثاني إلى كتابات المؤرخين اليونان والرومان، وبينت ما لهم وما عليهم ثم أشرت إلى أهم من كتب منهم عن تاريخ العراق القديم، ثم تناولت في الموضوع الثالث المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وأهمية دراستها، أما الموضوع الرابع، فلقد أشرت فيه إلى المصادر الدينية المقدسة وبخاصة التوراة والقرآن الكريم.

وتناولت في الفصل الثالث «عصور ما قبل الكتابة والتدوين» وقسمته إلى خمسة موضوعات رئيسية على النحو التالي:

١ ـ العصر الحجري القديم بأقسامه مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل ثم مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط فمرحلة العصر الحجري القديم الأعلى.

٢ ـ العصر الحجري المتوسط.

٣ ـ العصر الحجري الحديث، وتناولت أهم الحضارات التي ظهرت خلال هذه المرحلة، وهما حضارتي جرمو وتل حسونة.

٤ ـ عصر الحجر والنحاس، وتناولت الحضارة المميزة لهذه المرحلة وهي حضارة خلف.

٥ ـ حضارات جنوب العراق القديم، وهي حسب ترتيبها الزمني: حضارة أريدو، حضارة الحاج محمد، حضارة العبيد، حضارة الوركاء، وأخيراً عصر حضارة جمدة نصر التي تمثل المرحلة الأخيرة لعصور ما قبل الكتابة والتدوين في العراق القديم.

ويتصل الفصل الرابع من الباب الأول بدراسة التطور التاريخي للسومريين، والذين يمثل عصرهم بداية الأسرات في تاريخ العراق القديم، ولقد تناولت في هذا الفصل العوامل التي أدت إلى بدايته والظواهر المتعددة التي تحدد بدايته مثل حادثة الطوفان، وكذلك التوصل إلى معرفة الكتابة الصورية، وناقشت الطبيعة

الجغرافية للمنطقة التي عاش السومريون فيها وأثرها على استقرارهم في جنوب العراق، ثم تتبعت التطور التاريخي لدويلات المدن السومرية منذ أقدمها وهي مدينة كيش، ثم أسرة الوركاء الأولى، فأسرة أور الأولى، ثم أسرة لجش الأولى، وأخيراً أسرة أوما التي حاول ملكها «لوجال زاجيزي» توحيد المدن السومرية تحت حكمه، ثم ما لبثت أن انتهت دولته على يد «سرجون الأكدي» الذي أسس أسرة جديدة تتميز بانتقال السيادة والسلطة إلى أيدي الساميين.

أما الفصل الخامس فلقد خصصته لدراسة «العصر الآكدي» وتناولت فيه العلاقة ما بين العنصرين السومري والسامي، والظروف التي هيأت للساميين فرض سيادتهم في هذه المرحلة، ثم تناولت التطور السياسي لهذه الأسرة بدءاً من عهد مؤسسها سرجون الأول (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٥ ق. م) وحتى نهايتها عام ٢٢٣٠ ق. م.

وتناولت في الفصل السادس «العصر السومري الحديث» وهو يمثل المرحلة الأخيرة للسومريين كقوة سياسية في تاريخ العراق القديم، إذ انتهت بنهايته قوتهم السياسية وإن ظل تأثيرهم الثقافي والحضاري باقياً. ولقد تناولت في هذا الفصل دراسة الأسر السومرية صاحبة السيادة خلال هذه المرحلة والتي بدأت بسيادة أسرة لجش الثانية (٢٢٣٠ ـ ٢١١٣ ق. م) ثم أسرة الوركاء الخامسة (٢١٢٠ ـ ٢١١٣ ق. م) التي خلفتها أسرة أور الثالثة (٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق. م).

ويتصل الفصل السابع من الباب الأول بدراسة «العصر البابلي القديم» وتناولت فيه المراحل المتتالية لهذا العصر بدءاً من الدولة البابلية الأولى التي أسسها «سمو ـ أبوم» وحتى آخر ملوكها العظام «سامسو إيلوما»، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة الملك حمورابي صاحب التشريعات المعروفة، أما أسرة بابل الثانية فلقد نشأت على الشواطىء الشمالية للخليج العربي ولذا فإنه يطلق عليها (أسرة القطر البحري)، ثم جاءت مملكة بابل الثالثة والتي تتميز بفترة الحكم الكاشي للبلاد.

ويتناول الفصل الثامن من الكتاب التطور التاريخي للعراق خلال العصر الأشوري والذي تمكن فيه العراقيون من تكوين امبراطورية ضخمة ضمت معظم أجزاء الشرق الأدنى القديم المعروف آنذاك، ولقد تناولت فيه تطور تاريخ الأشوريين خلال العصر الأشوري القديم والذي شهد بداية تكوين هذه الدولة، ثم العصر الأشوري الوسيط والذي استغرق أكثر من أربعة قرون ونصف (١٣٨٠ ـ ٩١٣ ق. م) وأخيراً العصر الأشوري الحديث والذي استغرق ما يقرب من ثلاثة قرون، وهو ينقسم إلى مرحلتين: الامبراطورية الأشورية الأولى والتي تبدأ بعهد الملك «أداد نيراري الثاني»، والامبراطورية الأشورية الثانية والتي تبدأ بعهد الملك «تجلات بلاسر الثالث» وتنتهي بعد الملك «أشور ـ أو بلط الثاني عام ٦٠٩ ق. م».

أما الفصل التاسع والأخير من تاريخ العراق القديم فيتناول تاريخ العراق خلال العهد البابلي الأخير أو المملكة الكلدانية، ومن أهم ملوك هذه المرحلة الملك «نبوخذ نصر الثاني» الذي يستغرق حكمه قرابة نصف حكم هذه الأسرة، التي انتهت في عهد ملكها «نابونيد» وذلك على أيدي القائد الفارسي «كوروش الثاني» الذي دخل بابل عام ٦٣٩ ق. م.

وتناولت في الباب الثاني من هذه الدراسة التطور السياسي لإيران، وقسمت هذا الباب إلى ستة فصول رئيسية تناولت في الأول منها جغرافية إيران ومواردها الطبيعية، وقمت بدراسة مظاهر السطح الرئيسية في إيران وأثرها في التطور السياسي للتاريخ الإيراني القديم وكذلك الثروات الطبيعية التي تجود بها الأراضي الإيرانية وأثرها في تاريخ إيران وحضارتها.

ويتناول الفصل الثاني مصادر دراسة تاريخ إيران القديم، وتناولت فيه المصادر الإيرانية وما سجله المؤرخون اليونان والرومان، والمصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، ثم المصادر الدينية الفارسية وكذلك التوراة، وأخيراً القصص الفارسي.

أما الفصل الثالث فيتناول عصور ما قبل الكتابة والتدوين، وقمت فيه بدراسة المظاهر الحضارية لحضارة العصر الحجري القديم ثم العصر الحجري الوسيط، ثم المرحلة الحضارية الأولى فالمرحلة الحضارية الثانية والمرحلة الحضارية الثالثة وهي التي تقابل في مناطق الشرق الأدنى القديم العصر الحجري الحديث وعصر الحجر والنحاس وعصور ما قبل وقبيل الأسرات.

ويتصل الفصل الرابع بتطور تاريخ إيران خلال الألف الثالث ق. م وناقشت فيه طبيعة تاريخ إيران خلال هذه المرحلة التي سيطر فيها على مجريات الأحداث القبائل الجبلية التي سكنت التلال المتاخمة لحدود العراق وهذه القبائل هي من الجنوب إلى الشمال العيلاميون والكاشيون واللولوبيون والجوتيون.

وتناولت في الفصل الخامس تاريخ إيران خلال الألف الثاني ق. م وأوضحت فيه تأثير ظهور العناصر الهندو أوربية على إيران خلال هذه المرحلة، ثم ناقشت الدول التي ظهرت في إيران وهي عيلام، والكاشيون، والصراع بينها وبين الدول التي ظهرت في العراق القديم خلال هذه المرحلة.

أما الفصل السادس والأخير فتناولت فيه تاريخ إيران منذ بداية الألف الأول ق. م، وحتى مجيء الاسكندر، وناقشت فيه هجرة الميديين والفرس والكيمريون والاسكيثيون والميديون، ثم تناولت بالدراسة التفصيلية تكوين الامبراطورية الإخمينية وتوسعها حتى سقوطها على يد الاسكندرالمقدوني.

ويتصل الباب الثالث من هذا الكتاب بمنطقة آسيا الصغرى، ولقد قسمته إلى أربعة فصول ومقدمة تمهيدية، ولقد ناقشت في المقدمة المظاهر الرئيسية لجغرافية آسيا الصغرى وتسمية البلاد ولغاتها، والمصادر التي يعتمد عليها الباحثون في دراسة تاريخها.

ولقد تناولت في الفصل الأول المظاهر الحضارية لعصور ما قبل الكتابة والتدوين منذ العصر الحجري القديم وحتى نهاية عصر الحجر والنحاس

الأخير. أما الفصل الثاني فيتصل بتاريخ آسيا الصغرى خلال عصر الدولة القديمة، أما الفصل الثالث فتناولت فيه تاريخ البلاد خلال عصر الامبراطورية، وأشرت فيه إلى توسع الملوك الحيثيين في سورية واصطدامهم بالامبراطورية المصرية، والصراع الذي دار بين القوتين إلى أن انتهى الأمر بتوقيع أشهر معاهدة سلام في العالم القديم بينهما. ثم تتبعت تاريخ آسيا الصغرى، حتى انتهت دولتهم على يد هجرات شعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

ولا يسعني في نهاية هذا التقديم، إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من قدم لي يد العون في سبيل إنجازه وأخص بالذكر أخي الفاضل الدكتور ممدوح تهامي عقل على تفضله برسم بعض خرائطه ومعاونتي في مراجعة أصوله، وأخي الكريم الدكتور محمد علي القوزي على معاونته لي في مراجعة الأصول، كما أتقدم بجزيل الشكل لدار المعرفة الجامعية وعلى رأسها الحاج صابر عبد الكريم لنشرها هذه الطبعة الجديدة من الكتاب، وخالص شكري لأخي الفاضل الأستاذ حسان كريدية ممثل دار النهضة العربية في بيروت لمعاونته الصادقة في إخراج الكتاب، وأخي الكريم صدقي كساسير الذي قام بجهد كبير في سبيل إخراجه بشكل مميز.

وأخيراً فإنني أدعو الله مخلصاً في هذه الأيام المباركة أن أكون قد وفقت في إخراج هذا الكتاب بالشكل المقبول.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

صـدق اللّـه العظيـم.

[سورة البقرة، الآية: ٢٨٦]

في منتصف شعبان ١٤١٨ هـ

منتصف ديسمبر ١٩٩٧ م

الباب الأول

تاريـخ العــراق القديـم

الفصل الأول

«دراسات تمهيدية»

١ ـ التسمية.

٢ ـ الظروف الجغرافية.

٣ ـ تاريخ الكشف الأثري في العراق.

١ ـ التسمية

إن تسمية «ميزوبوتاميا Mesopotamia» التي تفيد معنى «أرض ما بين النهرين» أطلقها المؤرخ اليوناني بوليبيوس(١) (٢٠٨ ـ ١٢٦ ق.م) والجغرافي استرابو(٢) (٦٣ ق.م ـ ١٩ م). وكان المقصود بهذه التسمية المنطقة الواقعة فيما بين نهري دجلة والفرات وتمتد حتى حافة المناطق المرتفعة في الشمال حيث يدخل النهران الهضبة إلى منطقة بغداد الحالية حيث يقترب نهرا دجلة والفرات من بعضهما وتضيق المسافة بينهما إلى أقل اتساع.

إلا أن هذه التسمية تطلبت معنى أوسع من تلك التي كان يقصدها كل من بوليبيوس واسترابو، حيث امتدت المناطق الحضارية حول النهرين أيضاً، ولقد أدرك الإغريق أنفسهم قصور لفظ ميزوبوتاميا، فأضاف بعضهم إليه لفظ «بارابوتاميا» Parapotamia أي ما وراء النهرين أو ما حولهما(٣).

ولقد أصبحت التسمية ميزوبوتاميا معروفة في أوروبا كنتيجة لترجمة التوراة، إذ ورد في سفر التكوين: «وأخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وفي يده من كل خير مولاه، وقام ومضى إلى آرام النهرين إلى مدينة

(١) Polybius, The Histories, whith an English Translation by W.R. Paton, vol. V, London, 1960, 44. 7., 48. 16.

(٢) Strabo, The Geography of Strabo, with an English Translation by H.L. Jones, vol. V, London, 1951, p. 297, 317, 319, 329.

(٣) عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم، جـ١، مصر والعراق، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٧٢.

ناحور»(١) والمقصود بها في العهد القديم المنطقة التي تدعى «آرام نهاريم» والتي تعني أدبياً «أرام النهرين» وإن كان البعض يظن أنهما نهرا الخابور والفرات وليسا دجلة والفرات(٢). ثم أصبحت كلمة ميزوبوتاميا مألوفة لدى قارىء التوراة نظراً لأنها تميز البلد الذي جاء منه إبراهيم عليه السلام(٣).

وبالنسبة لنا فإن مصطلح «ميزوبوتاميا» يتضمن مناطق متنوعة تقع ما بين جبال كردستان في الشمال إلى دلتا مستنقعات النهر في الجنوب، وما بين الصحراوات والسهوب في الغرب ومنحدرات جبال إيران في الشرق. وتقع معظم هذه المنطقة الآن في جمهورية العراق.

أما كلمة «العراق» الحالية فأصلها غير مؤكد، وإن كان يرجح أنها كلمة فارسية تعني «السواد» أو «السهل» أو «البلاد السفلى»، وإن ذهب بعض المفسرين العرب إلى أن كلمة العراق تعني «الجرف» أو «الساحل». وقد أطلق العرب على القسم الجنوبي من العراق «السواد» أو «العراق»، أما القسم الشمالي فأطلق عليه اسم «الجزيرة»، وهي كلمة تطابق في معناها الكلمة اليونانية «ميزوبوتاميا».

وترجع تسمية البلاد باسم «السواد» إلى كثرة المزروعات والأراضي السوداء المستغلة في الزراعة، ولقد أسهم نهرا دجلة والفرات في طبيعة تكوين هذه المنطقة وزودها بالمياه اللازمة للأعمال الزراعية»(٤).

وهناك من الباحثين من يتجه إلى القول بأن تسمية «العراق» ترجع في أصولها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ويعتمدون في ذلك على أنه كان هناك قطراً في أواخر العهد الكاشي (١٥٨٠ ـ ١١٦٠ ق.م تقريباً) عرف باسم

---

(١) سفر التكوين: ٢٤: ١٠.

(٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧١، ص ٤٣.

(٣) M.A., Beek., Atlas of Mesopotamia, London, 1962, p. 9.

(٤) نجيب ميخائيل إبراهيم: مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٥، الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٢.

«أريقا»[١] حيث حرفت إلى «إيراك» ثم عربت إلى «عراق» أو «العراق». وإن كان هناك من يرى أنها كلمة سومرية تفيد معنى «المستوطن» شأنها في ذلك شأن كثير من المدن السومرية التي تعني نفس الكلمة[٢].

ولقد أطلق السكان المحليون على بلادهم تسميات عديدة حسب الفترات التاريخية فأطلقوا على جنوب العراق في فجر تاريخه التسمية «مات شوميري» التي تعني بلاد سومر وذلك في اللغة الأكدية أما في اللغة السومرية فكانت kie-en-gi(r) التي ربما تعني أيضاً «أرض زراعية» أما بلاد بابل فكان يطلق عليها في اللغة الأكدية التسمية «مات بابل» التي تعني «بلاد بابل» والأمر كذلك بالنسبة لأشور التي أطلق عليها «مات أشور»[٣].

٢ ـ الظروف الجغرافية

إن الظروف الجغرافية البارزة في العراق هي وادي دجلة والفرات اللذين يعتبران شريان الحياة الرئيسي في هذه المنطقة، ولقد أدرك الإنسان العراقي القديم أهمية النهرين بالنسبة له فقام بتأليهها وعرفهما بالنهرين الأخوين، ويلاحظ أن كلمة «الفرات» ذات أصل سومري ووردت في النصوص البابلية تحت اسم «بورتم» أو «بوراتي». أما «دجلة» فقد وردت في النصوص القديمة تحت اسم «أدقلات» أو «أدجلات» والتي قد تفيد معنى الجاري أو الراوي[٤] ونظراً لارتفاع وادي الفرات عن دجلة فقد صنع الإنسان العراقي القديم شبكة من

(١) عبد الحميد أحمد زايد: الشرق الخالد، مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م.، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١.

(٢) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١.

(٣) عيد مرعي: تاريخ بلاد الرافدين منذ أقدم العصور حتى عام ٥٣٩ ق.م، دمشق، ١٩٩١، ص ١٣.

(٤) نفس المرجع السابق، ص ١٤.

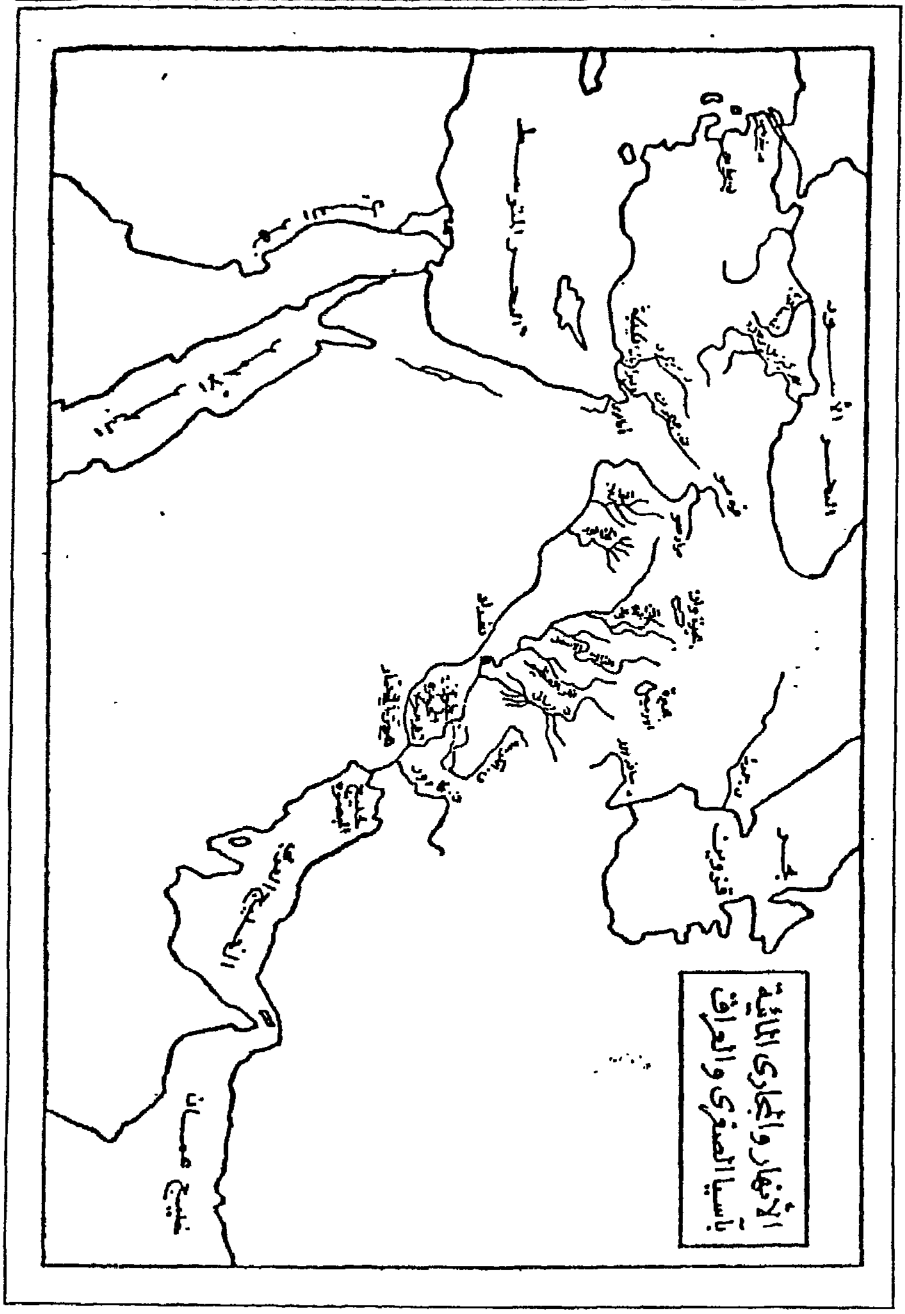
الأنهار توصل بينهما وبخاصة في القسم الجنوبي الذي يتميز بصلاحية معظم أجزائه للزراعة والرعي.

ويقع وادي النهرين بين سلسلة جبال زاجروس شرقاً والصحراء السورية ومرتفعات لبنان غرباً، وتنحدر أرضه تدريجياً من جبال أرمينيا التي ينبع منها النهران ويظل الانحدار حتى نقطة التقائهما حيث يتكون السهل الفيضي في الجنوب ويستمر حتى مصبه في الخليج العربي.

ويتميز نهر الفرات بأنه أطول من نهر دجلة وأكثر تعرجاً، وهو يمتاز عنه باتساع واديه وعمقه، أما دجلة فإنه يتميز من ناحية أخرى بكثرة روافده التي تنبع من هضبة إيران، وهو بذلك يتلقى إمدادات كثيرة، ولعل من أهم هذه الروافد نهر الزاب الكبير (الأعلى) الذي يصب في دجلة على بعد أربعين ميلاً جنوبي نينوى بالقرب من نمرود، ثم الزاب الأسفل إلى الجنوب من ذلك بحوالى ثمانين ميلاً. ومن هذه الروافد كذلك نهر ديالي والذي أطلق عليه البابليون التسمية «ترناة» ولقد أدت كثرة الروافدوتنوع مصادرها إلى أن أصبحت الفيضانات المفاجئة من المظاهر المميزة لنهر دجلة. أما أهم روافد الفرات، فهما «البالخ» و «الخابور». (خريطة شكل ١)

ويلاحظ أنه رغم أن نهر دجلة أقل اتساعاً من نهر الفرات إلا أن كمية المياه التي يحملها أكبر، وسرعة التيار في النهرين شديدة مما يؤثر على النحات في المجرى الجيري لهما مما يجعل ماء النهرين سريع الجريان مليئاً بالرواسب، وفي بعض الأحيان تؤدي سرعة جريان نهر دجلة وفيضه المفاجيء إلى غمر الكثير من الأراضي بل وفي بعض الأحيان يؤدي ذلك إلى أن يشق النهر لنفسه مجرى جديداً.

وقد اتخذ كل من دجلة والفرات مجرى منفصلاً فيما بين الألف العاشر والألف الخامس ودخلا إلى الخليج العربي بمصبين مختلفين، وكان خط شاطيء الخليج في هذه المرحلة يقع أبعد مما هو إلى الشمال الغربي على بعد



خريطة (١)

بضعة أميال من بغداد، وقد كون كل من النهرين دلتا خاصة به امتدت كل منهما تدريجياً إلى الجنوب الشرقي في مياه الخليج، ونظراً للترسيبات الطينية التي حملتها العديد من الأنهار الأخرى في هذه المنطقة تكون رصيف من مادة فيضية رسوبية في الجنوب عبر رأس الخليج العربي وأدى ذلك إلى تكوين حاجز أمام نهري دجلة والفرات مما أدى إلى ترسيب كميات كبيرة من الطمى الذي يحملانه في الأراضي الداخلية مما أدى إلى تكوين المستنقعات الطمية[1].

ولقد أدى ذلك إلى وجود أقليمين مميزين في الأراضي المنخفضة لدجلة والفرات وهما السهل الأدنى وهو نتيجة الإرساب الفيضي، والسهل الأعلى ويشمل حوض النهرين ووديان روافدهما. والسهل الأدنى حديث نسبياً لم يُعمر قبل الألف الخامس قبل الميلاد واستقر فيه السومريون، والأكديون منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ونتيجة لالتقاء دجلة بالفرات تكونت منطقة شط العرب وهي عبارة عن مجرى ملاحى عريض يتخلله حزام من النخيل. وكلما اتجهنا شمالاً تضاءلت المستنقعات.

ولقد قامت المدن السومرية على ضفاف الخليج وعلى شاطىء الفرات، ومنها: أريدو (أبو شهرين حالياً)، أور (المقير) وذلك على الضفة اليمني للنهر، لارسا، لجش، أوما، أوروك (الوركاء)، شوروباك، نيبور (نفر). وفي شمال الإقليم السومري تمتد أكد حتى عرض بغداد وأشهر مدنها بورسيبا ثم بابل ثم كيش ثم سبار.

ويقع إقليم الجزيرة بين دجلة الأعلى والفرات فيحده من جانبيه النهران كما تحده من الشمال أطراف سلسلة جبال آسيا الصغرى، ويعرف الإقليم على

(١) تجدر الإشارة إلى أن هناك من الباحثين الجيولوجيين من يعتقد بأن ساحل الخليج العربي كان يوجد إلى الجنوب مما هو عليه الآن، ويعتمدون في ذلك على بعض الصور الجوية التي أخذت لهذه المنطقة واعتقدوا أنه يوجد فيها بقايا مناطق سكنية غمرته مياه البحر الذي كان يرتفع تدريجياً. انظر:

Geographical Journal, March, 1952.

ضفة دجلة الشرقية باسم «آشور» وترتفع الأرض هنا على مراحل من دجلة إلى الشمال الشرقي وتميز كل مرحلة مرتفعات تتزايد كلما اتجهنا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهو ينتهي من ناحية الشمال الشرقي بمناطق جبلية تنتشر فيها أحواض منخفضة يحيطها التلال وفي الشرق يحيط بها سلاسل جبال زاجروس الرئيسية، وفي الشمال الأقواس الأناضولية[١].

ويلاحظ أن وادي دجلة والفرات أقل وحدة من وادي النيل من الناحية السياسية، فالمنطقة من بغداد إلى الجنوب كانت قديماً وحدة اقتصادية وسياسية تعتمد في ثروتها على الري من النهرين وظهرت فيها دولة بابل، وفي هذا الجزء نفسه ظهرت دويلات المدن التي ازدهرت أيام الحضارة السومرية. وإلى الشمال من بغداد توجد أنهار أخرى هامة وهي ديالي والزاب الكبير والزاب الصغير والخابور والبالخ، وشكلت هذه المنطقة وحدة أخرى سياسية واقتصادية مستقلة عن الوحدات الأخرى، قامت فيها دولة آشور إلى جانب دولة بابل في الجنوب.

ولقد انتشرت الحضارة في بلاد النهرين من الجنوب إلى الشمال، ووصلت إلى مستوى متقدم في الفرات عنها في دجلة، وتوزع السكان في الدلتا إلى شعبتين، الساميون وأقاموا في إقليم إكد الذي كان يمتد من آجاد إلى كيش، والسومريون الذين استوطنوا المنطقة بين نيبور والبحر.

وعلى ذلك فإنه يمكن تقسيم سطح العراق إلى قسمين شمالي وجنوبي. وفيما يتصل بالقسم الشمالي فتغلب عليه الطبيعة الجبلية إذ تكثر فيه المرتفعات وبخاصة في شماله الشرقي الذي تتخلله وديان نهر دجلة وفروعه، ويفصله عن الجهات التي تقع أبعد من ذلك شمالاً سلسلة جبال طوروس وهضبة أرمينيا، ويطلق على معظم أجزاء هذا القسم ـ باستثناء الأطراف الشمالية الجبلية ومنطقة الشمال الغربي فيما بين الخابور والفرات ـ تسمية أرض آشور نسبة إلى مدينة آشور التي كانت من أهم المدن الشمالية.

---

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٤.

أما القسم الجنوبي، فهو حديث التكوين من الناحية الجيولوجية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وهو يبدأ على وجه التقريب عند بغداد الحالية ويمتد جنوباً حتى الخليج العربي، ويمكن تقسيم القسم الجنوبي حسب طبيعته الجغرافية إلى عدة أقسام، تبدأ بمنطقة مصب النهر في أقصى الجنوب، وتمتد من منطقة التقاء النهرين حتى الخليج العربي، يليها شمالاً منطقة الأحراش وهي تشغل المجريان الأدنيان لنهري دجلة والفرات، وتنخفض أرض هذه المنطقة مما يؤدي إلى ارتفاع منسوب المياه فيها مما جعلها تحوي الكثير من الأحراش والمستنقعات. ويلي هذا القسم منطقة الدلتا، وهي تشغل معظم القسم الجنوبي، ويخترقها العديد من القنوات كما تغمرها الفيضانات السنوية للنهرين. وإلى الشمال من منطقة الدلتا توجد منطقة السهل حيث يقترب فيها مجرى نهري دجلة والفرات إلى أدنى حد، وتتعرض هذه المنطقة لفيضانات عنيفة تصل غالباً إلى درجة مدمرة لهذه المنطقة.

وقد عرف القسم الجنوبي في بداية العصر التاريخي في العراق القديم باسم «أرض سومر وأكد» وتعني أرض سومر نصفه الجنوبي الممتد حتى الخليج العربي، أما أرض أكد فهي نصفه الشمالي الذي يصل إلى حدود بغداد. وفي بداية الألف الثاني قبل الميلاد عرف هذا القسم باسم أرض بابل، وظلت هذه التسمية علماً على المنطقة بعد ذلك.

وتوجد أقدم أدلة أثرية للإنسان العراق القديم في منطقة الجبال الشمالية والشمالية الشرقية، وهي جبال كردستان والتي تسمى في بعض نواحيها بجبال زاجروس، ويبلغ ارتفاعها حوالى أربعة عشر ألف قدم، ويوجد بها كهوف ترجع إلى عصر البلايستوسين مثل كهف هزارمرد وزرزى وشانيدار، ولقد عثر في بعض هذه الكهوف على آثار للإنسان ترجع إلى العصر الحجري القديم.

ويلي هذه المرتفعات هضاب تتكون من طبقة صخرية تعلوها قشرة سميكة من الكلسيوم وتتخلل هذه الهضاب سهول خصبة ووديان ومجاري مياه، ومن

أشهر هذه السهول، سهل جمجمال الذي يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ٢٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولقد عاش الإنسان في هذا السهل خلال الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم وخلال العصر الحجري الوسيط.

ولقد عاش الإنسان أيضاً خلال الفترة الأخيرة من العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط في منطقة الصحراوات الغربية والتي تمتد من أعالي الفرات غرباً حتى صحراء نجد، ومنها قسم يقع بين دجلة والفرات جنوبي جبل سنجمار وتل عفر وهي تعرف بالجزيرة.

أما الإنسان خلال العصر الحجري الحديث وعصر الحجر والنحاس فلقد بدأ يستقر في السهول الغربية في وسط وجنوب العراق، وهي المنطقة التي شهدت مولد الحضارة في العراق القديم.

٢ - تاريخ الكشف الأثري في العراق

شغلت آثار بلاد النهرين اهتمام الرحالة الذين زاروا هذه المنطقة إبان العصور الوسطى، ومن هؤلاء التاجر اليهودي Benjamin Bar Jona of Tudela الذي زار هذه المنطقة عام ١٦٦٠ م. ولقد أثارت انتباهه آثار نينوى وبابل، وعندما زار الموصل كتب يقول: «المدينة، الأولى في فارس، كانت كبيرة جداً في العصور القديمة وهي تقع على نهر دجلة، وترتبط بمدينة نينوى بواسطة معبر، ولقد دُمرت مدينة نينوى ولكن توجد فوق أنقاضها الآن العديد من القرى والتجمعات السكنية». وعندما اتجه إلى بابل ذكر أن بقاياها الأثرية تغطي مسافة تقرب من ثلاثة أميال. وعندما شاهد خرائب قصر نبوخذ نصر قال إنه لا يجرؤ أحد من الاقتراب منها وذلك خوفاً من العقارب والثعابين. ومن بين ما ذكره أيضاً أنه شاهد «برج بابل» ولكنه يبدو أنه كان يقصد

بوررسيبا القديمة[1].

وكان لترجمة كتابه إلى الإنجليزية والفرنسية، أن أصبحت نينوي وبابل موضع اهتمام العلماء والباحثين.

وتعددت بعد ذلك الزيارات إلى بلاد النهرين، ومن أشهر هذه الزيارات تلك التي قام بها النبيل الإيطالي «بيترو ديللا ڤال Pietro della Valle الذي زار بابل عام ١٦١٦ م، ثم قام بزيارة أور عام ١٦٢٥ م. ولقد قام لأول مرة بإرسال نسخ من الكتابة المسمارية التي عثر عليها في برسبوليس إلى أوربا، كما أخذ معه أيضاً بعض قطع اللوحات المكتوبة بالخط المسماري والتي عثر عليها في بابل.

ولقد أدى ذلك إلى إثارة اهتمام الأوروبيين بالحضارة العراقية القديمة، فأرسل ملك الدانمرك في عام ١٧٦١ م بعثة علمية إلى الشرق تكونت من خمسة أعضاء برئاسة كارستن نيبور Carsten Niebuhr، وتمكنت البعثة من نسخ نقوش جديدة من برسبوليس عام ١٧٧٨، ولاحظ أنها مكتوبة بثلاثة أشكال مختلفة من الكتابة المسمارية، واستنتج أن كل نقش يتناول موضوعا واحداً كرر ثلاث مرات ليمثل كتابة الأقسام الثلاثة الرئيسية في الأمبراطورية الفارسية وهي فارس وعيلام وبابل. وأثارت هذه النقوش اهتمام علماء اللغات فبذلوا جهودهم في محاولة تفسيرها، كما بعث الفضول في نفوس كل من يأتي إلى الشرق يحاول البحث والتنقيب في مناطقه الأثرية لجمع ما يمكن جمعه من آثار وينسخ ما يمكن نسخه من النقوش التي لا يمكن نقلها.

وبدأت أولى أعمال الحفائر المنظمة على يد الأب جوزيف دي بوشان Joseph de Beauchamp الممثل العام للبابا في بغداد في الفترة من ١٧٨٠ - ١٧٩٠ م، ولقد قام بزيارتين طويلتين لبابل. ونشرت تقاريره في عامي ١٧٨٥، و ١٧٩٠ وذلك في مجلة: Journal des Savants. وهي تعتبر من أنشط العوامل

(١) M A. Beek., op. cit., p. 19.

التي خلقت اهتماماً عاماً متزايداً بهذا الموضوع. (خريطة ٢)

وعلى ذلك، فعند نهاية القرن الثامن عشر، كانت هناك الكثير من النقوش المجلوبة من نينوي وبابل متاحة أمام الباحثين في أوروبا، وكانت هي الأساس الذي حاول العديد من الباحثين الاعتماد عليها في محاولاتهم لكشف أسرار الكتابة العراقية القديمة. وكانت الخطوة الحاسمة في فك رموز الكتابة المسمارية جزئياً في بداية القرن التاسع عشر وذلك في عام ١٨٠٢ على يد العالم الألماني جروتفند G.F. Grotefend.

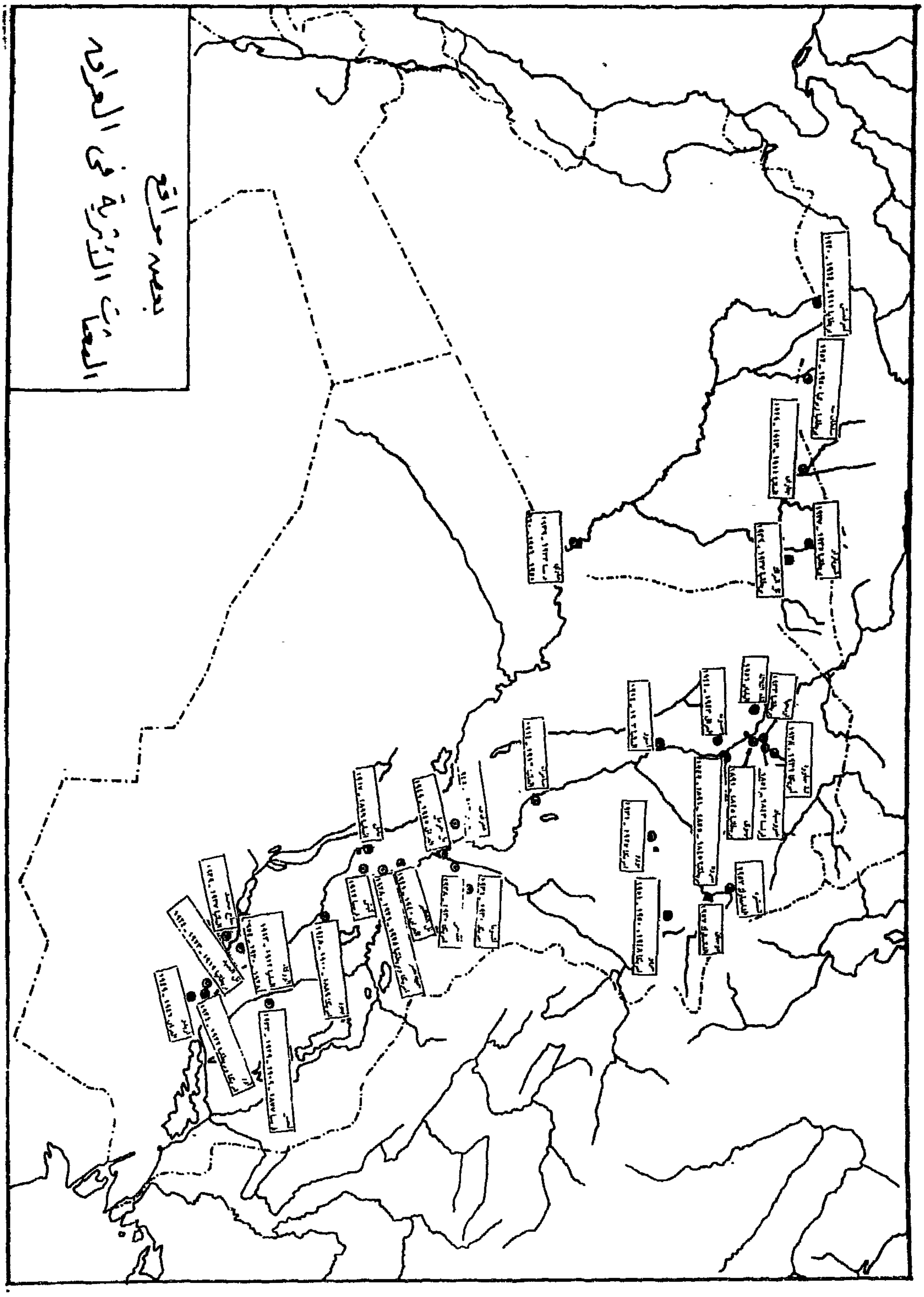
وفي عام ١٨١٠ م وصل بغداد البريطاني جيمس ريتش James Rich ممثلاً لشركة الهند الشرقية، وكان يتقن اللغات الشرقية العربية والتركية، ولقد بدأ بالعمل في الحفائر في بغداد ثم انتقل إلى نينوى ومنها إلى إيران حيث وافته المنية عام ١٨٢١ م(١) عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين، ولقد نشرت زوجته أعماله بعد وفاته وذلك في عام ١٨٢٥ م وهي تتميز بدقة المعلومات ووفرتها.

وأدى نشر هذه الأعمال إلى قيام العديد من الدول بمحاولة عمل حفائر في العراق، فأرسلت فرنسا بعثة في ديسمبر ١٨٤٢ م لأعمال التنقيب الأثري في شمال العراق وذلك برئاسة بول إميل بوتا Paul-Emile Botta القنصل الفرنسي في الموصل. وبدأ بوتا أعمال الحفائر في موقع نينوى القديمة، ويمكن القول أنه عندما بدأ بالحفر في هذا الموقع بدأ التاريخ الحقيقي للحفائر الأثرية في بلاد النهرين(٢) حيث لم يقم أحداً قبله بالحفر للكشف عن المدن المدفونة في تلال بلاد الرافدين، ولقد توجه لعمل حفائر في خورسباد.

وفي عام ١٨٤٥ م قامت البعثة الأنجليزية برئاسة اوستن هنري لايارد Austen Henry Layard الذي وصل في نهاية شهر نوفمبر وقام بالعمل في تل نمرود (كالح القديمة، حسبما وردت في التوراة، وفي الأشورية كالخو) ثم عاد

(١) Larousse, Encyclopedia of Archaeology, Translated from the French by Anne Ward, London, 1983, p. 168.

(٢) M.A. Beek, op. cit., p. 19.


بعض مواقع
اللقى الأثرية في العراق

إلى انجلترا عام ١٩٤٧ ثم عاد مرة أخرى عام ١٨٤٩ حيث استمر في العمل حتى عام ١٨٥١[١].

ولقد أدى ذلك إلى وجود منافسة بين الإنجليز والفرنسيين لإخراج الكنوز الأثرية للمتحف البريطاني ومتحف اللوفر، وكان ذلك بمثابة أعمال اصطياد للثروة أكثر منه بحثاً علمياً عن الآثار، ويضاف إلى ذلك أيضاً ضيق الوقت وعدم وجود دراسة علمية عن أصول الحفائر العلمية، فتم حفر الأنفاق والآبار بدون أي دراسة، وكان الهدف هو الوصول إلى القطع الأثرية القيمة بأسرع وقت ممكن. ونشب هذا الصراع حول موقع نينوى بين رولنسون H.C. Rawlinson ومساعده هورموزد رسام Hormuzd Rassam من ناحية وبين بول إميل بوتا من ناحية أخرى.

وفي خضم هذا الصراع الذي لم يراع فيه إطلاقاً وقار وجلال العلماء أو الباحثين كشفت حفائر الفرنسيين برئاسة بوتا في خورسباد عن قصر سرجون الثاني[٢] الذي يعد من أعظم المباني التي شيدها الآشوريون. بينما كشفت حفائر البعثة الإنجليزية برئاسة هورمزد رسام عام ١٨٥٤ م عن المكتبة الضخمة التي ألحقها الملك الأشوري أشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م) بقصره في العاصمة نينوى والتي ضمت ما يزيد عن العشرين ألف من الألواح الطينية التي جمعها من كافة أنحاء البلاد.

واستمر هذا التنافس الشاذ بين الإنجليز والفرنسيين في المجال الأثري وذلك حول موقع تللو Tello الذي يحوى آثار مدينة لجش. ولقد قام أرنست دو سارزيك Ernest de Sarzec نائب قنصل فرنسا في البصرة في هذا الوقت بعمل حفائر في هذه المنطقة بدون حصوله على تصريح وذلك بعد أن وجه أحد معارفه الملمين بأهمية هذه المنطقة اهتمامه إليها، فقام خلال عامي ١٨٧٧

(١) A.H, Layard, The Monuments of Nineveh, London, 1849 - 53.

(٢) P.E. Botta, Monuments de Nineve, mesures et dessines par E. Flandin, Paris, 1849 - 50.

و ١٨٧٨ م بمحاولة الحصول على أكبر كمية من الآثار المنحوتة، والنقوش وأن يرسلها إلى باريس حيث قام ببيعها إلى متحف اللوفر.

وأثناء غياب دو سارزيك de Sarzec قام الإنجليزي رسام Rassam أيضاً بسرقة البقايا الأثرية بدون حصوله هو الآخر على إذن بالحفائر، وأدى ذلك إلى نقل آثار لجش إلى العديد من أنحاء العالم.

ومع ذلك وبالرغم من كل المغامرات التي قام بها دو سارزيك de Sarzec وسرقته للآثار، فقد قام بخدمة علمية كبيرة، فلقد لفتت الآثار السومرية التي وصلت إلى متحف اللوفر اهتمام المؤرخين، وأصبح الأدب السومري في متناول علماء الآثار والمؤرخين.

وفي عام ١٨٧٧ م دخلت أمريكا ميدان البحث الأثري، حيث أرسلت بعثة أثرية برئاسة بيتيرس Peters. ولقد اختار موقع نيبور ليقوم بالعمل فيه، وكان اختياره ممتازاً لهذا الموقع. ومع ذلك فلم يكن لدى Peters ولا مساعده هلبرخت Hilpercht الكياسة المطلوبة للتعامل مع السكان المحليين. وعلى ذلك فلم يمض على عملهم أكثر من شهرين حتى قام الأعراب الموجودين في هذه المنطقة بإشعال النيران في معسكرهم وقاموا بنهبه، مما اضطر الأمريكان للرحيل. ومع ذلك فلم تثبط همة الأمريكان بسبب هذه البداية المخيبة للآمال، فعادوا مرة أخرى عام ١٨٩٠م لنفس الموقع واستمروا في العمل فيه فترة طويلة. ويرجع الفضل إليهم في الكشف عن آلاف اللوحات الأثرية، ومن بينها ما يقرب من ألفي نص سومري يتصل بالأدب وقام صموئيل نوح كريمر بنشرها(١). كما كشفوا عن زاقورة ومعبد للإله إنليل ومعبد للإلهة إنانا.

---

(١) قام صموئيل نوح كريمر بنشر هذه اللوحات في العديد من مؤلفاته ومنها، انظر:

S.N. Kramer, The Sumerians, Chicago and London, 1970;
——; «The Death of Gilgamesh», in ANET;
——; Sumerian Mythology, Philadephia, 1944;
——; Dilmun, The Land of living, in BASOR, 96, 1944;
——; The Indus Civilization and Dilmun, The Sumerian Paradise land expedition, Philadelphia, 1964.

وبالإضافة إلى هذه البعثات فلقد قام بالحفائر في العراق العديد من المكتشفين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونذكر منهم: ارنست بدج Ernest Budge، وليونارد كنج Leonard W. King، ر. كامبل تومبسون R. Campbell Thompson. ولقد قامت هذه البعثات بنقل التراث الحضاري للعراق القديم إلى متاحف باريس ولندن وبرلين وغيرها.

ومع بداية القرن العشرين تميزت الحفائر بالتقدم الكبير في استخدام الوسائل العلمية في الحفائر، فلم يصبح الحفر من أجل استخراج الكنوز الأثرية هو الهدف، فلقد حاول الأثاريون الكشف عن جدران المباني، وأخذوا يعيدون تصميم تخطيط المجموعات المعمارية التي كانت مشيدة من الآجر أو الطين. وقام بهذا العمل الألمان، حيث قامت البعثة الألمانية برئاسة روبرت كولدوي R. Koldewey بين عام ١٨٩٩ ـ ١٩١٧ بالعمل في موقع بابل حيث اكتشفت العديد من الآثار التي ترجع إلى العهد البابلي الحديث. وقام الألمان أيضاً بالعمل في موقع مدينة آشور في الفترة ما بين ١٩٠٣ ـ ١٩١٤ م وذلك بإشراف كل من كولدوي ووالتر أندريه W. Andrae وجوليوس جوردان J. Jordan ولقد ركزوا اهتماماتهم نحو الأبنية الأثرية وترميمها وإعادة تخطيطها. ويلاحظ أن أندريه قد تفوق على أستاذه كولدوي في أخذه بالأساليب العلمية في تعامله مع الآثار وكشفها. وأدت الحفائر المنظمة للعديد من التلال الأثرية إلى إمكانية تتبع تاريخ المدينة بالتفصيل منذ حوالى عام ٣٠٠٠ ق. م وحتى القرن الثالث الميلادي.

وفي ذلك الوقت تمكن الألماني ماكس فون أو بنهايم Baron Max Von Oppenheim من الكشف عن موقع تل حلف وذلك منذ عام ١٨٨٩، كما كشف أيضاً عن مدينة أخرى تبعد عن تل حلف بحوالى ٤٥ ميل وهي المدينة التي أطلق عليها الأشوريون سوپارتو وهي حالياً جبلة البيضا.

وخلال هذه الفترة التي تعتبر الفترة الذهبية لأعمال الحفائر بالنسبة للألمان، لم تترك البلدان الأخرى الميدان خالياً لهم، فعلى الجانب الغربي لنهر

الفـرات وبجـوار سكـة حـديـد بغـداد قـام الإنجليـز بعمـل حفـائـر فـي مـوقـع Carchemish قرقميش وذلك برئاسة كامبل تومبسون Campbell Thompson وليونارد وولى L. Woolley وذلك في الفترة من ١٩١١ ـ ١٩١٤ ثم استؤنفت مرة ثانية عام ١٩٢٠، ثم ما لبثت أن غادرت الموقع مرة أخرى نظراً للنزاع بين فرنسا وتركيا لتحديد الحدود بين تركيا وسوريا. ولقد أثبتت الأدلة الأثرية التي كشف عنها في هذا الموقع، أن هذه المدينة كانت ذات طبيعة استراتيجية مهمة، فهي كانت على الطريق الذي يربط ما بين فلسطين وبلاد النهرين منذ العصور الحجرية وحتى القرن السادس الميلادي.

وأثناء ذلك تمكنت البعثة الفرنسية برئاسة Henri de Genovillac من الكشف عن مدينة كيش، وهي في مجاورات بابل.

وبعد الحرب العالمية الأولى أخذ الإنجليز بزمام المبادرة في أعمال الحفائر فقام ليونارد وولي بالعمل في المقابر الملكية في أور، حيث تمكن من الكشف عنها خلال موسمي ١٩٢٧، ١٩٢٨ م. ونقلت نفائسها إلى المتحف البريطاني. وكشفت هذه البعثة أيضاً زاقورات ومعابد ونقوش.

وفي الفترة الواقعة ما بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٤ وصل عدد البعثات الأثرية التي تعمل في العراق إلى اثنتى عشرة بعثة، قامت بالعمل في العديد من المواقع مثل تل العبيد، كما استكملت بعثة إنجليزية أمريكية العمل في موقع كيش الذي بدأت العمل فيه البعثة الفرنسية.

وفـي عـام ١٩٣١ قـام متحـف بنسلفـانيـا بـالعمـل فـي مـوقـع تـل فـارا (شوروباك)، بينما ذهبت البعثات الفرنسية إلى موقع لارسا، وفي عام ١٩٣٣ تمكن اندريه بارو من الكشف عن مدينة ماري. واستمر العمل فيها حتى عام ١٩٣٩، ثم استؤنفت الحفائر مرة أخرى عام ١٩٥٠ لعدة مواسم، وعلى الرغم من أن ماري تقع خارج حدود العراق إلا أنها ترتبط بحضارة ما بين النهرين بقصرها وأرشيفها الملكي الذي يرجع إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وقامت بعثة أمريكية تابعة للمعهد الشرقي بجامعة شيكاغو برئاسة هنري فرانكفورت يعاونه عدد كبير من المساعدين بالعمل في منطقة وادي ديالي في الفترة من ١٩٣٠ وحتى ١٩٣٧، ولقد قاموا بالحفائر في تل أسمر، وخفاجى، وتل أجراب.

وقام ماللوان وزوجته بالعمل في موقع أربجيه عام ١٩٣٣ تحت رعاية المدرسة الإنجليزية للآثار في بلاد النهرين، حيث تمكن من الكشف عن آثار هامة في هذا الموقع.

ونظراً لعودة البعثات الأجنبية إلى بلادها خلال الحرب العالمية الثانية، فلقد ازداد عدد رجال الآثار العراقيين الذين قاموا بالعمل في تل المقير وتل حسونة بعد عام ١٩٤٠، ثم بعد ذلك في تل حرمل عام ١٩٤٥ وأريدو عام ١٩٤٦.

ومنذ عام ١٩٤٨ بدأت البعثات الأجنبية في العودة مرة أخرى للعمل في المواقع الأثرية التي كانوا يقومون بالحفائر فيها، فعادت البعثات الأمريكية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وذلك بالإضافة إلى بعثات من إيطاليا واليابان.

ولقد أدت أعمال هذه الحفائر التي ذكرنا نماذج لها في هذه العجالة إلى الكشف عن العديد من الأبنية الدينية والمدنية ومئات الألوف من الألواح الطينية التي أدت إلى الكشف عن تاريخ وحضارة بلاد النهرين في الميادين المتعددة، كما كشفت أيضاً عن الكثير من نماذج الفنون الصغرى كالحلى والتماثيل الصغيرة والأواني وأدوات الزينة وكذلك التماثيل الضخمة والنقوش والرسوم وغيرها من المقتنيات الأثرية التي تم اكتشافها وتوجد حالياً في الكثير من متاحف العالم.

الفصـل الثاني

مصادر تاريخ بلاد النهرين

يعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ بلاد النهرين على العديد من المصادر التي يأتي في مقدمتها المصادر الأثرية ثم المؤلفات اليونانية والرومانية يليها المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وما ورد في الكتب المقدسة. وستتناول فما يلي دراسة هذه المصادر بشيء من التفصيل، ونبدأ بالمصادر الأثرية:

أولاً: المصادر الأثرية

أدت أعمال الحفائر التي أجريت في العراق إلى الكشف عن مجموعات هائلة من الأثار المتنوعة ما بين آثار ثابتة كالمعابد والقصور والمنازل والزقورات وآثار متنقلة كالتماثيل وأدوات الزينة والأسلحة والأدوات المنزلية... وغيرها وكذلك الكشف عن مئات الآلاف من الألواح الطينية المتضمنة الكثير من التسجيلات التاريخية والفكرية والدينية والأدبية والقانونية إلى إماطة اللثام عن الكثير من الغموض الذي كان يكتنف تاريخ بلاد النهرين، فأصبح في متناول الباحثين المادة العلمية التي تمكنهم من تتبع المراحل التاريخية المتتالية لبلاد النهرين وكذلك التطور الحضاري في مظاهره المتعددة سواء كانت مادية أو فكرية.

وتشكل الآثار المادية من منحوتات وفخاريات ونقوش وبقايا مباني المادة الأساسية لدراسة مراحل عصور ما قبل الكتابة والتدوين، نظراً لعدم توصل الإنسان فيها إلى معرفة الكتابة، أما مع بداية عصور الأسرات فلقد أصبحت الوثائق والمدونات من الأدلة الهامة التي يعتمد عليها الدارسون. وقد دونت

النصوص المكتشفة في بلاد النهرين بالخط المسماري وباللغات السومرية والأكادية بلهجاتها المختلفة، كما أن هناك عدداً من النصوص كتب باللغة الحورية. وتزودنا المصادر المكتوبة بمعلومات تتصل بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والدينية والقانونية. وسنتناول فيما يلي بالدراسة بعض هذه الوثائق المتصلة بتأريخ بلاد النهرين في المجال السياسي وهو موضوع هذا المؤلف، أما المصادر الخاصة بالجوانب الاقتصادية والإدارية والاجتماعية والقانونية والفنية والفكرية فمجال دراستها يتصل بالتطور الحضاري لبلاد النهرين وهو موضوع دراسة أخرى.

ومن أهم المصادر في هذا المجال ما يعرف باسم قوائم الملوك، وكذلك ما سجله المؤرخ الوطني برجوشا والذي أطلق عليه اليونان بيروسوس. وتعد قوائم الملوك من المصادر الرئيسية التي يعتمد عليها المؤرخ في دراسته للتطور التاريخي لبلاد النهرين، ولقد حفظت لنا التركة الأثرية العراقية العديد من القوائم الملكية، سواء المتصلة بمدن سومر وحكامها أو بابل أو آشور وسنتناول فيما يلي دراسة لهذه القوائم وكذلك ما سجله المؤرخ الوطني برجوشا.

١ ــ قائمة الملوك السومرية:

تنتمي تلك الوثيقة من الناحية الزمنية إلى بداية الألف الثاني ق.م، ولكنها تتضمن مادة تاريخية ترجع بتاريخ العراق القديم إلى بداية العصر التاريخي بل إلى أقدم من ذلك. وتذكر قائمة الملوك السومرية أسماء المدن الأولى التي كانت قبل حادثة الطوفان والتي ترجع إلى العصور السابقة مباشرة للعصر التاريخي[١]. وهي تقدم لنا أسماء ثمانية من الحكام شبه الأسطوريين قبل

(١) رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الأول، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٤٦ ـ٢٤٩.

الطوفان وأسماء المدن التي ارتبطت أسماؤهم بها وحددتهم بخمسة مدن، ثم تعود بعد ذلك إلى ذكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد تلك الحادثة، وحتى نهاية أسرة ايسين حوالى عام ١٧٩٤ ق.م.

وتتسم المعلومات الموجودة فيها بأنها كان منظمة ومرتبة في شكل متناسق، حيث كان يكتب اسم المدينة والأسرة الحاكمة الموجودة بها، واسم الحاكم وسنوات الحكم وفي بعض الأحيان كانت تسجل ملاحظات مختصرة عن بعض الأحداث الهامة، أو تفاصيل عن بعض الاحتفالات الملكية، وكان هذا هو الاستطراد الوحيد في القوائم(١).

وتقدم القائمة معلومات أكثر واقعية عن قوائم الملوك بعد الطوفان، فهي تقدم صورة عن اتحاد ممالك المدن، التي شكلت واحدة منها سيادة كاملة على المدن الأخرى في وقت من الأوقات. ولقد تم تسجيل تسلسل السلالات وفق ذلك، وقد ارتبطت كل واحدة منها بإحدى المدن حيث كان الحكام يورثون السلطة لأبنائهم، وتحولوا بذلك من قادة إلى ملوك. وتحتوي قائمة الملوك أيضاً على معلومات تتعلق بالأنساب بالإضافة إلى بعض الوقائع التاريخية التي تشرح انتقال السلطة من مدينة إلى أخرى.

ولقد أدت قائمة الملوك السومرية إلى توضيح المفهوم العام لدى السومريين عن الأرض ووجودها، كما أنها تجسد للمرة الأولى فهرساً بأسماء المدن السومرية الرئيسية مثل سيبار وشوروباك وأور وكيش وأداب وماري واكشاك ولجش وايسين ولارسا، وذلك بالإضافة إلى مدن أخرى معلوماتنا عنها قليلة.

ويؤخذ على هذه القائمة أن الأزمنة الطويلة المحددة للمالك والحكام مبالغ فيها لدرجة كبيرة جداً تصل إلى حد الخيال، وسنذكر هنا ما ورد في هذه

(١) C.J. Gadd, «The Cities of Babylonia». in CAH., vol. I, part II, Cambridge, 1971, p. 106.

القائمة بشأن أسماء المدن والحكام وسنوات حكمهم في مرحلة ما قبل الطوفان حيث جاءت على النحو الآتي[١]:

المدينة	الحاكم	مدة الحكم
أريدو	١ ـ الوليم	٢٨,٨٠٠ سنة
بادتيبيرا	٢ ـ الإلجار	٣٦,٠٠٠ سنة
بادتيبيرا	٣ ـ انمينلو ـ آنا	٤٣,٢٠٠ سنة
	٤ ـ انمينجال ـ آنا	٢٨,٨٠٠ سنة
	٥ ـ لإله دوموزي، راعي	٣٦,٠٠٠ سنة
لاراك	٦ ـ السيبازي ـ آنا	٢٨,٨٠٠ سنة
سبار	٧ ـ أنميندور ـ آنا	٢١,٠٠٠ سنة
شارورباك	٨ ـ أوبار ـ توتو	١٨,٦٠٠ سنة

ومن ذلك نجد أن القائمة قد أوردت أسماء ثمانية ملوك حكموا لمدة ٢٤١,٢٠٠ سنة وهي مدة تظهر فيها المبالغة الواضحة. ولقد استمرت هذه المبالغة في تقدير سنوات الحكم في الأسرات الأولى التي حكمت بعد الطوفان، فنجد القائمة قد أعطت للأسرة الأولى في كيش مدة حكم بلغت ٢٤,٥١٠ سنة موزعة على ثلاثة وعشرين ملكاً أي أن مدة حكم كل ملك تعدت الألف عام، وتستمر المبالغة في الأسرة التي تليها في القائمة، وهي الأسرة الأولى في الوركاء، حيث أعطت لملوكها مدة حكم تصل إلى ٢,٣١٠ سنة موزعه على ١٢ ملكاً، أي بمتوسط حكم يصل إلى ١٩٢ سنة للملك الواحد، ثم تبدأ سنوات

(١) انظر: رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ وكذلك:

T. Jacobsen, The Sumerian King List, Assyrian Studies, II, University of Chicago, 1939.

الحكم في المعقولية بدءاً من الأسرة الأولى في أور والتي أعطتها القائمة مدة حكم تصل إلى ١٧٧ عاماً موزعة على أربعة ملوك.

كما يؤخذ على القائمة أيضاً، أنها افترضت وجود حاكم واحد للمدن المتعددة في وقت واحد، وكان هو الأساس الذي كتبت عليه القائمة، وهذا أمر بعيد جداً عن الحقيقة، وهو يبطل الوثيقة كلها كعمل تاريخي، حيث أنه من الثابت من مصادر تاريخية أخرى أن العديد من هؤلاء الحكام كانوا يتولون أمور الحكم في مدنهم المختلفة في وقت واحد، ولم يحرصوا على الدخول في منازعات مع بعضهم البعض من أجل الزعامة على باقي المدن.

ومن ناحية أخرى، نجد أن القائمة قد تجاهلت العديد من الحكام وبخاصة في العصر السومري المبكر، رغم العثور على الكثير من الآثار لهم والتي تشير إلى دورهم الكبير خلال هذه المرحلة(١).

كما أن هناك من يرى أن الكهنة الذي كتبوا هذه القائمة في ظل حكم أسرة أيسين قد تعمدوا إغفال بعض الملوك عن عمد وذلك لأغراض سياسية(٢).

وعلى أي حال، فإنه يمكن اعتبار القائمة كمصدر غير نهائي لتاريخ العراق في هذه المرحلة المبكرة، فهي مجرد سجل تمت استعادته وجمعه في وقت لاحق ونتيجة لمعلومات تقليدية.

٢ ـ قائمة ملوك لجش(٣) :

كشف حديثاً عن قائمة ملوك خاصة بحكام لجش، وقد تم نشرها عام ١٩٦٧ م وهي تعتبر من الوثائق المهمة في هذا المجال، ويلاحظ في هذه القائمة أنها لم تتضمن جميع حكام لجش المعروفين لنا. ويستدل من وجود هذه القائمة أنه كان لمدينة لجش كتبة قوائمها الخاصة بها والذين رفضوا تسجيلات

(١) C.J. Gadd, op. cit., p. 106.
(٢) E.A. Speiser, Introduction to Hurrian (Ann. A.S.O.R. 20), New Heaven, 1941, p. 46.
(٣) E. Sollberger, in Journal of Cuneiform Studies, vol. 21 (1961), p. 279 FF.

كتبة كهنة أيسين الذين كتبوا قائمة الملوك السومرية المعروفة لنا.

٣ ـ القوائم والحوليات الأشورية:

كان الملوك الأشوريون منذ الألف الثالثة قبل الميلاد يدونون مخطوطات نذرية يعبرون فيها عن ورعهم وتقواهم تجاه الآلهة، وتضمنت هذه المخطوطات ثلاثة عناصر رئيسية، أولاً: اسم الملك وألقابه وطبيعة علاقته بالآلهة، وثانياً: ذكر الأحداث التي حدثت في ذلك الوقت، وثالثاً: الإشارة إلى العمل المقدم للآلهة وعادة ما كانت أعمال معمارية.

ومنذ حوالى عام ١٣٠٠ ق.م بدأ الملوك الأشوريون يسهبون في وصف أعمالهم العسكرية، ثم تطورت الكتابة فأصبحت لا تشير فقط إلى الأعمال التي حدثت أثناء تشييد النذر، بل امتدت لتصف أعمال الملك منذ بداية عهده وحتى تاريخ الكتابة، وسجلت هذه التفاصيل إما حسب المناطق الجغرافية للأحداث أو حسب السنوات. وظهر الترتيب الأخير الذي يسجل الأحداث حسب السنوات وهو الذي يطلق عليه «الحوليات» في عهد الملك تجلات بلاسر الأول (١١١٥ ـ ١٠٧٧ ق.م).

وسجلت هذه المخطوطات إما على اسطوانات أو لوحات وكانت تدفن في أساسات المباني التي توصف في المخطوطة عملية بنائها، أو كانت تسجل على لوحات مجسمة توضع على طول جدران القصور، ونقش بعضها الآخر على التماثيل الحجرية للأسود والثيران التي تقف حراساً على الأبواب، ويوجد نوع آخر من هذه النقوش وهو النصب الملكية التي كانت تقام على التخوم تخليداً لذكرى الانتصارات الآشورية، ولقد أصبحت بعض هذه النصب مقتصرة على وصف أعمال الملك وتعديد مآثره[1].

(١) هنري ساغس: جبروت آشور الذي كان، ترجمة د. آحو يوسف، دمشق، ١٩٩٥، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٦.

وبالإضافة إلى هذه التسجيلات ذات الأهمية التاريخية، وصلنا من آشور أيضاً العديد من القوائم الملكية والتي تضمنت تسجيلاً للملوك وسنوات حكمهم وأهم أعمالهم وتفاوتت هذه القوائم فيما بينها حسب طبيعة المعلومات المقدمة ومدى الإسهاب أو الاختصار وكذلك دقة المعلومات. ومن هذه القوائم: قوائم الـ «ليمو»، قائمة الملوك الأشورية، والحوليات الملكية، وسنتناولها بقليل من التفصيل فيما يلي: ـ

أ ــ قوائم الـ «ليمو»:

تنتسب هذه القوائم إلى حملة اللقب «ليمو» Limmu وهو الذي ترجم أحياناً بـ «اللقب eponym». وكان هذا اللقب يطلق على المسؤول الذي يترأس إقامة المراسيم الحكومية في مدينة آشور. وكان الملك والمسؤولون الكبار في الدولة يتقلدون منصب الـ «ليمو» بالدور: كل واحد لمدة سنة واحدة، وكان يتقدمهم الملك في أول سنة من عهده ويتلوه الآخرون حسب الترتيب الذي كان يحدد في البداية عن طريق القرعة ثم أصبح فيما بعد حسب المكانة. فكانت السنة تعرف رسمياً باسم القائم بمهمام الـ «ليمو» حينها. وهكذا كانت قوائم الـ «ليمو» تتضمن تسلسل السنوات.

وتضمنت بعض قوائم الـ «ليمو» أسماء بعض المسؤولين فقط، بينما قدم البعض الآخر الأسماء بالإضافة إلى المناطق التي كان الأشخاص المعنيون ولاة فيها وبعض المعلومات الأخرى كتولي أحد الملوك العرش أو القيام بحملة عسكرية أو حدث آخر مهم ومن هذه الإشارات ذات الدلالة الهامة جداً من الناحية التاريخية ما ورد في إحدى هذه القوائم وأشار إلى حدوث كسوف للشمس في شهر «سيوان» الذي يقابل شهر يونيو، وتمكن علماء الفلك من تحديد هذه السنة وهي عام ٧٦٣ ق.م. وهكذا من التأكد الدقيق من هذه السنة أمكن تأريخ السنوات التالية لهذا العام في قوائم الـ «ليمو» والتي تبلغ ٢٥٤ سنة

متتالية، ولقد أدى هذا إلى أن أصبح تعاقب الأحداث الأشورية خلال هذه الفترة دقيقاً، وزودتنا هذه القوائم بمعلومات تاريخية هامة عن هذه المرحلة من التاريخ الأشوري[١].

وفي هذه القوائم، لا يتعدى الخطأ في التأريخ أكثر من عام واحد، وعلى ذلك فإن هذه القوائم تكون واحدة من أفضل المصادر الموثوق في صحتها من ناحية التقويم الزمني، ولقد كان كتبة هذه القوائم يرسمون خطوطاً يميزون بها فترات الـ «ليمو» وفي بعض الحالات كانوا يضعون السنوات الإجمالية للفترة التاريخية. ويشير ذلك إلى أن معظم قوائم الـ «ليمو» استخدمت أيضاً كقوائم ملكية. ومن المحتمل جداً أن قوائم الملوك الأشورية، هي في الواقع قوائم الـ «ليمو»[٢]. ولقد حفظت قوائم الملوك الأشورية الكثير مما ورد في قوائم الـ «ليمو» والتي ترجع إلى ما قبل القرن الحادي عشر ق.م، نظراً لأنه لم يصل إلينا إلا القليل جداً من هذه القوائم قبل هذا التاريخ، حيث فقدت ولم يتبق منها سوى قطعة واحدة صغيرة ولكن قوائم الملوك الأشورية الي اعتمدت عليها تمكنت من حفظ محتوياتها التاريخية وبخاصة التتابع الزمني الخاص بها[٣].

ب ــ قوائم الملوك الأشورية[٤]:

وصلت إلينا من العهد الأشوري ثلاث قوائم ملكية رئيسية، ويلاحظ أن هذه القوائم تعتمد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ على قوائم الـ «ليمو» ويلاحظ في هذه القوائم أنها ناقصة أو مدمرة في الفترة الانتقالية ما بين الملك شمش أداد الأول

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٢) انظر: A.Poebel, «The Assyrian King List from Khorsabad» in JNES, vol. II (1943), p. 56 FF.
M.B. Rowton, «Mesopotamian Chronology and the Era of Menophres» in Iraq, vol. 8 (1946), p. 98 FF.

(٣) M.B. Rowton, «Chronology, Ancient Western Asia»., in CAH., vol. I, part I, Cambridge, 1970, pp. 194 - 195.

(٤) انظر: I.J. Gelb, «Two Assyrian King Lists» in JNES., 13 (1954), p. 209 FF.,
E. Nassaouhi, «Grande lsite des rois d'Assyrie». in Arch. C.Or., 4, (1927). p. 1 ff.

والملك أداس (بداية الألف الثاني قبل الميلاد). كما يوجد أيضاً تدمير كبير في قوائم الملوك عند عهود الملوك الواقعة ما بين عهد الملك أريشوم الأول (حوالى ٢٠٨٧ - ٢٠٦٧ ق.م. تقريباً) وشمش أداد الأول. وقبل الملك أريشوم الأول لا توجد أسماء، ويعني ذلك أن قائمة الملوك ليست مصدراً موثوقاً فيه فيما يتصل بالفترة السابقة لبداية أسرة أداس.

وأقدم معلومات يمكن إثبات صحتها تبدأ من تولي الملك أشور أو بلط الأول العرش (حوالى عام ١٣٨٠ - ١٣٤١ ق.م) وبمقارنة أحداث هذا الملك مع الأحداث التاريخية في كل من مصر وحاتي يتبين صحة هذا التأريخ، مع الأخذ في الاعتبار أن الاختلاف في عدة أعوام أمر لا يعتد به في هذاالتأريخ البعيد.

ويوجد أيضاً قوائم ملكية من نوع خاص جداً، وهي القوائم الملكية المتزامنة، وفي هذه القوائم كان يوضع الملوك الأشوريون في عمود يقابلهم في العمود الثاني الملوك البابليين[1]. ولكن معظم هذه القوائم قليل الأهمية في التقويم المقارن، ولكن من أفضل ما حفظه لنا هو النظام الذي اتبع في كتابتها والذي أراد كاتبها أن يوضح أنه يقصد عقد مقارنة زمنية حقيقية بين الملوك الأشوريين والبابليين.

ويستحق هذا المصدر الكثير من الاهتمام على الرغم من وجود العديد من الأخطاء فيه التي يمكن إثباتها اعتماداً على المصادر الأخرى[2].

وبالإضافة إلى هذه القوائم، فلقد اهتم ملوك آشور العظام بتسجيل أعمالهم على الكتل الحجرية وجدران الحجرات، وكان كل ملك يبدأ منذ توليه العزش في كتابة حولياته، وكان يضيف إليها الفترة الزمنية السابقة. ويتضح من الدراسة المقارنة للعديد من الحوليات الملكية أنها اهتمت بوصف أعمال الملوك، وفي بعض الأحيان تميز هذا الوصف بالكثير من المبالغات مما يقرب

(١) S. Smith, The Early History of Assyria, London, 1928, p. 349 ff.
(٢) M.B. Rowton, op. cit., pp. 195 - 196.

هذه الأعمال من الأساطير.

ومن أفضل حوليات ملوك آشور من الناحية التاريخية، حوليات الملك آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م) الذي تميز بحبه للقراءة والاطلاع ولقد كشف عن مكتبته الضخمة التي تحتوي أكثر من ٢٠,٠٠٠ لوح. وتتميز حولياته بعباراتها الموجزة البليغة، وتعتبر من أفضل ما أنتجه الأشوريون من ناحية الكتابة التاريخية[١].

٤ ـ قوائم الملوك البابلية:

إن قائمة الملوك البابلية الرئيسية هي القائمة A والتي ترجع إلى نهاية العصر البابلي الحديث وهي تغطي الفترة من الأسرة البابلية الأولى وحتى موت الملك كاندالانو في عام ٦٢٦ ق.م[٢]. ولقد دمرت هذه القائمة بشكل سيء من أطرافها مما أدى إلى فقدان الأسرة الأولى بأكملها فيما عدا إجمالي حكمها، كما توجد فجوة كبيرة في الأسرة الكاشية، وفجوة أخرى في الأسرة التي تليها. ومع الملوك الأخيرين لا نجد اهتماماً بهم.

ويتضح من دراسة القائمة A أنها وثيقة موثوق بها في دراسة هذه الفترة، ولقد أمكن تكملة الفجوات الموجودة بها من قائمتين أخرتين للملوك، فلقد أعطتنا قائمة الملوك B عهود ملوك الأسرة البابلية الأولى، ولقد نسخت هذه القائمة من مصدر قديم كان فيه بعض المحو للأرقام. وسجلت هذه القائمة أيضاً أسرة القطر البحري ولكن بدون إعطاء أعداد لسنوات حكمها.

وتعطينا قائمة الملوك C أسماء الملوك السبعة الأوائل للأسرة الرابعة الذين جاءوا بعد الكاشيين، ويبدو من توقفها عند الملك السابع أنها قد كتبت عند نهاية عهده ولم تتعهداه.

---

(١) James T. Shotwell, The Story of Ancient History, New York, 1961, p. 93 - 94.

(٢) انظر: F. Schmidtke, Der Aufbau der Babylonischen Chronologie (Orbis Antiquus, Heft 7), Munster, 1952, p. 77 ff.

وتوجد ثلاثة قوائم ملكية تغطي الفترة الواقعة ما بين أسرة أور الثالثة وظهور حمورابي، ونسخت اثنتان منها في أكثر من نسخة. ولقد ضمت قائمة الملوك السومرية أيضاً آخر أسرتين وهما أسرة أور الثالثة وأسرة آيسين، وتوجد العديد من النسخ التي تحتوي معلومات عن هاتين الأسرتين. وتوجد أيضاً قائمة لأسرة لارسا، كتبت في عهد سامسو إيلونا[١].

٥ ـ المؤرخ الوطني برجوشا:

أطلق عليه اليونان التسمية «بيروسوس Berossos». ويتضح من اسمه أنه من أصل آرامي. عاش في عهد أنطيوخوس الأول الذي حكم في الفترة من ٢٨١ ـ ٢٦١ ق.م وهو يعتبر المؤرخ الوطني الرئيسي للعصر المتأخر من التاريخ البابلي، حيث وضع كتاباً عن تاريخ بابل بعنوان «Babyloniaca» وقسمه إلى ثلاثة أقسام، تحدث في القسم الأول وعنوانه «الحكمة» عن الأساطير البابلية، وفي الثاني عن تاريخ بلاد النهرين منذ خلق الكون وحتى عهد الملك الأشوري تجلات بلاسر الثالث، وفي الثالث عن تاريخ بلاد النهرين حتى وفاة الإسكندر المقدوني. وساعده في كتابة هذا المؤلف الضخم معرفته باللغات المحلية بالإضافة إلى اللغة اليونانية التي كتب مؤلفه بها، ومكنته طبيعة علمه ككاهن في معبد الإله مردوك إله مدينة بابل من الاستفادة من المؤلفات الموجودة في أرشيف المعبد. ولكن للأسف ضاع هذا العمل ولم يبق منه سوى بعض الاقتباسات التي نقلها عنه من جاء بعده مثل فلافيوس يوسيفوس وأفريكانوس ويوسيبيوس[٢] وتتصل معظم هذه الاقتباسات بعلم الفلك البابلي. كما وصلتنا أيضاً روايته عن قصة الطوفان البابلي.

وبالإضافة إلى قوائم وحوليات الملوك، فإن الدارس لتاريخ العراق القديم يعتمد في دراسته على اللوحات المتضمنة معلومات تاريخية والتي كشف عن

(١) M.B. Rowton, op. cit., pp. 198 - 200.

(٢) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٢٠.

الكثير منها في المواقع العراقية في السنوات الأخيرة، وتم ترجمة الكثير منها بفضل توصل العلماء إلى فك رموز الكتابة العراقية القديمة.

ثانياً: كتابات المؤرخين اليونان والرومان

قام العديد من المؤرخين والجغرافيين اليونان والرومان بزيارة بلاد النهرين وكتبوا عنها في مؤلفاتهم التي كتبوها، ورغم أهمية هذا المصدر وبخاصة في الفترة التي عاصرها هؤلاء المؤرخون، حيث قاموا بوصف أحداث شاهدوها بأنفسهم، كما تضمنت كتاباتهم كثيراً من النصوص لمؤرخين محليين فقدت أصولها ولم نعرف عنها إلا ما ورد في هذه الكتابات إلا أنه يؤخذ عليه العديد من المآخذ ومنها روح التعصب التي عرفت عن الغربيين وحضارتهم وإظهارها وكأنها أرقى من غيرها، وعلى ذلك فلقد اهتموا بإبراز نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية، ومنها أيضاً اهتمامهم بالأساطير والروايات المنقولة، كما كان لجهلهم بلغات البلاد التي زاروها أثره في عدم إدراكهم لعمق حضارة هذه البلاد، فاعتمدوا على الروايات التي ذكرها لهم الكهنة ومن يجيدون اللغة اليونانية، وكان معظم هؤلاء غير ملم بتاريخ بلاده، فتركز اهتمامهم على ذكر القصص والأساطير حتى يثيروا اهتمام سامعيهم. ومن ناحية أخرى فلقد تأثرت هذه الكتابات بطبيعة العلاقات السياسية الموجودة بين بلاد اليونان وبين البلاد التي يقومون بزيارتها.

ومن أهم هؤلاء المؤرخين والجغرافيين الذين زاروا بلاد الرافدين وكتبوا عنها في مؤلفاتهم، نذكر:

١ ــ هيكاتيوس المليتي Hecataeus of Miletus :

ولد في بداية النصف الثاني من القرن السادس ق.م في مدينة ميليتوس بآسيا الصغرى. ولقد أطلق عليه لقب «أبو الجغرافيا» وذلك لأنه يعتبر أحد

مؤسسي علم الجغرافيا. زار معظم الأقطار التي كانت خاضعة للفرس فزار آسيا الصغرى وسوريا والعراق وفارس وأيضاً مصر. وكان حريصاً في رحلاته على جمع الحقائق الجغرافية الخاصة بهذه البلاد، وكذلك أيضاً بعض المعلومات التاريخية، ونشر هذه المعلومات في كتابة «خريطة العالم».

ومن أهم ما تضمنه كتابه من الناحية التاريخية أنه قدم قائمة لتتابع حكام آشور على العرش(١)، وتعتبر هذه القائمة التي أوردها هيكاتيوس من أولى الأعمال في هذا المجال بالنسبة للمؤرخين اليونان والرومان.

٢ ــ هيرودوت: Herodotus

ولد هيرودوت في هاليكار ناسوس في بداية القرن الخامس ق.م. ولا يمكن تحديد تاريخ مولده بالضبط. ومات في ثورى في جنوب إيطاليا عام ٤٢٠ ق.م(٢). ولقد ترك مقر مولده قبل عام ٤٥٤ ق.م. واتجه إلى ساموس حيث قضى بها بعض الوقت، ثم اتجه منها إلى أثينا ولقد سافر هيرودوت إلى العديد من البلاد ومنها مصر وفينيقيا وبابل. ويعتبر بعض الباحثين أن رحلته إلى مصر وبابل كانت من أهم رحلاته على الإطلاق(٣)، وتمت هذه الرحلات في المرحلة الأخيرة من حياته.

ولقد تحدث في كتابه الأول عن بابل وذلك في الفصول من ١٧٧ ـ ٢٠٠ ولكن يلاحظ أن المعلومات التي أوردها عن بابل تفتقر إلى الموضوعية والدقة وتتصف بالسطحية وكثرة الأخطاء، ويرجع ذلك إلى جهله بلغة البلاد واعتماده في كتابته على روايات غير موثوق بها سمعها من التراجمة الذين كانوا يحاولون إضفاء الإثارة على كلامهم بذكر أشياء خيالية وإضفاء الكثير من المبالغة على الأحداث التي يروونها.

(١) J.B. Bury, The Ancient Greek Historian, New York, 1958, p. 12.
(٢) B. Radice, Who's who in the Ancient World, London, 1971, p. 66.
(٣) J.B. Bury, op. cit., p. 37.

٣ ـــ أكسينفون: Xenophon (٤٢٩ ـ ٣٥٤ ق. م تقريباً)[١]:

من المؤرخين اليونان القلائل جداً الذين حفظت لنا أعمالهم. ومن أفضل أعماله مؤلفه الذي عنوانه[٢] Anabasis والذي يفيد معنى «الصعود» أو «حمله إلى الداخل» وهو يعتبر سيرة ذاتية، وهو يصور مغامرات عشرة آلاف جندي مرتزقة يونان من أجل الحياة تحت قيادته، إذ كان هؤلاء الجنود المرتزقة يحاربون في صفوف كوروش الصغير ضد أخيه أرتكسركسيس الثانـي وقد منيت الحملة بالهزيمة بعد مقتل كوروش وعاد المرتزقة اليونان إلى بلادهم حيث واجهوا الكثير من المصاعب والأخطار وكانوا تحت قيادة أكسينفون.

ويصف أكسينفون رحلة الحملة وهي تسير بمحاذاة الفرات باتجاه الجنوب وهو في ذلك يتحدث بشكل مختصر عن الزراعة في هذه المنطقة وكيفية استغلال المياه وسحبها في قنوات من نهر دجلة، وهو يصف أيضاً أطلال المدن المندثرة في شمال بلاد الرافدين.

٤ ـــ ديودور الصقلي: Diodorus Siculus (حوالى ٨٠ ـ ٣٠ ق. م):

ألف ديودور الصقلي مجلداً في التاريخ العام، أو في التاريخ العالمي تحت عنوان «المكتبة التاريخية» Bibliotheke. وتناول فيه تاريخ العالم منذ العصور الأسطورية وحتى عام ٦٠/٥٩ ق. م وهي سنة الاتفاق الثلاثي الأول بين بومبي وقيصر وكراسوس التي تعتبر نقطة تحول في تاريخ الجمهورية.

ويتكون هذا المجلد من ٤٠ كتاباً، لم يصلنا كاملة منها سوى الكتب ١ ـ ٥، ١١ ـ ٢٠ وشذرات من بقية الكتب ٢١ ـ ٤٠. ولقد خصص كتبه الثلاث الأولى لدراسة الأقطار غير اليونانية وهي مصر وبلاد النهرين والهند وسيكثيا

(١) W.Miller, in Xenophon Cyropaedia, vol. 1, London, 1960, p. VII - XIII.

(٢) Xenophon, Anabasis, Books I-III, with an English translation by C.L. Brawnson, London, 1961.

وبلاد العرب وأثيوبيا وشمال إفريقيا[١].

٥ ـ سترابو: Strabo (حوالى ٦٣ ق.م ـ ٢١ ق.م):

ولد في أماسيا في أقليم بونتوس على البحر الأسود، وكان شديد الثراء مما مكنه من التنقل إلى مناطق عديدة من العالم. وتتميز كتاباته بأنها نوع من الجغرافية التاريخية ولقد قسم مؤلفه إلى سبعة عشر جزءاً وزع عليها أقاليم العالم. ولقد تحدث عن بلاد النهرين، حيث وصف استغلال المياه في الزراعة وكيفية سحبها في قنوات إلى الأراضي الزراعية. ولقد تحدث عن بابل في كتابه الخامس عشر والسادس عشر[٢].

٦ ـ بلينيوس الأكبر Plinius Secundus (٢٣ ـ ٧٩ م):

كانَ بلينيوس مقرباً من الأمبراطور فسبسيان، وقد عين قائداً لبعض وحدات الأسطول. وتميز بكونه عالماً موسوعياً، تناول في مؤلفاته العلوم العسكرية والتاريخ والتعليم واللغة، ولم يبق لنا من مؤلفاته البالغ عددها ١٠٢ مؤلفاً سوى موسوعة التاريخ الطبيعي Naturalis Historia التي تقع في سبعة وثلاثين كتاباً وتبحث في علوم كالجغرافيا والأجناس والسلالات البشرية ووظائف الأعضاء وعلوم الحيوان والنبات والصيدلة والمعادن النفيسة، وتحتوي الموسوعة على ٢٠,٠٠٠ مادة مستقاة من مؤلفين يونان ورومان.

ولقد تعرض في دراسته للأجناس والسلالات البشرية في بلاد النهرين[٣].

---

(١) عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، بيروت، ١٩٧٠، ص ٦٠.

(٢) H.L. Jones, in The Geography of Strabo, vol VII, London, 1961.

(٣) عبد اللطيف أحمد علي: المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.

ثالثاً: المصادر الأجنبية المعاصرة

تعتبر المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم، من المصادر الهامة لدراسة تاريخ العراق القديم، حيث كان للدول والأمبراطوريات التي ظهرت في بلاد النهرين علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية مع بلدان الشرق القديم المعاصرة لها. وعلى ذلك فإن الباحث يعتمد على المصادر المعاصرة في إيران[1] لمعرفة طبيعة العلاقات بين البلدين وذلك من النواحي السياسية والحضارية، وكذلك تشير المصادر المصرية وبخاصة نصوص العمارنة[2] إلى الكثير من أوجه العلاقات بين مصر وبلاد النهرين خلال عصر الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية. كما كشفت نصوص الإلاخ ونصوص إبلا الكثير من أوجه العلاقات ومظاهر الحياة في بلاد النهرين. ويعتمد الباحث أيضاً على النصوص الفينيقية والحيثية وكذلك النصوص العربية القديمة في الجزيرة العربية، والنصوص العبرانية.

كل هذه المصادر من الأهمية بمكان لدى الباحث حتى يستطيع أن يتعرف بشكل دقيق على طبيعة العلاقات بين بلاد النهرين وهذه البلاد، ويستطيع أيضاً من خلال الدراسة المقارنة للنصوص أن يستوضح ويتعرف إلى الكثير من الحقائق التاريخية التي لا يمكن جلاؤها إلا بدراسة مقارنة للنصوص التي كشف عنها في بلاد النهرين، وتلك التي كشف عنها في مناطق الشرق القديم والمعاصرة للأحداث التي يتم الحديث عنها.

---

(١) انظر على سبيل المثال:

G.B. Gray, «The Foundation and Extension of Persion Empire», in CAH., vol. IV, «The Persian Empire and the West», Cambridge, 1964.

(٢) S.A.B. Mercer, The Tell-El-Amarna Tablets, I-II, Toronto, 1939.

رابعاً: المصادر الدينية

لا ريب في أنه يمكن للمؤرخ أن يعتمد على ما جاء في الكتب المقدسة وبخاصة التوراة والقرآن الكريم، حيث جاء فيهما الكثير من القصص الديني الذي يتصل بطريقة أو بأخرى بتاريخ بلاد النهرين وحضارتها. وسنتناول بشيء من الإيجاز دراسة هذا المصدر، ونبدأ بالتوراة.

أ ــ التوراة:

التوراة كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية) والتي تنسب إلى موسى عليه السلام، وهي جزء من «العهد القديم» والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم «التوراة» من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى عليه السلام(١).

ولقد تحدثت التوراة في العديد من أسفارها عن الكثير من الأحداث التاريخية التي جرت في بلاد النهرين، إلا أنه يلاحظ أن كثيراً من المعلومات الواردة فيها منقولة عن مصادر أقدم بقرون عديدة، وتتصف هذه الأخبار بالإيجاز أحياناً وبالبعد عن التحليل وذكر الأسباب الحقيقية أحياناً أخرى، لذلك لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر تاريخي موثوق دون إخضاعها للنقد التاريخي والعلمي، ومقارنة الأخبار الواردة فيها مع ما تذكره المصادر الأساسية في بلاد النهرين.

ب ــ القرآن الكريم:

القرآن الكريم كتاب الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ

---

(١) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل، الجزء الثالث، الإسكندرية، ١٩٧٩.

حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[١] وتعهد الله سبحانه بحفظه وصيانته فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٢].

والقرآن الكريم كمصدر تاريخي، إنما هو أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق فهو موثوق السند، ولا سبيل إلى الشك في صحة نصه بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل.

ويقدم لنا القرآن الكريم ـ عن طريق القصص القرآني ـ معلومات هامة وصحيحة تماماً عن عصور ما قبل الإسلام وأخبار دولها أيدتها الكشوف الحديثة كل التأييد. وبالنسبة لبلاد النهرين، فلقد ورد في القرآن الكريم الكثير من المعلومات عن هذه البلاد وأحوال أهلها ومعتقداتهم الفكرية، ومن ذلك ما يتصل بقصة نوح عليه السلام وما ورد في القرآن الكريم ويتصل بالطوفان، وكذلك دعوة إبراهيم عليه السلام والأحوال الفكرية في عهده[٣].

---

(١) سورة فصلت، آية: ٤٢.

(٢) سورة الحجر، آية: ٩.

(٣) انظر محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جـ ٤، في العراق، بيروت، ١٩٨٨م.

الفصل الثالث

عصور ما قبل التدوين والكتابة

تعرض العراق لتغيرات جيولوجية خلال العهود الجيولوجية المتعاقبة فخلال العهد الجيولوجي الثاني الذي يطلق عليه Cenosoic والذي يرجع تاريخه إلى ما يقرب من ٣٠ مليون سنة غمرت أرض العراق بمياه البحر، وخلال العهد الجيولوجي الثالث الذي يطلق عليه Tertiary والذي يمتد من ٣٠ ـ ٥ مليون سنة تقلصت القشرة الأرضية، ونتيجة لتغير القشرة الأرضية ظهرت مرتفعات شاهقة الارتفاع. وخلال العصور الجيولوجية التالية (الأيوسين والميوسين والبلايوتيين) حدثت تطورات جيولوجية ومناخية كبيرة في هذه المنطقة نتج عنها ظهور مرتفعات تمتد من الشمال الشرقي للعراق إلى الجنوب والجنوب الغربي. وفي نهاية عصر البلايستوسين وبداية عصر الجفاف ظهرت مرتفعات جديدة في العراق على الحدود الشرقية جنوب جبل حمرين وعلى الحدود الغربية من جبل سنام، وأخذ البحر في الانحسار فظهرت جزر قرب مصبي نهر الكرخا ونهر كارون ووادي البطين والوديان الغربية الأخرى.

وأدى الجفاف إلى تجفيف هذه الجزر التي أخذت أرضياتها تمتلىء تدريجياً بالترسيبات الغرينية الوافدة إليها من مياه الأنهار، مما أدى إلى ظهور أراضي واسعة غنية بالرواسب الطينية في جنوب العراق وجنوبه الشرقي منذ العصر الحجري القديم.

ولقد بدأ الإنسان حياته الأولى جامعاً للطعام وذلك منذ حوالى نصف مليون سنة على الأقل، واتصل الإنسان خلال هذه المرحلة بمختلف مظاهر الحياة المحيطة به من نباتية وحيوانية [illegible] وحاول التغلب والتكيف مع الصعوبات التي واجهها. واعتمد الإنسان في حياته على الصيد والجمع

والالتقاط، ومن ثم فقد كان كثير التنقل والترحال، وكان يحرص في تنقلاته أن يكون بجوار مصادر المياه. وعلى ذلك فلقد اتجه العلماء في بحثهم عن آثار الإنسان خلال هذه المرحلة إلى مناطق الصحارى والهضاب التي كانت مطيرة خلال هذه المرحلة، وكذلك وديان الأنهار والشواطيء والمدرجات المؤدية إلى المنخفضات والواحات والعيون والآبار وغيرها.

ونظراً لأن الدراسات العلمية لهذه الآثار بدأت في أوروبا فلقد أطلق العلماء على العصور الحضارية المنتمية لهذه المرحلة أسماء أماكن أوروبية وبخاصة فرنسية. وقام العلماء بتصنيف المادة الأثرية حسب التقاليد الصناعية المتبعة في تشكيلها وكميتها ووظيفتها[1].

وسنقوم فيما يلي بدراسة للعصور الحجرية في العراق القديم ونبدأ بالعصر الحجري القديم.

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٠٠.

١ـ العصر الحجري القديم

عثر على آثار العصر الحجري القديم في شمال العراق، أما القسم الجنوبي فإن الوصول إلى مخلفات هذا العصر هو أمر بالغ الصعوبة وذلك نظراً لأن هذا القسم كان مغطى بالمياه.

ويقسم العصر الحجري القديم إلى ثلاث مراحل حضارية رئيسية على النحو الآتي:

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل.
ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط.
جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى.

• واعتمد العلماء في هذا التقسيم على تطور الأدوات الحجرية التي استخدمها الإنسان خلال هذه المراحل، فلقد كان الحجر هو المادة الرئيسية التي اتجه الإنسان إلى استخدامها لصنع أدواته المختلفة، فلقد أدرك الإنسان منذ هذه العصور المبكرة أهمية الحجر وبصفة خاصة حجر الظران الذي يتميز بتوافره بسهولة في البيئة، كما أنه حجر وحيد التركيب يسهل قطعه إلى شظايا تؤدي وظيفة القطع مما يساعد الإنسان على تحقيق أغراضه المختلفة. واستخدم الإنسان هذه الأدوات الحجرية في كافة مظاهر حياته السلمية والدفاعية. ويلاحظ أنه لم يقتصر على استخدام الأحجار فقط بل استخدم المواد الأخرى المتوافرة في بيئته من أخشاب وعظام وغيرها[1].

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٠١.

وسنتناول دراسة هذه المراحل بشيء من التفصيل فيما يلي:

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل:

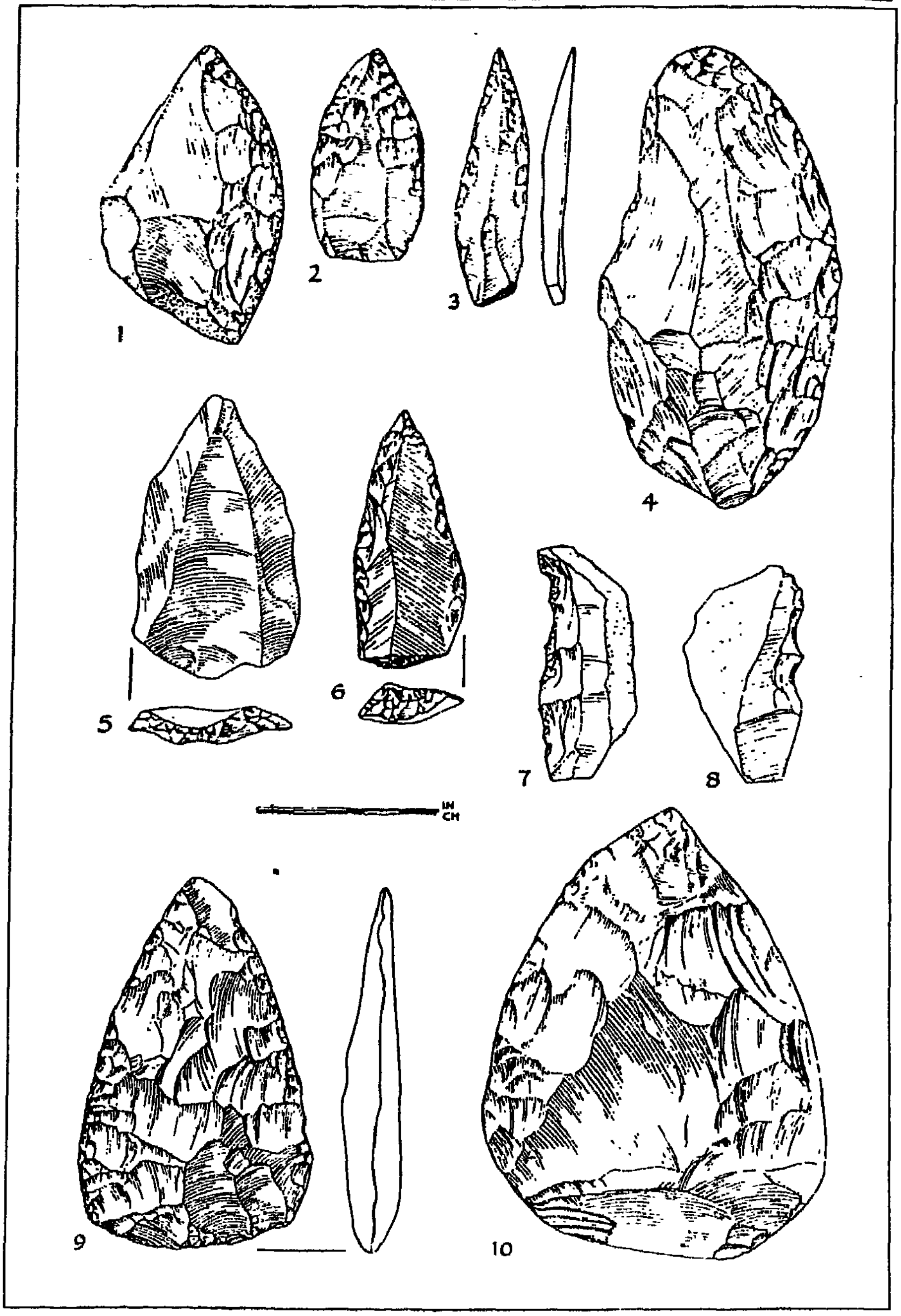
بدأ الإنسان خلال هذه المرحلة المبكرة من حياته في صناعة أولى مبتكراته الإنسانية وظهر هذا الجهد الإنساني الأول في مجال صنع حضارته في صناعة الفأس اليدوي Hand axe أو Coup de Point الذي يعتبر الإنتاج الحضاري المميز لهذه الفترة. (شكل ١)

وتتشابه الصفات العامة المميزة لهذه الحضارة في عدد كبير من جهات العالم مما يجعل استخدام الاصطلاح الدولي لها ممكناً، فلقد اصطلح العلماء الأوروبيون على تسمية هذه المرحلة باسم الحضارتين الأبفيلية والأشولية وذلك نسبة إلى الأماكن التي عثر على أثار فيها ترجع إلى هذه المرحلة في أوروبا. وبالنسبة للحضارة الأبفيلية فهي تنسب إلى موقع في مدرج لنهر السوم، وكانت تسمى قبل ذلك بالحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة Chelles على نهر المارن، ولكن نظراً لأن الموقع الشيلي وجدت به آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والأشولية فقد تركت هذه التسمية وأستعيض عنها باسم الأبفيلية(١). أما الحضارة الأشولية فهي تنسب إلى منطقة سميت باسم القديس أشول عند نهر السوم بفرنسا.

ولقد عثر على آثار هذه المرحلة في العراق في مناطق محدودة تنحصر في سفوح التلال والمنحدرات الوسطى لجبال زاجروس حيث كشف في موقع بردة بلكة(٢) عن أثار هذه المرحلة.

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٤.

(٢) H.E. Wright, and B Howe, «Soundings at Barda Balka» in Sumer, 7, (1951), p. 107 ff.



شكل (١) الفؤوس اليدوية

وتقع بردة بلكة في لواء كركوك على هضبة منبسطة على مقربة من شمال شرق جمجال. ولقد تمكنت بعثة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو من الكشف عن أدوات حجرية أهمها فأس يدوية على هيئة كمثرى كانت غالباً ما تستخدم في صيد الحيوانات، ويبلغ طولها حوالى عشرة سنتميرات، وهي تشبه الأدوات الحجرية التي عثر عليها في سانت آشل بفرنسا والتي أصبحت نموذجاً عالمياً لما اصطلح على تسميته بالعصر الحجري القديم الأسفل، وهي تمثل أقدم ما استخدمه الإنسان من أدوات حجرية في العراق القديم، ويوجد بالمتحف العراقي في الغرفة الأولى منه نماذج كثيرة من هذه الأداة. ولقد ضم هذا الموقع أيضاً أدوات حجرية ترجع إلى العصور التالية مثل المكاشط والسكاكين وغيرها[١].

ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط:

يتميز الإنتاج الحضاري لهذه المرحلة التي تعرف بالنسبة للحضارات الأوروبية بالحضارة الموستيرية نسبة إلى كهف موستييه بفرنسا بصناعة أدوات حجرية مشتقة من الفؤوس اليدوية وهي الشظايا، وتتميز هذه الأدوات الحجرية بصغر حجمها وتنوع أشكالها، وقد صنعها الإنسان بفصلها عن النواة الأصلية لكي تؤدي وظيفة القطع التي أحتاج إليها. (شكل ٢)

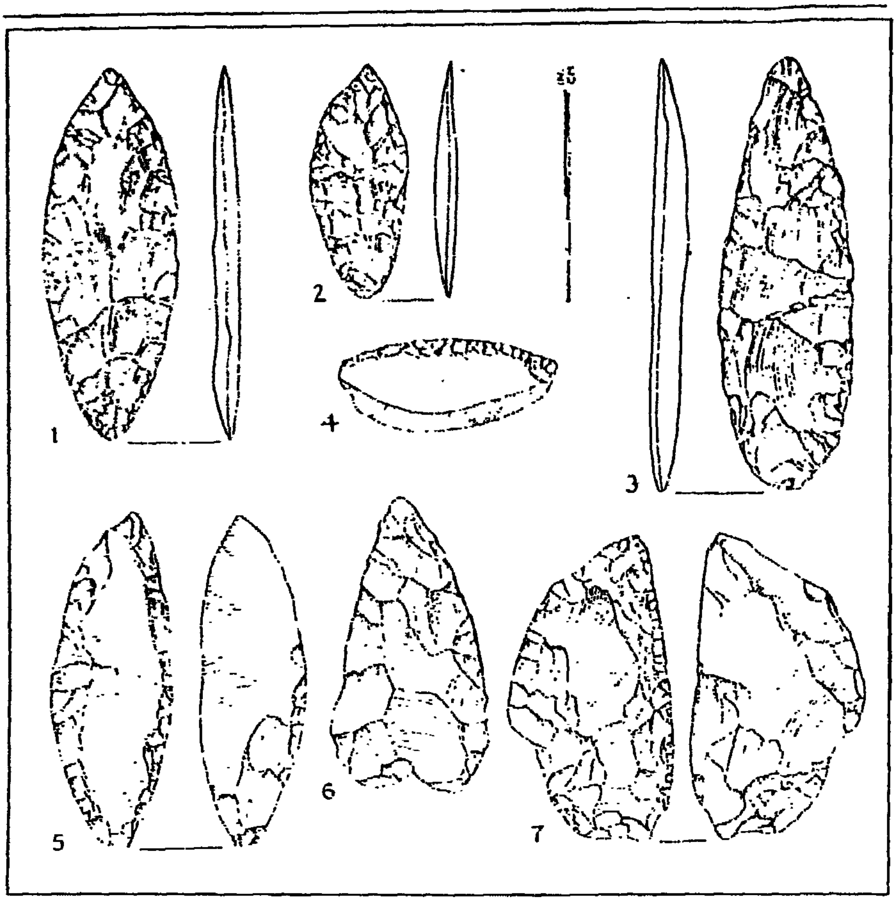
ومن الناحية الاقتصادية فلقد ظل الإنسان خلال هذه المرحلة جامعاً للطعام متنقلاً من مكان لآخر بحثاً عن مصادر رزقه من حيوانات أو نباتات.

وقد عثر على المخلفات الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة في عدد من المواقع التي تقع في شمال شرق العراق. ومن هذه المواقع، كهف هزارمرد[٢]، وهو يقع على ارتفاع نحو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر في السفح الشرقي من جبل برنادند الذي يشرف على سهل سنجار على بعد حوالى ثمانية كيلومترات

---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) D.A.E. Garrod, «The Palaeolithic of Southern Kurdistan» in Bull. A.S.P.R., 6, (1930), p. 13 ff.



شكـل (٢) الشظايا الحجرية

من قرية هزار مرد ويبلغ عمق الكهف حوالى ٣٠ متراً ويتراوح عرضه بين ١١ ، ١٢ متراً، أما ارتفاعه فيبدأ من خمسة أمتار عند المدخل.

وتنقسم طبقات الكهف إلى ثلاثة أقسام، وعثر على آثار العصر الحجري القديم الأوسط أسفل المخلفات الأثرية لهذا الكهف ويتراوح سمك طبقتها بين ٥٠ سم عند المدخل و ٣٩٠ سم عند الوسط، وعثر في هذه الطبقة على شظايا من الصوان كالمكاشط والقاطعات والمثاقب والسكاكين، وهي تشبه الأدوات

الموستيرية التي تؤرخ من ٥٠,٠٠٠ سنة إلى ٣٠,٠٠٠ سنة.

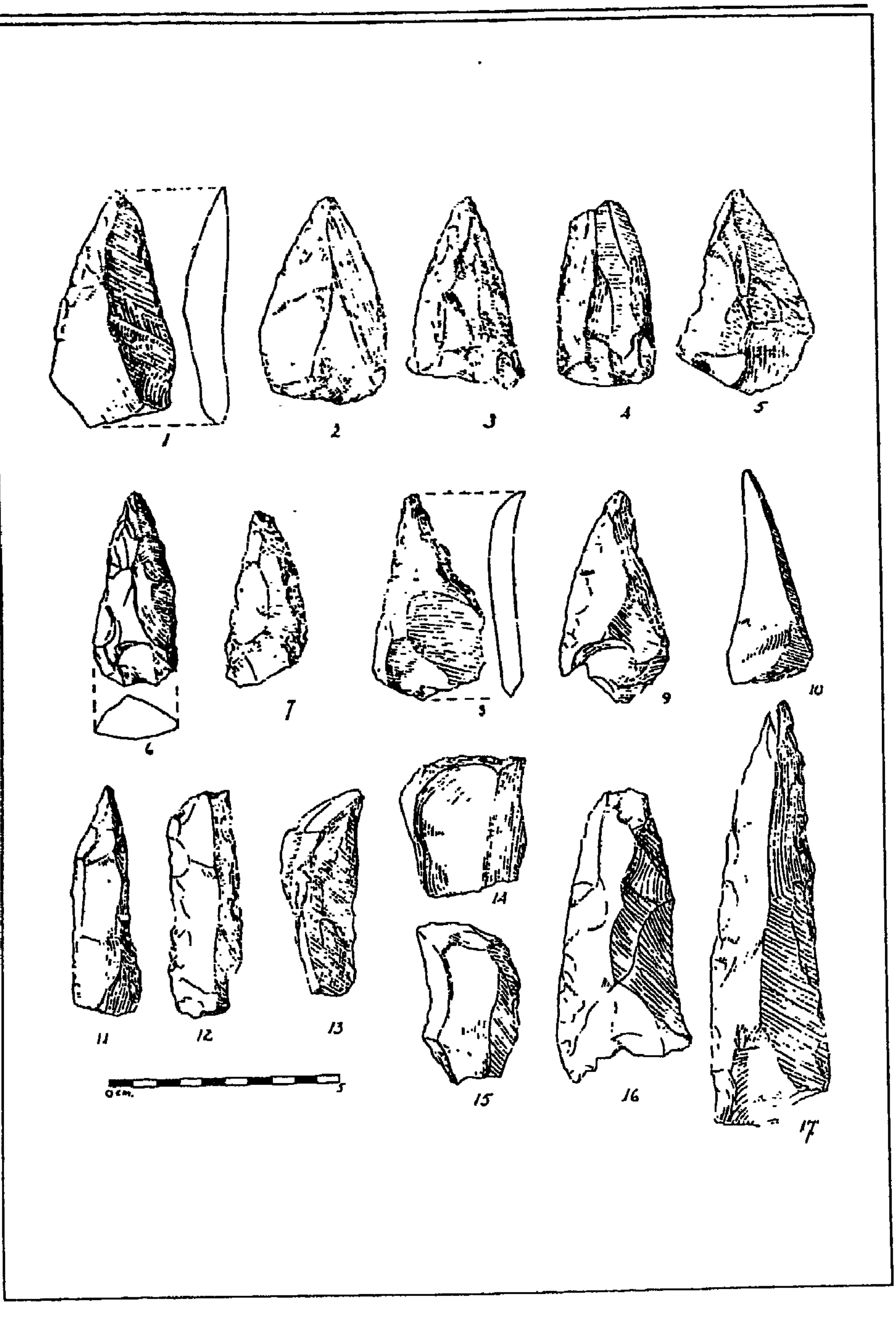
ومن المواقع الهامة التي ترجع إلى هذه المرحلة أيضاً كهف شانيدار(١) وهو يقع على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر في السفح الجنوبي لجبال زاجروس على بعد قريب من قرية شانيدار بلواء أربيل ويبعد عن نهر الزاب الكبير بحوالى ميل، ويبلغ ارتفاع مدخل الكهف ثمانية أمتار وعرضه خمسة وعشرين متراً، وعمقه أربعين متراً، وعرضه من الداخل ٥٣ متراً، وارتفاع سقفه حوالى ١٤ متراً.

وقامت بالعمل في هذا الموقع جامعة ميتشجان عام ١٩٥١ م. وأسفرت عمليات الكشف الأثري لطبقات الكهف عن تحديد أربع طبقات أثرية أعطيت الأحرف ABCD. ويلاحظ وجود بعض الاضطراب في الطبقة C ناتج عن كميات ضخمة من الصخور والأحجار الناتجة عن الحفائر. وتتميز هذه الطبقات عن بعضها في إنتاجها الحضاري وتحتوي أعلى هذه الطبقات وهي الطبقة A على أواني فخارية وبعض المخلفات الأثرية التي ترجع إلى العصور التاريخية وكذلك أيضاً أثار ترجع إلى الفترة السابقة للعصر التاريخي، ويوجد أسفلها أثار ترجع إلى العصر الحجري الحديث. أما الطبقة B فتحتوي على أثار ترجع إلى العصر الحجري الوسيط. وتحتوي الطبقة C على أدوات حجرية تشبه أدوات العصر الحجري القديم الأعلى، أما الطبقة D فهي تحتوي على أدوات حجرية ترجع إلى العصر الحجري القديم الأوسط.

وعثر في الطبقة D على أدوات مصنوعة من حجر الصوان وهي عبارة عن فؤوس يدوية وسكاكين ومكاشط. (شكل ٣) وعثر فيها على عظام حيوانات وأثار لمخلفات استخدام النار وبعض الهياكل العظمية الإنسانية، بينها هيكل عظمي لطفل عثر عليه على عمق ٢٦ قدم من سطح الكهف(٢).

(١) يطلق عليه في اللغة الكردية التسمية شقافة مازين شانيدار وهي تعني كهف شايندار الكبير.

(٢) R.S. Solecki, «A Paleolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq. Report on a Sounding at Shaindar Cave», in Sumer, vol. 8 no. 2 (1952), p. 127 ff., vol. 11, 1955, p. 14 ff.



شكل (٣) شظايا من كهف شانيدار

جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى:

تمثل هذه المرحلة نهاية العصر الحجري القديم، ولقد تبلورت فيها تجارب الإنسان الطويلة وخبراته خلال المراحل السابقة، وتتميز هذه المرحلة بظهور صناعة حجرية جديدة هي صناعة الأسلحة النصلية، وهي عبارة عن أدوات حجرية دقيقة وحادة تمكن الإنسان من صنعها بصورة تفوق دقة عن مجهوداته السابقة، وهي تعرف باسم «الأسلحة الميكروليثية» أي الحجرية الدقيقة أو الأسلحة القزمية.

ومن المواقع التي عثر فيها على مخلفات أثرية ترجع إلى هذه المرحلة كهف زرزي Zarzi، وهو كهف صغير يبلغ طوله حوالى ثمانية أمتار وارتفاعه ٢,٢٥ متراً، وهو يقع غربي سرداش التي تبغد خمسين كيلومتراً من شمال غربي السليمانية، وتنقسم طبقات هذا الكهف إلى ثلاث طبقات ABC وبالنسبة للطبقة A فيبلغ سمكها خمسين سنتيمترا، وبقاياها الأثرية متأخرة، والطبقة B ويكثر فيها الأدوات الصوانية وهي التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى، أما الطبقة C فهي قليلة المخلفات الأثرية(١).

وتتميز الأدوات الحجرية التي كشف عنها في كهف زرزي بتفوق ملحوظ في تقنية الصناعة ووفرة الأدوات التي عثر عليها وتنوعها، فهي تتضمن الأزاميل والنصال المسننة ورؤوس السهام، ويلاحظ أن بعض هذه الأدوات تتميز بصغر حجمها وتتضمن بعض الأسلحة القزمية مما يرجح أن هذا الإنتاج الحضاري يمثل المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم الأعلى. ولقد أثبت استخدام طريقة الراديو ـ كربون في التقويم الزمني أن المخلفات الأثرية لموقع زرزي أقدم من المخلفات الأثرية المنتمية إلى الحضارة التطوفية(٢).

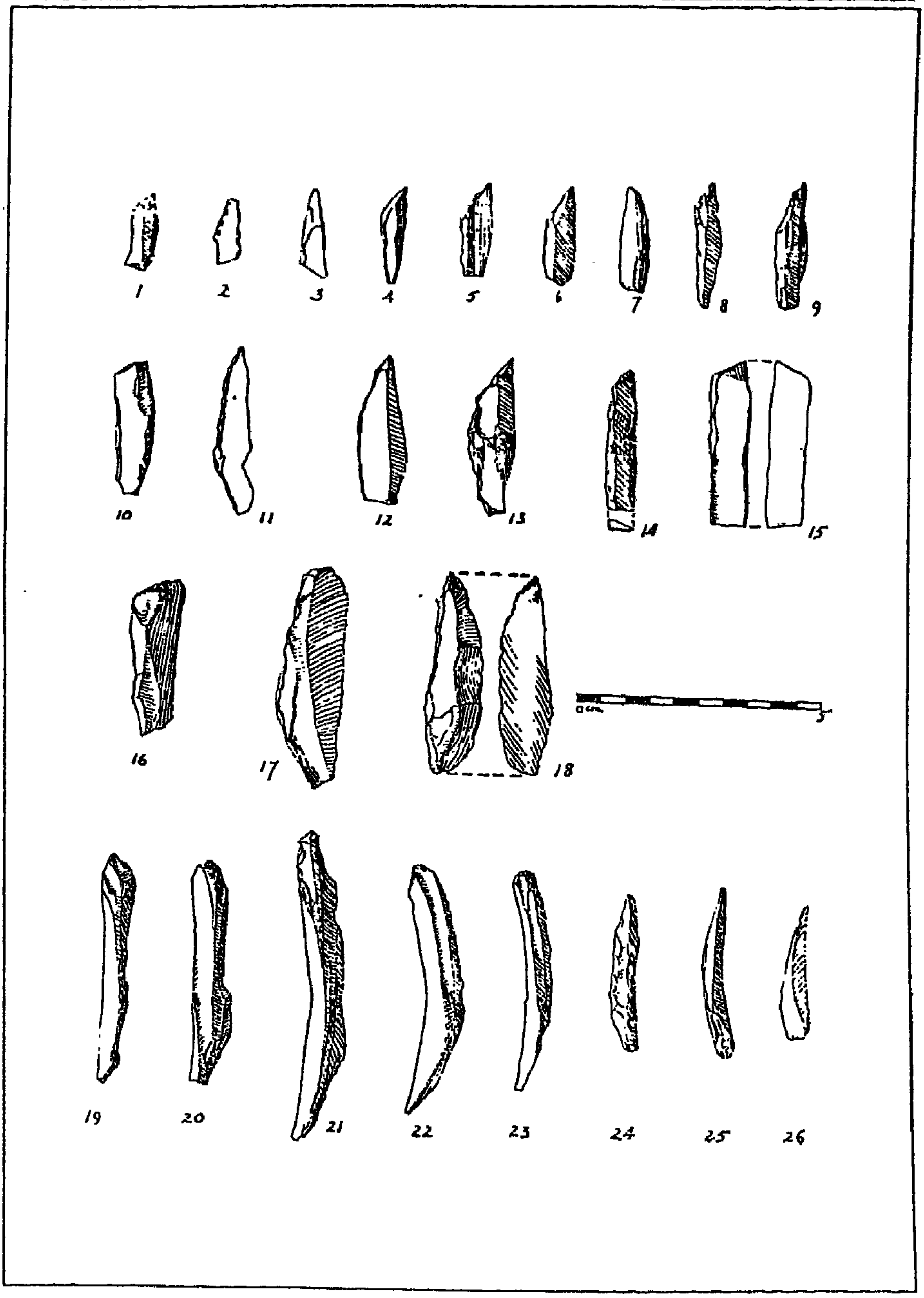
وتحتوي الطبقة C في كهف شانيدار على الأدوات الحجرية التي ترجع

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) D.A.E. Garrod, op. cit., p. 89.

إلى هذه المرحلة. (شكل ٤) وعثر في هذه الطبقة أيضاً على عظام حيوانية[١].
وتؤرخ هذه المرحلة بحوالي ٢٩,٠٠٠ سنة ± ١٥٠٠ أو ٢٦,٥٠٠ ± ١٥٠٠ سنة[٢].

(١) R.S. Solecki, op. cit., vol. 8, no. 2, p. 140 - 141.
(٢) D.A.E. Garrod, op. cit., p. 87.



شكـل (٤) أدوات قزمية من كهف شانيدار

٢ ـ العصر الحجري المتوسط

انتقل الإنسان من مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى إلى مرحلة العصر الحجري الحديث عبر مرحلة انتقالية تمكن الإنسان خلالها من التوصل إلى المقومات الحضارية الأساسية لمرحلته الجديدة التالية (وهي العصر الحجري الحديث) التي تعتبر نقلة هامة في التاريخ الإنساني فاحترف الإنسان الزراعة واستقر في قرى حيث نمت الحياة الاجتماعية بنظمها السياسية والإدارية وتطورت أساليب الحياة والمعتقدات الفكرية ونمت الفنون والصناعات وتطورت بإيقاع سريع ومنتظم.

ويطلق العلماء على هذه المرحلة الانتقالية التسمية Mesolithic التي تعني العصر الحجري المتوسط وهو يمتد من الناحية الزمنية من حوالى عام ١٠,٠٠٠ إلى ٧٠٠٠ ق.م. ويتميز الإنتاج الحضاري فيه بكثرة ظهور الأسلحة القزمية، ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الإنسان قد مارس خلال هذه المرحلة حرفة الرعي. وقرب نهايته بدأت في الظهور بعض مظاهر الإنتاج الحضاري المتصلة بالزراعة مثل المناجل والأجران، كما أخذ الإنسان في بناء بعض الأكواخ البيضاوية من أغصان الأشجار، وتشكيل بعض التماثيل التي تعبر عن الأمومة. ويلاحظ أن هذا الإنتاج الحضاري لم يرق في مفهومه تماماً من النواحي المادية والفكرية إلى إنتاج العصر الحجري الحديث، إذ يلاحظ أن الإنسان خلال هذه المرحلة لم يحترف العمل الزراعي بشكل كامل إذ افتقرت مواقعه الأثرية إلى وجود بقايا الحبوب التي تعبر عن احتراف العمل الزراعي، مما قد يرجح أن الأدوات الزراعية التي عثر عليها من هذه المرحلة قد استخدمت في زراعة برية

غير مستقرة، كما لا تعبر أيضاً المواد الهشة التي صنعت منها المنازل عن استقرار كامل بجوار الأرض(١).

ويحاول العلماء البحث عن كيفية حدوث هذه النقلة الخطيرة في حياة الإنسان من مرحلة الجمع والالتقاط والصيد وعدم الاستقرار إلى مرحلة الزراعة وإنشاء القرى وبداية التنظيمات المستقرة. ونظراً لغياب الأدلة الأثرية الكافية الدالة على حدوث هذه النقلة فلقد اتجه الباحثون إلى العديد من الفروض التي قد تؤدي إلى هذه النقلة، ومن هذه الفروض الاعتقاد بأن العامل البيئي كان بمثابة العامل الأول الذي دفع الإنسان إلى إحداث تلك النقلة، فنظراً لاضطرار الإنسان إلى الاتجاه إلى مناطق الأودية والآبار والعيون والواحات ـ وذلك بعد تراجع العصر المطير ـ حيث يستطيع الاستقراربصورة مؤقتة.

ولمس الإنسان في هذه البيئة الجديدة بعض الظواهر التي استلفتت انتباهه وخاصة بعد إطالته نسبياً الاستقرار المؤقت فيها بعد تجواله الطويل في المناطق الجافة. وتنحصر تلك الظواهر في ازدياد منسوب المياه في بعض الأوقات وتهديدها للإنسان الساكن بجوارها، ثم انحسار تلك المناسيب مرة أخرى، ولاحظ تكرار هذه الظاهرة كل عام. ولاحظ الإنسان بزوغ الحياة الزراعية البرية على الشواطيء المطلة على هذه الأودية والعيون والواحات، حيث تنبثق الحياة الزراعية البرية كنتيجة طبيعة لتوافر الثروة الغرينية والمائية بصورة تلقائية وشبه منتظمة ومتصلة بظاهرة مجيء هذه القوى المائية وانحسارها بعد ذلك في أوقات معينة من السنة مما كان له أثره في خلق الوعي التجريبي الكافي لمحاولة تقليد الطبيعة واستئناس الزراعة ونقل حياته من الجمع إلى الإنتاج. ومثل هذا التفسير في حاجة إلى تدعيم بالأدلة الأثرية رغم منطقية إمكانية حدوثه(٢).

(١) محمد عبد اللطيف: تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث ق.م، الإسكندرية ١٩٧٧، ص ٢٧ ـ ٢٨.

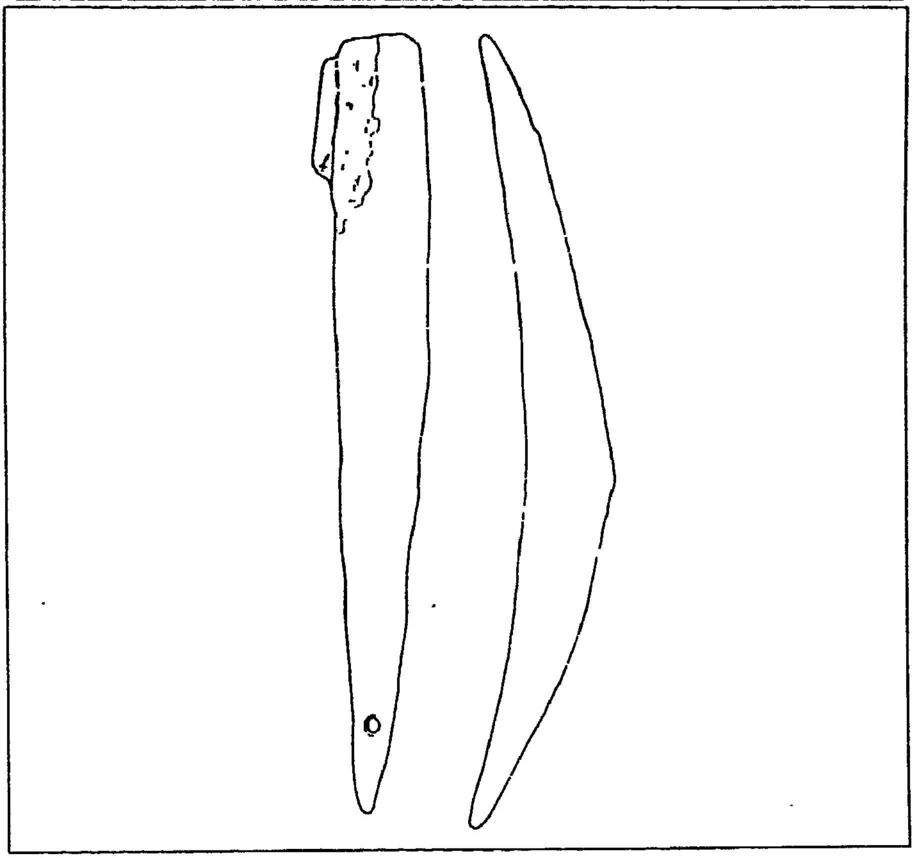
(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

وعثر على الإنتاج الحضاري الخاص بمرحلة العصر الحجري المتوسط في العديد من المواقع العراقية، ومن هذه المواقع، موقع زاوي شيمي Zawi Chemi[(١)] الذي يبعد عن كهف شانيدار بحوالى أربعة كيلومترات، وتقع قرية زاوي شيمي في منطقة سهلة مكشوفة تحيط بها المرتفعات، وتشغل مساحة محدودة للغاية، إذ لا يتجاوز امتدادها ٢٧٥×٢١٥ متراً. وربما كانت منطقة استقرار فصلية يمضي فيها السكان فترة الصيف، ثم ينتقلون في فصل الشتاء إلى كهف شانيدار المجاور الذي كان يشكل لهم ملجأ أفضل أثناء الطقس الشتوي العاصف.

وتعد قرية زاوي شيمي من أقدم مناطق الاستقرار في العراق القديم، إذ يعود تاريخها ـ اعتماداً على الكربون ١٤ ـ إلى أواخر الألف العاشر ق.م أو بداية الألف التاسع ق.م أي حوالى عام ٩٢٠٠ ق.م أو ٨٩٠٠ ق.م. ويعبر إنتاجها الحضاري عن المحاولات الأولى في التوصل للعمل الزراعي وتجهيز الطعام واستئناس الحيوان، وهي المحاولات التي مهدت للمرحلة التالية في العصر الحجري الحديث.

ووجد في قرية زاوي شيمي نماذج من بيوت سكنية بيضاوية ودائرية مصنوعة من الحجارة ومزودة بالمواقد. ولقد كان لهذه البيوت أو الأكواخ طبقات فوقية مصنوعة من الطين والقضب والحصير، وكشف في أرضية البيوت على بعض عظام الحيوانات المستأنسة مما يشير إلى أن الإنسان خلال هذه المرحلة قد اعتمد على صيد واستئناس الحيوانات في غذائه ومن هذه الحيوانات الماعز والأغنام والغزلان والوعول. ورغم العثور في هذا الموقع على بعض الأدوات الخاصة بالزراعة وتجهيز الطعام كالأجران والمطاحن، كما عثر على منجل يبلغ طوله أكثر من ثماني بوصات (شكل ٥)، إلا أنه يحتمل أن إنسان هذه القرية كان لا يزال يعتمد في غذائه على النباتات البرية.

(١) R.S. Solecki, «Zawi Chemi Shanidar, a post-pleistocene village site in Nothern Iraq» in report of the VI th Intern-Congress on quaternary vol. IV, Warsaw, 1961, p. 405.



شكـل (٥) منجل حجري من كهف شانيدار

ومن الأشياء اللافتة للنظر خلال هذه المرحلة، أن المخلفات الأثرية لهذا الموقع تشير إلى وجود صلات بينه وبين المناطق العراقية الأخرى البعيدة عنه، فلقد جلب إنسان هذا الموقع الزجاج البركاني من الشمال، كما استورد القار لتثبيت النصال بالمقابض من مناطق تقع إلى الجنوب منه بحوالى مائة ميل[1].

(١) جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دمشق، ١٩٩٠، ص ٢٧.

ويعتبر موقع كريم شاهر **Karim Shahr** من المواقع الهامة التي ترجع إلى هذه المرحلة، ويقع هذا الموقع في لواء كركوك على بعد كيلومترين في أعلى مجرى مائي تقع عليه جرمو، وقد قامت بعثة أمريكية برئاسة بريدوود بالتنقيب في مساحة نحو ٥٥٠ متراً[١]، وانتهت إلى أن الإنسان الذي عاش في هذا الموقع قديماً سكن كهوفاً وقرى كانت الأكواخ فيها مشيدة من الطين.

وعثر في هذا الموقع على أدوات حجرية كالمعاول والمجارش، وجزء من منجل مصنوع من الصوان، وتشير هذه المخلفات على بداية قيام الإنسان بحصاد الحبوب وجرشها، وقد يشير ذلك إلى بداية استخدام الزراعة.

وكشف في هذا الموقع على بعض الأحجار النفيسة والكماليات مثل الخرز والقلائد المصنوعة من أنواع مختلفة من الحجارة كحجر الستاتيت وحجر البازلت الأخضر وحجر الجير والرخام، بالإضافة إلى العقود المزخرفة المصنوعة من الأردواز والأقراط الحجرية والأساور[٢] (شكل ٦).

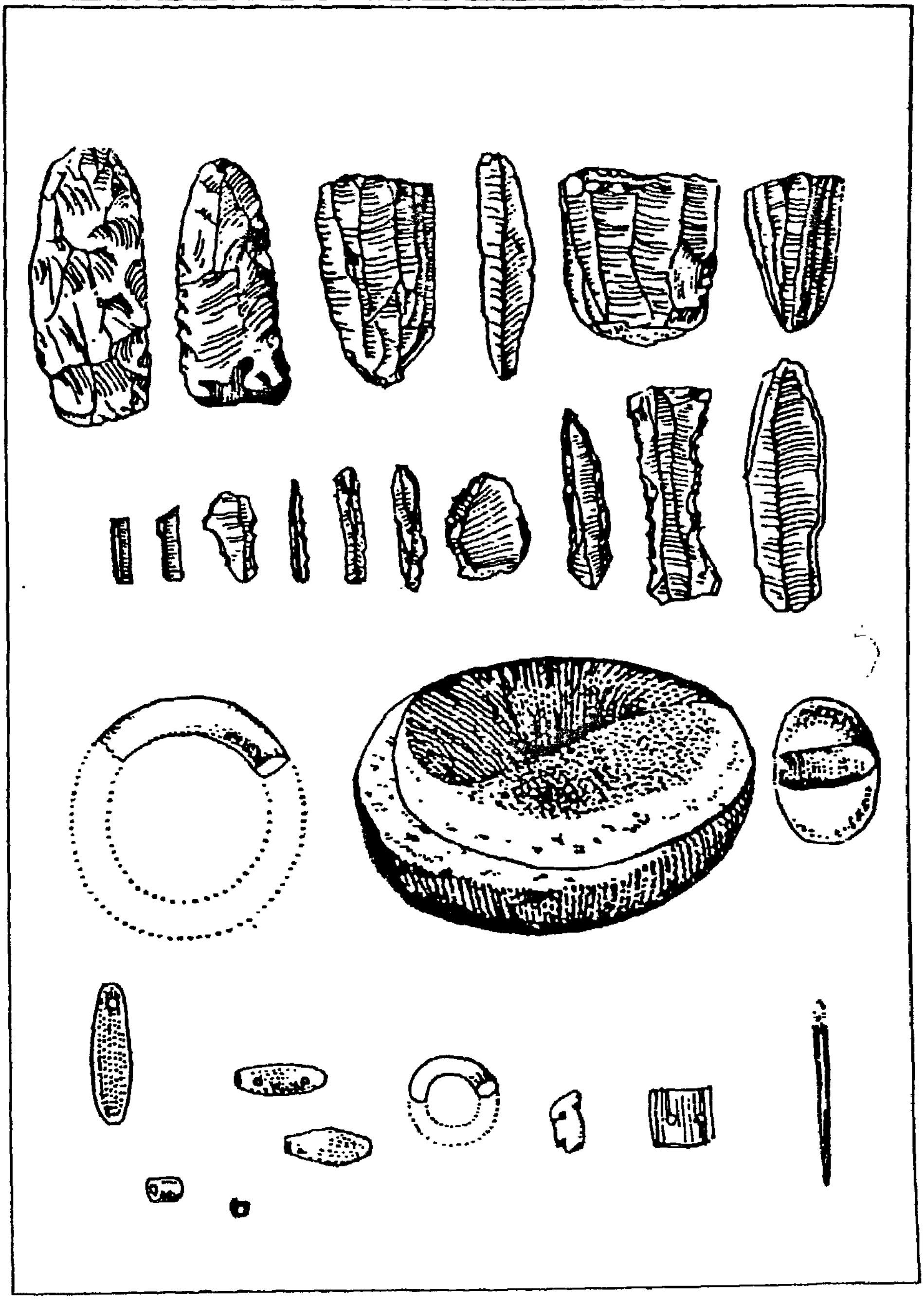
ويؤرخ موقع ملفعات[٣] **Mlefaat** بنهاية الألف السادس ق.م، وهو يقع في لواء الموصل على مكان مرتفع يشرف على نهر الخازر بالقرب من جسر الموصل ـ أربيل. ولقد كشف في هذا الموقع على العديد من الأدوات الحجرية المصنوعة من الصوان كالمكاشط والسكاكين وكذلك أدوات ميكروليثية، وتعددت طبقات الاستقرار في هذا الموقع بعضها فوق بعض، ويوضح الإنتاج الحضاري الذي كشف عنه أنه يرجع إلى نهاية مرحلة كريم شاهر، أو أنه مرحلة جديدة له فيما يرى كل من بريدوود R.J. Braidwood وهو B. Howe.

---

(١) R.J. Braidwood, and B. Howe, «Prehistoric investigations in Iraq Kurdistan», in Oriental Institute of the University of Chicago, Series in Ancient Oriental Civilization, Chicago, 1960, p. 52, 170, pls. 22 ff.

(٢) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ٢٨.

(٣) R.J. Braidwood, and B. Howe, op. cit., p. 50., J. Mellaart, in C.A.H., vol. I, part I, p. 257.



شكل (٦) أدوات حجرية وأدوات زينة من موقع كريم شاهر

٣ ـ العصر الحجري الحديث

كان لنقلة الإنسان من العصر الحجري الوسيط إلى العصر الحجري الحديث تأثير كبير في تطوره الحضاري، فقد تبدلت خلال العصر الحجري الحديث أساليب عيشه وانتقل من حياة الجمع والالتقاط وصيد الحيوانات والتنقل والترحال إلى معرفة استئناس النبات والحيوان، فقد حرث الأرض وزرعها بحبوب كانت برية في أول أمرها، ولذا فقد اتخذ الإنسان منذ هذا العصر الزراعة حرفة له، وأدى ذلك إلى الاستقرار وظهور المجتمع القروي مما أدى إلى نشأة نوع جديد من تفكير الإنسان وسلوكه في مختلف مظاهر حياته وذلك على أساس المبادىء والأسس التي يقوم عليها المجتمع الجديد.

وكان الإنتاج الزراعي في أول الأمر على نطاق ضيق فكانت كل عائلة تنتج ما تحتاجه فقط، كذلك كان كثيراً ما ينتقل الإنسان حينما تستنفذ خصوبة الأرض التي زرعها أكثر من مرة، لأنه لم يكن يعرف طريقة التسميد، وربما كان يترك جزءاً من الأرض بوراً فترة من الزمن لترتاح فيها التربة ثم يعود إليها بعد زمن.

واستغل الإنسان في هذه المرحلة الإمكانيات المتاحة في بيئته في صناعة أدواته وتشييد منازله، فشيد منازله في أول الأمر من الطين المتوفر في بيئته الزراعية، أما أدواته فكانت محدودة، ومن هذه الأدوات الرحى، وهما حجران صلبان بسيطان يوضعان فوق بعضهما ويدار العلوي منهما فتجرش الحبوب، ومن هذه الأدوات أيضاً الفؤوس والمناجل والمحاريث، وغالباً فلقد عرف الإنسان خلال هذه المرحلة الغزل وحياكة الأقمشة، حيث عثر على أقراص

مغازل مصنوعة من الفخار. ويتميز هذا العصر بظهور الصناعات الفخارية التي تعتبر سمة له.

ويلاحظ أن الإنسان خلال هذه المرحلة لم يعرف التخصص في العمل، ولكن من الجائز أنه كان هناك نوع من تقسيم العمل البدائي خصوصاً بين الرجل والمرأة، فكانت المرأة كما يرى البعض هي أول من اكتشف البذور، ومن أجل ذلك قامت هي بالبذر والطحن والطهي والغزل وصناعة الملابس، بينما قام الرجل بالحرث وتربية الحيوان والصيد وإقامة المنازل وصناعة الأسلحة والدفاع.

ومن النظم التي ظهرت في العصر الحجري الحديث الملكية الفردية، وكان لهذا النظام أثره في نشأة العائلة، وقد دفعت زراعة الإنسان المتنقلة اضطراره إلى التوسع والاصطدام بجماعات أخرى، وعلى ذلك فلقد ظهر النزاع على الأرض، وأدى ذلك إلى ظهور نظام المعارك الحربية البسيطة[١].

وكان لاستقرار الإنسان خلال هذا العصر أثره في تطور المفاهيم الفكرية الأولى للإنسان، حيث كشف في مراكز الاستقرار الأولى في العراق عن تماثيل صغيرة تعبر عن آلهة الأمومة، حيث شكلت هذه التماثيل على هيئة امرأة بدينة لها ثدي كبير مبالغ فيه، كما كان لاستقرار الإنسان أيضاً أثره في الاعتقاد بوجود عالم آخر.

ويلاحظ أن أثار المراحل الأولى للعصر الحجري الحديث في العراق توجد في الواحات وفي أعالي الفرات حيث كان يعتمد الناس في ري أراضيهم على الأمطار، فلقد كانت الزراعة في الواحات بجوار الآبار أسهل من الزراعة على مياه النهر التي تتطلب من الفلاح تنظيم الري وإقامة السدود، ومن أجل ذلك، فإنه يرجح أن الإنسان قد تعلم مبادىء الزراعة في مناطق الواحات والمناطق المرتفعة حيث تكثر الأمطار، ثم انتقل الإنسان بعد ذلك إلى الوديان

---

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

الكبرى، وعندما تكون اليابس في جنوب العراق اتجه إليه الإنسان بعد ذلك مدفوعاً بحالة الجفاف الذي أخذ في الازدياد في مناطق الشرق الأدنى القديم، ومن ثم فقد اتجه الإنسان إلى وادي الرافدين وهو مزود بخبرات في الزراعة والري واستئناس الحيوان وصناعة الفخار.

ويتمثل بداية العصر الحجري الحديث في العراق في العديد من المواقع الأثرية التي عثر على مخلفات هذا العصر الأثرية فيها، ونظراً لعدم معرفتنا بأسمائها القديمة، فلقد سميت مراحلها الحضارية بأسماء قراها الحديثة، ومن هذه المواقع الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة جرمو وتل حسونة.

حضارة جرمو: Jarmo

تقع جرمو شرق كركوك على حافة وادي عميق في سهل شيمشمال، في منطقة كردستان العراقية، ويعرف هذا الموقع الآن باسم «قلعة جرمو»[١]. وتشغل قرية جرمو مساحة صغيرة لا تتعدى ثلاثة أو أربعة أفدنة فقط، وهي أصغر بكثير من القرى المعاصرة لها إذ تبلغ مساحة قرية جريكو (اريحا) حوالى عشرة أفدنة. ويحتمل أنها لم تحتوي أكثر من خمسة وعشرين منزلاً، وقدر عدد سكانها بحوالى مائة وخمسين فرداً فقط[٢] (شكل ٧). وإن رأى طه باقر إلى أن موقع جرمو كان يضم خمسين منزلاً عاش فيها حوالى ثلاثمائة شخصاً[٣].

ويتكون موقع قرية جرمو التي تعتبر من أقدم قرى العصر الحجري الحديث في العراق من ست عشرة طبقة أثرية تمثل مراحل تطور هذه الحضارة. ويلاحظ أن الطبقات الخمس العليا فقط هي التي يوجد فيها صناعات فخارية وذلك منذ حوالى عام ٥٨٠٠ ق. م فقط.

(١) R.J. Braidwood, and B. Howe, op. cit., p. 38 ff., 170 f., pl 14 ff.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 258.

(٣) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، القسم الأول، تاريخ العراق القديم، بغداد، ١٩٥٥.



شكل (٧) موقع تل جرمو

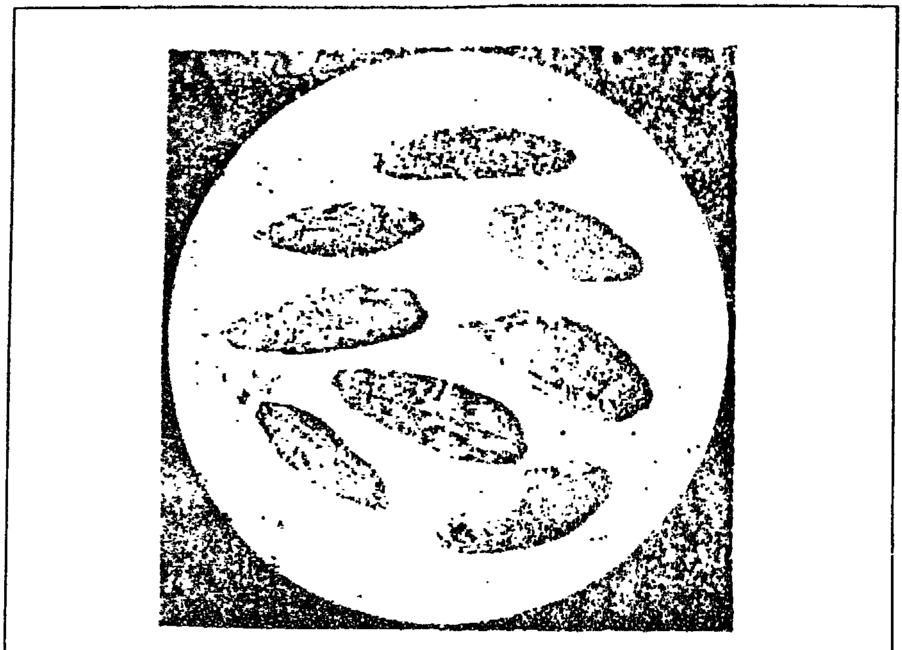
ومن الناحية الزمنية فإنها تؤرخ اعتماداً على طريقة الراديو كربون بحوالى ٦٧٥٠ ق.م، ويرجح بريدوود أن هذه القرية قد شغلت فترة قصيرة من الزمن قبل وبعد العصر الحجري الحديث، وأن نهايتها تتزامن مع المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث في أماكن أخرى، وأن هذه الفترة لا تتعدى أربعمائة عام[1].

وتوضح البقايا الأثرية في موقع جرمو توصل الإنسان في هذه المنطقة لأول مرة إلى استئناس الزراعة، وأن هذه القرية قد اعتمدت في اقتصادها على

(١) R.J. Braidwood, «The Iraq - Jarmo Project», in G.R. Willey (ed.), Archaeological Researches in Retrospect, Cambridge, 1974.

الإنتاج الزراعي وليس حصاد النباتات البرية فقط، فلقد عثر على حبوب القمح التي تشبه القمح البري من جهة الشكل والمظهر كان موجوداً مع نوع آخر يدعى Einkorn، كما كشف عن نوع من الشعير يشبه سلفه الشعير البري إلى حد كبير. وكشف أيضاً عن بقايا حبوب البازلاء والعدس والفستق والبلوط[1] (شكل ٨).

وتمكن الإنسان في جرمو من استئناس الماعز وربما الكلاب أيضاً، ويرجح أيضاً أنه قد استأنس الحنزير أيضاً. ولكن لا توجد أدلة على استئناسه للأغنام والماشية التي كان يقوم بصيدها مع الغزلان والخنازير البرية.



شكل رقم (٨) حبوب قمح متكربنة من جرمو

(١) جيمس ميلارت: أقدم الحضارات في الشرق الأدنى، ترجمة محمد طلب، دمشق ١٩٩٠، ص ٦١ ـ ٦٢.

وتفوق إنسان جرمو في صناعة أدواته من الحجر، ولقد عثر على العديد من الأدوات المتصلة بالعمل الزراعي مما يؤكد توصله إلى مرحلة الإنتاج الزراعي. وتكونت الصناعات الحجرية بشكل أساسي من الصوان الذي أضيف إليه الزجاج البركاني (الأوبسيديان) الذي تم استيراده من شرق الأناضول[١]، وصنعت منه نصال الأدوات المركبة كالسكاكين والمناجل والنصال المثبتة بواسطة القار إلى مقابض خشبية، وذلك بالإضافة إلى الأدوات القزمية مثل النصال ذات النهايات المائلة أشباه المنحرفات والمكاشط وغيرها. وصنع من الأحجار كذلك المطاحن والهواوين والمدقات والملاعق (شكل ٩).

ونتيجة لاستقرار الإنسان في هذا الموقع، فلقد اتجه إلى صناعة بعض الأدوات الكمالية في حياته، والتي تدل على اتجاهه نحو العناية بمظهره، فصنع العديد من أدوات الزينة، مثل الخواتم والأساور التي صنعها من الرخام والمرمر وحمل الكثير منها زينات منقوشة، كما صنع أيضاً بعض أدوات زينته من العظام مثل الخواتم والخرز وكذلك الدلايات[٢].

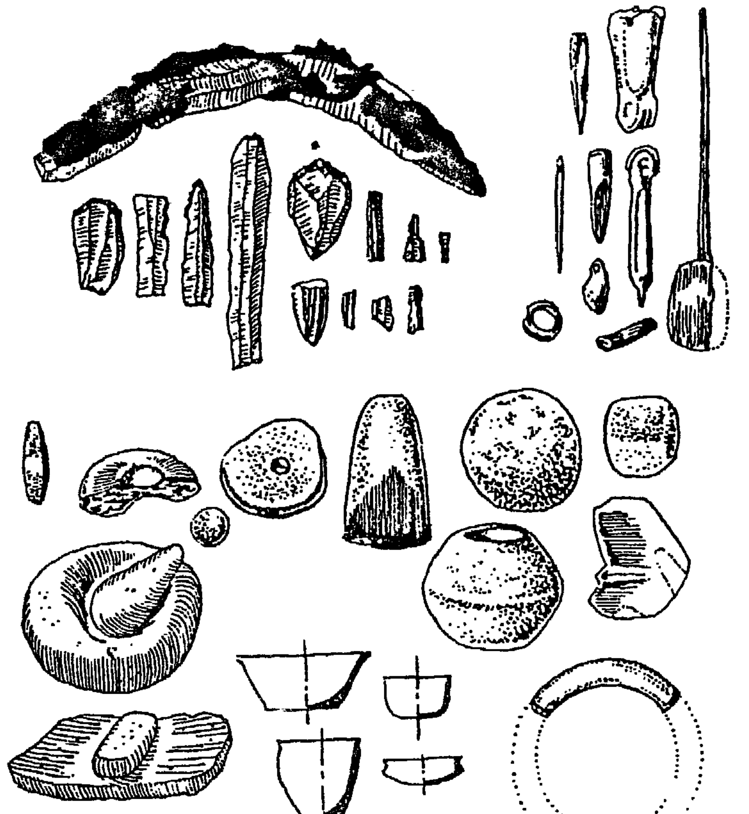
ويلاحظ أيضاً أنه كشف في مخلفات هذا الموقع على العديد من المصنوعات الخاصة بالأطفال، فلقد صنع العديد من اللعب الخاصة بهم مثل الكرات الطينية والمخاريط التي صنعت من المرمر.

وفيما يتصل بالصناعات الفخارية، فيلاحظ أنها لم تبدأ في الظهور إلا في الطبقات الخمس الأخيرة من الموقع، وربما كان ذلك راجعاً إلى استيفاء الإنسان في المراحل السابقة لحاجياته من الأواني بصناعة الأواني الحجرية الجيدة.

ويلاحظ أن الأواني الفخارية التي عثر عليها في الطبقتين الخامسة والرابعة وهي الأقدم تتميز بأنها أفضل من الأواني التي عثر عليها في الطبقات الثلاث

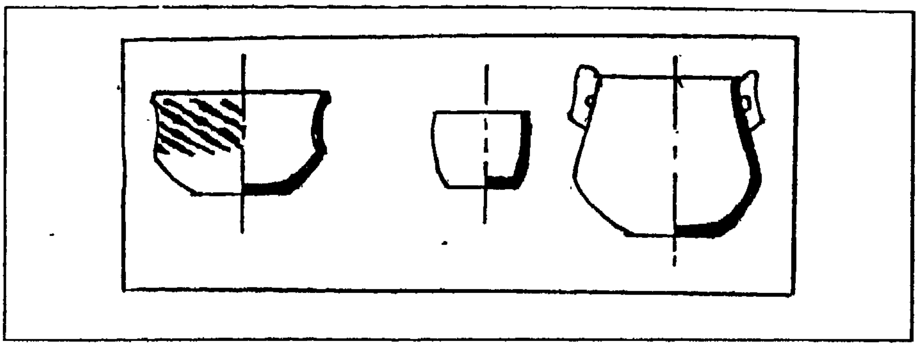
(١) J. Mellaart, op. cit., p. 258.

(٢) J. Mellaart, Earliest civilizations of the Near East, London, 1965, pl. 21., J. Mellaart, in CAH, vol. I, part I, p. 259.



شكل (٩) أدوات ومصنوعات حجرية من موقع جرمو

الأخيرة وهي الأحدث عهداً. وزينت هذه الأواني بخطوط حمراء مائلة. (شكل ١٠) ونظراً لجودة الأواني الفخارية المبكرة التي عثر عليها فإنه يصعب القول أنها من إنتاج محلي بحت، ونظراً لعدم وجود ما يماثلها في المنطقة فإنه يرجح أن تكون مستوردة من الشرق وبخاصة من تبة جوران إلى الجنوب من كرمنشاه بإيران حيث كشف فيها عن أنماط تشبه فخار جرمو الملون[١].



شكل (١٠) أواني فخارية من حضارة جرمو

وعاش السكان في أول الأمر في أكواخ دائرية، ثم ما لبثوا، أن شيدوا منازلهم من كتل الطين المكبوس الذي يعرف محلياً باسم (الطوف) وكانت المنازل على هيئة مستطيلة، وبنيت الجدران في الطبقات العليا من الموقع على أساس من الحجر، ويلاحظ أن جدران المنازل قد غطيت بطبقة من الملاط ولكنها لم تلون، أما أرضية الغرف فقد سويت بحصيرة من البوص الذي وضع فوقه طبقة من الطين لتشكيل أرضيات مستوية ناعمة للغرف، وتكونت المنازل من عدد من الحجرات الصغيرة التي لا تتجاوز أبعادها ١,٥×٢ م. وقد صنعت

(١) أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ إيران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث ق.م.، بيروت ١٩٨٨، ص ١١٨.

أسقف المنازل من القصب الذي كان يغطي بطبقة سميكة من الطين (شكل ١١) وكانت نوافذ وأبواب المنازل تصنع من الخشب، وقد تم تثبيتها في الحجارة بحيث تدور عند فتحها وإغلاقها.

وزودت المنازل بحفرات بطنت جوانبها بالطين استخدمت كمواقد، ولقد عثر على الكثير من الأواني الفخارية التي كانت تستخدم لتسخين المياه في هذه الحفرة. ويلاحظ أن المنازل الموجودة في الطبقات العليا قد زودت بالأفران والمداخن، وكانت المداخن تمر داخل الجدار مما يدل على تطور في تقنية البناء[1].

ومن الناحية الفكرية والتعبيرية فلقد عثر على حوالى خمسة آلاف قطعة



شكل (١١) أساس منزل من العصر الحجري الحديث في جرمو

(١) بورهارد بريتيس: نشوء الحضارات القديمة، ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشق، ١٩٨٩، ص ٣٧.

أثرية تمثل أشكالاً بشرية وحيوانية (شكل ١٢) وقد عثر على التماثيل التي تمثل النساء وهن في وضعية الحركة في الطبقات السفلى من الموقع، بينما عثر في طبقات أخرى على تماثيل صغيرة تمثل الكلاب والماعز والأبقار.



شكل (١٢) تماثيل بشرية وحيوانية من حضارة جرمو

ومن التماثيل التي ربما تعبر عن نواحي فكرية التماثيل التي شكلت على هيئة امرأة بدينة ضخمة الساقين لها ثديان كبيران بدرجة ملحوظة، كما عثر على ما يشبه العضو الذكري مما دفع إلى الظن بأنهما يمثلان عبادة الخصوبة والرمز لها، وتعتبر التماثيل التي تعبر عنه الألهة الأم من أقدم التماثيل التي صنعها الإنسان بعد استقراره، حيث أدرك قيمة الخصوبة في حياته الزراعية التي تعتمد على خصوبة التربة. ويرجح بعض الباحثين أن لوناً من ألوان التفكير الديني نشأ في هذه المرحلة بقيام عبادة الشمس التي قدست على هيئة معبودة[١].

(١) نحيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٦٠.

حضارة تل حسونة : Tell of Hassunah

سميت بهذا الاسم نسبة إلى تل حسونة الواقع جنوب الموصل الذي عثر فيه أثاريون عراقيون على أولى آثار هذه الحضارة[١] ويقع تل حسونة في غرب نهر دجلة جنوب الموصل بحوالي ٣٥ كيلومتر وشرق قرية الشورة بحوالى ثمانية كيلومترات، ومساحة الموقع صغيرة حوالى ٢٠٠×١٥٠ متراً، ويرتفع التل عن السهل المجاور بحوالى سبعة أمتار، وهو يعد من أقدم المواقع الحضارية في صميم السهل الميزوبوتامي، ويعبر عن انتقال مركز الثقل الحضاري من المنطقة الشرقية إلى هذا السهل[٢].

ويتكون موقع تل حسونة من سبع عشرة طبقة أثرية، يوجد الإنتاج الحضاري الخاص بالعصر الحجري الحديث في الطبقات الخمس الأولى منها، ولقد كشف عن بعض المواقع الأخرى لهذه الحضارة وخاصة في تل الصوان وسامراء. وتؤرخ بداية حضارة حسونة ببداية الألف السادس قبل الميلاد وذلك اعتماداً على طريقة الراديو كربون في التقويم الزمني[٣].

وتوضح المخلفات الأثرية في موقع تل حسونة توصل سكان هذه المنطقة إلى استئناس النبات والحيوان، فلقد كشف في مخلفات المباني على صوامع للغلال وجد فيها بقايا حبوب متكربنة للقمح والشعير وبذر الكتان. مما يشير إلى الإنتاج الزراعي، كما عثر على عظام حيوان مستأنسة مثل الماعز والأغنام، وظل الإنسان خلال هذه المرحلة أيضاً يعتمد على صيد الحيوان حيث عثر على عظام حيوانات برية مثل الغزلان والخنازير والأرانب.

ومرّ فخار تل حسونة بثلاث مراحل من التطور، تمثل المرحلة الأولى منها أقدم النماذج الفخارية التي عثر عليها في العراق القديم، ولقد ظهر هذا الفخار

---

(١) سومر ٢٠ (١٩٦٤)، ٢١ (١٩٦٥).

(٢) محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١٤ ـ ١٥.

(٣) J. Mellaart, op. cit., p. 272.

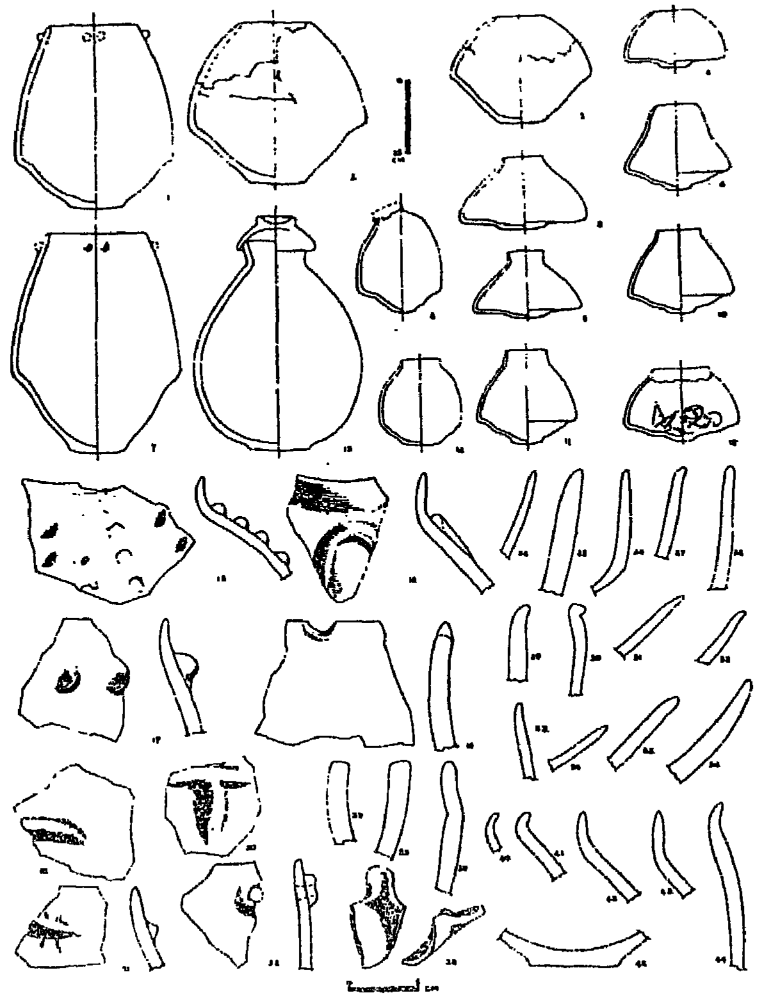
في الطبقة الأولى من الموقع[(١)] وهو مصنوع من مادة طينية غير نقية وكانت صناعته خشنة إلى حد بعيد وكان غير مزخرف (شكل ١٣) ثم ظهر النوع الثاني من الفخار وهو مزين باللون الأصفر أو القرمزي، وزخرف بواسطة عمل حزوز في شكل تصميمات اتخذت في الغالب شكل سعف النخيل أو سنابل القمح[(٢)] (شكل ١٤). وتلى ذلك ظهور الفخار الملون والمزين بأشكال حيوانية وإنسانية وخطوط متموجة، ويعرف هذا النوع الأخير باسم فخار سامراء (شكل ١٥)[(٣)] ويلاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها الأشكال الطبيعية للحيوانات والبشر في منطقة بلاد النهرين، وتوجد نماذج أكثر تطوراً رسمت في داخل الأواني الكبيرة حيث تتباين الأشكال وتظهر التماثيل البشرية على شكل نقوش بارزة على الأواني[(٤)].

وتجدر الإشارة إلى أن فخار سامراء ينسب إلى موقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر دجلة، شمال بغداد بحوالى ١٠٠ كم، ولقد اختلف العلماء حول نشأة حضارة سامراء وهل هي تمثل عصراً حضارياً مستقلاً بذاته أم أنها من أصل إيراني أو أنها امتداد لعصر حضارة تل حسونة وأنها داخلة في نطاقها، وذلك اعتماداً على امتداد حضارة حسونة على طول الطريق غرباً بين نهر دجلة والبحر المتوسط، حيث عثر على فخار حسونة في إقليم العمق وكذلك في مرسين[(٥)].

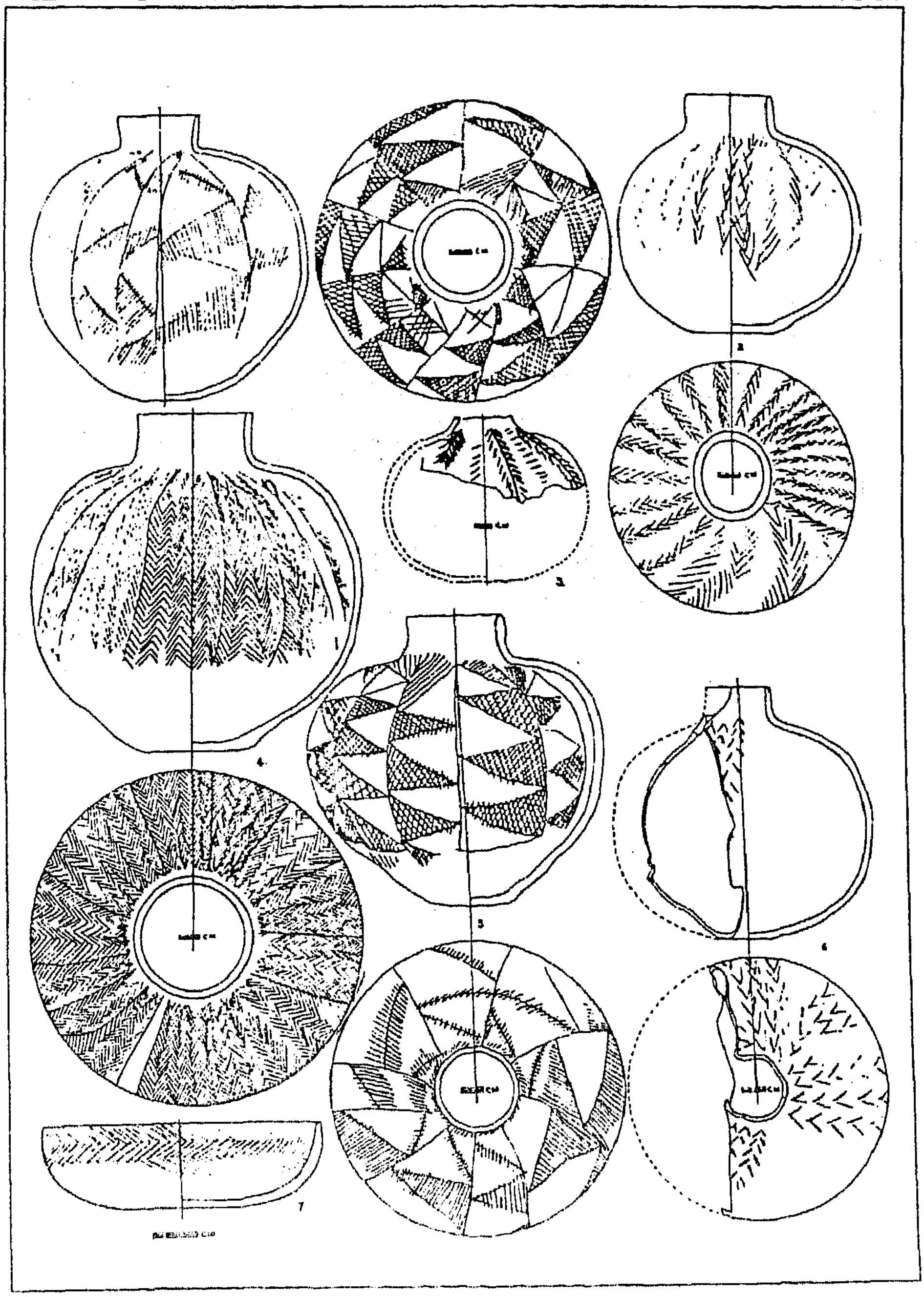
وبالإضافة إلى الصناعات الفخارية، فقد كشف عن العديد من الأدوات الحجرية التي تتكون من الأسلحة القزمية ورؤوس السهام والفؤوس الحجرية والمناجل (شكل ١٦)[(٦)]، كما عثر في داخل مبنى في تل الصوان I يرجح أنه

---

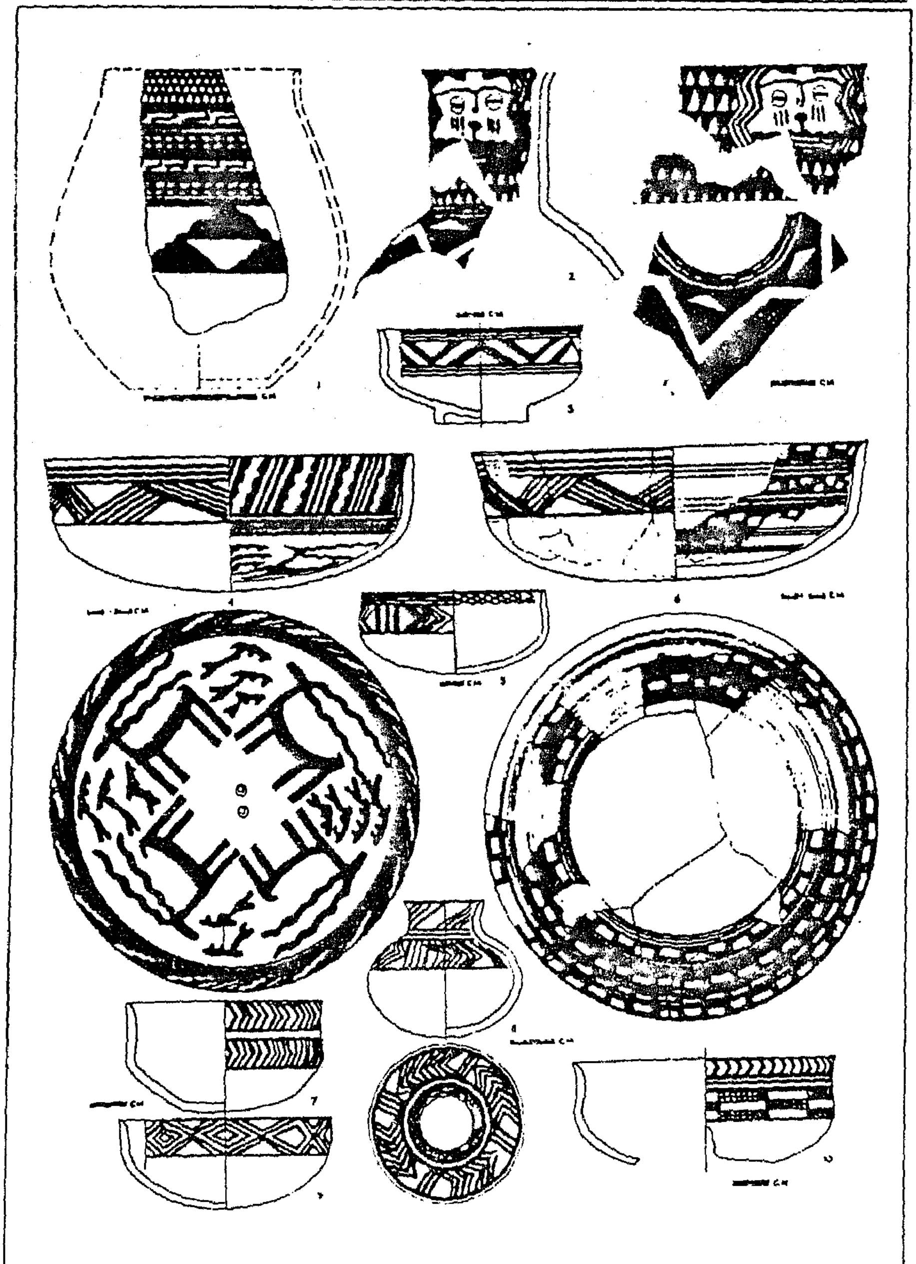
(١) انظر:
S. Lioyd and F. Safar, «Tell-Hassuna» in JNES, 4, (1945), Fig. 6.
(٢) Ibid., Fig. 4.
(٣) Ibid., Fig. 1.
(٤) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ٨٦، شكل ٤٠.
(٥) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٨.
(٦) S. Lioyd, and F. Safar, op. cit., fig. 26.



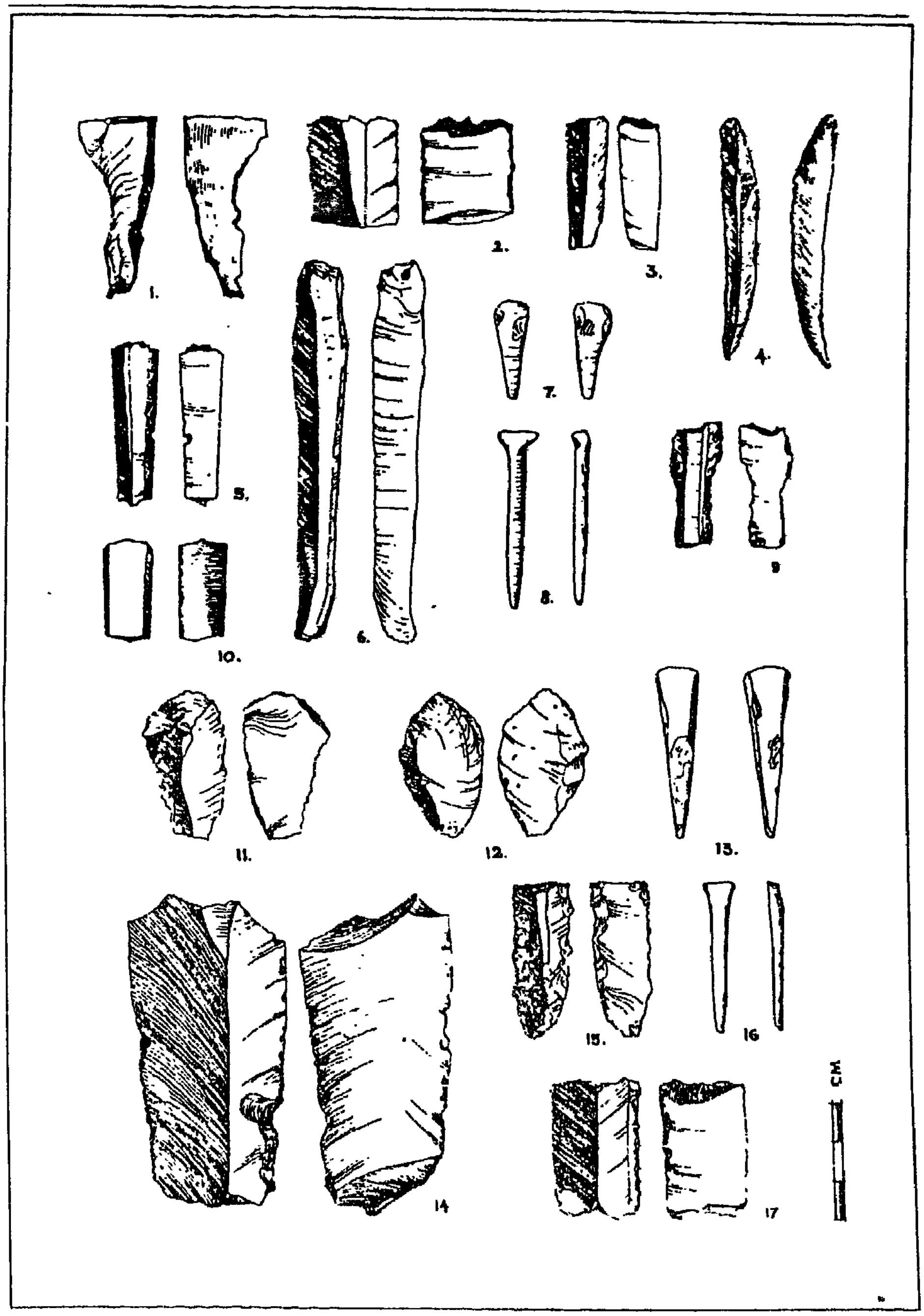
شكل (١٣) نماذج من فخار تل حسونة المبكر



شكـل (١٤) فخار تل حسونة المزين بحزوز



شكل (١٥) فخار سامراء



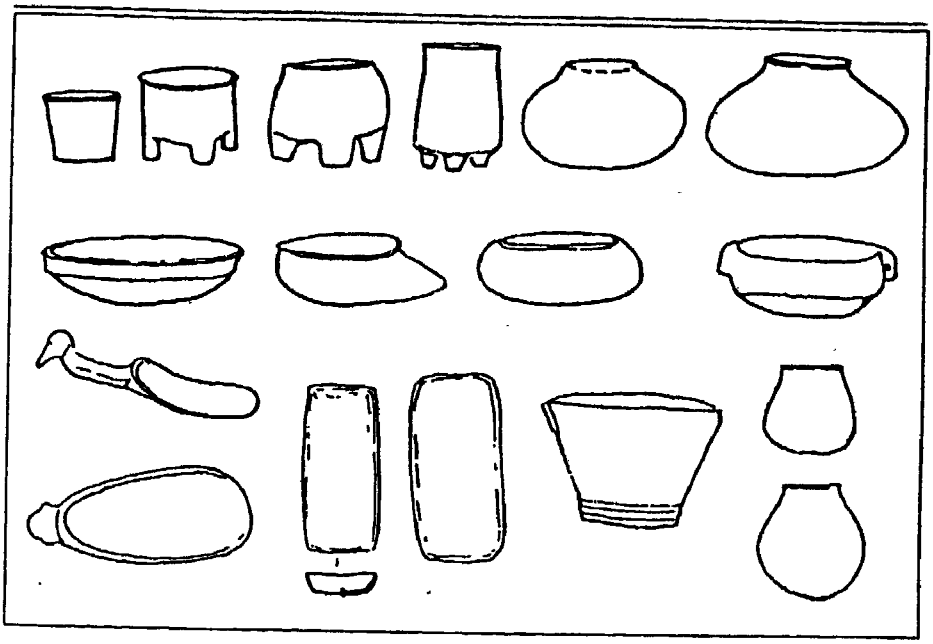
شكـل (١٦) بعض الأدوات الحجرية من تل حسونه

معبد على العديد من الأواني الحجرية، كما عثر أيضاً على كميات كبيرة من الأواني الحجرية أسفل هذه المباني[١]. (شكل ١٧).

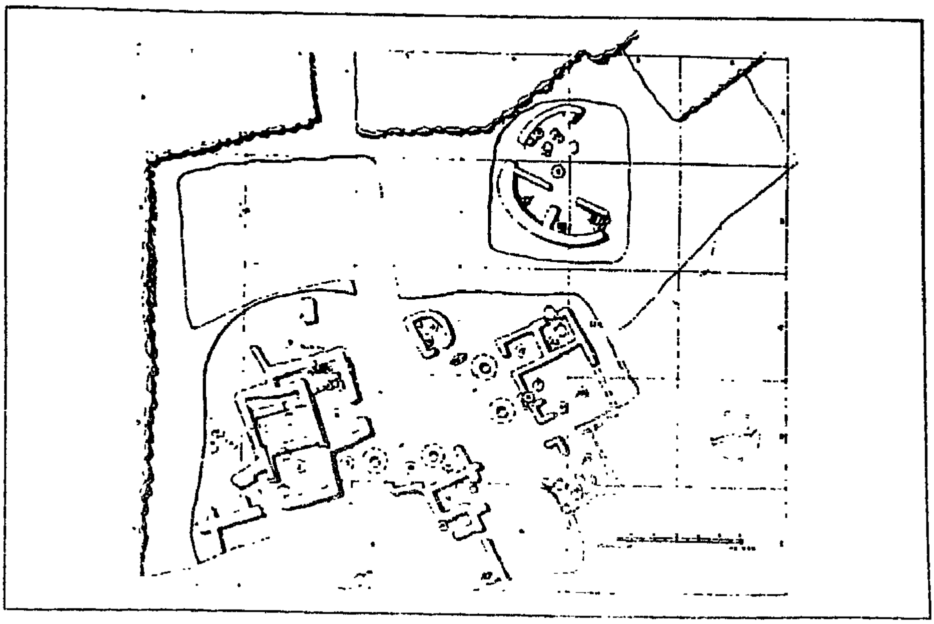
وفيما يتصل بالبقايا الأثرية المعمارية، فيلاحظ أن أولى طبقات الموقع Ia لا توجد بها أية آثار لمباني، كما أنه لا يوجد بها أية حفر لأعمدة، كما يرجح أن الإنسان خلال هذه المرحلة كان يعيش في خيام. وبدأت تظهر أولى المباني من الطبقة Ib حيث كشف عن حجرة واحدة. ولكن في الطبقة Ic كشف عن عدد كبير من الجدران التي تتفاوت في سمكها ما بين ٢٠ ـ ٤٥ سم، وكانت هذه الجدران إما مستقيمة وأركانها دائرية أو منحنية بخشونة، ويبدو أن هذه المجموعة من الجدر التي كشف عنها تكون ثلاثة بيوت على الأقل. وفي أحد هذه المنازل كانت الحجرات تحيط بفناء في وسط المنزل واحتوت إحدى الحجرات على فرن لخبز العيش وكذلك بعض الأواني لتخزين الطعام والشراب. وشيدت الجدران من كتل طينية غير منتظمة الشكل وذات أحجام مختلفة، وغطيت الجدران بطبقة من الملاط[٢] (شكل ١٨).

وتوضح مباني الطبقة الثانية في تل حسونة أنها أكثر تطوراً، حيث شيدت من طمي أكثر جودة من المرحلة السابقة، ويلاحظ أن بعض الجدران وصل ارتفاعها حين الكشف عنها إلى حوالي المتر. وكان المنزل يتكون من مجموعة من الحجرات حول فناء، ويوجد في أحد الأركان فرن لصناعة الخبز، وكانت توجد حجرات للتخزين. وعثر في هذه المباني على العديد من الأواني الفخارية والأدوات الحجرية المصنوعة من الصوان، كما عثر أيضاً على هياكل عظمية آدمية، وكذلك قرن ماعز أو غنم، وكذلك عظام لحيوان صغير، كما عثر على هيكل عظمي لطفل داخل آنية فخارية كبيرة وكان معها آنيتين آخرتين للطعام أو الشراب[٣] (شكل ١٩).

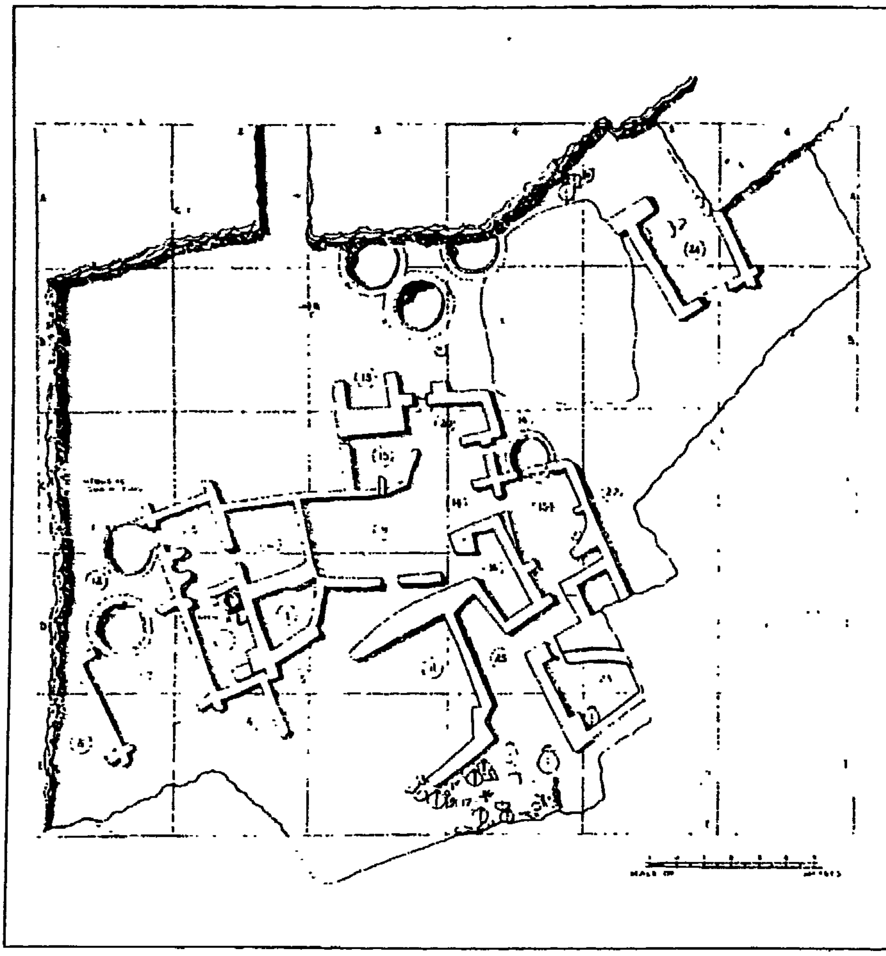
(١) J. Mellaart, op. cit., p. 271, Fig. 20.
(٢) S. Lloyd, and F. Safar, op. cit., pp. 272 - 273, Fig. 28.
(٣) Ibid., p. 273, Fig. 29.



شكل (١٧) بعض الأواني المصنوعة من المرمر في تل الصوان



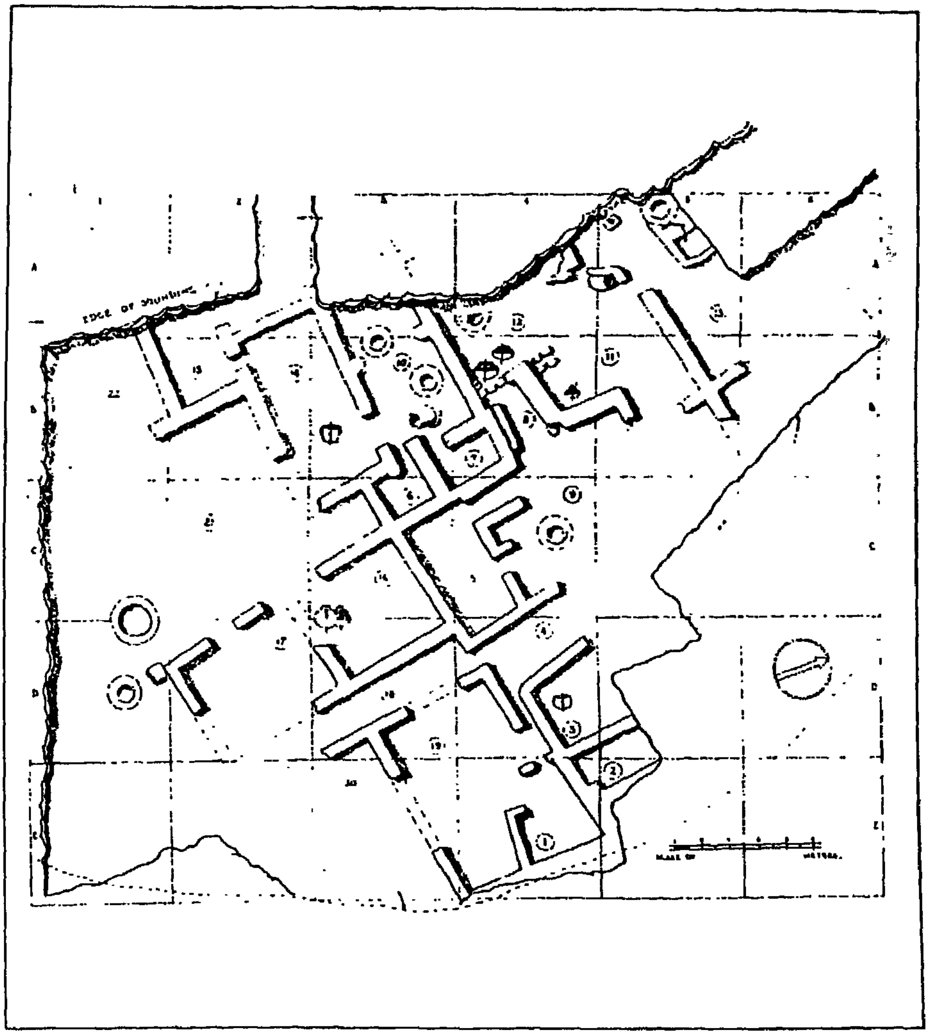
شكل (١٨) رسم تخطيطي [illegible] المنازل التي عثر عليها في الطبقة Ic في تل حسونة



شكل (١٩) رسم تخطيطي للمنازل في الطبقة الثانية في تل حسونه

وأصبح تخطيط المباني في الطبقة الثالثة من تل حسونة أكثر وضوحاً، فكان تصميم المنازل عبارة عن مجموعة من الحجرات تتجمع حول فناء، وكان يفصل المنازل عن بعضها ممر ضيق. ولقد عثر في إحدى الحجرات على آنية فخارية كبيرة خشنة الصنع يوجد فيها هيكلين عظميين آدميين أحدهما بدون

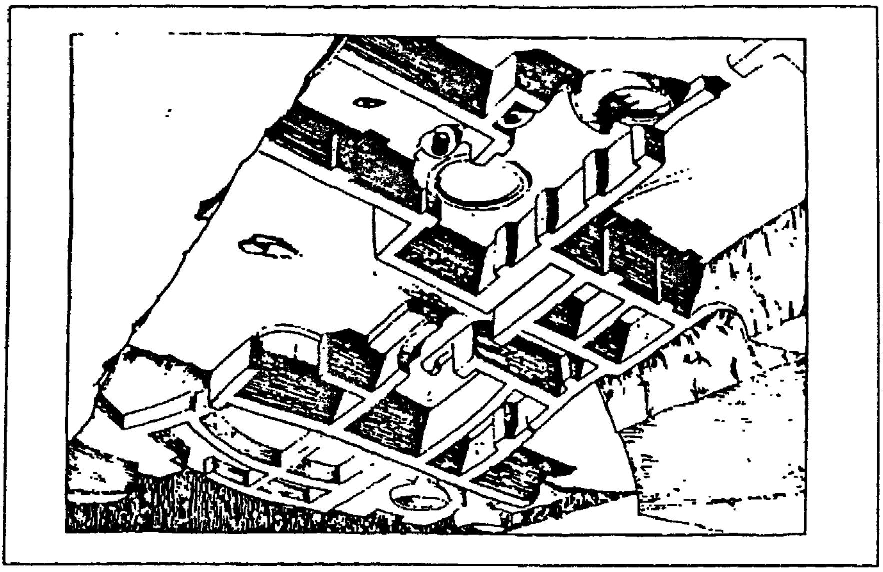
رأس. ولقد عثر في بقايا هذه الطبقة أيضاً على الكثير من الأواني الفخارية[١]. (شكل ٢٠)



شكل (٢٠) رسم تخطيطي للمنازل في الطبقة الثالثة في تل حسونه

(١) Ibid., pp. 273 - 274, Fig. 30.

ومن أفضل مجموعات المباني التي كشف عنها تلك التي توجد في الطبقة الأثرية الرابعة فهي تقدم لنا صورة مرضية عن شكل القرية في عصور ما قبل الكتابة والتدوين. ولقد أمكن عمل تصور لشكل هذه المنازل (شكل ٢١)[1]. ويلاحظ أن أكمل هذه المنازل كان يتكون من ثماني حجرات تتجمع حول فناء. واحتوى المنزل على فرن لصنع الخبز وأواني فخارية كبيرة لحفظ الأطعمة.



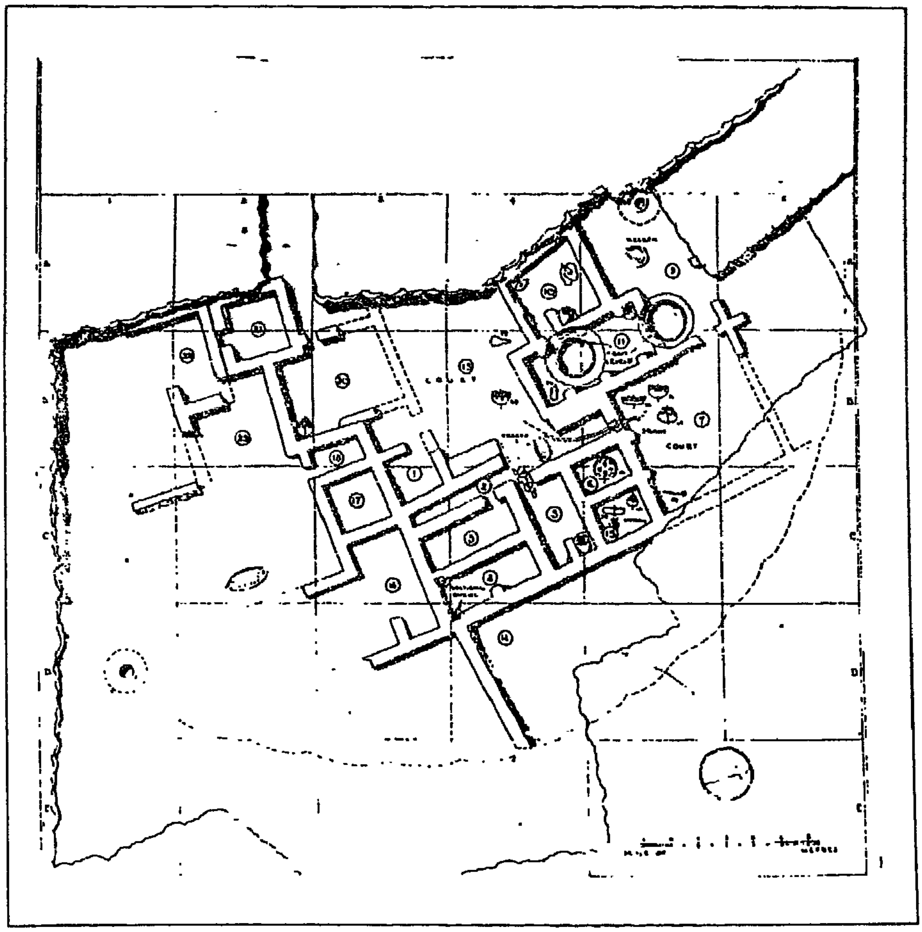
شكل (٢١) نموذج لمنزل من الطبقة الرابعة من تل حسونه

ويلاحظ أن الجدران قد بنيت بشكل جيد وهي مستقيمة، وكان سمكها حوالى ٤٥ سم وبقيت بعض جدرانها وقت الكشف إلى ارتفاع يقرب من المتر. ويلاحظ أن أرضية بعض الحجرات قد عبدت بخليط من الطمي والقش، وكان

(١) Ibid., Fig. 36.

سمك هذه الطبقة أحياناً يصل إلى ثلاثة ستيمرات. (شكل ٢٢)[١].

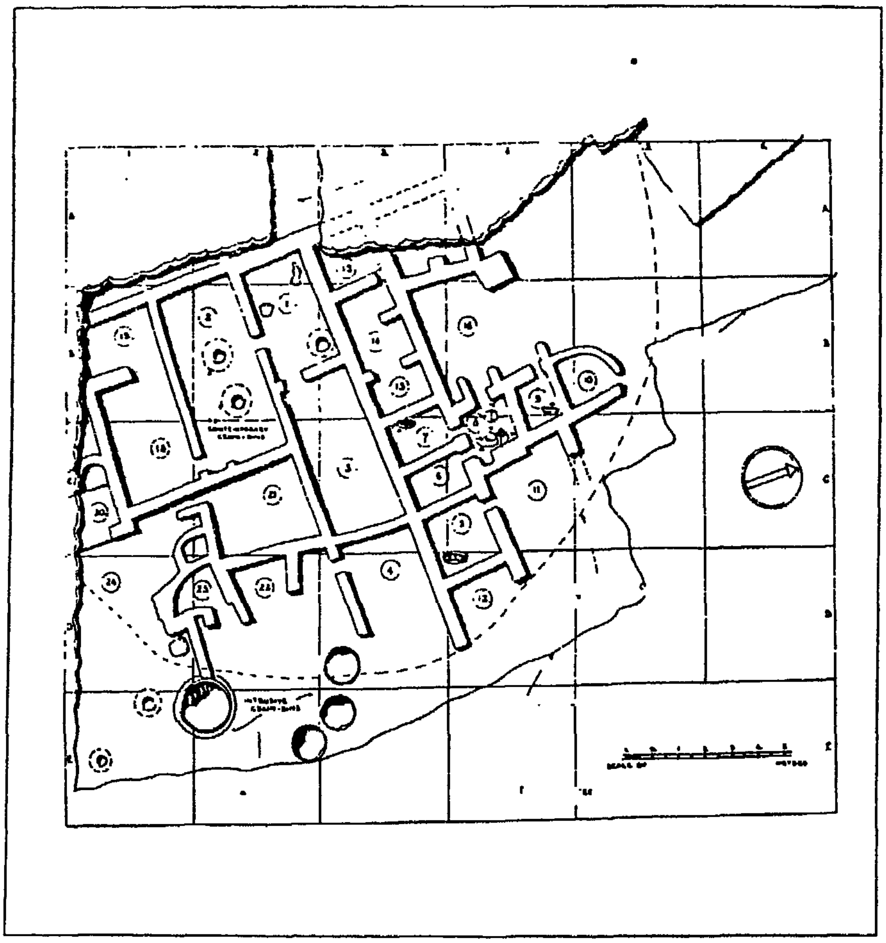
أما الطبقة العليا من موقع تل حسونة وهي الطبقة الخامسة، فيلاحظ وجود جدار يتجه من الشرق إلى الغرب وهو يقسم المباني إلى مجموعتين متميزتين. ويوجد في الناحية الشمالية منزلا يتكون من تسع حجرات حول فناء، ولقد عثر فيها على مجموعة من الأواني الفخارية جيدة الصنع، وعثر فيها أيضاً على أواني



شكل (٢٢) رسم تخطيطي للمنازل من الطبقة الرابعة من تل حسونه

(١) Ibid., p. 274 - 275, Fig. 31.

فخارية كبيرة لحفظ الحبوب. ويلاحظ أن أرضية الحجرات قد مهدت بالطين والقش (شكل ٢٣)[١].



شكل (٢٣) رسم تخطيطي للمنازل في الطبقة الخامسة من تل حسونه

ومن الناحية الفكرية، فيلاحظ أن الموتى كانوا يدفنون أسفل أرضية المنازل وكانوا يضعون بجوار الموتى أواني فخارية لحفظ الطعام والشراب، كما

(١) Ibid., p. 275, Fig. 32.

عثر بجوار أحد الموتى في الطبقة الأولى a على فأسين من الصوان، مما قد يشير إلى الاعتقاد في حياة أخرى بعد الموت.

ومن الظواهر اللافتة في هذه الحضارة أيضاً الكشف عن بقايا جثث لأطفال دفنوا في بعض الأواني الفخارية، وكان اتجاه رأس المتوفى ناحية الشمال. ويرى الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري - يرحمه الله - إلى أن وجود بقايا الهياكل العظمية للأطفال إنما يتصل بظاهرة التضحية البشرية لإسترضاء القوى الإلهية، وعلى رأسها آلهة الأمومة التي عبر عنها في شكل تماثيل صغيرة(١).

ومن الناحية التعبيرية، فلقد كشف في هذا الموقع عن مجموعة كبيرة من التماثيل الصغيرة الجيدة الصنع والتي كان معظمها يمثل آلهة الأمومة والتي مثلت هنا واقفة (بينما كانت في حضارة جرمو تمثل جالسة القرفصاء) وقد زود بعضها بغطاء رأس من القار وعيون من المحاسر (شكل ٢٤)، كما كشف في بعض المواقع عن بعض القطع الأثرية التي تشبه العضو الذكري وقد حاول الباحثون معرفة دلالة وجود هذه التماثيل في هذه المرحلة المبكرة فذهب بعضهم إلى أن تماثيل إلهات الأمومة كانت تودع في مدافن الذكور، دون الإناث اللاتي قد أودعت في قبورهن قطعاً حجرية تشبه عضو التذكير، خاصة وأن الحفائر لم تكشف عن وجود الإثنين معاً في قبر واحد. على أن هناك من يرى أن هذه التماثيل تعبر عن الأمومة الفعلية التي تضفي حمايتها على الأطفال الذين تغلب هياكلهم العظمية في مدافن تل الصوان وتل حسونة، خاصة وقد عبرت أشكال تماثيل إلهات الأمومة عن اهتمام صانعيها بإبراز صفة الإخصاب فيهن، حيث شكلت هذه التماثيل بحيث تتجه الأيدي غالباً نحو بطونهن(٢).

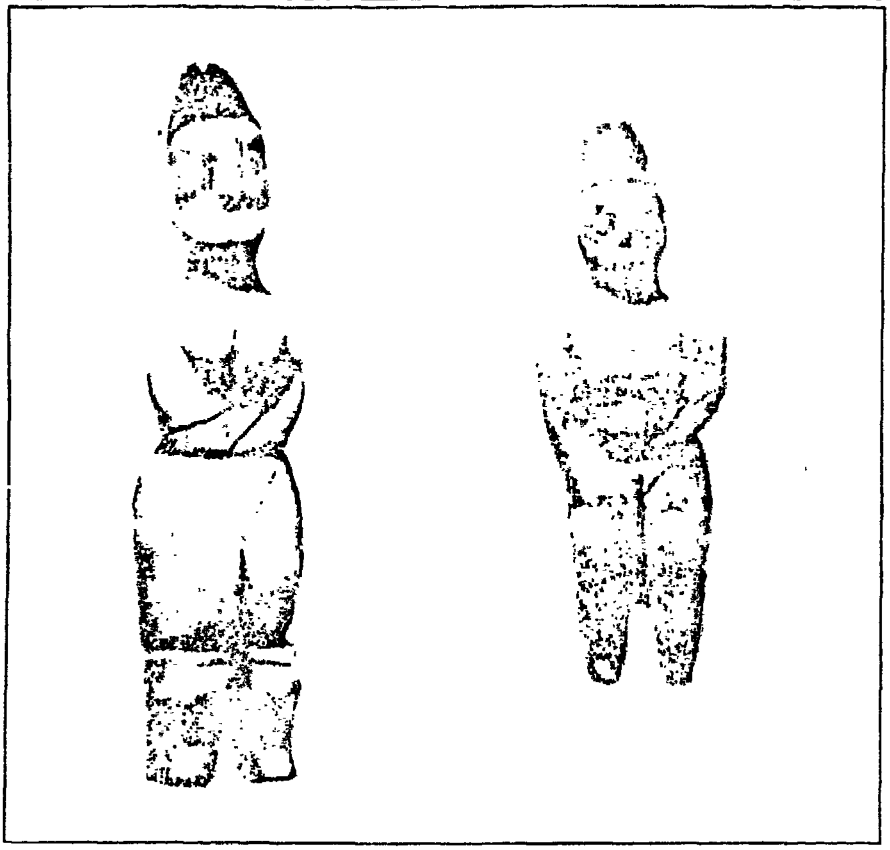
---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) انظر:

Sumer, 26 (1970), figs. 39-42.

وكذلك: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق. ص٤٩ - ٥١، وكذلك محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٧.



شكـل(٢٤) تمثالان صغيران من المرمر مزخرفان بعيون وبقبعتين
من مادة القار ـ التمثالان مأخوذان من قبور تل الصوان ـ بداية عصر حسونه

٤ ـ عصر الحجر والنحاس

يمثل هذا العصر مرحلة جديدة من مراحل التطور الإنساني إذ خرج الإنسان من نطاق قريته وأخذ في البحث عن إمكانيات مادية جديدة في البيئات المحيطة به، حيث توصل إلى استخدام معدن النحاس وذلك منذ حوالى منتصف الألف الخامس ق.م وكان استخدام الإنسان لهذا المعدن في أول الأمر قليلاً، ويفسر ذلك قلة المصنوعات النحاسية التي عثر عليها في المواقع التي تنتمي لبداية هذه المرحلة.

ويعتبر عصر حضارة حلف[١] هو العصر المميز لهذه المرحلة في العراق القديم وهو ينسب إلى موقع تل حلف على نهر الخابور بالقرب من رأس العين في أقصى شمال العراق، وهو من أولى المواقع التي كشف فيها عند الإنتاج الحضاري لهذه المرحلة. ومن المواقع النموذجية لهذه الحضارة موقع العربجية قرب الموصل وكذلك تبة ياريم بوادي سنجار. وانتشرت هذه الحضارة على شكل قوس من نهر الفرات إلى الزاب الكبير، وبينما كانت الحدود الجنوبية لهذه الحضارة محددة بشكل دقيق، فإنه من المحتمل أن تكون جبال طوروس حدودها الشمالية مع جيوب منتشرة هنا وهناك في الهضبة الأناضولية إلى الشمال

(١) انظر:

J. Mellaart, in CAH, vol. I, part I, pp. 276 - 281., Sumer, vol. 22 (1966), p.23 ff., M.E.L. Mallowan, and J.R. Cruikshank, Prehistoric Assyria, The Excavations at Tell Arpachiyah, London, 1935., H. Schmidt, Tell Halaf, 1, Berlin, 1943.

من هذه الجبال[١].

ومن الناحية الزمنية، فإنه يمكن القول اعتماداً على التقويم الزمني القائم على طريقة الراديو كربون أنها كانتِ في النصف الثاني من الألف الخامس ق.م[٢].

تعتبر حضارة حلف من الحضارات النشيطة بشكل خاص ولس لها ما تدين به إلى حضارة حسونة، ولقد اختلف المؤرخون في تحديد أصل هذه الحضارة، فيرى البعض أن مركزها في المنطقة الواقعة ما بين الموصل في شمال العراق إلى منطقة الخابور، وهناك من يرى أنها ترجع إلى أصل أرميني. أما الاتجاه التقليدي فهو اعتبار نشأتها كانت في تل حلف ذاتها وأنها تطورت تطوراً ذاتياً. ويلاحظ من جهة أخرى أن حضارة حلف لم تتصل بحضارة إيران وذلك لوجود الحواجز الطبيعية وخاصة جبال زاجروس التي عملت على منع حضارة حلف من دخول إيران، وكذلك لم تمتد هذه الحضارة إلى جنوب العراق القديم وذلك لعدم سكنى الجنوب بعد في ذلك الوقت، ولذلك امتدت هذه الحضارة في منطقة الموصل وكذلك في منطقة سنجار عبر نهر الخابور وفي منطقة جبل عبد العزيز، وغرباً في سورية حتى منطقة العمق ورأس الشمرة، وامتدت حتى حدود الأناضول الجنوبية الشرقية[٣].

ونتيجة لهذا الامتداد الكبير لحضارة حلف فإن إنتاجها من المصنوعات الفخارية يمكن أن يقسم إلى نوعين متميزين، النوع الأول خاص بالمناطق الشرقية من حلف وظهر في مواقع العربجية وتبه جورا، والنوع الثاني وهو الخاص بالمنطقة الغربية وقد عرف في مواقع حلف وقرقميش وتل يونس في سورية[٤].

---

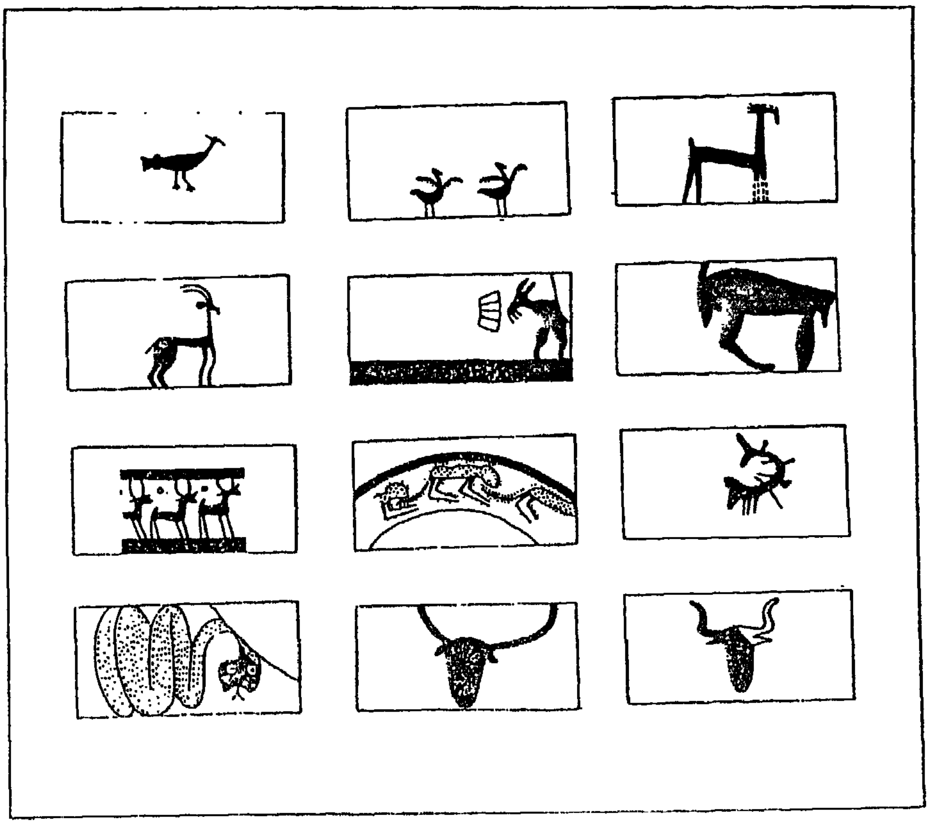
(١) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٥٧.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 276.

(٣) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٥٨.

ويتميز فخار حلف بنوعيه بألوانه وزيناته التي تمثل تفوقاً صناعياً وفنياً كبيراً، ولقد مر الفخار بثلاث مراحل من التطور، كان في المرحلة الأولى منها وهي المرحلة المبكرة من حضارة حلف، عبارة عن أواني ضحلة قواعدها مستوية وجوانبها منثنية للداخل، وهي مزينة بمجموعات خشنة من التموجات المتوازية أو الخطوط المتعرجة، وزينت الأواني أيضاً بأشكال الطيور والماعز والأغنام والأفاعي ورؤوس الكباش (شكل ٢٥)[1] ويلاحظ أن كثيراً من هذه



شكل (٢٥) زينات الأواني من عصر حضارة حلف (المرحلة المبكرة)

(١) T. Dabbagh, «Halaf Pottery», in Sumer, 22 (1966), pl. XVIII.

الأشكال تناسب الرسوم الجدارية أكثر من كونها زينة للأواني الفخارية، ولكن لم يعثر على أية رسوم جدارية خلال هذه المرحلة الحضارية(١).

وفي المرحلة الثانية كان الفخار يلون باللون الأصفر الشاحب، وكان لبعض الأواني حواف متموجة، وزينت الأواني بزخارف عبارة عن مساحات من التصاميم الهندسية التي تشبه النسيج متناسقة مع خطوط ملتوية ونقاط وصور تمثل الشمس والنجوم. (شكل ٢٦)(٢).

وفي المرحلة الأخيرة ظهرت الأطباق المتعددة الألوان المزودة بزخارف مركزية وقد أصبحت هذه الأطباق إحدى المنتجات البارزة في فخار منطقة الشرق الأدنى القديم(٣) (شكل ٢٧).

وتمكن إنسان حضارة حلف من صناعة العديد من أوانيه من الحجر الذي صنع منه كذلك العديد من الأدوات الحجرية وأدوات الزينة كالخرز والدلايات واستخدم الطين كذلك في صناعة بعض أدوات زينته كالخواتم ومن الصناعات المميزة في هذه المرحلة صناعة الأختام التي استخدمت في الطباعة على قطع الطين، وكانت هذه الأختام من أقدم الأمثلة التي عثر عليها في العراق القديم.

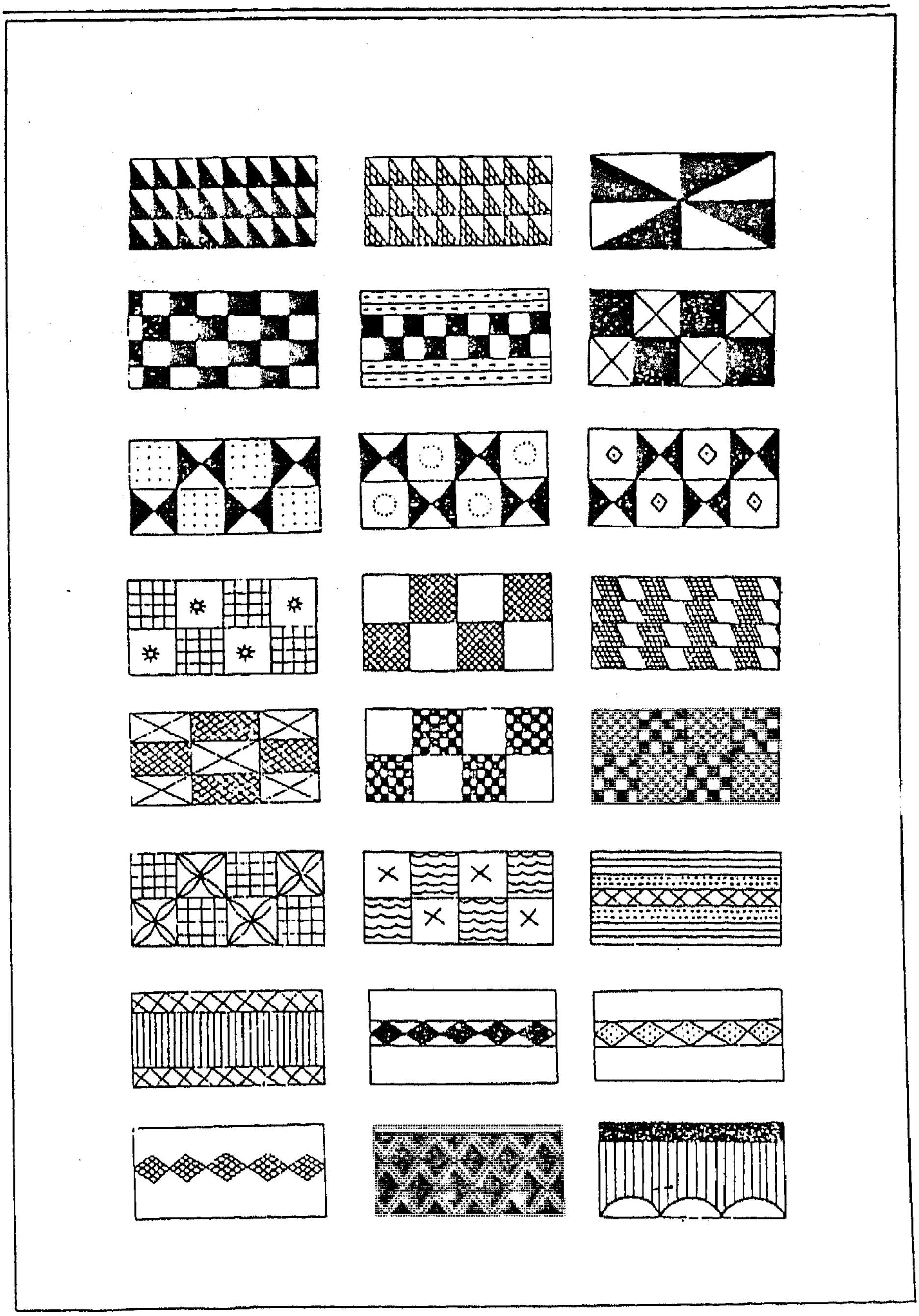
ولقد عثر على بعض الأدوات النحاسية، كالدبابيس والأزاميل، إلا أنه يلاحظ أن عددها كان محدوداً في هذه المرحلة.

أما في مجال العمارة، فكانت القرية تتكون من منازل ذات غرفتين مبنية على امتداد طرق مرصوفة بالأحجار. ويتألف المنزل من غرفة داخلية ذات قبة ضخمة وأمامها غرفة مستطيلة الشكل ذات سطح مثلث، وكان لهذه الأبنية أساسات من الحجارة واحتوت المنازل على أفران ومواقد ومخازن، وغطيت جدران وأرضيات الحجرات بطبقة سميكة من الطين وطليت من الداخل

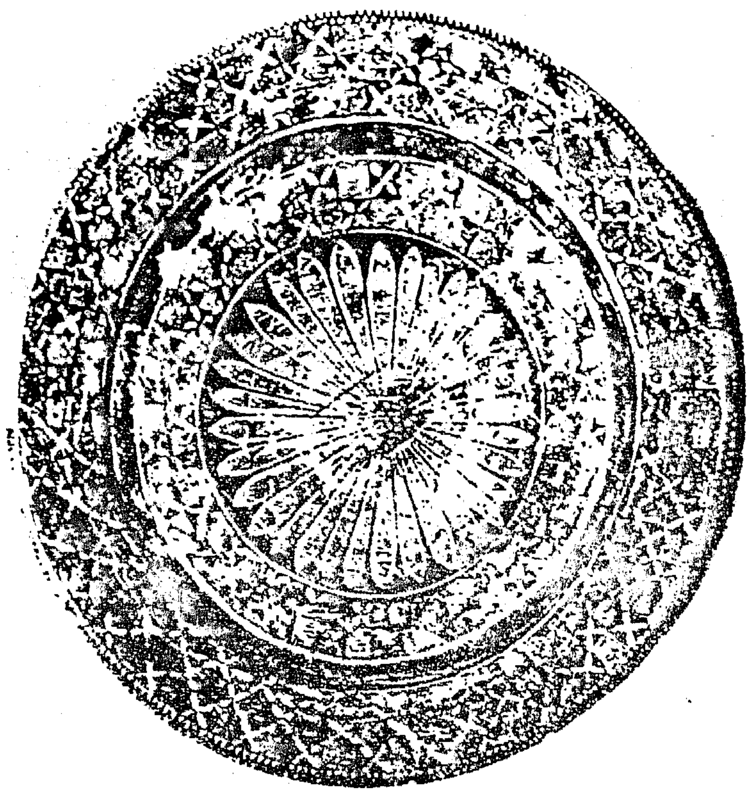
(١) J. Mellaart, op. cit., p. 280.

(٢) T. Dabbagh, op. cit., pl. XV.

(٣) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٥٩، شكل ١٠٧.

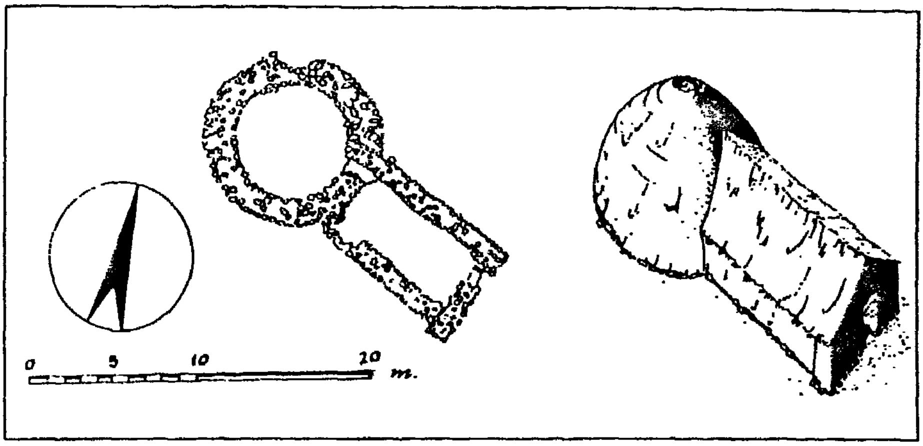


شكـل (٢٦) زينات الأواني من عصر حضارة حلف (المرحلة الثانية)



شكـل (٢٧) طبق متعدد الألوان من الفترة الأخيرة لعصر حلف في شمالي العراق - العربجية

والخارج باللون الأحمر. (شكل ٢٨)(١).



شكل (٢٨) رسم ومخطط لمنزل في موقع العربجية التابع لحضارة حلف في العصر الحجري النحاسي

ومن الناحية الاقتصادية فلقد عمل سكان تل حلف في الزراعة حيث عثر على المناجل ذات النصال المصنوعة من الصوان بكميات كبيرة، وكانت نصال المناجل لامعة بسبب الاستعمال، كما عثر على مناجل مصنوعة من حجر الصابون، ومن الحبوب التي انتجوها الشعير والقمح، وظهر الشعير ذو الستة صفوف لأول مرة في حوالى نهاية هذا العصر.

ويلاحظ أنهم تمكنوا من إنتاج الخيوط الكتانية، ويتضح من نماذج الأشكال المرسومة على الأواني الفخارية أنهم وصلوا إلى درجة كبيرة من التطور في صناعة النسيج الذي كان من الصوف بشكل رئيسي.

وتمكن الإنسان خلال هذا العصر من استئناس المواشي كالماعز والغنم

(١) نفس المرجع السابق، شكل ١٠٦.

وكذلك نوع من الكلاب يشبه كلب الصيد (السلوقي). وبالإضافة إلى ذلك فلقد مارس الإنسان حرفة الصيد، حيث عثر على رؤوس سهام وحجارة ومقالع، كما أظهرت رسومهم مناظر خاصة بالصيد، حيث ظهرت على الأواني رسوم لطيور كبيرة وخنازير برية وأرانب وحمير وحشية.

ومن الناحية الفكرية، فلقد ظل الإنسان يدفن موتاه أسفل أرضية المساكن ودفن الموتى على الجانب الأيمن في وضع مقرفص، ويتجه الرأس نحو الغرب، ووضعت مع المتوفى احتياجاته الأساسية من الأواني الفخارية والأواني الحجرية الصغيرة وحبات العقود من المرمر ودلايات من الحجر زينت بصور الطيور ورسوم الحيوانات(١).

ولم يقتصر إنسان حضارة حلف على تشكيل تماثيله في شكل إلهة الأمومة بل لقد عثر على تماثيل إنسانية أخرى يحمل بعضها زخارف معينة ربما تعبر عن وشم خاص أو عن زينات في الملابس، كما عثر على الكثير من تماثيل رؤوس الكباش مما قد يشير إلى عقيدة الخصوبة(٢).

ويشير استخدام إنسان تلك الحضارة للمواد الطينية والحجرية والأصداف والنحاس وغيرها إلى خروجه عن الإطار المحلي واستكشافه الأقاليم القريبة والنائية، فلقد حصل على الزجاج البركاني الأسود (الأوبسيدان) من منطقة بحيرة ڤان، كما حصلوا على الأصداف من منطقة الخليج العربي، كما قام بتوريد فخارهم إلى مناطق بعيدة، حيث عثر عليه في تلكي تبه قرب بحيرة ڤان التي يعتقد أنها كانت سوقاً لبضائع حلف، وعثر عليه أيضاً في مناطق أخرى مثل منطقة مالاتيا الغنية بالنحاس والذهب، هذا ويمكننا أن نشاهد آثار حلف ومستورداتها في أشكال الأواني ونماذج الزخرفة في المنطقة الممتدة من الخليج العربي حتى البحر المتوسط. وبهذا فإنه لم يسبق لأي حضارة قبل حلف أن

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٦٨.
(٢) جيمس ميلارت: المرجع السابق، ص ١٦٢.

تحكمت في منطقة إقليمية بمثل هذا الاتساع.

ويعتقد أن حضارة حلف قد انتهت نتيجة غزو من بلاد الرافدين الجنوبية، حيث جاء إلى هذه المنطقة بعض سكان حضارة العبيد نتيجة لزيادة أعداد السكان في منطقتهم الجنوبية، ويقدر نهاية عصر حضارة حلف في الفترة من ٤٤٠٠ ـ ٤٣٠٠ ق.م[١].

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

٥ ـ حضارات جنوب العراق القديم

عند نهاية عصر حضارة حلف انتقل مركز الثقل الحضاري من القسم الشمالي للعراق إلى القسم الجنوبي. وتعتبر حضارة العبيد التي تقع إلى الغرب من أور بحوالى ستة كيلومترات من أولى الحضارات التي ظهرت في القسم الجنوبي.

غير أن الحفائر التي قامت بها إدارة الآثارالعراقية في موقع أريدو عام ١٩٤٦، وأدار هذه الحفائر فؤاد صفر وسيتون لويد[١]، أثبتت وجود حضارتين أسبق عهداً من حضارة العبيد، وهما حضارة أريدو، وحضارة الحاج محمد (حجي محمد)، ويرى بعض الباحثين في هاتين الحضارتين مرحلتين مبكرتين من عصر حضارة العبيد، ومن ثم فإنهم يقسمون هذا العصر الحضاري إلى ثلاثة مراحل هي[٢]:

العبيد (١) = حضارة أريدو.

العبيد (٢) = حضارة الحاج محمد.

العبيد (٣) = حضارة العبيد الصميمة.

وعلى ذلك تصبح حضارة أريدو هي أولى المواقع الأثرية من الناحية الحضارية في جنوب السهل العراقي، يليها حضارة الحاج محمد ثم حضارة العبيد التي يليها عصر حضاري جديد، هو عصر حضارة الوركاء ثم عصر

(١) S. Lioyd, and F. Safar, «Eridu», in Sumer, 3 (1947) p. 84 F, and 4 (1948), p. 115 ff.

(٢) انظر: J. Oates, in Sumer, 22 (1966) p. 52, 58.

حضارة جمدة نصر الذي يمثل آخر المراحل التي تسبق بداية العصور التاريخية.

وسنتناول فيما يلي هذه الحضارات بشيء من التفصيل.

١ ـ حضارة أريدو: Eridu

تقع أريدو على بعد ١٩ كيلومتر جنوبي غربي أور وعلى مسافة ٢٤٠ كيلومتر من الخليج العربي ويطلق عليها حالياً أبو شهرين. ورغم هذا البعد الحالي بينها وبين الخليج العربي إلا أنه من المحتمل أنها كانت مرتبطة مباشرة مع شاطىء الخليج عبر عدد من البحيرات الواسعة وبواسطة موجات المد والجزر.

وطبقاً للتقاليد السومرية، فإن أريدو أول المدن الخمس قبل الطوفان وأول مقر للملكية[١]، ويشير السومريون إليها بقولهم: «كانت كل البلاد بحار. . . ثم قامت أريدو»[٢] وأشار الملك شولجي ابن أورنامو أحد ملوك أسرة أور الثالثة إلى أريدو وذكر أنها تقع على شاطىء البحر[٣]. وارتبطت أريدو بالمعبود أنكي الذي اشتهر بالحكمة والمعرفة وبقوته على المياه العذبة التي تدفن أسفل الأرض، وأكدت أعمال الحفائر التي أجريت في موقع أريدو أن هذه المدينة أقدم المدن المكتشفة في جنوبي العراق القديم.

وكشفت الحفائر عن كميات وفيرة من الفخار في كل طبقات موقع أريدو، ويمكن تقسيمه إلى أربعة مراحل واضحة تتفق مع التطورات الرئيسية للتطور المعماري للموقع وذلك على النحو الآتي[٤]:

١ ـ العبيد (١): وذلك في الطبقات من ١٩ ـ ١٥. وهذا هو فخار أريدو

(١) A.L. Oppenheim, «The Sumerian King List», in ANET, 1966, p. 265.

(٢) A. Heidel., The Babylonian Genesis. Ed. 2. Chicago, 1951, p. 62.

(٣) M. Mallowan, «The Development of Cities from AL-Ubaid to the End of Urk 5» in CAH, I, part I, p. 331.

(٤) Abdul Jalil Jawad, and S.Al Ruwayshdi, «The Eridu Material and It's Implications», in Sumer, 30 (1974), p. 31.

المبكر وهو وحيد اللون، لونه أصفر برتقالي أو لونه كريمي، وهو مزين بأشكال ورسوم مستقيمة الأضلاع.

٢ ـ العبيد (٢): وعثر عليه في الطبقات من ١٤ ـ ١٢، وهو مزين بطراز ظهر لأول مرة في موقع الحاج محمد.

٣ ـ العبيد (٣): وعثر عليه في الطبقات من ١٢ ـ ٨، وهو عبارة عن أواني تشبه أواني العبيد.

٤ ـ العبيد (٤): وعثر عليه في الطبقتين السابعة والسادسة، وهو يتميز بظهور الفخار الذي يشبه فخار الوركاء.

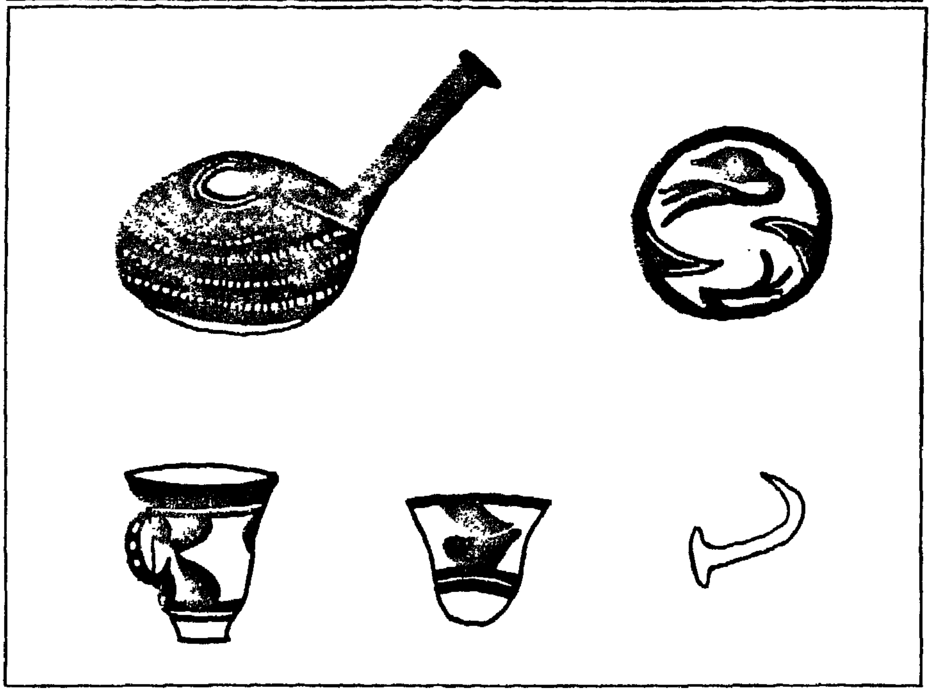
ويلاحظ أن الأشكال السائدة لفخار أريدو هي الأكواب والسلاطين، وإن ظهرت أحياناً الأطباق الكبيرة، (شكل ٢٩) ولقد تعددت ألوانها وزينت بتصميمات هندسية تكثر فيها الخطوط المستقيمة والمتعرجة والمثلثات والنقط، ويندر وجود الأشكال الطبيعية الحية. (شكل ٣٠)

وكشف في موقع أريدو عن ١٨ طبقة أثرية تحوي آثار معمارية، ويلاحظ أن الطبقات الخمس العليا من ١ ـ ٥ تنسب إلى المرحلة الحضارية التالية وهي مرحلة الوركاء وجمدة نصر، أما الطبقات التالية من ٦ ـ ١٨ فإنها ترجع إلى مرحلة العبيد الحضارية. وتجدر الإشارة إلى أن جميع البقايا المعمارية المبنية من الطين والأجر التي كشف عنها كلها ذات طبيعة دينية، إذ كانت جميعها عبارة عن معابد يمكن تقسيمها حسب تطورها المعماري إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالي[١]:

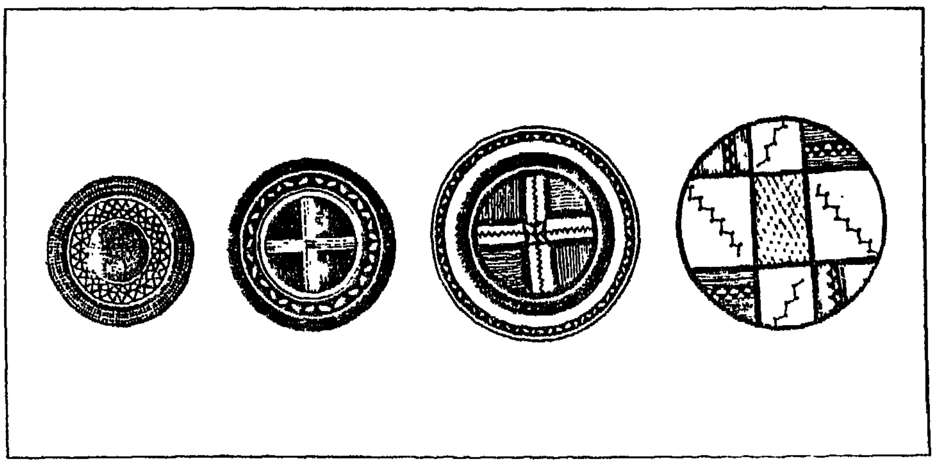
المجموعة الأولى: وهي تمثل أقدم المباني وتوجد في الطبقات من ١٨ ـ ١٥، وتحوي الطبقة السادسة عشرة أول تخطيط متكامل لمعبد (هيكل)

(١) انظر: M. Mallowan, op. cit., p. 334 ff, Fig. 24.,

سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٥٧ ـ ٥٩، شكل ١٠ ـ ١١.



شكل (٢٩) بعض نماذج الأواني الفخارية من حضارة أريدو

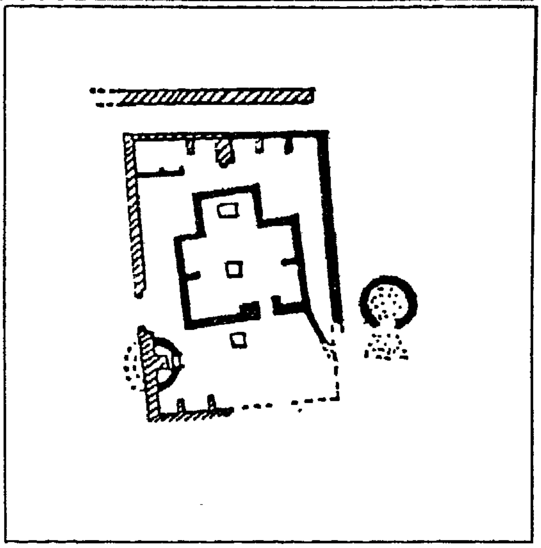


شكل (٣٠) بعض التصميمات الفخارية الملونة من حضارة أريدو

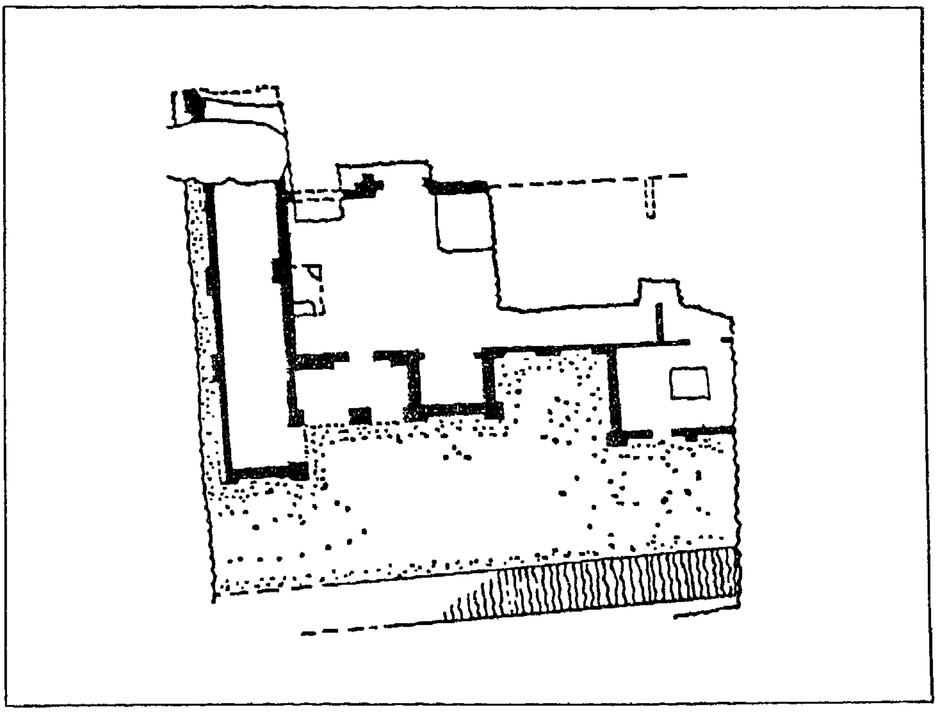
معروف في جنوب بلاد النهرين، وهو يرجع إلى حوالى ٤٩٠٠ ق.م، وهو عبارة عن بناء مستطيل الشكل تبلغ أبعاده ٨×٤ متراً، ويوجد له مدخل ضيق في جانب واحد، وهو يحتوي على مشكاة، ومذبح ومائدة قرابين، ويعتبر التصميم المعماري لهذا المعبد هو بداية التقليد المعماري الذي اتبع بعد ذلك في تصميم المعابد من حيث الأجزاء الرئيسية التي يجب أن تكون فيه (شكل ٣١).

المجموعة الثانية: تشمل المجموعة الثانية بقايا المعابد الموجودة في الطبقات من ١١ ـ ٩ ويلاحظ أن المعبد الذي كشف عنه في الطبقة التاسعة يعتبر أكبر بناء معماري كشف عنه في جنوب العراق حتى ذلك الوقت (حوالى ٤٠٠٠ ق.م)، حيث يبلغ طوله حوالى ١٥ م، وتوجد أدلة على وجود شبكة تصريف مياه بجواره (شكل ٣٢) وتجدر الإشارة إلى أن مباني هذه المجموعة ترتبط من حيث تخطيطها المعماري بطرز المعابد الشمالية وخاصة في موقع جاورا الطبقة ١٣.

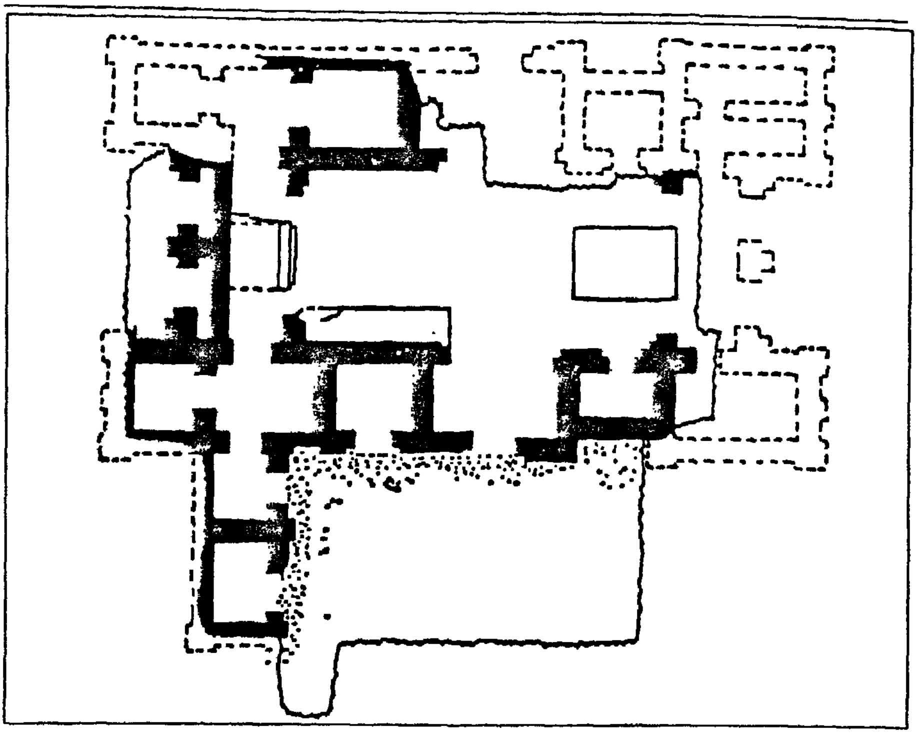
المجموعة الثالثة: تشمل المجموعة الثالثة بقايا المعابد الموجودة في الطبقات من ٨ ـ ٦ وهي آخر الطبقات التي ترجع إلى عصر حضارة العبيد وأكملها من ناحية التطور المعماري، ويلاحظ أن المعبد الموجود في الطبقة الثامنة (شكل ٣٣) من أكبر المعابد التي شيدت حتى ذلك الوقت حيث تبلغ أبعاده ٢١×١٢ م، والمباني بحالتها الراهنة مترابطة إلى حد كبير. ويفترض أنه كان يوجد درج في الناحية الجنوبية الشرقية، والذي أصبح الآن امتداداً لرصيف المعبد. ويوجد مذبح في الركن الجنوبي الغربي، ومائدة قرابين في مواجهته في نهاية الفناء. وعثر في المعبد على الكثير من الأواني الفخارية وكميات كبيرة من الأسماك المضحى بها، كما عثر بجوار المذبح على قرون حيوانات مصنوعة من الطين وكذلك الكثير من الأدوات المستخدمة في صيد السمك، ويبدو أنها تمثل القرابين التي كان يقدمها الصيادون للمعبد، مما يرجح وجود صلة قوية تربطهم بالمعبد.



شكل (٣١) رسم تخطيطي لتصميم المعابد المبكرة في أريدو (الطبقة ١٥)



شكل (٣٢) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة التاسعة)

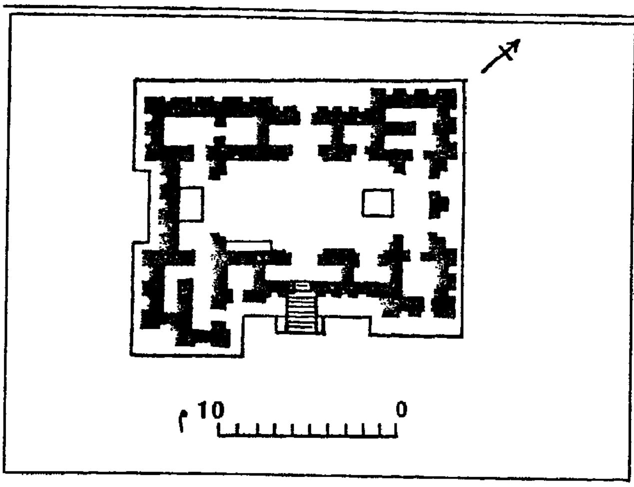


شكل (٣٣) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة الثانية)

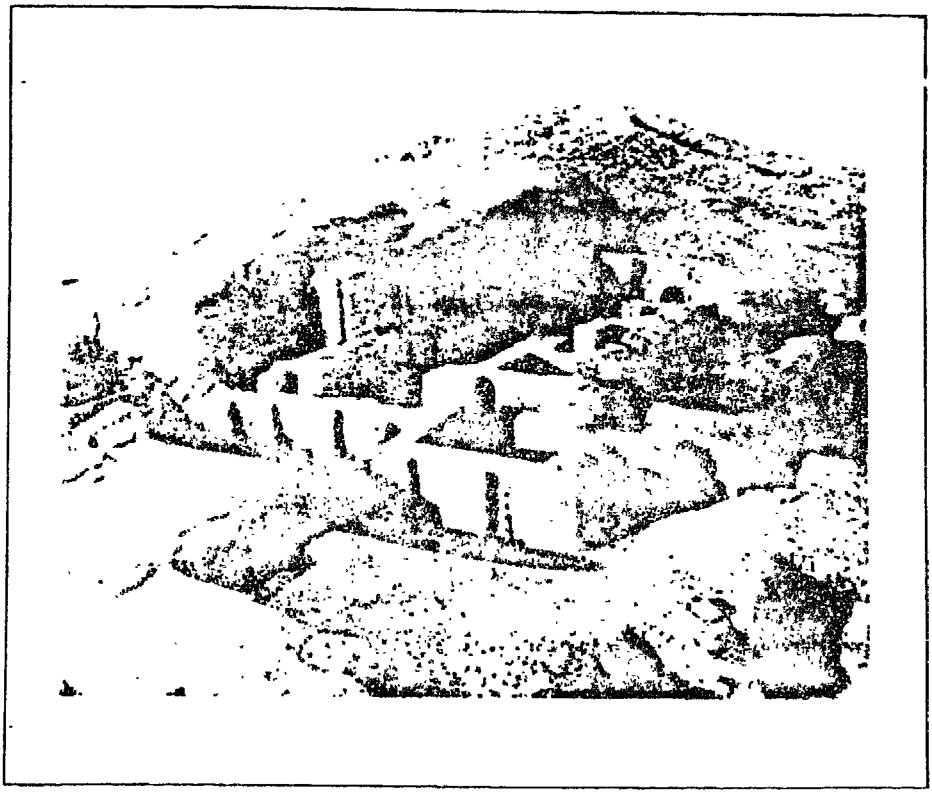
أما المعبد الذي كشف عنه في الطبقة السابعة (شكل ٣٤[1]، ٣٥)[2] فتبلغ مساحته ١٨,٥×١٣ متراً وكان مزيناً وأكثر ترتيباً من المعبد الموجود في الطبقة السابقة، وكان مدخله عبارة عن مجموعة متواصلة من الدرج التي تقع مباشرة على محور يؤدي إلى المقصورة، ويوجد هذا المدخل في الناحية الجنوبية من المعبد، وبالإضافة إلى هذا المدخل الرئيسي كانت توجد مداخل أخرى صغيرة في الجوانب الضيقة للمعبد في مواجهة المذبح. ويوجد في أرضية هذا المعبد

(١) M. Mallowan, op. cit., Fig. 25 (a), p. 337 - 339.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، شكل رقم ١١ ص ٥٩.



شكل (٣٤) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة السابعة)



شكل (٣٥) منظر يوضح شكل معبد أريدو بعد الكشف عنه في (الطبقة السابعة)

الكثير من عظام الأسماك، ويبلغ سمك هذه الأرضية حوالى ٤٠ سم. ويشبه هذا المعبد معابد حضارة الوركاء في المراحل الرابعة والثالثة مما يوضح أن المعابد السومرية ارتبطت ببعضها بمراحل مستمرة من التطور.

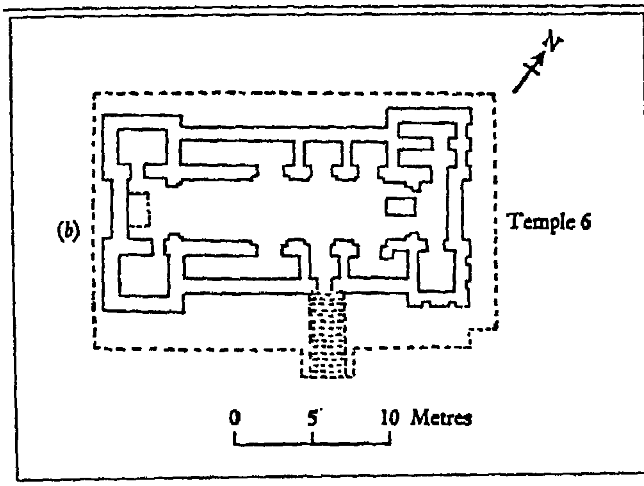
أما آخر المعابد التي ترجع إلى عصر حضارة أريدو، فلقد كشف عنه في الطبقة السادسة (شكل ٣٦)[١] وتبلغ أبعاده ٢٣×١٢ م. ويلاحظ أنه أقل عرضاً وأكثر تناسقاً من المعابد السابقة، كما أن الحجرات الموجودة في الأركان، كان البروز الموجود فيها أقل. ومن الأشياء اللافتة للنظر في هذا المعبد أن المدخلين الموجودين في الجانبين الضيقين مختفيين، ويوجد مدخل من الجانب الطويل فقط. وبهذا المعبد تنتهي المباني الدينية التي ترجع إلى عصر حضارة العبيد في مدينة أريدو، والتي بلغت تطوراً كبيراً خلال الطبقات الأثرية للموقع ولقد أمكن عمل شكل يمثل معبد أريدو مكتملاً في عصر بداية الكتابة (شكل ٣٧)[٢].

وفيما يتصل بعادات الدفن في أريدو، فلقد كشف عن جبانة أريدو والتي ترجع إلى النصف الأول من الألف الرابع ق.م، وكانت الجبانة خارج مبان المدينة والمعبد، ويتضح من تماثل القبور وعددها أنها كانت جبانة عاصمة حقيقية. ومن الأشياء اللافتة للنظر في مقابر أريدو، أن العظام التي كشف عنها كانت كلها تقريباً مصبوغة بلون برتقالي قاتم، وكان نفس اللون ظاهراً على عظام الكلاب، كما ظهر اللون نفسه على قطعة عظام بجانب فم كلب. ويتجه سيتون لويد إلى أن هذا اللون ربما كان ناتجاً عن بعض التفاعلات الكيميائية في التربة، ولم يكن نتيجة صبغه بشكل متعمد بمادة المغرة الحمراء لأسباب دينية[٣] وإن كان هذا الرأي تعوزه الدقة نظراً لحقيقة العثور على كثير من الهياكل العظمية في مناطق متفرقة من الشرق الأدنى القديم في إيران والعراق وسوريا وفلسطين وقد

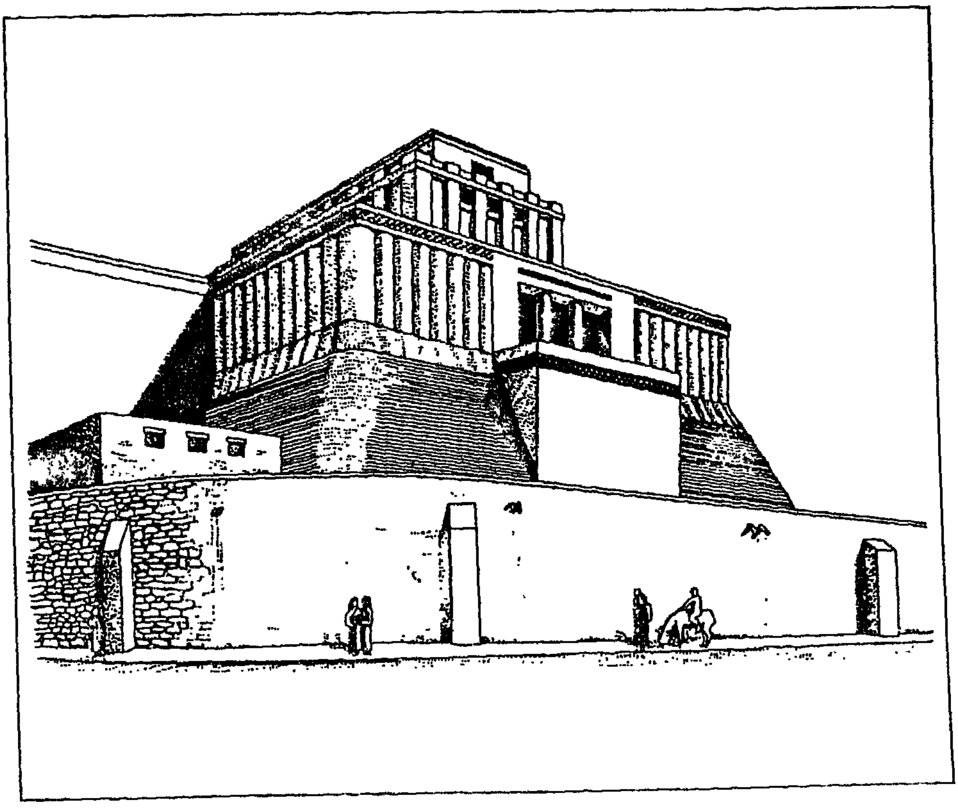
(١) M. Mallowan, op. cit., Fig. 25 (b), p. 339.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، شكل رقم ٨، ص ٥٣.

(٣) نفس المرجع السابق، ص ٦٤.



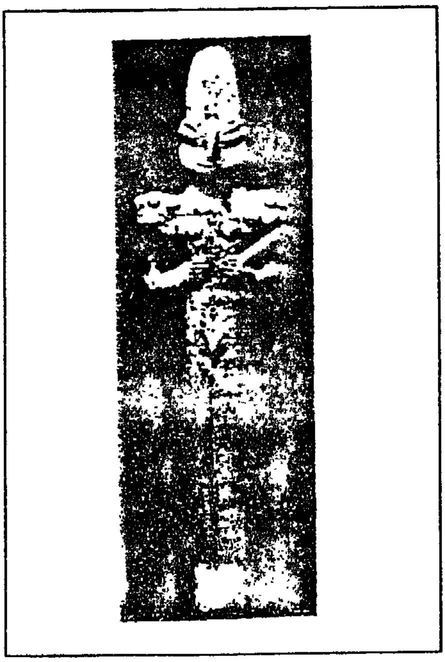
شكل (٣٦) رسم تخطيطي لتصميم المعابد في أريدو (الطبقة السادسة)



شكل (٣٧) رسم يمثل إعادة بناء معبد أريدو في عصر ما قبل الكتابة

غطيت الأجساد باللون الأحمر، مما يشير إلى أن هذا اللون قد يوضع بشكل عمدي لهدف ديني يرجح أن يكون لعقيدة الإنسان بعودة الحياة مرة ثانية وهي عقيدة البعث والخلود.

ولقد عثر في هذه المقابر على مجموعات ضخمة من الأواني الفخارية الكاملة، كما عثر فيهاعلى إعداد كبيرة من التماثيل الطينية التي يمثل بعضها الإلهة الأم، كما عثر أيضاً على تماثيل فخارية للرجال (شكل ٣٨)[١]، كما عثر على بعض المصنوعات الفخارية أيضاً مثل المناجل والفؤوس والمسامير الضخمة ذات النهاية المعقوفة، وعثر أيضاً على بعض الأدوات الحجرية كالسكاكين الصوانية، وكذلك بعض الأدوات العظمية.



شكل (٣٨) تمثال فخاري لرجل من أريدو

(١) نفس المرجع السابق، شكل ١٦ ص ٦٤.

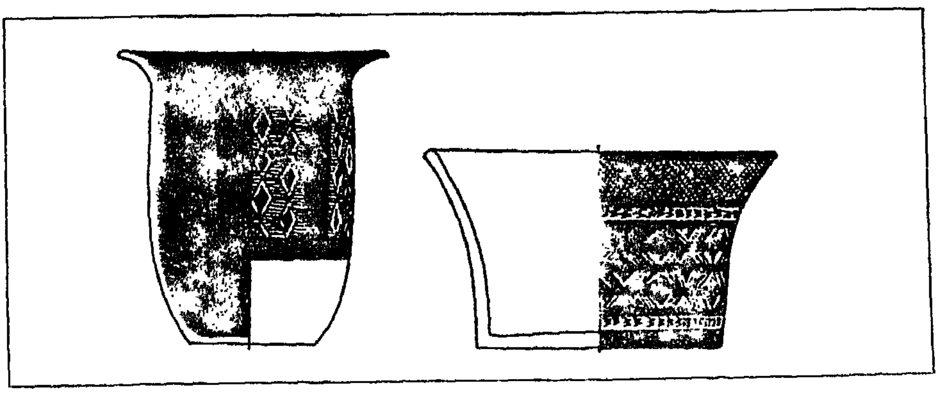
٢ ــ حضارة الحاج محمد: Hajji Muhammad

تقع الحاج محمد على ضفاف نهر الفرات، جنوب غرب الوركاء بحوالى ١٨ كم، ويطلق على الموقع الأثري «قلعة حجي محمد»(١).

ونظراً لارتفاع المياه الجوفية في هذا الموقع لوقوعه على ضفاف النهر، وتعرضه للفيضانات، فإن بقايا الجدران الطينية وكذلك المصنوعة من البوص قد تآكلت ولم يبق منها شيء.

ويمثل الفخار الذي أمكن جمعه من على السطح مرحلة مبكرة جداً في تطور إنسان العبيد، ويمثل هذا الفخار سلسلة من التطور تسبق نموذج فخار العبيد في طبقة أريدو الثانية عشرة، ويمكن أن يرتبط بأشكال الفخار المبكرة الشمالية والذي كان مألوفاً في عصور ما قبل الكتابة في آشور.

ويتميز فخار الحاج محمد بأنه شكل على هيئة أواني ومزهريات وأطباق، وأحياناً كانت تغطي جميعها بالزينات، ومن الأواني المميزة في هذا الموقع، الأواني الفخارية العميقة ذات الجوانب المقوسة والمزينة بزينات هندسية في خطوط مائلة ومتعرجة ومربعات، وقد لون بنفس ألوان فخار أريدو مع ظهور لون جديد هو اللون القرمزي الغامق. (شكل ٣٩)



شكل (٣٩) يعض نماذج الأواني الفخارية وزيناتها من موقع الحاج محمد

(١) C. Ziegler, Die Keramik von der Qala des Haggi Mohammed, Berlin, 1953.

ويلاحظ أن صناعة الخزف في حضارة الحاج محمد قد تأثرت بشكل كبير بطرز فخار حضارة حلف الشمالية سواء في طرز الأواني أو زيناتها. ولقد عثر على فخار مشابه له أيضاً في سوسة في إيران[1].

ويبدو أن الإنتاج الحضاري في الموقع ظل مستمراً حتى عصر العبيد، حيث ظهرت بعض أنواع الأواني أكثر تطوراً من مثيلاتها. ولقد عثر في هذا الموقع أيضاً على منجل مصنوع من الفخار لم يُعرف قبل الطبقة الثالثة عشرة في أريدو، وعثر كذلك على فؤوس حجرية ومجارف.

ويلاحظ أن الفخار الذي عثر عليه في موقع الحاج محمد يقدم مجموعة متطورة وأكثر تقدماً من الفخار الذي كشف عنه في أريدو.

٣ ــ حضارة العبيد: **Al-Ubaid**

اتخذت هذه الحضارة اسمها نسبة إلى موقع العبيد الذي يقع غرب أور بحوالى سبعة كيلومترات. وتعبر حضارة العبيد عن استقلال جنوب السهل العراقي إذ قدم من المظاهر الحضارية الجديدة ما أضفى عليها طابعاً مميزاً يتفق مع طبيعة القسم الجنوبي من العراق، وانتشر التأثير الحضاري لحضارة العبيد حتى استوعب معظم شمال العراق.

ومن المواقع التي تمثل هذه المرحلة الحضارية في الجنوب: تل العبيد، والوركاء، ورأس العميان، وتل العقير، وأريدو، وأور، ولجش، والحاج محمد. أما المواقع التي تمثلها في الشمال فهي: تبة جاورا (تل الأربجية) وجبل سنجار وتل البراك ونوزي وتل حسونة ونينوى وتل حلف. ويشير ذلك إلى أن التأثير الحضاري لحضارة العبيد قد امتد إلى كل أرض بابل جنوباً وشمالاً وكذلك كل أرض آشور وتخومها الشمالية والشرقية والغربية حتى حدود الخابور.

---

(١) انظر: أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص ٢٧٨ وما بعدها.

وتعتبر حضارة العبيد أول حضارة في العراق القديم تنتشر في الشمال والجنوب رغم كونها جنوبية الأصل، ويظهر الإنتاج الحضاري الجديد في العديد من المجالات مثل صناعة الأواني الفخارية الملونة والمزينة، والأواني الحجرية والأدوات النحاسية والعظمية والطينية، والعمارة في مجالاتها الدينية والمدنية، كما ظهر التفوق الحضاري كذلك في ظهور بعض المفاهيم الفكرية في كل من المراكز الحضارية لحضارة العبيد في الجنوب والشمال، وقد أثبتت الدراسة المقارنة لحضارات العبيد الشمالية والجنوبية وجود تشابه واختلاف بين إنتاج هاتين الحضارتين ولكنهما ينتميان أصلاً إلى حضارة واحدة، سرعان ما تأثرت بالبيئة المحيطة بها فأعطتها شكلها المميز الذي انطبع على مظاهر إنتاجها الحضاري في مجالاته المادية المتعددة وكذلك في مجالاته الفكرية.

وفيما يتصل بأصل حضارة العبيد، فهناك من الباحثين من يرى أنها ليست متطورة من حضارات العراق السابقة لها، ويذهب بعضهم إلى القول بأنها ترجع في أصولها إلى الهضبة الإيرانية، حيث جاءت هجرة من غرب إيران في أوائل الألف الرابعة قبل الميلاد أو قبلها بقليل وذلك أثر حدوث تغير مفاجىء أدى إلى حدوث جفاف في مواطنهم الأصلية، وفي نفس الوقت فإنه لا يستبعد أن تكون قد حدثت هجرات أخرى سامية من ناحية الغرب اتجهت إلى بلاد النهرين بالتسلل السلمي حيناً وبالغزو القبلي حيناً آخر[١].

ولقد أدى الكشف في شمال الجزيرة العربية وشرقها عن العديد من المواقع الأثرية التي تنتمي إلى حضارة العبيد، إلى اتجاه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بوجود علاقات بين سكان شرق شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق، ويرى أصحاب هذا الرأي أن مجموعات بشرية من شرق الجزيرة العربية قد هاجرت إلى السهل الفيضي القريب منهم حيث حدث تبادل بين جنوب العراق وشمال شرق الجزيرة العربية في مجال الصناعات الحجرية والمنتجات

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

البحرية مثل الأصداف واللآلىء أثناء عصر العبيد[١].

كما أن هناك من الباحثين من يرى أن أصحاب حضارة العبيد قد جاءوا من المنطقة الشمالية في شمال العراق نفسه واتجهوا ناحية الجنوب، حيث أقاموا هذه الحضارة[٢].

ونتناول فيما يلي المظاهر الحضارية المتعددة لحضارة العبيد في جنوب بلاد النهرين وشمالها، ونبدأ بالمظاهر الحضارية في الجنوب.

ففي مجال الصناعات الفخارية، يلاحظ تأثر فخار العبيد المبكر بشكل واضح بفخار حضارتى أريدو والحاج محمد السابقتين، أما الإنتاج الفخاري في الطبقات التالية، فقد تضمن تصميمات عبارة عن أشرطة وخطوط عريضة مستقيمة ومقوسة، كما تضمن أشكالاً نباتية مثل الورود وأوراق الأشجار، وزود فخار العبيد أحياناً بالصنابير والأذان الصغيرة والمقابض ويلاحظ أنه لم يتبق من موقع العبيد إلا عدد ضئيل من الأواني الفخارية[٣]، بينما كشف في المواقع الأخرى في الجنوب على الكثير من طرز هذه الأواني، ومن هذه المواقع تل العقير (حالياً تل إبراهيم) جنوب بغداد بحوالى ٥٠ ميل. (شكل ٤٠)[٤].

ومن الصناعات الفخارية الهامة في جنوب العراق ما كان يتصل بمهنتى صيد الأسماك والزراعة، فلقد كشف عن مسامير مثنية من الطين، وفؤوس ومناجل في العديد من مواقع هذه الحضارة في الجنوب (شكل ٤١)[٥] ووجدت بعض المناجل وعليها بقايا القار عند مقابضها.

وفي مجال العمارة، فلقد شيدت المساكن من البوص والطين وبعضها

---

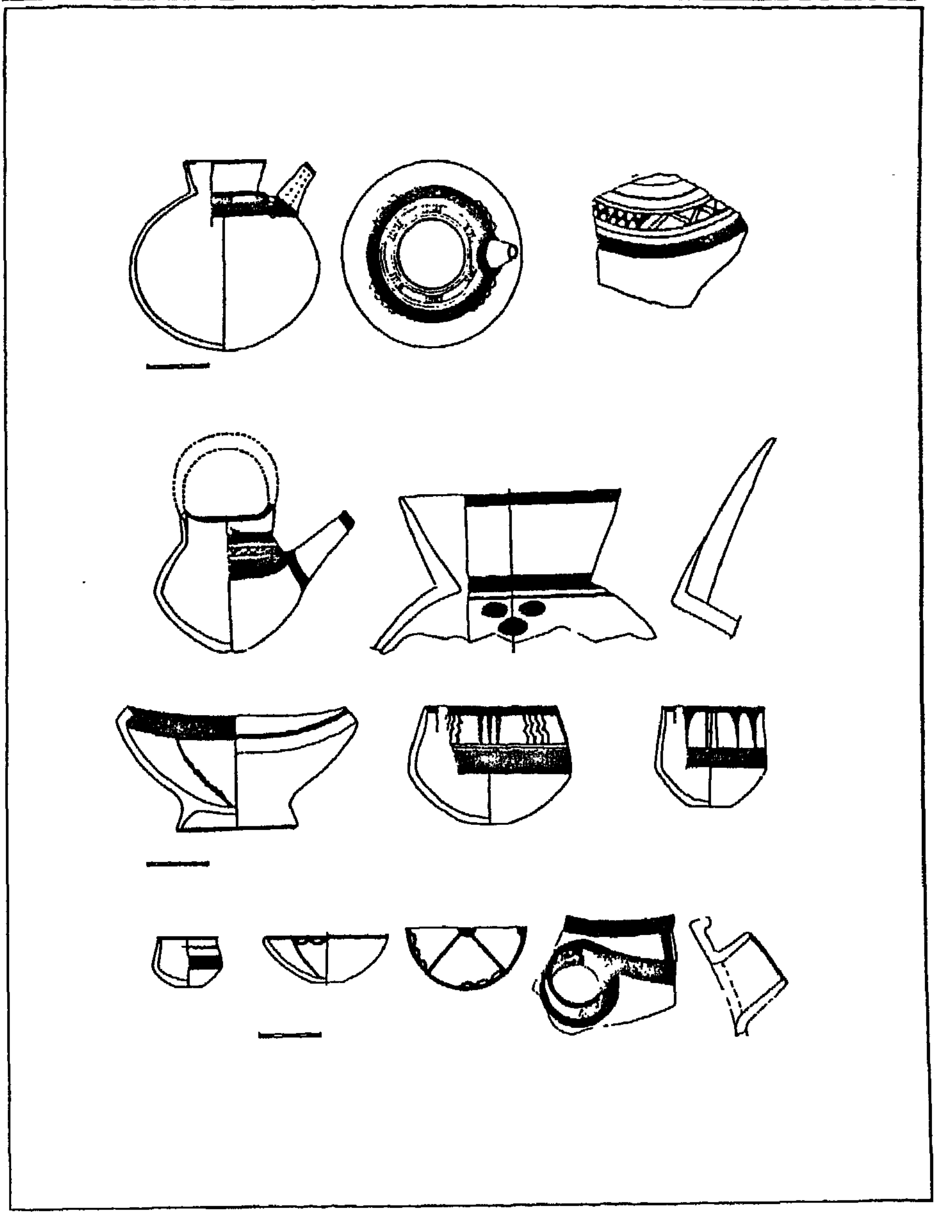
(١) Abdullah Hassan Masry, Prehistory in Northeastern Arabia, The Problem of Interregional Interaction, Miami, Folorida 1974, p. 1 - 20.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣١.

(٣) M. Mallowan, op. cit., p. 357.

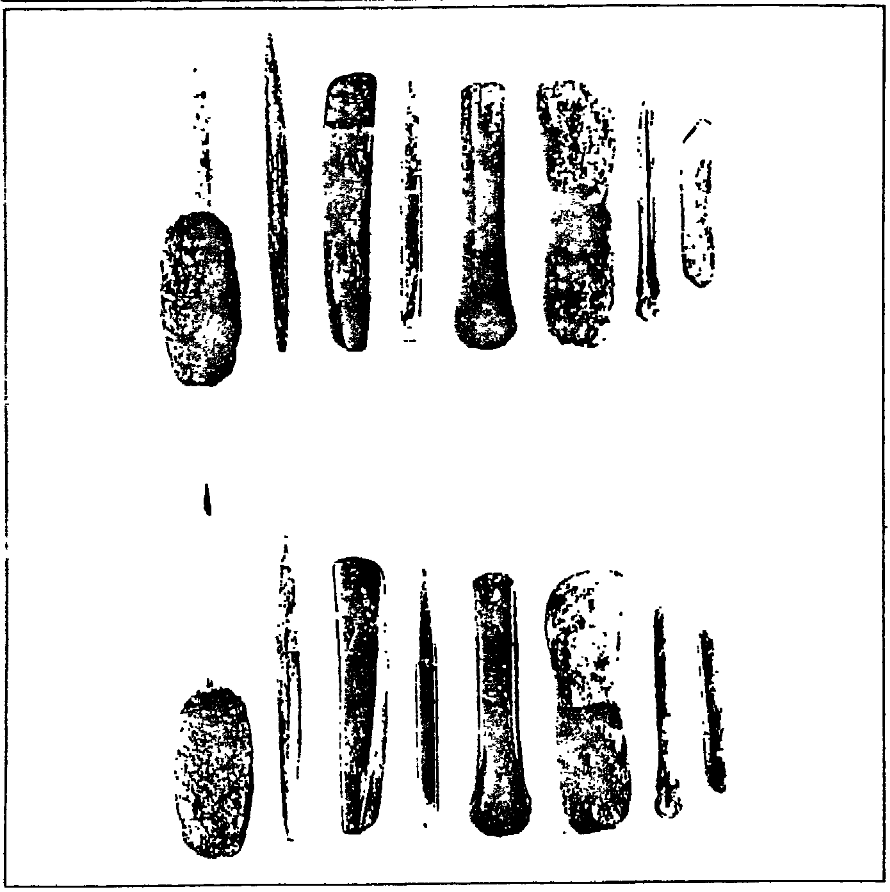
(٤) S. Lioyd, and F. Safar., «Tell Uqair», in JNES. vol. 2 (1943)l p. 150, pl. XXI.

(٥) Ibid., pl. XXVIII (b).



شكـل (٤٠)

بعض نماذج الأواني الفخارية وزيناتها من موقع تل العقير



شكـل (٤١)
بعض نماذج للمناجل الطينية من موقع تل العقير

كان من الآجر، وقد كشف في تل العقير عن منطقة استقرار من عصر العبيد تضم سبع طبقات أثرية، ويلاحظ أن الموقع، مثله مثل باقي المواقع التي كشف عنها في جنوب بلاد النهرين والتي شيدت فوق تربة مستنقعات، لم يكشف في أولى طبقاته عن أية آثار للجدران، حيث كانت المساكن الأولى تشيد من حزم البوص السميك أو الحصير، ولكن في الطبقات التالية بدأ أهل هذه الحضارة في

استخدام الجدران في بناء منازلهم حيث شيدت من كتل من الطين. وفي الطبقات العليا كشف عن بقايا منازل، ويلاحظ أنه كشف عن منزل يرجح أنه كان لشخصية كبيرة. وذلك نظراً لما يحتويه من حجرات وافنية وممرات وحجمه الكبير نوعاً ما[١]. أما معابد القسم الجنوبي فمن أفضل ما يمثلها معبد أريدو الذي سبقت الإشارة إليه.

وفيما يتعلق بالمظاهر الحضارية لحضارة العبيد الشمالية فيلاحظ أنه عثر على الإنتاج الحضاري الخاص بها في العديد من المواقع الأثرية الشمالية التي سبق الإشارة إليها، ومن أهم هذه المواقع تبة جاورا، ويحتوي هذا الموقع على عشرين طبقة أثرية تنتمي الطبقات من ٢٠ ـ ٩ إلى عصر حضارة العبيد أما الطبقات الثمان العليا فهي ترجع إلى عصر حضارتي الوركاء وجمدة نصر.

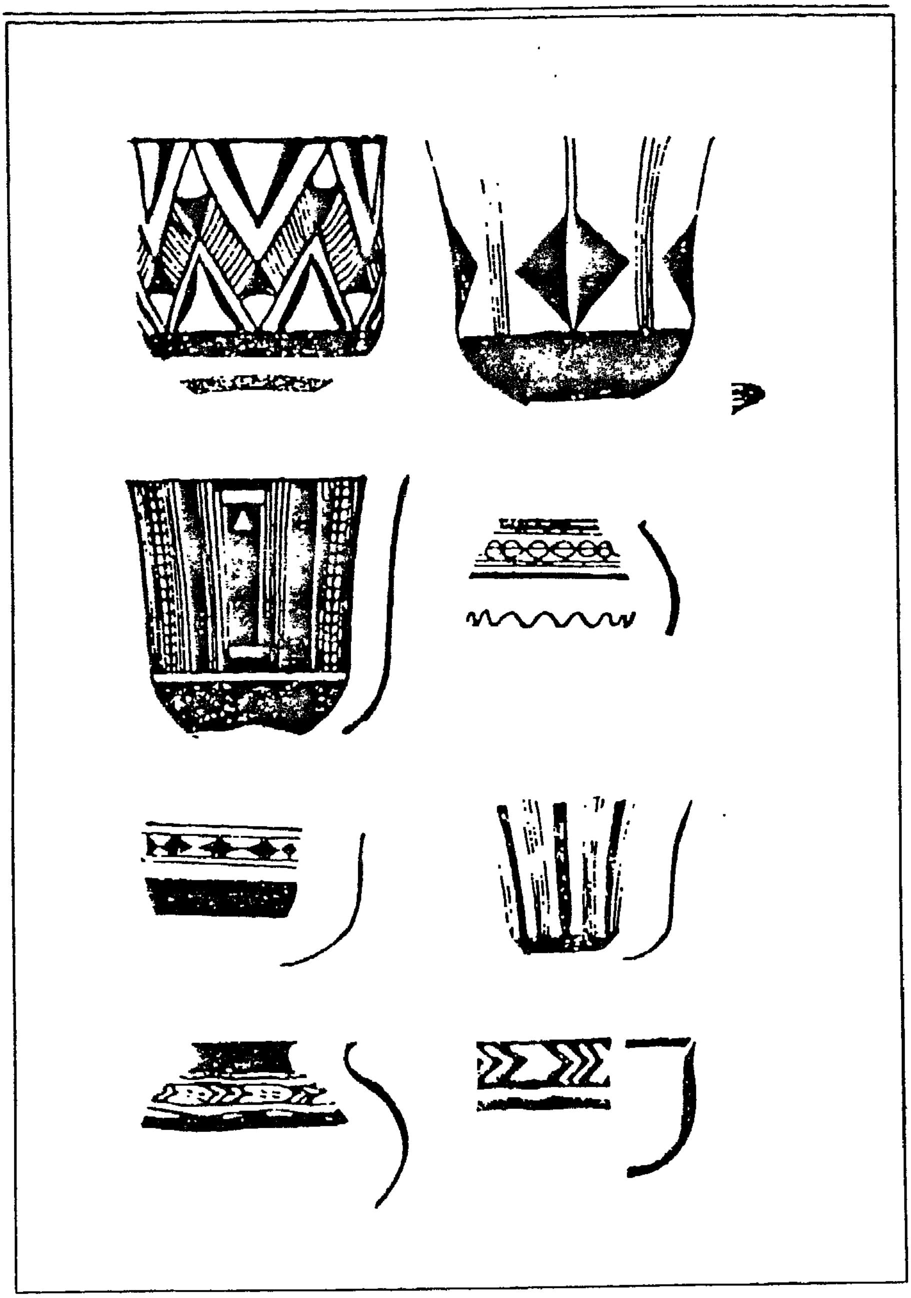
وفيما يتصل بالأواني الفخارية، فيلاحظ أن أولى طبقات هذا الموقع (الطبقة ٢٠) قد أنتجت فخاراً يشبه فخار تل حلف المجاور، ولكن بدءاً من الطبقة التاسعة عشر، بدأ يظهر الفخار الخاص بحضارة العبيد. ويتميز فخار العبيد في تبة جاورا بأحجامه الصغيرة ورقة جدرانه، وتزيين معظم أجزائه من الخارج فقط بزينات معظمها هندسية. ومن الأشياء المميزة في أشكال الأواني، هي الأواني التي توصف بأنها مزدوجة التحدب، والتي زينت من الداخل، ويلاحظ أيضاً أن زينة الأواني بواسطة النقط والتي كانت معروفة في تل حلف قد ندر استخدامها في جاورا، وأصبحت الألوان قاتمة (شكل ٤٢)[٢].

ويلاحظ أن الفخار الذي عثر عليه في تل العربجية قد زين بتصميمات هندسية عبارة عن أشرطة وخطوط مستقيمة ومتعرجة ومثلثات ونقط، كما زين أحياناً بأشكال نباتية مثل أوراق الشجر (شكل ٤٣)[٣] ويمثل موقع تل البراك آخر

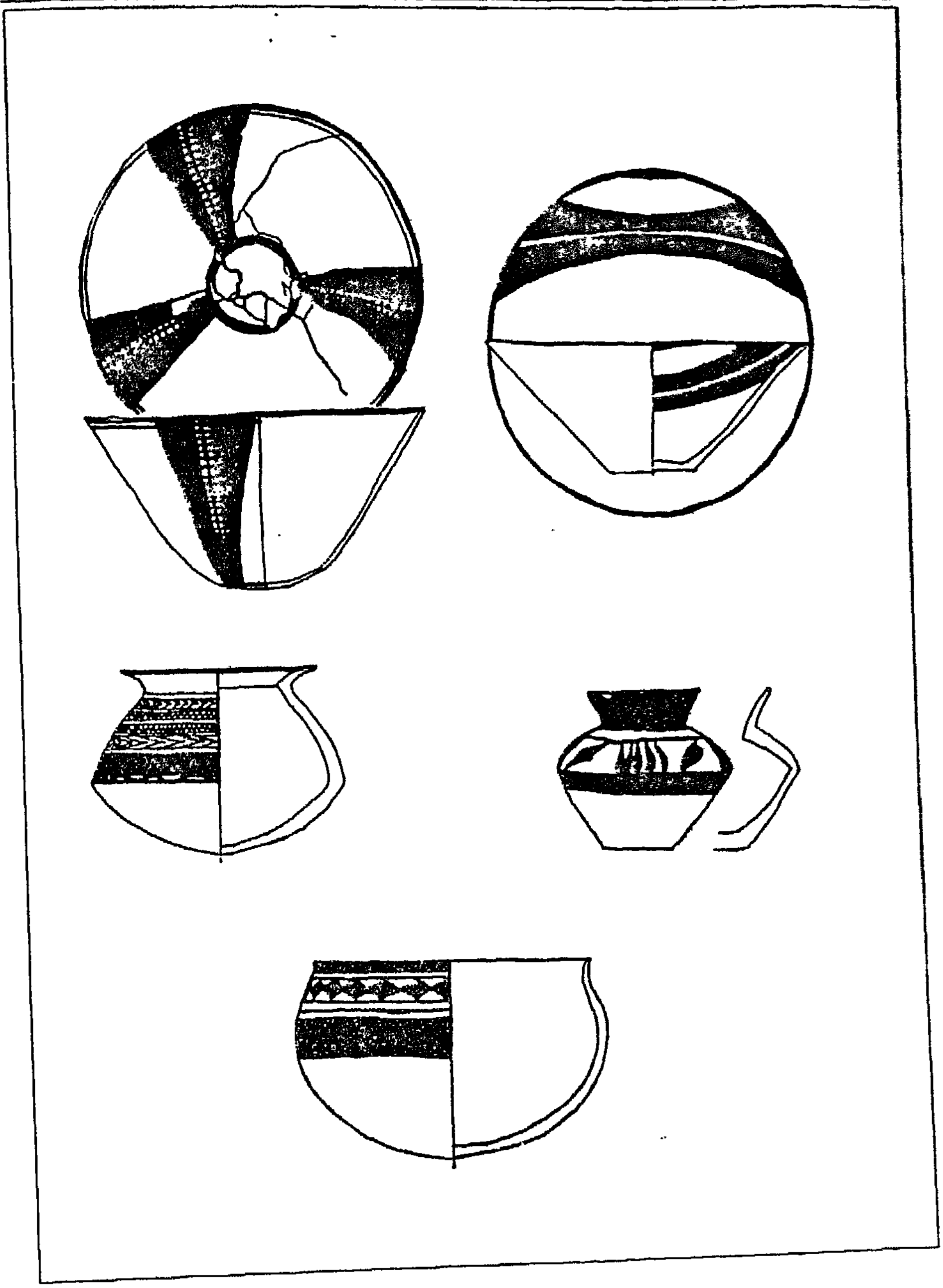
(١) M. Mallowan, op. cit., p. 369.

(٢) بورهارد برنيتيس: نشوء الحضارات القديمة ترجمة جبرائيل يوسف كباس، دمشق، ١٩٨٩، ص ٨٢.

(٣) M. Mallowan, op. cit., Fig. 34.



شكـل (٤٢)
بعض نماذج الأواني الفخارية في تبة جاورا



شكـل (٤٣)
بعض نماذج الأواني الفخارية في تل العربجية

المواقع التي انتشر فيها فخار العبيد في شمال العراق.

ولقد كشف عن العديد من المصنوعات في مواقع العبيد الشمالية وبخاصة صناعة الحلى حيث استخدمت العديد من الأحجار مثل الفيروز والعقيق والهيماتيت والرخام والحجر الكلسي والكوارتز والأوبسيديان واللازورد في صناعة الخرز، كما صنع الخرز أيضاً من العاج والأصداف، ومن الملاحظ أيضاً استخدام الحلى الذهبية بكثرة في موقع تبه جاورا حيث كشف عن خواتم وأزرار صغيرة ووردبات وحلى هلالية الشكل مأخوذة من صفائح معدنية ومعلقة على قماش الملابس أو أكاليل الرأس، كما عثر أيضاً على قطعة حلى صغيرة مصنوعة من خليط الذهب والفضة وهي مشكلة على هيئة رأس ذئب، وكانت مؤلفة من عناصر وأجزاء منفصلة ملحومة بمهارة فائقة[١].

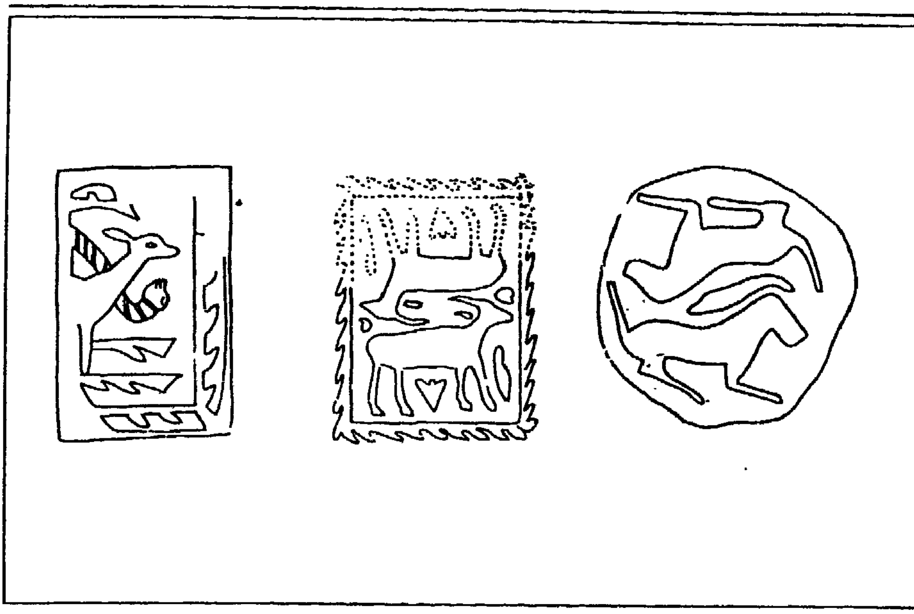
وتتميز حضارة العبيد الشمالية بإنتاج أختام الطابع، حيث كشف عنه في تبه جاورا وبخاصة في الطبقة (١٣) حيث عثر على العديد من نماذج طبعات الأختام، ويلاحظ أن أولى الأختام التي كشف عنها كانت عبارة عن أقراص بسيطة وأزرار ومربعات من الحجر وكانت تحوي رسوماً بسيطة من خطوط مستقيمة أو متقاطعة، كما تضمنت أشكالاً إنسانية وحيوانية (شكل ٤٤)[٢]، ورسمت على بعض الأختام بعض الطقوس الدينية، ومنها طقوس الرقص المقدس، ومن بين هذه الأختام رسم شخص وقد ارتدى قناعاً له قرون وقد تبعه وعل، كما توجد مناظر للصيد[٣].

وفيما يتعلق بالإنتاج الحضاري في مجال العمارة، فقد شيدت المنازل في مواقع حضارة العبيد الشمالية من الآجر، وقد وجدت بقايا المنازل في موقع تبة جاورا الطبقة (١٩) خلف المعبد، حيث كشف عن مجموعتين من المساكن

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) نفس المرجع السابق، شكل ٤٧.

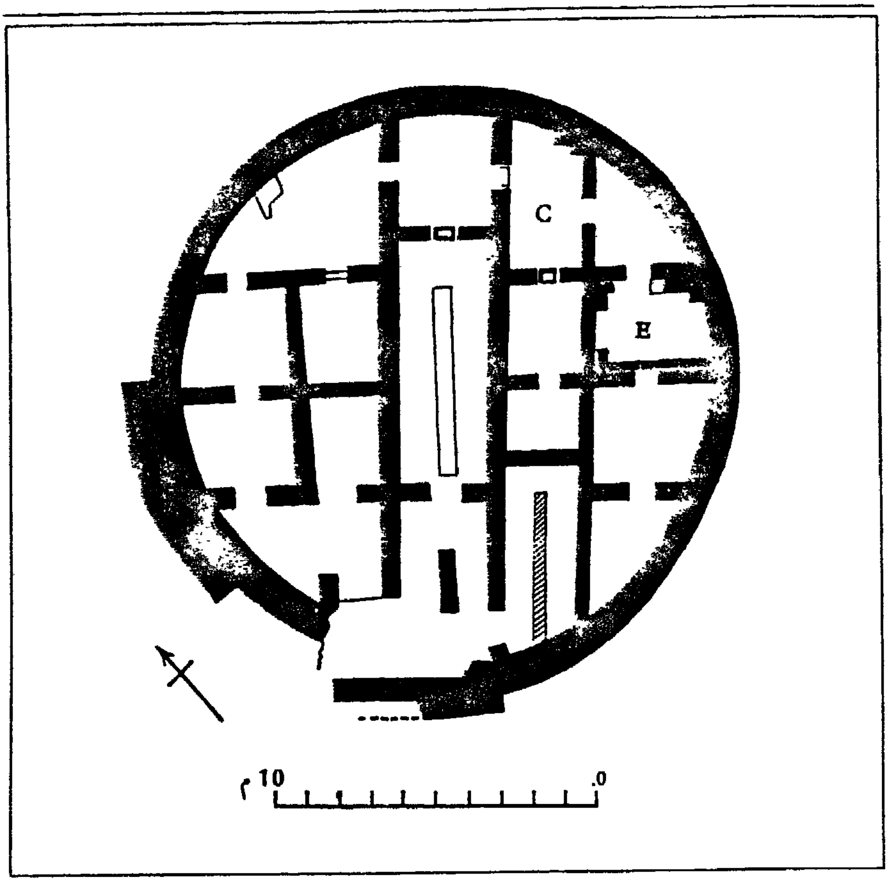
(٣) M. Mallowan, op. cit., p. 392.



شكل (٤٤) بعض نماذج الأختام من موقع تبة جاورا

حيث لم تخصص منطقة للسكن وأخرى للعبادة، وأقيمت بعض جدران المنازل فوق أساسات من الحجر، وزودت المنازل بالأفران والأواني الفخارية الكبيرة التي استخدمت في تخزين المياه والحبوب. ولقد كشف في الطبقة (١١) في تبة جاورا عن بناء مستدير عرف باسم «البيت المستدير» (شكل ٤٥)[١] وهو يتميز بجدرانه التي يبلغ سمكها حوالى المتر، كما يبلغ قطر البناء ١٨ م، ويبدو أنه يحتوي على ما لا يقل عن ١٧ غرفة. وقد اختلف الباحثون حول طبيعة هذا البناء والغرض منه، فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد بأنه بناء ديني، بينما يرى آخرون أنه ليس لتصميمه أية أهمية طقسية وليس هناك أي مبرر لإعطائه أي غرض ديني، وذلك حيث ظهرت الأبنية الدائرية في مناطق عديدة من الشرق الأدنى القديم منذ العصر الحجري الوسيط، وكانت تمثل بالإضافة إلى الأبنية المستطيلة

(١) Ibid., Fig. 32.



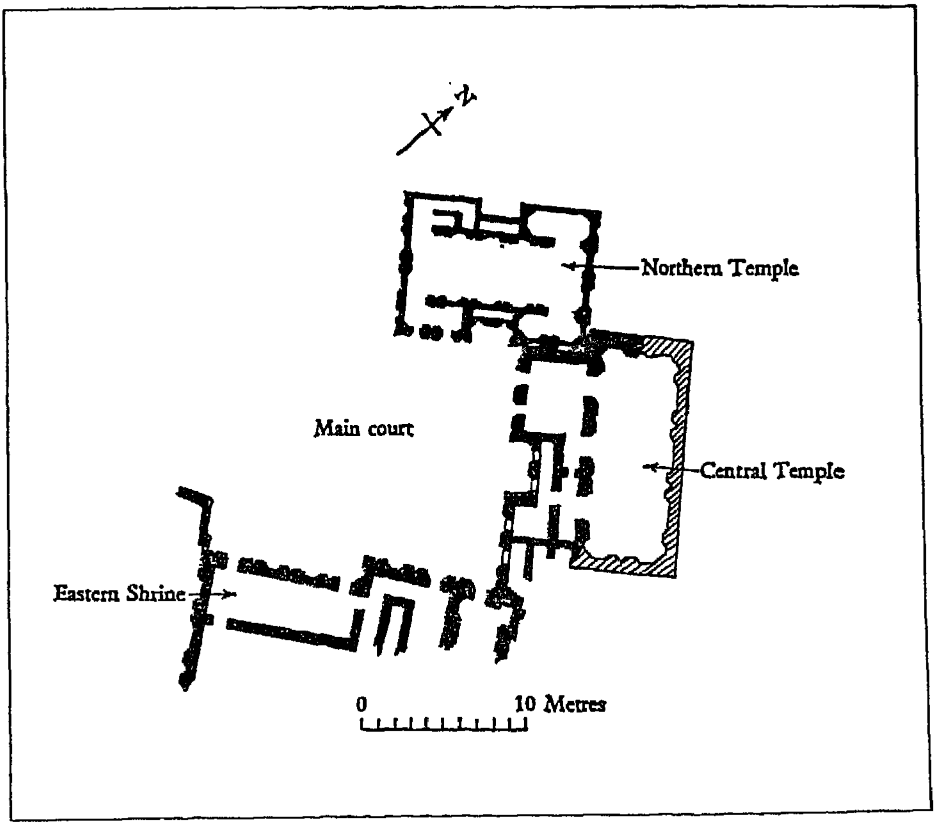
شكل رسم تخطيطي للمنزل المستدير في تبة جاورا

واحداً من نوعين بسيطين للأبنية الدائمة المتطورة من تقاليد مختلفة في بناء المنازل المؤقتة للسكان المتنقلين(١). وعلى ذلك فإنني أعتقد أنه يمثل أحد المنازل الدنيوية، ولقد ظهرت في مصر أيضاً منازل دائرية وذلك في عصر حضارة المعادي.

وتفوق إنسان حضارة العبيد في المجال المعنوي حيث عثر على آثار

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

المعابد والمقابر، وفيما يتصل بالمعابد، فلقد كشف في موقع تبة جاورا على العديد من المعابد التي يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم مبكر ويتضمن معابد ذات أشكال مستطيلة مبنية من الأجر، وتشغل مساحة كبيرة، وتتضمن فناء تتوسطه مائدة قرابين. أما القسم المتأخر فيعبر عنها ثلاثة معابد شيدت بحيث تواجه أركان كل منها الجهات الأربع الأصلية، وقد زودت جدرانها بكثير من الركائز التي استخدمت كدعامات للجدران، وقد طليت بعض جدران المعابد بلون أبيض. (شكل ٤٦)[1].



شكل (٤٦) رسم تخطيطي لمعبد في تبة جاورا

(١) M. Mallowan, op. cit., pp. 378 - 386, Fig. 33.

ولقد عثر في تبة جاورا على الكثير من المقابر ويلاحظ أن الموتى كانوا يدفنون أسفل أرضيات المنازل أو بجوار الأبنية الدينية، كما دفن بعض الكبار في مقبرة خارج حدود القرية، أما الأفراد البارزون في المجتمع فقد دفنوا ضمن قبور مبنية بعناية داخل الأبنية السكنية، ولقد كشف عن أكثر من ثمانين قبراً من هذه القبور التي شيدت من الحجارة أو الطين اللبن وسقفت بألواح خشبية أو صفائح حجرية، واحتوى كل قبر على جسد ميت واحد، ولقد دفن في وضع منثني، وكان الميت يدفن بلباسه الكامل وكان يغطي أحياناً أو يلف بحصير من القصب، وقد عثر في هذ المقابر على الحلي الشخصية الخاصة بالموتى(١). ويستدل من ذلك على وجود عقيدة لديهم في الحياة الآخرة وأنهم قد اعتقدوا في البعث والخلود مما يشير إلى التطور الفكري الذي وصل إليه الإنسان العراقي القديم عند نهاية عصر حضارة العبيد مما مهد للنقلة الحضارية التالية في العراق القديم والتي تعرف باسم «عصر حضارة الوركاء».

٤ ـ حضارة الوركاء: Warka

يعتبر عصر حضارة الوركاء هو العصر الحضاري التالي لعصر حضارة العبيد في العراق القديم، والوركاء هو الاسم الحديث لاسم المدينة القديم أوروك Uruk، وهي التي وردت في العهد القديم ايريك Erech. وهي تقع على ضفاف نهر الفرات شمال غرب أور بحوالى ٦٥ كيلومتر. ولقد ساد الاعتقاد بأن المدينة في عصور ما قبل الأسرات كانت تشغل مساحة ٢٠٠ فدان، وكان ثلث هذه المساحة مخصصاً للمعابد والثلثان الأخران كانا أبنية سكنية، ولقد أثبتت الأبحاث الأثرية التي أجريت في هذا الموقع أن عملية الإستيطان بلغت حجماً كبيراً حتى في عصورها المبكرة أيام عصر حضارة العبيد(٢). ولقد ارتبطت

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١١٤.

(٢) A.L. Perkins, The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia, Chicago, 1949, p. 97 - 161.

المدينة في الأدب السومري بشخصية الملك جلجامش الذي بنى فيها الكثير من الأبنية المدنية والدينية.

وتتمثل حضارة الوركاء في العديد من المواقع الأثرية في العراق مثل أريدو وأور وتلو وتل العقير، كما انتشرت حضارة الوركاء في قسمها المبكر شمال العراق وظهر ذلك على وجه الخصوص في مواقع تبة جاورا ونينوى ومنطقة سنجار.

وقد اختلف العلماء فيما يتعلق بأصحاب تلك الحضارة، هل هم ينتمون إلى العنصر السومري الذي ثبت دخوله جنوب العراق في عصور ما قبل الأسرات بوجه عام والذي كان له دوره الحضاري الهام المتصل بكل من وادي السند وجنوب العراق ومصر في عصر ما قبل الأسرات الأخير، أم إلى العنصر السامي الذي سبق له الاستقرار أيضاً في جنوب العراق، والذي اتجه الرأي إلى اعتباره ذو مكانة خاصة في عصر حضارة الوركاء على أساس وجود شبه بين فخار الوركاء والفخار السامي في المواقع الفلسطينية والسورية، ويغلب أن العنصريين السومري والسامي وعناصر أخرى عيلامية وجبلية متسللة من منطقة جبال زاجروس في غربي إيران قد تواجدت في جنوب العراق في تلك الفترة، ولكن كان للسومريين أولوية حضارية خاصة في تلك المرحلة، وكذلك في عصر حضارة جمدة نصر التالية لها.

ويعتبر عصر حضارة الوركاء من أهم المراحل الحضارية في مرحلة التكوين الحضاري في تاريخ بلاد النهرين، وهي تمثل مرحلة عصر ما قبل الأسرات الأوسط في بلاد النهرين، ففي المجال المادي بدأت المدن في التكوين رغم ما تكلفته من جهود شاقة اتصلت بعملية ترسيب الغرين والصراع المتمثل بين المياه المالحة في الخليج العربي والعذبة في نهري دجلة والفرات وروافدهما. ولكن بفضل القدرة على التحكم في القوى المائية والتعاون بين العناصر المستقرة في الجنوب قد تحققت عملية بناء المدن لأول مرة في

الجنوب ابتداء من عصر حضارة العبيد، وتمثلت بصورة أوسع في عصر حضارة الوركاء، ويعتبر هذا التعاون الجماعي من الظواهر التي تميز بها العراق القديم رغم اختلاف العناصر البشرية في الجنوب وتباين لغاتها وتقاليدها الحضارية، ولكن أدى تجمعها تحت تأثير التفوق الحضاري السومري إلى المساعدة على تحقيق ذلك التعاون دون تمييز عنصري فيما بينها. وقد استمرت ظاهرة عدم التفرقة العنصرية بين الساميين والسومريين وغيرهم في جنوب العراق القديم على الرغم من تمكن السومريين من التحكم في المجالات السياسية والحضارية، إلى أن تزداد عناصر الاحتكاك والتنافس السياسي خلال الألف الثالث ق.م والتي تؤدي إلى تناوب السيادة السياسية بين السومريين والساميين(١).

ويمكن تقسيم حضارة الوركاء إلى قسمين متميزين أحدهما مبكر ويدخل في نطاق عصر ما قبل الكتابة ويتضمن الطبقات من ١٢ ـ ٦، والآخر يطلق عليه تسمية عصر ما قبيل الكتابة ويتضمن الطبقات ٥ ـ ٤، ويلاحظ أنه يشترك معه في هذه الصفة العصر التالي له وهو عصر حضارة جمدة نصر.

ويمثل الفخار الإنتاج المميز للمرحلة المبكرة من عصر حضارة الوركاء، وهو من أنواع مختلفة، شكلاً ولوناً، فمن ناحية اللون، فلقد ساده اللون الواحد الرمادي أو الأحمر المصقول، كما أن منه الأسود المصقول والمزين بنماذج ملونة، وإن كان هذان النوعان الأخيران قليلين، ويلاحظ أن الفخار المزين لا يوجد في غير الطبقات المبكرة من عصر حضارة الوركاء، وظهر ذلك في موقعي أريدو والوركاء، ويغلب على زينة هذه الأواني الشرائط العريضة والأشكال الهندسية البسيطة(٢).

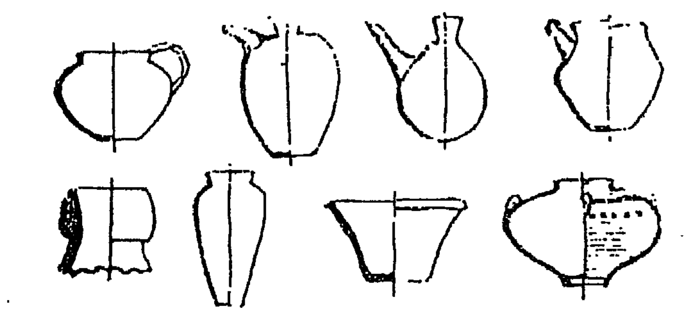
أما الفخار البسيط غير الملون، فكان من أكثر طرزه شيوعاً: الجرار والآنية

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) M. Mallowan, op. cit., p. 362.

ذات الصنابير، وذات المقابض وذات الآذان، وظهر كذلك الفخار الذي أطلق عليه «الأواني النذرية» وهي أواني خشنة مصرعة باليد، وتبدو في شكل سلاطين تتسع عند الحافة المشطوفة وتضيق تدريجياً نحو القاعدة المسطحة، ومن هذه الطرز كذلك الجرار الطويلة التي تتميز بضيق اتساع الإناء وقصر الرقبة، هذا فضلاً عن الأواني ذات الحواف المنثنية إلى الخارج بشكل فوهات القوارير[١] (شكل ٤٧) ولقد انتشر فخار الوركاء شمالاً حيث عثر عليه في العديد من المواقع الشمالية مثل نينوى ومنطقة جبل سنجار.



شكل (٤٧)

بعض نماذج الأواني من عصر حضارة الوركاء

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٤٠ وكذا:

S. Lioyd, «Urk Pottery, A Comparative Study in Relation to Recent Finds at Eridu», in Sumer, 4, (1948), 44 - 49.

وتميزت هذه المرحلة المبكرة في جنوب بلاد النهرين بإنتاج عدد أوفر من الأدوات النحاسية مثل الأزاميل ورؤوس الحراب والإبر وخطاف صيد الأسماك، إلا أنه يلاحظ أن القسم الشمالي من حضارة الوركاء كان أكثر تفوقاً في إنتاج المصنوعات المعدنية التي شملت بجانب النحاس الذهب وكذلك أيضاً المصنوعات الحجرية التي استخدمت في الزينة حيث استخدمت الأحجار الكريمة وشبه الكريمة(١).

أما عن المرحلة الثانية من عصر حضارة الوركاء، فلعل من أهم أثارها الفكرية التوصل إلى ظاهرة التعبير بالرموز التي أدت إلى اختراع الكتابة التي تعتبر من أهم بوادر عناصر النقلة إلى بداية العصر التاريخي، ويطلق على هذه المرحلة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تعبير مرحلة ما قبل الكتابة، وهي تنقسم بدورها إلى قسمين: أحدهما مبكر وهو يشمل الإنتاج الحضاري للمرحلة الأخيرة من عصر حضارة الوركاء، والآخر أكثر تطوراً، وهو ما يطلق على إنتاجه الحضاري تسمية عصر حضارة جمدة نصر.

وأقدم تسجيلات كتابية وصلتنا من المرحلة الأخيرة لعصر حضارة الوركاء تتصل بالأغراض الاقتصادية، وهي قوائم تتضمن إحصائيات خاصة بممتلكات المعبد من الحقول والأغنام وغيرها من الماشية، ودخله من المحاصيل والسلع المختلفة، وما يصرف عن طريقه، وقد كتبت هذه الوثائق على ألواح طينية بواسطة قلم من البوص حفرت به العلامات الكتابية على المادة الطينية وهي لا تزال طرية، وكانت أقدم العلامات الكتابية صورية، وعبرت كثير من العلامات عن اختزال الصور الكاملة إلى خطوط بسيطة أو أجزاء منها فقط.

وتظهر التطورات الحضارية الهامة لحضارة الوركاء في مجال العمارة الدينية، وبصفة خاصة المعابد المبنية من الأجر والتي تتميز بكون أسسها من الحجر الجيري، وتعرف هذه العمارة الدينية باسم «عمارة الزاقورات» وهي

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

المعابد المدرجة. والمعبد عبارة عن مبنى موجه إلى الجهات الأربع الأصلية، وهو بناء من اللبن يتكون من ثلاث درجات يصل بينها سلم يؤدي إلى القمة حيث يوجد المكان المقدس الذي هو عبارة عن حجرة مستطيلة الشكل ملحق بها بعض الحجرات الجانبية.

ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن أصل عمارة الزاقورات يرجع إلى العناصر الجبلية المتسللة إلى جنوب العراق والحاملة لطابع الارتفاع إلى أعلى في العمارة الدينية بحكم تأثرهم بارتفاع الهضاب الوافدين منها. إلا أنه يصعب تقبل هذا الرأي بسهولة، إذ يغلب أن وجود المعبد فوق سطح البناء المرتفع المدرج يهدف إلى اقتراب المعبد وهو منزل الإله من السماء التي كان يعتبر تأليهها في ذلك الوقت ذو أولوية خاصة في الديانة السومرية.

٥ ـ حضارة جمدة نصر : Jemdet Nasr[1]

أعقب طور حضارة الوركاء، المرحلة الأخيرة من العهود التي اصطلح على تسميتها بعصور ما قبل الأسرات، وقد أطلق على هذه المرحلة اسم «جمدة نصر» (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق.م) وذلك نسبة إلى تل صغير يعرف بهذا الاسم قرب مدينة كيش القديمة. وانتشرت مراكز حضارة جمدة نصر في العديد من المناطق مثل الوركاء والعقير وتل أسمر. ويعد النصف الثاني من هذه المرحلة الحضارية أقرب إلى العهد التاريخي منه إلى عهد ما قبل الأسرات، وهو يقابل في مصر المرحلة الأخيرة من عصر جرزة وقيام مملكتي الصعيد والدلتا[2].

ويظهر الإنتاج الحضاري لمرحلة جمدة نصر في العديد من المجالات، ولعل من أبرزها مجال العمارة الدينية، حيث كشف عن العديد من المباني

(١) انظر:

H. Frankfort, «The Last Predynastic Period in Babylonia» in CAH, vol. I, part II, Cambridge, 1971, pp.81 - 92.

(٢) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٦٧.

الدينية التي خصصت لإله السماء آن في المناطق الأثرية التي تنتمي لمرحلة جمدة نصر.

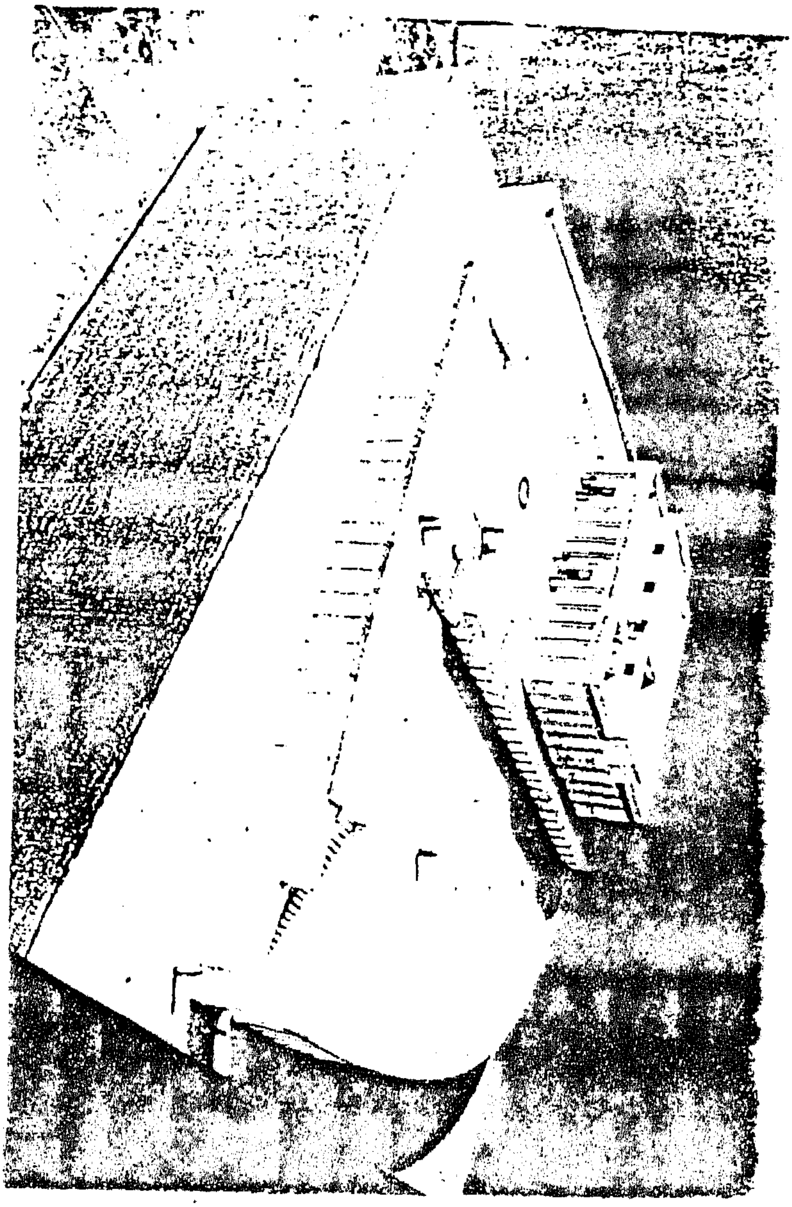
ومن هذه المعابد «المعبد الأبيض» الذي شيد في مدينة الوركاء، فوق تل صناعي يرتفع نحو ١٢ متراً عن مستوى السهل الممتد حوله ويشرف عليه، وسوروا جوانب هذا التل بسور ذى مشكاوات، وكان يؤدي إلى سطحه طريق صاعد، ودرج طويل بقي جزء منه، وتوسط المعبد الأبيض سفح التل واستكملت جدارنه هيئة المستطيل وتشكلت على هيئة مشكاوات متتالية تتعاقب في كل منها عدة مستويات داخلية، وقد توسطت المعبد مقصورته الرئيسية التي تضمنت في داخلها المذبح ومائدة القرابين[١] (شكل ٤٨).

وكشف في تل العقير، جنوب بغداد بحوالى ٨٠ كم على بقايا معبد يطلق عليه «المعبد الملون» ويتميز بوجود الرصيف الذي بنى فوقه في حالة جيدة، وذلك بالإضافة إلى أن أقساماً عديدة من الأسوار ما تزال قائمة على ارتفاع بضعة أمتار، ومخطط هذا المعبد يطابق تماماً المعبد الأبيض في الوركاء، باستثناء أن أدراجه الموجودة في أحد الأطراف قد حل محلها المذبح الموجود على المحور الرئيسي والذي يتم الوصول إليه بواسطة مجموعة من الدرجات. (شكل ٤٩)[٢] وكانت الواجهات الداخلية مغطاة برسوم جدارية ملونة بألوان متعددة، فكان الجزء السفلي من الجدران ملون باللون البني الفاتح تعلوه حزمة من الزخارف الهندسية، ويمتد فوق ذلك افريز من الأشكال البشرية والحيوانية لم يبق منها سوى القسم السفلي. والزخارف التي بقيت في حالة أفضل فهي الزينات الموجودة على واجهات المذبح الرئيسي، وعلى الجهات المقابلة للدرج ظهرت لوحات تمثل نمرين للحراسة منقطين بالأحمر والأسود[٣]، (شكل ٥٠).

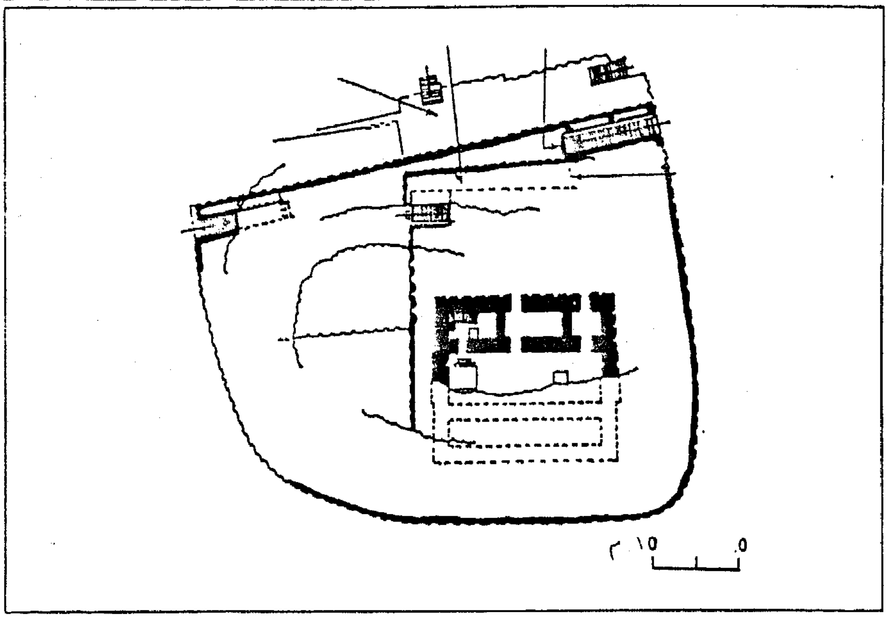
(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٨٢.

(٢) M. Mallowan, op. cit., pp. 368 - 371, fig. 31.

(٣) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٧٢ ـ ٧٥، شكل ٢٣.



شكـل (٤٨) نموذج تصميمي للمعبد الأبيض



شكل (٤٩) رسم تخطيطي للمعبد الملون في تل العقير



شكل (٥٠) شكل لفهد ملون مرسوم في مذبح المعبد الملون في تل العقير

ويتميز فخار جمدة نصر بأنه مصنوع على عجلة الفخار، وقد ظهر في هذه المرحلة نوعية مميزة من الفخار أطلق عليها «فخار جمدة نصر»، وهو جيد الإحراق والصقل ومن أحجام مختلفة، وأغلب آنيته ذات شكل كروي منتفخ، ولها قواعد مسطحة أو مقوسة، وقد زودت فوهاتها أحياناً بسدادات من الطين لتغطيتها.

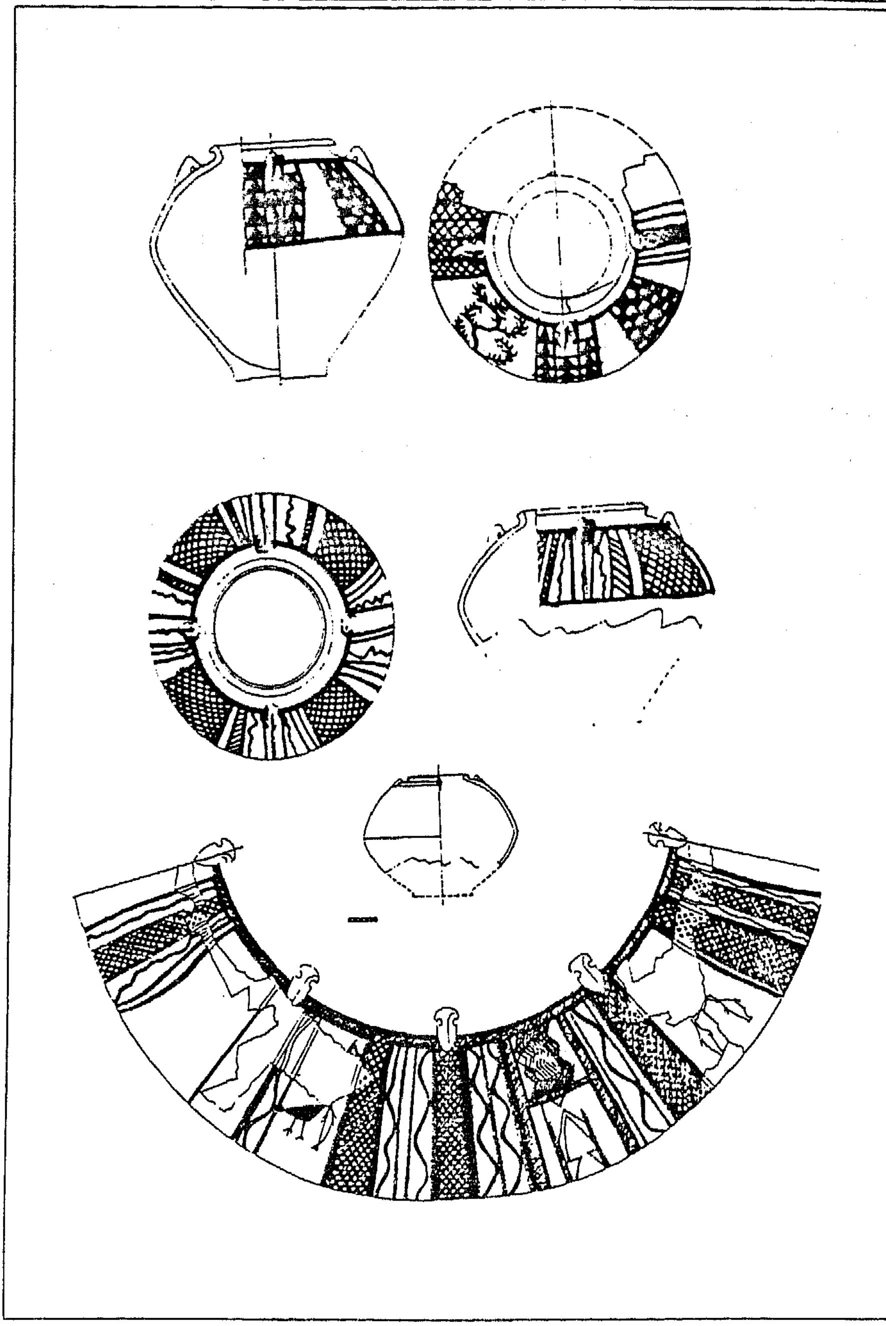
وشغلت زينة هذه الأواني غالباً الجزء العلوي من الإناء بما فيه الرقبة وهي تتكون من أشكال هندسية سوداء وحمراء فوق أرضية فاتحة اللون، أما باقي الإناء فلا تتجاوز زينته طلاء بلون أحمر أو مائل للحمرة، ومن هذه الأشكال الهندسية المثلثات والمربعات والأشرطة العريضة والخطوط المتقاطعة والمستقيمة والمموجة(١). وعند نهاية هذه المرحلة شاعت صناعة الجرار الفخمة ذات الأعناق والمزينة برسوم هندسية باللونين الأحمر والأصفر والتي تشكل لوحات تظهر فيها رسوم لحيوانات وأوراق أشجار وظهرت في بعض الأحيان رسوم إنسانية، وكان يغطي القسم الباقي من سطح هذه الجرار بدهان أرجواني اللون يشكل سطحاً لامعاً(٢) (شكل ٥١).

وقد انتشر فخار جمدة نصر في جنوب العراق، في أور والوركاء وكيش وتل العقير، وفي التخوم الشرقية في خفاجي وتل أسمر، كما امتد إلى منطقة كركوك، وربما امتد إلى مناطق أبعد في الشمال حتى وصل إلى نينوى، حيث يشبه فخار نينوى القديم فخار جمدة نصر، ويبدو أن ذلك كان بواسطة التجارة، وربما ينطبق ذلك أيضاً على موقع تبة جاورا، وإن كان يلاحظ أنه في أخريات عصر جمدة نصر وبداية العصر التاريخي في الجنوب أن فخار نينوى هو الذي

(١) فرج بصمة جي: «بحث في الفخار ـ صناعته وأنواعه في العراق القديم» مجلة سومر، العدد ٢١، لسنة ١٩٦٥، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٨٤ ـ ٨٥، شكل ٣٠، وكذا:

P. Delougaz, Pottery from the Diyala Region, Oriental Institute Publications, no. 63, Chicago, 1952.



شكل (٥١) نماذج لفخار جمدة نصر الملون

ساد في شمال العراق[١].

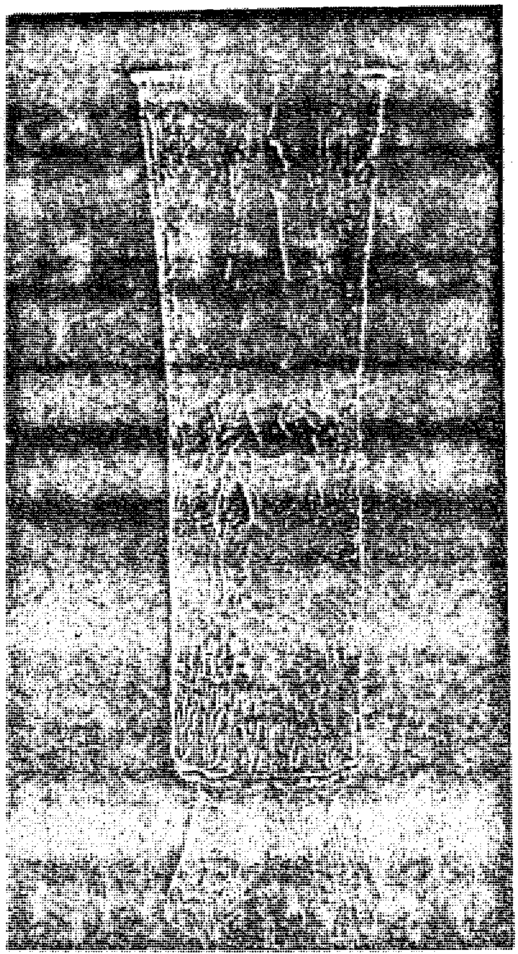
وقدم عصر حضارة جمدة نصر العديد من النماذج الهامة للنحت على الحجر والتي تلقي بعض الأضواء على الفكر الديني والسياسي المبكر للعراق في أواخر عصور ما قبل الكتابة والانتقال إلى بداية عصر الأسرات، ومن هذه النماذج: «لوح صيد الأسود» وهو من حجر الجرانيت الأسود، ويضم اللوح منظرين: المنظر الأول (السفلي) يصور فيه مقاتل وهو يجذب وتر قوسه الكبير ليطلق سهماً على أسد سبق أن أصابته سهامه، وأسفل هذا الأسد، يوجد أسد آخر صرعته سهام هذا المقاتل، كما نرى خلف المقاتل أسداً ثالثاً صرع بهذه السهام، ويمثل هذا المقاتل بالزي والسمات المميزة للحاكم أو البطل. أما المنظر الثاني وهو في أعلى اللوح، فهو يصور نفس المقاتل على الأرجح، إذ يمثل بنفس الزي والسمات المميزة، وهو يمسك في هذا المنظر برمح طويل ويتأهب لغرسه في عنق أسد يثب نحوه مهاجماً. ويرجح بعض الباحثين أن الهدف من مناظر هذا اللوح هو تخليد ذكرى الصراع مع البيئة في أرض القسم الجنوبي من العراق وتهيئته للاستقرار ثم التطور إلى مرحلة المدنية[٢].

ومن نماذج النحت على الحجر أيضاً، ما أطلق عليه «الإناء النذري» وهو عبارة عن آنية إسطوانية من المرمر، قسمت سطوحها إلى ثلاثة صفوف، ظهرت الآلهة إنانا في صفها الأعلى وينسدل غطاء رأسها على ظهرها وكتفيها، وهي تتدثر بثوب طويل أو شال واسع، وتمسك بيدها اليسرى مجامع ثوبها، بينما ترفع يدهااليمنى لتبارك بها سلة فاكهة قدمها إليها أحد الكهنة العراة، وتلاهاتصوير رمز معبدها (النباتي؟) ومجموعات الهدايا الفاخرة التي قدمت إليه، ثم رجل وامرأة بملابس طويلة يصعدان مسطحى المعبد المسورين، وشغل الصف الثاني من نقوش الآنية عدد من الكهنة العراة حاملي القرابين، بينما صورت

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, (Penguin Books), 1970, pp. 33 - 34.

في الصف الثالث مجموعة كباش ونعاج ونباتات[1]. (شكل ٥٢).



شكل (٥٢) نقوش الإناء النذري (عصر جمدة نصر)

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ وكذلك:
عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٣٠ ـ ٣١، شكل ٣.

ويدخل إنتاج الأختام الإسطوانية في نطاق النحت على الحجر، ولقد استخدمت للدلالة على الملكية الشخصية، ثم استخدمت بعد ذلك في طباعة الألواح الطينية، واستخدمت لأغراض دينية وحربية. وكان يوجد بها ثقب في وسطها من أجل التعليق، وكانت تنحت برقة على طرفها المحدب بأشكال وتصاميم متنوعة لتشكل إفريزاً دقيقاً من الزينة عند دحرجتها فوق الطين قبل أن يجف، ولقد عثر على الكثير من هذه الأختام الإسطوانية وكذلك على انطباعاتها على الألواح الطينية وسدادات الجرار.

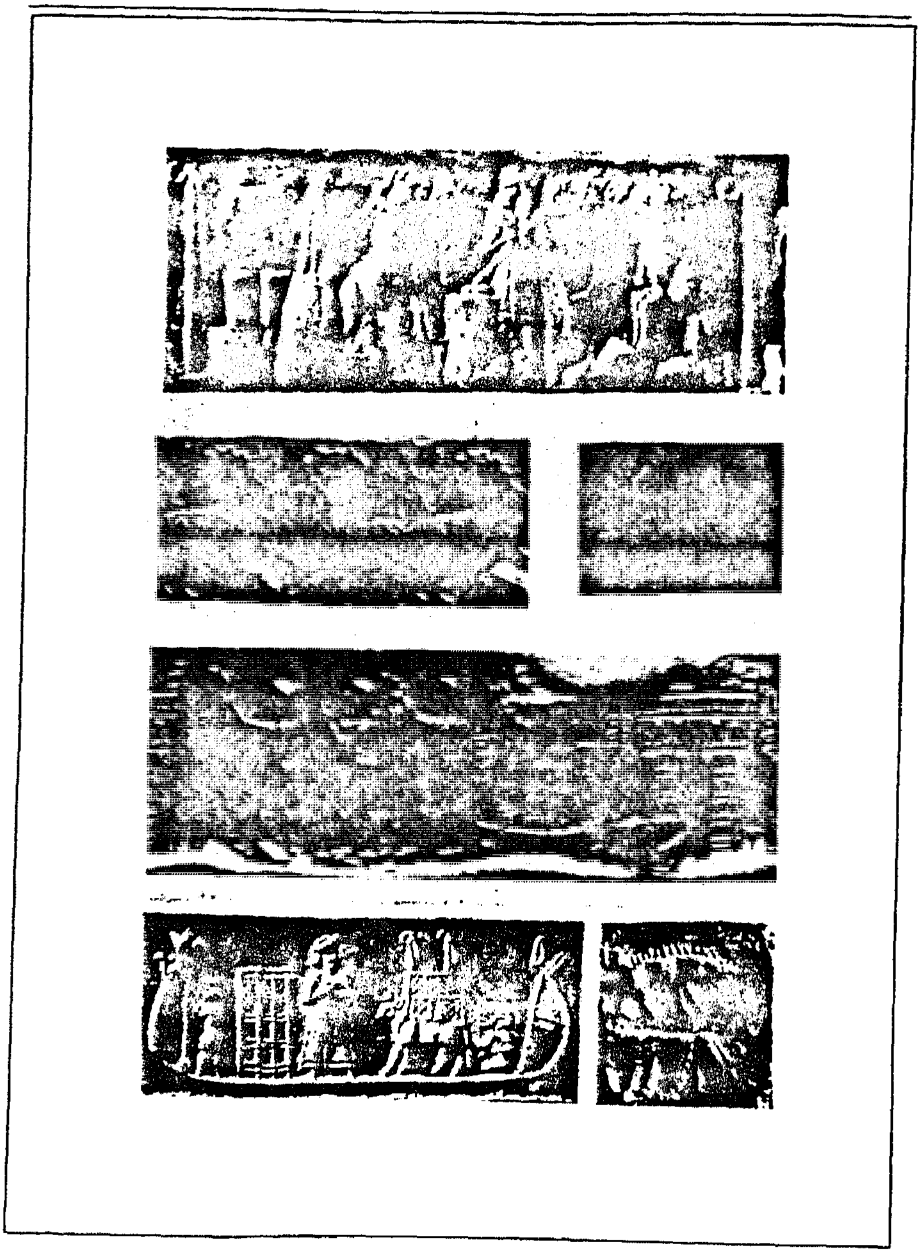
وظهرت الأختام الإسطوانية لأول مرة في الطبقتين ٥ ـ ٤ في الوركاء، وبرع الفنان السومري في نحت الأشكال بدقة كبيرة[١]، (شكل ٥٣) ولكن في عصر حضارة جمدة نصر نلاحظ تدهوراً طفيفاً في دقة صنع ونحت هذه الأختام، كما ظهرت أشكال أخرى من الأختام طويلة بشكل لا يتناسب مع قطرها، وكانت مغطاة بشكل كامل بأشكال وزخارف هندسية[٢].

وانتشرت هذه الأختام الإسطوانية، عن طريق التجارة على الأرجح، في القسم الشمالي من العراق، كما انتشرت أيضاً في الشمال السوري وبلغت الأناضول ومصر وبعض مواقع الهضبة الإيرانية. وتعتبر ظاهرة ازدياد مجالات الاتصال الخارجي من الظواهر الهامة في عصر حضارة جمدة نصر والتي اتضح امتدادها حتى مصر والهند، ويغلب أن الطريق البحري كان هو المستخدم في هذه الصلات، ومن المحتمل العثور على آثار المحطات الحضارية التي كان على تلك السفن التوقف عندها في سواحل عمان وحضرموت والبحر الأحمر. ولا يمكن حسم هذا الموضوع دون إجراء المزيد من الحفائر لاكتشاف تلك المحطات الساحلية في شرق وجنوب شبه الجزيرة العربية وكذلك سواحل البحر الأحمر للوصول إلى حل نهائي يحسم موضوع هذا الصلات.

---

(١) H. Frankfort, Stratified Cylinder Seals from the Diyala region, Oriental Institute Publications, no. 72, Chicago, 1955, pl I FF.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٨١ ـ ٨٤.



شكل (٥٣)
نماذج للأختام الأسطوانية

الفصل الرابع

السومريون

يمثل العصر السومري عصر بداية الأسرات في بلاد النهرين، وتبدأ هذه المرحلة الهامة بحادث هام في تاريخ العراق، وهو حدوث الطوفان المشهور، ويمثل ذلك أصول المفاهيم السومرية، فلقد كانت عملية النقلة إلى بداية عصر الأسرات عملية بيئية بحته وغير مطمئنة للإنسان ومصيره، مما أدى إلى اعتبار هذا الحادث أساساً لتحديد المراحل السابقة لعصر الأسرات وما تلاها.

وفي الواقع فإن ظاهرة الطوفانات أو الفيضانات الكبيرة ظاهرة بيئية متكررة في العراق، ولذلك كان من الطبيعي أن يهتم الإنسان في بلاد الرافدين بتسجيل تلك الظاهرة الهامة في حياة إقليمة. ولم تكن أحداث الفيضانات الكبيرة باليسيرة على المجتمع الإنساني لأنها كانت تهدد كيانه تهديداً مباشراً بل ومصيره أيضاً بعد ذلك، ولذلك اتجه بمفهومه الديني في ذلك الوقت إلى محاولة تفسير تلك الظاهرة تفسيراً دينياً يساعده على بعض الاستقرار الذهني بالنسبة إلى بيئته غير المستقرة، ومن هنا اتجه المؤرخ السومري إلى تسجيل تلك الظاهرة واعتبارها حدثاً تاريخياً هاماً في حياة السومريين بل واعتبرها خطاً فاصلاً يحدد النقلة الحاسمة إلى عصر الأسرات[١].

وسجلت النصوص في بلاد النهرين حادثة الطوفان منذ العصور السومرية، فسجلتها الآداب السومرية والآكدية والبابلية والآشورية، ولقد عثر على جزء من نص الطوفان السومري[٢] يقدر بحوالي ثلث النص فقط الذي فقد مقدمته

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) S.N. Kramer, «The Deluge» in ANET, 1966, pp. 42 - 44.

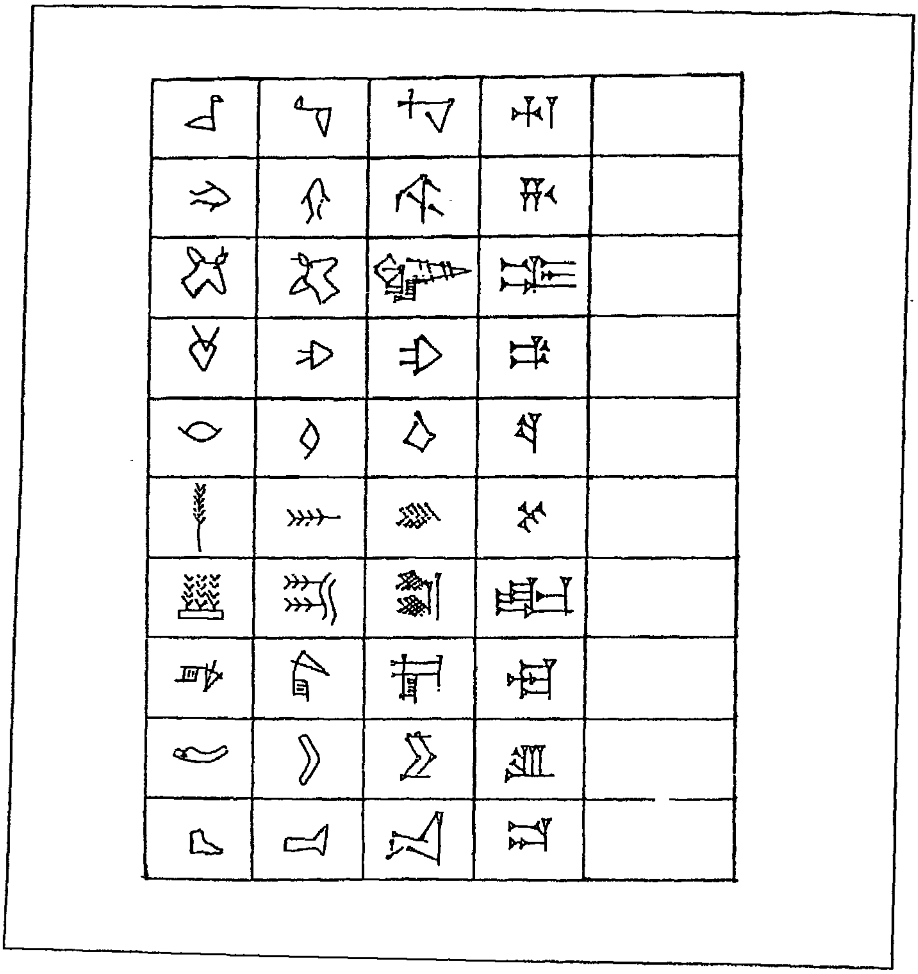
ونهايته. ويتضمن النص عدة موضوعات تتعلق بخلق العالم والبشر وبداية الاستقرار على سطح الكرة الأرضية، وغضب الآلهة على البشر وعزمها على تدميرهم بواسطة الطوفان. وتتكرر هذه الموضوعات في النصوص السامية الآكدية والبابلية والآشورية مع بعض التفصيلات، والاختلافات في الشخصية الرئيسية التي تدور حولها قصة الطوفان، فبينما يطلق عليه النص السومري «زيوسدرا»، فإن النص الآكدي يطلق عليه «اتنابشتيم» وأحياناً «أترام هاسيس»[(١)].

وتميز عملية النقلة إلى عصر الأسرات في العراق القديم ظاهرة حضارية أخرى، وهي التوصل إلى الكتابة الصورية، وترجع بوادر هذه الظاهرة إلى عصر ما قبيل الكتابة وهي المرحلة المتضمنة لحضارتي الوركاء وجمدة نصر، حيث عثر على بعض اللوحات الطينية في الطبقات الرابعة والثالثة والثانية في الوركاء وهي المتضمنة لحضارة جمدة نصر، وعثر كذلك على لوحات أخرى في كل من كيش وجمدة نصر سجلت عليها بعض الصور، وكذلك رموز لأعدادها مما يوضح أهمية الدافع الاقتصادي في عملية التوصل إلى اختراع الكتابة، كضرورة ملحة استوجبتها المعاملات التجارية بجانب الدافع الديني التعبيري عن القوى الإلهية. وكانت الكتابة في مرحلتها الأولى صورية بحتة سرعان ما تطورت في المراحل التالية عندما تطلبت عمليات النمو الحضارية ذلك التطوير.

وكانت الكتابة في بدايتها من الجهة اليمنى العليا وتتجه إلى أسفل، كما كانت الصور تتجه أيضاً نحو اليمين، ولكن استخدام اللوحات الطينية أدى إلى ضرورة دوران اللوحة قليلاً حتى يكون الكاتب مستريحاً في عملية التسجيل مما نتج عنه ميل الصور ذاتها، وترتب على ذلك استخدام الخطوط المستقيمة، مما أدى إلى نشأة الخط المسماري Cuneiform، وهي مشتقة من كلمة Cunues

(١) بالنسبة لقصة الطوفان: انظر:
محمد بيومي مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، الرياض، ١٩٧٦ م.

بمعنى إسفين أو مسمار. وكانت هذه الرموز المسمارية إما رأسية أو أفقيه أو مائلة[1] (شكل٥٤).



شكل (٥٤)

أمثلة لتطور الكتابة الصورية إلى الخط المسماري

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨، شكل رقم ٦٧.

وتقع بلاد سومر وآكد في الوادي الأسفل لنهري دجلة والفرات، وإلى جنوبها وغربها تقع الصحراء العربية والخليج العربي الذي كان يمتد في تاريخ سومر المبكر شمالي مجاورات أريدو. ومن المحتمل أن نهر دجلة كان يكون أصلاً حداً طبيعياً من ناحية الشرق وهي الناحية التي كان من الممكن التوسع من خلالها، وربما كان منشأ الصراع مع عيلام يرجع إلى الطمع في التوسع إلى شرق النهر. وعلى أية حال فإن مدى النفوذ السومري والسامي كان يمتد إلى المنحدرات السفلى للتلال العيلامية، وعلى ذلك فإن المساحة التي كانت تشغلها سومر وآكد لم تكن كبيرة. وكانت المنطقة التي تقع إلى شمال سومر تدعى آكد.

ويشير نص سومري كتب حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م إلى تصور الإنسان السومري للعالم المحيط بمنطقته، فيذكر أنه إلى الشمال من سومر تقع «أورى Uri» وهي تشير إلى آكد كما عرفت بعد ذلك، وإلى الشرق توجد «شوبور خامازي Shubur- Khamazi» والتي تعني إيران، وإلى الغرب تقع «مارتو Martu» وهي تشمل المنطقة الواقعة ما بين الفرات والبحر المتوسط. واعتبر السومريون بلدهم الحد الجنوبي للعالم. ورغم صغر مساحة أرض سومر، فإن تأثيرها الحضاري قد امتد أبعد من حدودها السياسية[١].

وتتكون أرض سومر وآكد من سهل فيضي، وتعتمد الحياة في هذه المنطقة على نهري دجلة والفرات، وكان النهران يغيران مجراهما باستمرار، وإن كان نهر دجلة أقل عرضه للتغيير بسبب ضفافه العالية المتينة نسبياً. ويتضح تغير مجراهما في بقايا المدن القديمة التي كانت موجودة على ضفافهما ثم أصبحت حالياً بعيدة عنهما، وعلى ذلك فإنه تجدر ملاحظة أن مدن سومر وآكد كانت تقع جميعاً على ضفاف الفرات أو بعض روافده، وليس على ضفاف دجلة فيما عدا مدينة «أوبس Opis» أبعد مدن آكد إلى الشمال، ويفسر البعض ذلك بسرعة

(١) M.A. Beek, Atlas of Mesopotamia, London, 1962, p. 45.

جريان نهر دجلة وارتفاع ضفافه مما حال دون استثماره في الري، بعكس نهر الفرات ذو الضفاف المنخفضة وبطء جريان مياهه نسبياً في شهور الصيف.

ولم يكن هناك فاصلاً طبيعياً بين سومر وآكد، فكان النصف الشمالي الشرقي يحمل اسم «آكد» أما القسم الجنوبي الشرقي عند رأس الخليج الغربي فكان يعرف باسم «سومر» وطبقاً للنصوص السومرية فإن مدن: لجش وأورك واور ولارسا وأوما وآيسين وأريدو كانت ضمن أراض سومر، أما مدينة نيبور فكانت تقع بين سومر وآكد، وشغلت مكاناً فريداً كمركز ديني متوسط.

وأغلب الظن أن كلمتي «سومر» و «آكد» لم تعرفا في العصور القديمة، وإن بدا أن الأولى أقدم في الظهور، ولعل أول ظهور للإسمين معاً للدلالة على البلاد كان في عهد ملوك «آور» الذين وحدوا القسمين وأطلقوا على أنفسهم لقب «ملوك سومر وآكد».

ومنذ عصر موغل في القدم أطلق أهل الجنوب على بلادهم اسم «كلم» Kalam أي «الأرض» وعرف حاكم البلاد باسم «ملك الأرض» أما العالم خارج هذه البلاد فكان يعرف باسم «كوركور». وفي نصوص الملوك «أياناتوم» و «لوجال زاجيزي» و «إنشاج كوشانا» جاء اسم البلاد بلفظ «كي أن جي» الذي يعني «سومر» أو «شومر» على الأصح، وقد حرفت الكلمة إلى «كنجي»، وهي تعني كذلك «البلاد» أو «الأرض» ويقصد بها «شومر» Shumer.

أما كلمة «آكد» أو «أكادو» Akkadu فهي النطق السامي لـ «أجاد» Agade وهو الاسم القديم للمدينة، ويرجع إطلاق الاسم على القسم الشمالي إلى فترة لاحقة لتزايد سلطان المدينة تحت حكم «شاركالي شاري» و «نارام سن».

وأطلق الملوك الأوائل لـ «آجاد» على أنفسهم حكام «الانحاء الأربعة» أي العالم، ويلاحظ أنه في عهد أوائل دويلات المدن ـ قبل عصر آياناتوم ـ لم يظهر لقب عام أو تسمية عامة لكل بلاد «سومر» أو «آكد» وذلك نظراً لأنه كان لكل مدينة كيانها السياسي والاقتصادي، ومن هنا فإننا نلتقي في هذه المرحلة بأسماء

المدن في ألقاب الحكام، ويظل الأمر كذلك حتى يتم توحيد هذه المدن، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى استخدام تسمية تتضمن الحالة السياسية الجديدة[(١)].

الموطن الأصلي للسومريين وتأريخ استقرارهم في جنوب العراق:

اختلف المؤرخون في أصل السومريين، ولا يزال ذلك الأمر مشكلة يختلف بشأنها العلماء حتى أصبحت تسمى باسم «المسألة السومرية». وتقوم الدراسات في هذا الصدد على أساس لغوي وبشري، فمن الناحية اللغوية لا تنتمي اللغة السومرية إلى إحدى العائلات اللغوية الثلاثة وهي عائلة اللغات السامية وعائلة اللغات الحامية وعائلة اللغات الهندية الأوروبية، كما ثبت عدم اتصال تلك اللغة باللغات الأخرى مثل الصينية والتبتية والدرافيدية والمجرية والإفريقية والهندية الأمريكية ولغات جزر المحيط الهادي. وعلى ذلك فقد اتجه العلماء إلى البحث عن بعض العناصر التي يمكن تلمس وجه شبه بينها وبين بعض العناصر الأخرى سواء كان ذلك في المجال الفكري أو المادي. ويقدم العلماء العديد من الافتراضات بشأن أصل السومريين والتي يمكن إيجازها فيما يلي[(٢)]:

فهناك من المؤرخين من يرى أنهم انحدروا من الأقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التاريخ وهي العصور التي سبقت عصر فجر السلالات، وأنهم

(١) نجيب ميخائيل: المرجع السابق، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٢) انظر: عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٩، وكذلك: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٦٤ ـ ١٦٩، وكذلك: صمويل كرامر: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، القاهرة، ١٩٥٧، اللوحات ١٤ ـ ١٦، ٧١ ـ ٧٨، وكذلك:

E.A. Speiser, «The Sumerian Problem Reviewd». In Hebrew Union College Annual, XXIII (1950 - 1951). p. 339. ff.,

S.H. Langdon, «Sumerian Origins and Racial Characteristics» In Archaeologia. (1920). p. 154 ff.

عرفوا باسم السومريين في الأزمنة التاريخية نسبة إلى الجزء الخاص من العراق الذي تمركزوا فيه وهو القسم الجنوبي الذي سمي باسم «شومر» أو «سومر» ولعل أقوى ما يجعل هذه الفرضية رأياً قريباً من الواقع أن أسس الحضارة التي سميناها بالحضارة السومرية والتي ازدهرت في عصر فجر الأسرات (السلالات) يمكن اقتفاؤها إلى المراحل الحضارية المسماة بعصر ما قبل الأسرات، مما يكون استمراراً حضارياً، أي أن أصول الحضارة السومرية نشأت في العراق ويمكن تتبع أسسها وأصولها فيه منذ أقدم الأزمنة فبإمكاننا أن ندعو أهل العبيد من السومريين قياساً على ظهور أبرز مقومات الحضارات السومرية فيه كالمعابد والقرى على الرغم من أننا نجهل اللغة التي تكلم بها أهل العبيد.

ومنهم من يرى أنهم جاؤوا من المرتفعات التي في شرق بلاد النهرين أو شمالها الشرقي، عن طريق أرمينيا وإيران، ولو أنه يمكن أن نستبعد أرمينيا من هذا الفرض، على أساس أنه من المستبعد أن يهبط المهاجرون منها ويتجاوزون المناطق الصالحة للإستيطان القريبة منها في شمال العراق، وليذهبوا عنها ثم يستقروا في الأجزاء الجنوبية التي كانت أطرافها لا تزال حينذاك وحشية الطابع تتطلب مجهودات كبيرة لتهذيبها وتيسير الانتفاع بها، ومرة أخرى قد يتصل بهذا الأصل الجبلي المفترض، وصلة أسلاف السومريين المقترحة بمرتفعات إيران، وبصلة بعض الأرباب السومريين بدنيا المرتفعات، ثم ما أتت به أسطورتان لملك سومري يدعى (انمركار) اعتبرته القوائم السومرية المتأخرة ثاني ملوك الأسرة الأولى في مدينة «أوروك» بعد الطوفان. . .

وقريب من هذا الفرض رأي ذهب فيه «صمويل كرامر» إلى اعتبار السومريين بدوا مما وراء ـ القوقاز أو مما وراء بحر قزوين، اندفعوا إلى مناطق غرب إيران فيما يعاصر أيام العبيد أو أوائل الوركاء، ونجحوا في اقتباس حضارة النهرين التي امتدت منها (على حد رأيه) عبر حدود إيران ثم استعانوا بما تعلموه منها وبخفة الحركة البدوية في الاندفاع منذ الربع الأخير من الألف الرابع ق.م.، إلى جنوب العراق وسيطروا عليه تدريجياً خلال فترة من فترات

حضارة الوركاء، وكان لما أشاعوه من اضطراب حينذاك أثر في بداية ركود حضاري شامل وإن يكن قد نشأ في خلال هذه الفترة ذاتها (حوالي القرن الثلاثين ق.م) عصر البطولة السومري الذي قام على الشجاعة الفردية للقادة السومريين ومحاولتهم تملك زمام السلطة في المدن المغلوبة على أمرها سيما وإنه لم يكن عليهم أن يبسطوا سلطانهم عليها وحدها وإنما كان عليهم أن يواجهوا في الوقت نفسه هجرات سامية غربية لم تكن تنقطع اندفاعاتها على حدود العراق وعندما تمت الغلبة للسومريين وتم اندماجهم في السكان الأصليين الذين كانوا أرقى حضارة منهم بدأ العصر الشبيه بالكتابي في العراق حوالي القرن التاسع والعشرين ق.م.

وافترض رأي رابع أن السومريين هاجروا من منطقة تقع فيما بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوخستان، واستقروا بعض الزمن في غربي إيران ثم نزحوا منها إلى بلاد النهرين عن طريق الخليج العربي وجزره البحرية وزكّى أصحاب هذا الرأي فرضهم بما لوحظ من تشابه أوائل طرز الفخار السومري القديم وزخارفه في بلاد النهرين مع نماذج الفخار القديمة التي انتشرت جنوباً حتى منطقة «خارياً» و «موهنجودارو» بسهل أكسند، وذلك مما يوحي بروابط جنسية وحضارية بدائية قديمة بين أهل هذه النواحي الذين سبقوا الأجناس الهندوأوروبية في سكناها والذين يكفي أن يقال عنهم من الفروع المبكرة للسلالات الآسيوية والإسيانية، وذلك مع تقدير ما ألمحت إليه الأساطير السومرية أن أصحابها الأوائل هاجروا من الجنوب عن طريق البحر في عصور كان الناس لا يزالون يسعون فيها على أربع على حد زعمها واستقروا حيناً في جنة تلمون أو (دلمون) وهي فيما يرجح جزيرة البحرين الحالية. ثم نزحوا منها إلى «كالاما» بالعراق لأمر لم تسجله الأسطورة.

هذا ويمكننا أن نرى في كثرة استخدام السومريين للمادة الحجرية، وما سجلته العديد من نماذج النحت على الحجر من مناظر تمثل الحاكم ذو السمات المميزة التي لا تتغير، ومناظر الحروب التي لم تخل بأي حال من تمثيل

هذا الحاكم، ما يعبر عن أن هؤلاء السومريين كانوا شعباً جبلياً مقاتلاً فرض نفسه عن طريق الحرب، ويرجح أن يكون الموطن الأصلي الذي وفدوا منه هو المنطقة الشمالية من التخوم الشرقية (جنوب ديالي) وهي منطقة متفوقة حضارياً، فضلاً عن طبيعتها الجبلية التي تتوفر فيها الأحجار والتي تضفي على ساكنها صفة المقاتل، وقد يؤكد هذا الموطن الأصلي أيضاً كثرة ما قدمته مرحلة ما قبل الكتابة من صناعة معدنية وخاصة النحاس الذي يمكن أن يكون مصدره المنطقة الجبلية الشرقية التي وفد منها السومريون.

وفيما يتصل بتاريخ دخول العناصر السومرية واستقرارها في جنوب العراق فقد تعددت وجهات نظر الباحثين بخصوص هذا الأمر، ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن دخول السومريين كان عند نهاية الألف الرابع قبل الميلاد وذلك مع ظهور الكتابة في جنوب العراق، ويعتقد صمويل كرايمر أن هذه الهجرة قد سبقت ظهور الكتابة مباشرة(١)، إلا أن الكتابة التصويرية البدائية قد نشأت في جنوب العراق بعد أن حتم ظهورها التطور الحضاري العام الذي ظهر في جنوب العراق من قبل ذلك التاريخ سواء كان ذلك قد تم على أيدي السومريين أو على أيدي جماعات أخرى. ولماكانت هذه الكتابة الأولى تعبر عن اللغة السومرية فيفترض أن أصحابها قد أتوا إلى البلاد منذ زمن بعيد يقدر بعشرات وربما مئات السنين.

ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن السومريين كانوا أول من سكن جنوب العراق ويعتمدون في ذلك على التشابه الحضاري بين حضارة العبيد والمراحل السابقة لها والتي تمثلها حضارة أريدو والحاج محمد(٢). ويتجه رأي ثالث إلى الاعتقاد بأن هذه الهجرة قد حدثت في عصر حضارة العبيد وذلك

---

(١) S.N. Kramer, «Newlights on the Early Hisotry of the Ancient East» In American Journal of Archaeology, vol. 52 (1948). p. 156 ff.

(٢) J. Oates., «Ur and Eridu», In Iraq, vol. 26 (1960).

ما بين عام ٤٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق.م[(١)].

ويصعب في ضوء المصادر المتاحة كشف الغموض الذي يحيط سواء بأصل السومريين أو تاريخ مجيئهم إلى جنوب العراق، إلا أنه يتبين أن هؤلاء السومريون قد سكنوا إلى جانب جماعات أخرى وبخاصة العناصر السامية التي وفدت من شبه الجزيرة العربية في موجتها الشمالية الشرقية تجاه بلاد الرافدين، وقد تمكن كل من السومريين والساميين من تكوين عدد من المدن الرئيسية ورد ذكرها في قائمة الملوك السومرية، وكان لكل مدينة استقلالها الذاتي سواء في ملكية الأرض أو استغلال موارد المياه وكذلك الاستقلال السياسي والحضاري وذلك على أساس أن عملية الاستقرار في جنوب العراق لم تكن عملية متجانسة، بما تتطلبه مجهودات تجفيف الأراضي وبناء المدن وحفر القنوات وتجهيز المكان من تفاوت من جهة إلى أخرى، هذا بالإضافة إلى أن تلك التحركات البشرية الآتية على الإقليم لم تكن دفعة واحدة وأخيرة بل غلبت عليها الدفعات المتعاقبة حسب المتطلبات الاقتصادية والبشرية. وقد أدى كل ذلك إلى اتسام مرحلة بداية العصر التاريخي في العراق القديم وبصفة خاصة أثناء فجر الأسرات السومرية بظاهرة حكومات المدن المستقلة وعدم تواجد الدولة السومرية المتحدة في تلك الفترة، ولكن على الرغم من تلك الفرقة السياسية فقد كان هناك تآلف حضاري وتعامل سياسي طبيعي بين كل من العناصر السومرية والسامية. فقد ثبت بالأدلة النصية تعاون كل العنصرين في كافة الجوانب دون أية تفرقة عنصرية بينهما مما أدى إلى تفاعل الأصول الحضارية السامية والسومرية في بوتقة واحدة واتسام الحضارة العراقية منذ البداية بذلك الطابع الوحدوي، كما يتضح من المراحل التالية عندما يرث الأكديون الحضارة السومرية بل والخط والأدب والأفكار السومرية ويطبعونها بالطابع السامي المناسب لدولتهم الجديدة.

---

(١) H. Frankfort, Archaeology and the Sumerian Problem, Chicago, 1932, P. 21 ff.

دويلات المدن السومرية:

بدأ العصر التاريخي في جنوب النهرين، عندما توصل الإنسان في هذه المنطقة الى معرفة الكتابة، فضلاً عن الطوفان الكبير الذي ذكرته التسجيلات الكتابية العراقية، وقد تميزت بداية العصر التاريخي في بلاد النهرين بما يسمى «نظام حكومات المدن» التي كان لكل منها كيانها المستقل عن حكومات المدن الأخرى في جنوب العراق بسبب الانتقال إلى مرحلة المدنية، وهذا يعني أن الإنسان العراقي القديم لم يستطع في بداية العصر التاريخي من تحقيق الوحدة السياسية للبلاد، ومن ثم فقد اعتمدت الحياة السياسية على حكومات المدن دون أن تطور إلى نظام الدولة المركزية الكبيرة، وترتب على ذلك أن تعاصرت دويلات وأسر حاكمة في كثير من مدن الجنوب العراقي، وربما كان السبب في ذلك طبيعة هذا القسم الجنوبي من العراق القديم، فلقد حالت المساحات الشاسعة من المستنقعات دون سهولة الاتصال فيما بين القرى والمدن في ذلك الوقت المبكر، وهو الأمر الذي أعاق تحقيق الوحدة السياسية(١).

ولقد تكونت كل من حكومات المدن من مدينة ومجاوراتها من الأراضي التي قام سكان المدينة بزراعتها، وأحياناً ضمت حكومة المدينة أكثر من مدينة واحدة فضلاً عن عدد من القرى التي كانت تتبع المدينة الرئيسية، وتقع المدينة الرئيسية في وسط حكومة المدينة، وكان يتوسطها معبد إلهها المحلي وهو الإله الرئيسي لحكومة المدينة، ويعتبر أكبر مالك للأراضي فيها، وذلك بالإضافة إلى بعض معابد الألهة الأخرى ذات الصلة بالآلهة الرئيسية، وكان لهذه المعابد أملاكها الضخمة، مما يرجح أن معظم أراضي حكومات المدن في مطلع العصر التاريخي كانت تعتبر أملاكاً للآلهة، وقد عبرت أقدم الأفكار الدينية لدى السومريين عن أن الإنسان قد خلق ليخدم الآلهة.

ويقوم التنظيم السياسي السومري على أساس نظام حكومات المدن الذي

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٩٤.

يجعل لكل مدينة استقلالها الذاتي في حكومتها ومن أولى المظاهر التي تعبر عن هذا التنظيم السياسي تواجد جمعية عمومية لجميع المواطنين في المدينة، ووظيفتها الاجتماع في أوقات الحاجة للبت في الموضوعات التي تهم المدينة بأسرها كاختيار كبار المسؤولين في حكومة المدينة واتخاذ قرارات الحرب، ويعتبر ذلك التنظيم السياسي مرحلة هامة في تاريخ الفكر الإنساني لأنه يشهد بتواجد التفكير الديموقراطي في بداية العصر التاريخي وانتخاب الحاكم الذي يرأس حكومة المدينة بناء على قرارات الجمعية العمومية(١).

ولقد أطلقت على حكام دولة سومر خلال المراحل المتعاقبة للتطور السياسي عدد من الألقاب المختلفة للتعبير عن صيغ قيادة الدولة لكنها لم تكن محددة بشكل دقيق، ومن بين هذه الألقاب: «إن En» وهو يعني «الملك أو الأمير»، و «إنسي Ensi» الذي يعني الحاكم أو المشرف، و «لوجال Lugal» الذي يعني الرجل العظيم أو الملك. ولقد كان التمييز بين هذه الألقاب موضوع الكثير من الدراسات والأفكار وبعض الجدل(٢).

ويرى أستاذنا الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري(٣) ـ يرحمه الله ـ أن لقب «إنسي» كان يحمله المسؤول المدني وكان تنحصر سلطاته في الشؤون الزراعية وما تتطلبه من مشروعات تتصل بعمليات الري. أما وظيفة «لوجال» فكان يتفرغ لإدارة الشؤون المدنية للمدينة وبصفة خاصة في بعض الحالات الاستثنائية مثل مواجهة المخاطر الحربية، وتطورت هذه الوظيفة فيما بعد وأصبحت تنم عن الحاكم الذي امتدت سلطته إلى مدى أوسع من حكومة المدينة ووصل ذلك إلى التحكم في عدد من المدن المجاورة. أما اللقب «إن» فكان يتصل بالناحية الدينية، وكان صاحبه يتفرغ للشؤون الدينية ويقيم في المعبد ويدير شؤونه من

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٥٢.
(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١٢٢.
(٣) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

النواحي الدينية والإدارية والاقتصادية، وتطورت هذه الوظيفة في المراحل الأخيرة من بداية عصر الأسرات السومرية واقتربت من الجانب الدنيوي، وانتقل صاحبها من المعبد إلى القصر. ويلاحظ أن تلك الوظائف لم تكن دائمة أو وراثية بل كانت تتوقف على موافقة أعضاء الجمعية العمومية ولكن سرعان ما تمكنت بعض الشخصيات القوية من جعل وظائف الـ «إن» أو «لوجال» دائمة.

وتجدر الإشارة إلى أن التنظيم السياسي لدويلات المدن السومرية إنما كان انعكاساً للأفكار الدينية السومرية، حيث اعتقد الإنسان السومري بأن للآلهة السومرية جمعيتها العمومية التي تضم كل الآلهة، وكان على رأس الجمعية العمومية المعبود «آنو» إله السماء وملك الآلهة، وصور الإنسان السومري آلهته في هيئة إنسانية وألبسهم زياً إنسانياً كما اعتقد أيضاً أن لهم من المشاعر والعواطف ما للبشر من حب وكره وغضب وفرح وحزن، وآمن السومري بأن الملكية قد أنزلت على البشر من السماء، وهي تمثل تطوراً تالياً للجمعية العمومية[1].

إن الأدلة الأثرية والنصية المتاحة لدينا لا تستطيع أن تقدم لنا صورة كاملة للحياة السياسية لكل دويلة مدينة، بل ونشأتها، وربما لا يعدوا ما لدينا من أسماء ملوك تنظم إلى أسرات سجل جداولها الكتبة السومريون أنفسهم وذلك في تعاقب زمني يشير إلى مدة حكم الملك ثم الأسرة، وقد قسمت الجداول إلى قسمين يفصلهما حادث «الطوفان». وما قبل الطوفان هو العصر الأسطوري، وما بعده هو العصر التاريخي.

وتبدأ قائمة الملوك السومرية بإعطاء بيان عن المدن الخمس التي قامت فيها الملكية لأول مرة في البلاد، وتشير إلى أسماء الملوك الذين حكموا في كل من هذه المدن وسنوات حكم كل منهم، ويلاحظ أنها أعطت لهم سنوات حكم خرافية تفاوتت فيما بين ٤٣,٢٠٠ عام و ١٨,٦٠٠ عام، وليست لدينا أية أدلة

(١) محمد عبداللطيف: المرجع السابق، ص ١٨٠، وكذا T. Jacobeon., «Primitive

أثرية أو مادة نصية عن الملوك الأسطوريين لهذه المرحلة السابقة على الطوفان والذين ورد ذكرهم في قائمة الملوك السومرية فيما عدا ملك شور باك الذي ورد اسمه في بعض الأساطير.

وتذكر قائمة الملوك السومرية أنه بعد الطوفان أنزلت الملكية مرة أخرى من السماء على مدينة كيش ومنها انتقلت إلى غيرها من المدن السومرية على التوالي، وبلغ عدد الأسرات الحاكمة لهذه المدن قبل قيام أسرة أكد أربع عشرة أسرة، كانت أولها أسرة كيش وآخرها أسرة الوركاء الثالثة.

ويرى بعض الباحثين تقسيم هذه المرحلة في تاريخ بلاد النهرين والتي يطلق عليها أيضاً التسمية «عصر السلالات الباكرة» أو «العصر ما قبل السرجوني» أي الأمبراطورية الأكدية إلى ثلاث فترات رئيسية[١]:

١ ـ عصر السلالات الباكرة الأول: ويمتد من ٢٩٠٠ ـ ٢٧٥٠ ق.م. تقريباً وأهم آثاره المكتشفة في منطقة ديالي معبد اله القمر سين في خفاجة والمعبد العتيق في تل أسمر.

٢ ـ عصر السلالات الباكرة الثاني: ويمتد من ٢٧٥٠ ـ ٢٦٥٠ ق.م. تقريباً وتتميز هذه المرحلة بتقدم كبير في كافة المجالات وبخاصة ظهور العديد من الوثائق المكتوبة، وتطور فن البناء والنحت وصناعة المعادن.

٣ ـ عصر السلالات الباكرة الثالث: ويمتد من ٢٦٥٠ ـ ٢٣٦٠ ق.م. تقريباً، وتتميز هذه المرحلة بظهور المصنوعات المصنوعة من مواد نفيسة مثل مكتشفات جبانة أور، وكذلك الأعمال المعدنية الرائعة.

---

(١) انظر: «Ddemocracy in Ancient Mesopotamia», in JNES, vol. II (1943), PP. 167- 169.

P. Delougaz., and S. LLoyd., Pre-Sargonid Temples in the Diyala Region, Oriental Institute Publications. no. 58, Chicago, 1942, p. 134.

وكذلك سيتون لويد: المرجع السابق، ص ١٢٦ وكذلك.

عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٣١ ـ ٣٢.

ويلاحظ أن هذا التقسيم لا يستند إلى أحداث بارزة في تاريخ بلاد النهرين، وإنما هو تقسيم اصطلاحي الهدف منه تسهيل البحث والدراسة في تاريخ بلاد النهرين خلال النصف الأول من الألف الثالث ق.م.

تبدأ مع عصر الأسرات الباكرة العصور التاريخية في جنوب بلاد النهرين التي كانت مقسمة إلى العديد من دويلات المدن التي كانت تتصارع فيما بينها للسيطرة على المنطقة ومن أشهر هذه المدن: كيش والوركاء وأور ولجش. وسنتناول فيما يلي بالدراسة المعالم الرئيسية للأحوال السياسية في جنوب بلاد النهرين من خلال دراسة هذه المدن حسب المادة الأثرية والنصية المتاحة.

أسرة كيش:

كانت مدينة كيش هي المدينة الأولى التي ذكرتها قائمة الملوك السومرية بعد الطوفان، ويتمثل موقعها حالياً في مجموعة من التلال المحاذية للمجرى القديم لنهر الفرات، وهي تقع على بعد ١٥ كم إلى الشرق من مدينة بابل، وخلال تاريخ المدينة انتشرت منشآتها المعمارية ضمن منطقتين تبعدان حوالي ٣ ½ كم عن بعضهما وتعرفان حالياً باسم «الأحيمر Uhaimir» و «إنغارا Ingharra»[١].

ونستدل من قائمة الملوك السومرية أن كيش كانت واحدة من أهم المدن في جنوب بلاد النهرين خلال عصر الأسرات المبكر[٢]. وبلغ عدد ملوكها في هذه القائمة ثلاثة وعشرون ملكاً حمل بعضهم أسماء سامية، وتمكنت من مد نفوذها وسيادتها على كل بلاد سومر، ويبدو أنها حققت تلك السيادة في عهد ملكها «إتانا Etana» الذي حكم على ما يبدو في بداية الألف الثالث ق. م.

(١) L.C. Watherlin, and S.Langdon, Excavations at kish, London, 1930- 1934.

(٢) انظر: H. De Genovillac, Premieres Recherches Archeologiques a Kich, I- II, Paris, 1924- 1925.

وتذكره قائمة الملوك السومرية أنه الملك الثاني عشر بعد الطوفان وتصفه بأنه «جعل كل الأراضي ثابتة» مما قد يشير إلى امتداد نفوذه إلى الأراضي المجاورة لحدود مدينته[١]. كما أشارت القائمة إلى صعوده إلى السماء، وهو الأمر الذي رددته فيما بعد اسطورية اكدية، أشارت إلى أنه حرم من الذرية، فحاول أن يحصل على نبات الولادة الموجود في السماء بعيداً عن متناول البشر، وتقص الأسطورة المصاعب التي قابلها في سبيل ذلك، حيث صعد إلى السماء على ظهر نسر، وذلك من أجل أن يضمن وريثاً لعرش كيش، ويوضح ذلك الرغبة الدفينة في الإنسان منذ القدم في إيجاد ذرية له ترثه وتكون امتداداً لحياته[٢].

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة «ميساليم Mesilim» الذي سيطر على مناطق واسعة من بلاد النهرين، وأطلق على نفسه لقب «ملك كيش» (شاركيش Sar Kissati)، وهو لقب استخدمه ملوك العصور اللاحقة على الرغم من أنهم لم يحكموا في كيش، ويشير ذلك من غير شك إلى المكانة الكبيرة التي حققتها مدينة كيش في عهد هذا الملك، ومن ناحية أخرى فلقد عثر على اسمه في الواح إبلا المكتشفة في سورية، ويشير ذلك إلى امتداد شهرته خارج بلاد النهرين.

أما بالنسبة لبلاد النهرين، فلقد كشف عن العديد من الآثار التي تحمل اسمه ومنها مقبض صولجان منحوت من الحجر الكلسي وقد جاء فيه: «ميساليم، ملك كيش، باني معبد نينجرسو، يقدم هذا (الصولجان) إلى نينجرسو. (عندما كان) لوجال شاجين جور إنزى (حاكم) لجش»[٣]. كما ورد اسمه أيضاً على لوح طيني وذلك حينما تدخل للحكم في الصراع الذي نشب بين مدينتي لجش وأوما. وكان ميساليم من العناصر السامية[٤].

(١) S.N. Kramer, The Sumerians, Chicago and London, 1970, P. 43

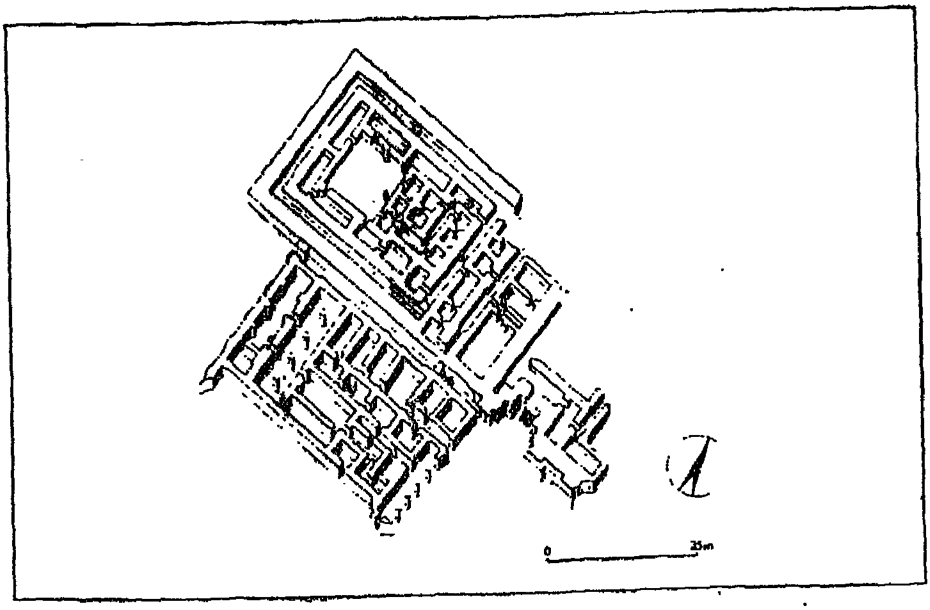
(٢) من أحدث دراسات هذه الأسطورة. انظر:

J.V. Kiner Wilson., The Legend of Etana, A new edition, Warminster, 1985.

(٣) H. Schömkel, Geschichte des Alten Vorderasien, Leiden, 1957, P. 17.

(٤) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٣٣ ـ ٣٤.

ولقد كشف في موقع كيش عن مباني دينية ودنيوية والعديد من المقابر، فلقد كشف عن بقايا زاقورات شيدت فوق تلال صناعية، ولقد عثر على ما يعرف باسم «قبور المركبات» التي احتوت على عربات ذات عجل، وكانت الأدوات التي وجدت في المقابر عبارة عن أسلحة وأوان مصنوعة في غالبيتها من النحاس[1]. ومن المبان الدنيوية الكبيرة التي كشف عنها ما يعرف بـ «القصر A» في كيش، وهو يتكون من عدد كبير من الحجرات، وكان مدخله محصناً وله أبراج، وتتميز واجهاته بوجود الدخلات والخرجات (المشكاوات)، كما عثر على بقايا أعمدته ودرجه. (شكل ٥٥). ولم يعثر في موقع القصر على أية أدلة مكتوبة يمكنها أن تساعدنا في معرفة صاحبه[2].



شكل (٥٥) رسم تخطيطي لقصر مبكر في كيش

(١) L. Watelin, Excavations at Kish, IV, Paris, 1934, P. 30.

(٢) M. Mallowan, «The Early Dynastic Period in Mesopotamia», in CAH., vol. I, Pat II, P. 274, Fig. 11.

ودخل آخر ملوك أسرة كيش وهو «آجا» في حروب مع جيلجامش خامس ملوك أسرة الوركاء، وكان من نتيجة هذه الحروب انتصار جيلجامش وانتقال الملكية إلى أسرة الوركاء الأولى.

أسرة الوركاء الأولى:

تقع الوركاء في جنوب شرق كيش بحوالي ١٦٠ كم، وأول ملوك هذه الأسرة هو ميسكيا جاشير Meskiaggasher، ولقد ترك هو وخلفاؤه انطباعاً لدى رعاياهم بالقوة والبطولة، فأظهرتهم الأساطير في هيئة الأبطال الذين يتمتعون بقوى إلهية، ومع أنه المستبعد أن يكون أحد هؤلاء الحكام خيالياً محضاً، فإننا إذا أردنا أن نتعامل معهم من الناحية التاريخية كأشخاص لهم أدوار محددة قاموا بها، فإن المادة التاريخية المتاحة شحيحة لا تمكننا من فهم وتتبع أعمالهم.

فبالنسبة لأول ملوك هذه الأسرة، لا توجد عنه سوى إشارة مختصرة تقول: لقد ذهب إلى البحر، وذهب إلى الجبل، وبالطبع فإنها عبارة مبهمة يمكن أن تفسر بطرق متعددة. ويذكر ابنه وخليفته «إنمركار Enmerkar»[(١)] أنه هو الذي قام ببناء الوركاء وجاء بعده على عرش الوركاء ملكين اعتبرهم الناس إلهين، أولهما هو لوجال ـ باندا Lugal Banda والثاني هو دوموزي[(٢)] Dummuzi، الذي أخذ لقب «الصياد» وقام بمقاومة العيلاميين ومهاجمتهم، وليس من الواضح إذا كان قد اعتقد أنه هو نفسه الإله دوموزي (تموز). حيث كان من بين ملوك ما قبل الطوفان ملك يدعى أيضاً دوموزي.

وجاء بعده على عرش الوركاء الملك جيلجامش الذي يعتبر أشهر ملوك هذه الأسرة، ولقد حيكت حوله قصص أكثر من أي ملك آخر. ولقد نسجت

---

(١) S.N. Kramer, From the Tablets of Sumer, Indian Hills, Colorado, 1956, P. 15 FF., 232FF., Emmerkar and the lord of Aratta, Philadelphia, 1952.

(٢) T. Jacobsen, The Sumerian King List, Chicago, 1939.

حوله الأساطير وتحول مع الزمن إلى نصف إله وبطل شعبي ليس في بلاد النهرين وحدها، بل في مناطق أخرى من الشرق الأدنى القديم، ودونت اسطورته بالإضافة إلى السومرية بالأكادية والحيثية وغيرها من بعض اللغات الأخرى.

ولا توجد وثائق مكتوبة معاصرة تلقي أضواء على حياة جيلجامش وأحداث عهده، ولكن من المؤكد أنه كان شخصية حقيقية في تاريخ سومر المبكر، ويمكن معرفة بعض الأمور من أسطورته، وتشير المصادر البابلية أنه أحاط مدينة الوركاء بسور للدفاع عنها، ولقد أوضحت الحفائر التي قامت بها البعثة الألمانية[١] أن المدينة كانت محاطة بسور مبني من الطوب ومجهز بأبراج دفاعية ويبلغ طوله نحو تسعة كيلومترات، وهو أقدم سور مدينة معروف في بلاد النهرين حتى الآن.

وفيما يتصل بملحمة الملك جيلجامش، يتضح الجانب الأسطوري فيها حتى في تصوير الأديب العراقي القديم لشخصية جيلجامش، فقد جعله يجمع بين البشر والآلهة، فثلثه إنسان وثلثيه إلهي. وتحاول الملحمة علاج مشكلة هامة واجهت الإنسان السومري وهي مشكلة الخلود بالنسبة للإنسان ومصيره بعد الموت. وتبدأ الملحمة مظهرة قسوة الملك جلجامش مما أدى إلى اتجاه الالهة «أرورو» إلى تشكيل منافس له وكان أنكيدو الذي كان أقرب إلى إنسان العصر الحجري القديم، ثم تعرضت الملحمة الأسطورية إلى علاقات جيلجامش وأنكيدو وكيف تطورت من عداوة إلى صداقه، وهي في ذلك الصدد تضفي صفة إنسانية للأسطورة مما يجعلها أقرب إلى تفهم المجتمع لها، وتتطور أحداث الأسطورة بعد ذلك وتصل إلى غايتها الرئيسية بعد موت أنكيدو ومحاولة جيلجامش البحث عن الخلود بعد الموت.

ويمكن إرجاع أساس تلك الملحمة إلى حياة الإنسان السومري وظروفه

(١) C.J. Gadd, «The Cities of Balylonia» in CAH, vol I, Part II, PP. 111-112.

البيئية المحيطة به، وكيف أنه كان يأمل في الحصول على الاستقرار الدنيوي والأخروي، ولكن عدم تحقق ذلك الاستقرار في بيئته في ذلك الوقت قد أدى إلى الخلود للآلهة وليس للإنسان[١].

وجاء بعد جيلجامش على عرش الوركاء اثنا عشر ملكاً، ولقد أصاب الوركاء الضعف في عهدهم، وأتاح ذلك الفرصة لمدينة أخرى لتتبوأ مركز الصدارة بين دويلات المدن السومرية، وهذه المدينة هي «أور».

أسرة أور الأولى:

أعطت قائمة الملوك السومرية سنوات حكم لهذه الأسرة تبلغ ١٧٧ عاماً، وهي فترة حكم مقبولة على ضوء الأدلة الأثرية التي كشف عنها لهذه الأسرة، ويلاحظ أن هذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها قائمة الملوك السومرية سنوات حكم تقترب من السنوات التي تتفق مع الأدلة الأثرية والنصية التي يمكن أن نتقبلها من الناحية الإنسانية[٢].

وأول ملوك هذه الأسرة هو الملك «مس ـ أن ـ ني ـ باد ـ دا Mes- an- ni- pad- da» ولقد ظهر اسمه على العديد من الآثار، ومنها لوحة حجرية عثر عليها في تل العبيد[٣].

ولقد كشفت الحفائر الأثرية التي قام بها ليونارد وولي في الفترة من ١٩٢٢ ـ ١٩٣٤ م في موقع مدينة أور والتي تسمى حالياً باسم (المقير) عن الكثير من الآثار الهامة التي ألقت الضوء على الحضارة السومرية والفكر الديني السومري في بلاد النهرين خلال هذه المرحلة المبكرة من عصر الأسرات السومرية.

---

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٢) E. Sollberger., «Notes on the early inscriptions from Ur and el-Obed», in Iraq, vol. 22 (1960), P. 71 ff.

(٣) رشيد الناضوري: المرجع السابق، شكل رقم ٧٧ ص ٢٥٩.

وكانت المدينة محاطة من الجهتين الشمالية والغربية بنهر الفرات، وكان لها مرفآن على هذا النهر، ولقد تمكن ليونارد وولي من الكشف عن مئات من المقابر التي ترجع إلى عصر الأسرات المبكرة، كان من بينها ست عشرة مقبرة تتميز بكبر حجمها وثراء محتوياتها، وكانت المقابر مسقوفة بقوس من الحجارة أو القرميد، وفي حالة واحدة فقط نلاحظ محاولة بناء قبة فوق المقبرة(١).

ومن المظاهر اللافتة للنظر في مقابر أور، ظاهرة دفن الأتباع مع الملك المتوفى أو مع أحد أعضاء الأسرة المالكة، وعثر بجوار هذه الهياكل على كؤوس يبدو أنها كانت تحتوي على شراب مخدر لتسهيل عملية مرافقة الأشخاص لسيدهم في المقبرة قبل الموت الجماعي معه كنوع من المشاركة لسيدهم في مصيره بعد موته.

ويتجه ليونارد وولي(٢) إلى أن ذلك التقليد كان سومرياً حيث كانت تصحب الملك حاشيته في العالم الآخر. إلا أن هناك من العلماء من يرى أن هذه الظاهرة ترتبط بعقيدة الخصوبة في صورتها الأولية، بمعنى أنه يتقدم بعض الكهنة والكاهنات بتقبل الموت ممثلين في ذلك دور الإله والإلهة في الزواج المقدس الذي يؤدي إلى خصوبة البلاد وخيرها في بداية كل عام، وربما كان هناك ارتباط بين ذلك التفسير وبين عقيدة الإله تموز(٣). إلا أنه يؤخذ على هذا الرأي أن عدد النساء والرجال غير متكافىء مما يخل بهذه النظرية، وإن كان يرجح أن يكون في ذلك نوع من الاعتقاد في الخلود في العالم الآخر، ومما قد يدعم هذا الرأي وجود مركبات في المقابر وكذلك هياكل عظمية لخيول تم دفنها، وكذلك العثور على تجهيزات جنازية نفيسة من حلى وأوسمة وأدوات

(١) C.L. Woolley, The Royal Cemetery (Ur Excavations, 11) London, and Philadelphia, 1934.

(٢) C.L. Woolley, History Unearthed «Ur of the chaldees» London, 1963, PP. 65- 69.

(٣) H.W.F. Saggs, The Greatness that was Babylon, London, 1962, P. 377.

موسيقية وغيرها في هذه المقابر.

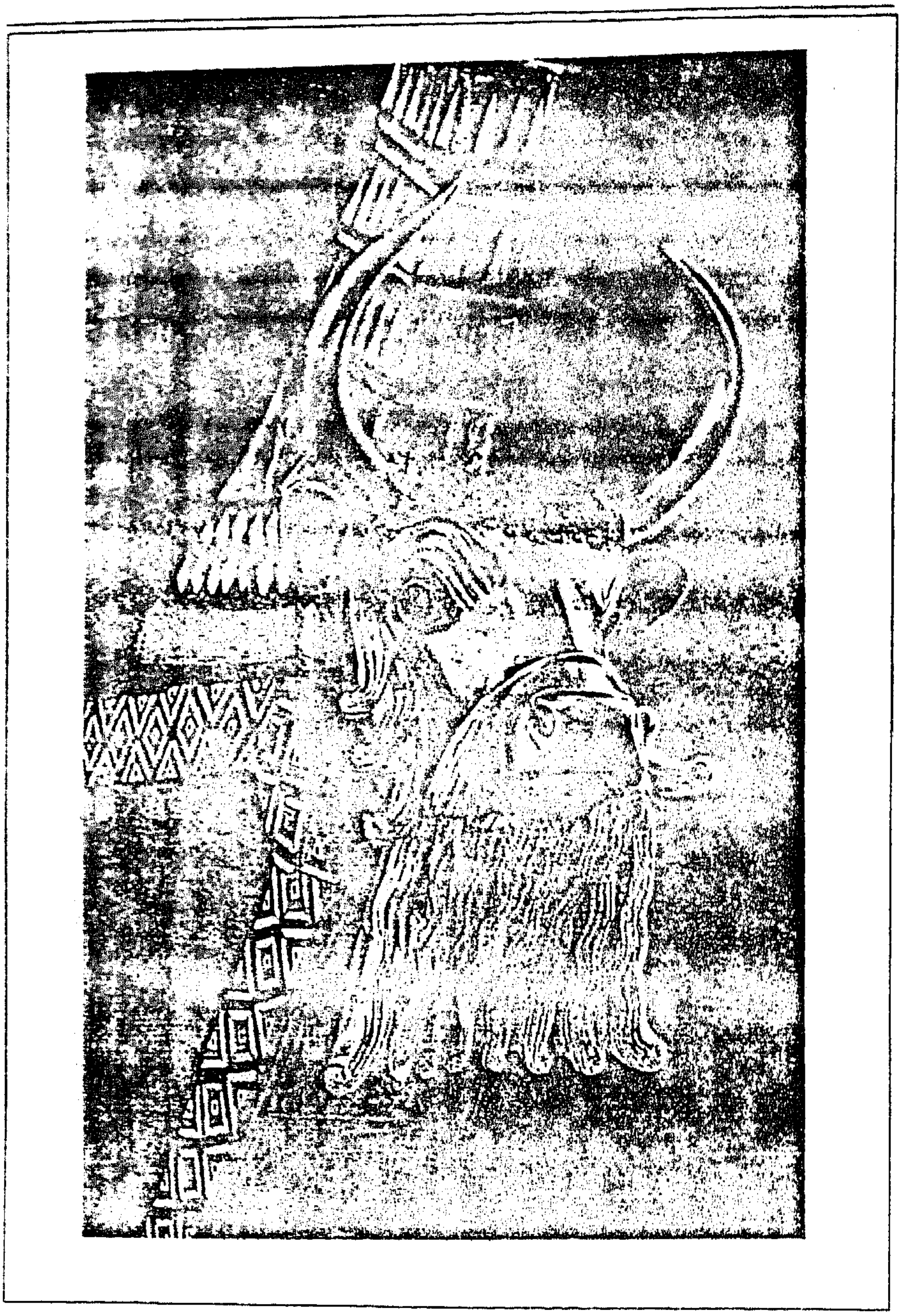
وتجدر الإشارة إلى أن هذه المرحلة الزمنية في تاريخ الشرق الأدنى القديم تتميز بممارسة العديد من المجتمعات الافريقية لظاهرة التضحية البشرية ولكن على أساس عقيدة الخلود ومشاركة الملك الإله في العالم الآخر، وقد استمرت تلك الظاهرة في المجتمع القرطاجي حتى العصر الروماني[١].

ولقد عثر في هذه المقابر على تراث أثري متنوع يتميز بالكفاءة في التصميم والمستوى الحرفي الرفيع في الصنع مما يضعه في مصاف روائع الآثار في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإنسانية، ومن أشهر المقابر في محتوياتها، مقبرة الملكة «شوب ـ أد» ويلاحظ أن اسمها ينطق حالياً «بو ـ آبي Pu- abi» وتحمل مقبرتها رقم ٨٠٠، ومن بين النفائس التي كشف عنها في مقبرتها خاتم اسطواني مصنوع من حجر اللازورد يحمل اسمها، ولقد دفنت الملكة وهي تتزين بكامل حليها ومجوهراتها بما فيها غطاء للرأس مصنوع من الذهب والأحجار الكريمة، وحول الملكة وضعت الأواني الذهبية والفضية وقيثارة مزخرفة برأس بقرة، ومن الأشياء الطريفة التي عثر عليها، طاولة لعب مرصعة تشبه لعبة الشطرنج الحالية، وذلك بالإضافة إلى حلقة لجام مصنوعة من خليط من الذهب والفضة، وبعض الأدوات الموسيقية مثل القيثارة، وعلبة رنين موسيقية مرصعة، ورأس ثور مصنوع من الذهب، وقد رصعت عينيه باللازورد (شكل ٥٦)[٢].

ومن الأشياء التي كشف عنها في مقابر أخرى في أور، قطعة خشب منحوتة يطلق عليها «علم أور» أو «الراية الملكية»، وهي تحوي مناظر على كل من وجهيها، وتعبر النقوش الموجودة على أحد الوجهين عن الحرب حيث صورت

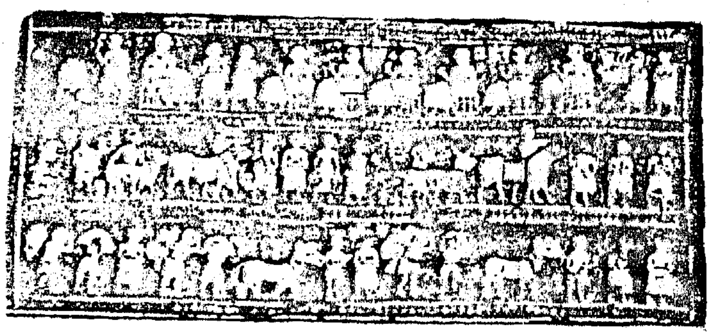
(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٢) L. Woolley., Mesopotamia and the Middle East in A series of Art of the World. Methuen and London, 1961, Plate, P. 37, and P. 75.

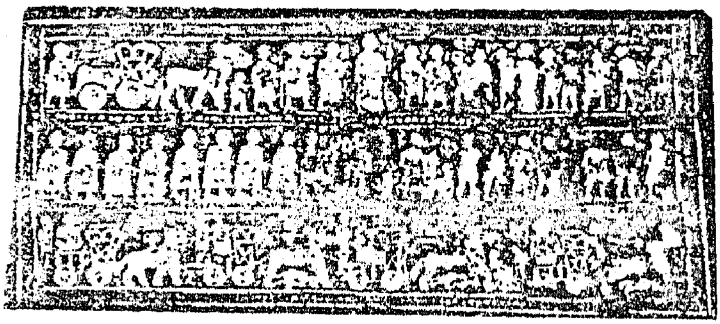


شكل (٥٦) منظر لرأس ثور مصنوع من الذهب من مقبرة الملكة شوب ـ اد.

مشهداً حربياً يظهر فيه الملك وكتيبة من المشاة، أما الوجه الآخر فهو يمثل السلام، حيث نقشت مظاهر العمل الزراعي ومأدبة طعام يقيمها الملك (شكل ٥٧)[١].



«الراية الملكية» من قبر في أور وهي تشكيلة متنوعة من تماثيل من الصدف على خلفية من اللازورد. مشهد سلمي يصور مأدبة طعام ونشاط زراعي.



الجانب الخلفي للراية الملكية. يصور مشهداً حربياً يظهر فيه الملك وكتيبة من المشاة

شكل (٥٧) منظر للراية الملكية في أور

(١) سيتون لويد: المرجع السابق، شكل ٨٧، ٨٨ ص ١٨١.

ولقد امتدت علاقات أور التجارية حتى ديلمون (البحرين) وماجان (عمان) وقد استفادت في ذلك من موقعها المناسب على المجرى السفلي لنهر الفرات. وتذكر قائمة الملوك السومرية أن أول ملوك هذه الأسرة وهو «مس ـ آن ـ ني ـ باد» قد منحه الإله انليل سيد مجمع الآلهة السومرية حكم مدينة أور، ولعل في هذا ما يبرر شرعيته في الحكم، ولقد اتخذ لقب «ملك كيش» ويبدو أنه أراد بذلك الادعاء بالسيادة على بلاد بابل. وتجدر الإشارة إلى قيام خلفاؤه ببناء المعابد في العديد من المدن السومرية، كما اتخذ اثنين من خلفائه اسماء آكدية سامية وهما ايلولو Elulu وبالولو Balulu مما يشير إلى تزايد النفوذ الآكدي عند نهاية أسرة أور الأولى، وفي ذلك الوقت أخذت قوة لجش في التزايد حتى استقلت عن أور وأصبحت من أكبر منافسيها، ثم دانت لها السيادة في جنوب العراق القديم.

أسرة لجش الأولى (٢٥٢٠ ـ ٢٣٧١ ق. م):

تقع لجش حالياً مكان الهباء أو الهبة شمال شرق تللو بحوالي ٢٠ كم في منتصف المسافة تقريباً بين دجلة والفرات. ولم يرد ذكرها في قائمة الملوك السومرية غير أن الحفريات الحديثة كشفت عن التسجيلات التاريخية التي تشير إلى تاريخها في عصر الأسرات السومرية المبكرة.

وكانت لجش في البداية خاضعة لمدينة أور، ثم أخذت قوتها في النمو في عهد حاكمها «أورنانشه **Urnanshe**» الذي استقل عن سيطرة أور، وأطلق على نفسه لقب «ملك». ولقد كشف عن كتابة منقوشة على حجر في مدينة لجش (وذلك في الحفائر التي أجريت ما بين ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) تسجل بعض الأعمال التي قام بها أورنانشه من بناء معابد للآلهة وإقامة التماثيل لها، وكذلك عن اهتمامه بالأعمال الاقتصادية المتمثلة في حفر القنوات، وكذلك عن نشاطه

الحربي ضد أور وأوما. ولقد جاء في هذا النقش: «أورنانشه ملك لجش بن جونيدو Gunidu مواطن من جورسار (مكان في منطقة لجش) بنى معبداً للإلهة ننجرسو من الآجر، وحفر قناة بجارا، بنى معبد (الإلهة) نانشي، بنى معبد جيرسو (موقع بالقرب من لجش) بنى معبد جاتو مدو (إلهة قديمة في لجش)... بنى سور لجش... أورنانشه ملك لجش خرج للمعركة ضد ملك أور وملك أوما، ملك لجش انتصر على ملك أور... وانتصر على ملك أوما»[(١)].

وتشير نقوشه أيضاً إلى إحضاره الأخشاب بواسطة سفن دلمون، وربما تجاوز نفوذه خارج حدود مدينته، حيث عثر في مدينة أور على لوح حجري عليه صورته واسمه، الأمر الذي ربما يدل على أنه قد حكم هذه المدينة أو أخضعها لنفوذه[(٢)].

ويعتبر «آيانا توم Eannatum» (نحو ٢٤٧٠ ق. م) (شكل ٥٨) حفيد أورنانشه من أقوى ملوك لجش وأشهرهم، ولقد بدأ عهده بالاهتمام بالأحوال الداخلية، فقام بشق القنوات، وأعاد بناء ما تهدم في عهد والده خلال حروبه مع أوما.

ومن الناحية الحربية فقد خاض العديد من الحروب مع العيلاميين في الشرق، كما خاض معارك أخرى أخضع فيها مدن الوركاء وأور وكيش وماري وأوما. على أن أهم حروبه كانت ضد مدينة أوما التي تقع شمال غربي لجش بحوالي ٣٠ كم، وكان سبب النزاع بين المدينتين منطقة الحدود الواقعة بينهما وعلى قناة المياه التي كانت تغذي هذه المنطقة وتسمى «فرع جرسو».

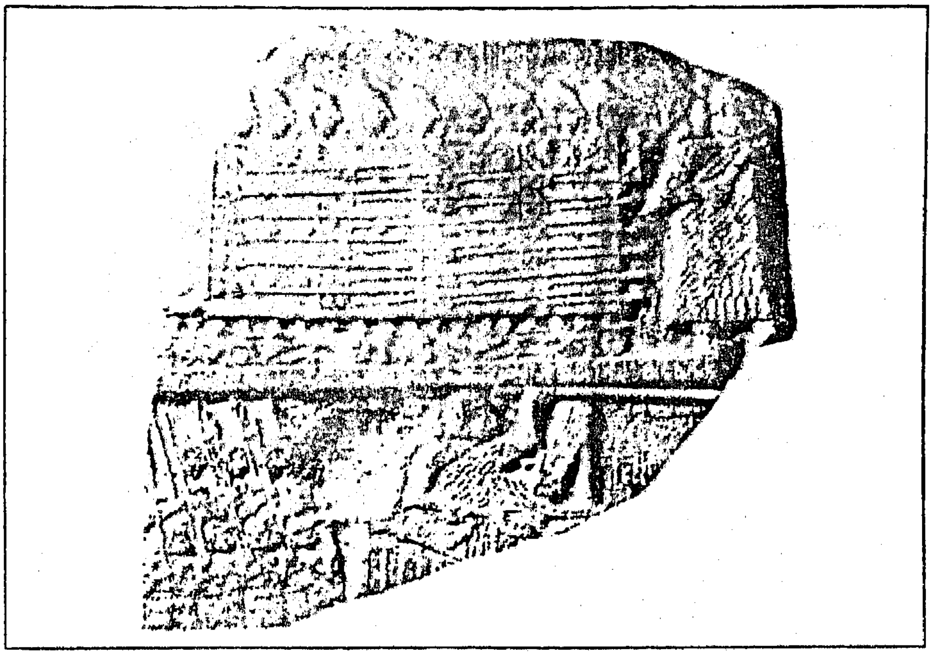
وسجل أياناتوم أخبار حربه مع أوما على لوح حجري يعرف باسم «نصب

(١) انظر: عبد مرعي: المرجع السابق، ص ٣٦.
(٢) S.N. Kramer, The Sumerians, P. 53, 303-309.



(شكل ٥٨)
شكل للملك إياناتوم على لوح من الحجر الأسود

الصقور»[١] (شكل ٥٩) ويبدو أن المعركة كانت بالغة العنف وأن أهل أوما لم



شكل (٥٩) لوحة العقبان

يستكينوا داخل أسوارهم، بل خرجوا للقاء ملك لجش ليمنعوه من اجتياح مزارعهم ومراعيهم، إلا أن اياناتوم استطاع هزيمتهم، وتقدم نحو أسوار المدينة

(١) عثر على كسرات هذه اللوحة الأثري الفرنسي دو سارزيك خلال حفرياته في تللو في نهاية القرن الماضي، وتوجد هذه اللوحة حالياً في متحف اللوفر في باريس، وقد نحتت من الحجر الرملي وتبلغ أبعادها ١٨٨ × ١٣٠ × ١١ سم وهي مدورة من الأعلى ومشوهة في بعض أجزائها وسميت بهذا الاسم نظراً لتصوير الملك في الوجه الخلفي للوحة وهو يسير على رأس مجموعة من المحاربين المسلحين بالحراب فوق جثث القتلى من الأعداء التي تنهشها الصقور.

واستطاع أن يقتحمها فسقطت المدينة تحت سيطرته، فأعمل فيها السيف في إبادة كاملة، ثم جمع جثث القتلى من رجاله وترك القتلى من الأعداء في العراء إلا من وجده يشغل الطريق فألقى به خارج الأسوار فريسة للطيور الجارحة والحيوانات الضارية، وقد فرضت الجزية على المهزومين وعدل الحدود لصالح لجش[١].

ودفع هذا الانتصار «إياناتوم» إلى استئناف القتال ضد أور والوركاء وكيش وأوبس، وهكذا توج ملكاً على سومر. ويمكن القول أن لجش في عهده قد تحولت من مدينة إلى دولة تضم المدن السومرية الكبرى، وأصبحت لجش زعيمة مدن بابل قاطبة، وقد عنى «أياناتوم» بتقوية حصونها وخطوط دفاعها وتدعيم أسوارها، كما عنى بشق القنوات وتطهيرها، وتشييد المعابد والهياكل لمختلف المعبودات التي نصرته على أعدائه[٢].

وجاء بعده ابنه «انتيمينا Entemena» الذي استمرت الحرب في عهده بين لجش وأوما، وانتهى الأمر بهزيمة أوما، وإعادة الحدود إلى ما كانت عليه بين البلدين ولقد ازدهرت لجش في عهد «انتيمينا» فتطورت الحرف والتجارة وازداد استيراد مواد البناء والأخشاب والأحجار، وحفرت القنوات، ويعد عهد انتيمينا آخر عهود ملوك لجش العظام إذ جاء بعده ملوك ضعاف لا نعرف عنهم الشيء الكثير، حتى اعتلى عرش لجش «أورو كاجينا Urukagina».

النطق الحديث لاسم هذا الملك هو «أورو إنمجينا Uruenemgina» (٢٣٥١ ـ ٢٣٤٢ ق. م تقريباً) ولقد اعتلى لجش بعد خلعه الحاكم السابق للمدينة، واتخذ لقب ملك في عام حكمه الثاني، وحاول إعادة مجد لجش وقوتها، فوجه همه أولاً إلى الإصلاحات الداخلية، فقام بإصدار مراسيم إصلاحية تحد من امتيازات الكهنة والموظفين وترفع الظلم والاستغلال عن كاهل الطبقات الفقيرة.

---

(١) S.N. Kramer, Op. cit., P. 313.

(٢) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ١١٨.

وتعد إصلاحات أورو إنمجينا التي سجلت على ثلاثة مخاريط طينية ولوح حجري أقدم ما سجله التاريخ من تشريعات إدارية، ولقد شملت إصلاحاته مجالات عديدة، فقد خفضت الضرائب عن كاهل الناس، والعفو عن المسجونين بسبب عدم الوفاء بهذه الضرائب، كما نصت إصلاحاته على منع إجبار الناس البسطاء على بيع ممتلكاتهم، كالأراضي والبيوت وغيرها إلى الأثرياء وكبار الموظفين، ويرفع السعر المناسب في حالة الموافقة على البيع، وألغى زواج المرأة من رجلين، ولخص أورو انمجينا في نهاية تشريعاته الهدف منها فقال: «... تكلم (أورو إنمجينا) فحرر أبناء لجش من السرقة والجريمة وحمى الأرامل والأيتام من الأثقال وأعاد للآلهة ممتلكاتها، وأقام الحرية حتى لا يظلم القوي اليتيم والأرملة، ولقد عقد أورو انمجينا هذا «الميثاق» مع ننجرسو»[1].

ولم يدم حكم أورو انمجينا طويلاً (ما يقرب من تسع سنوات) إذ ما كادت إصلاحاته تعطي ثمارها، حتى ظهرت شخصية قوية في مدينة أوما عدوه اللدود وهو لوجال زاجيزي الذي استغل انصراف أورو انمجينا إلى إصلاحاته الداخلية وقام بهجوم خاطف على لجش فأضرم النار فيها ونهب ثرواتها واستولى على معابد الأرباب فيها، وبذا ورثت أوما مركز لجش بين المدن السومرية.

وهنا تجرأ «لوجال زاجيزي» بنصره فبدأ في تنفيذ مشروع لم يجرؤ أسلافه على المضي في تنفيذه، وهو مشروع توحيد المدن السومرية تحت زعامته، ونقل مركز نشاطه إلى أوروك واعتبر نفسه ملكاً على سومر.

ولكن يبدو أنه لم يكن قنوعاً فوصل في إغاراته حتى الخليج العربي في الجنوب وحتى سورية في الشمال، حيث دون على إناء عثر عليه في نيبور أن

---

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥، وكذلك محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١١١، وكذلك عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٣٧ ـ ٣٨، وانظر أيضاً: S.N. Kramer., OP. Cit., PP. 317-322.

غزواته شملت بلاد النهرين وسورية، أو حسبما جاء في نصه: «من البحر الأدنى حتى البحر الأعلى» أي من الخليج العربي وحتى البحر المتوسط. إلا أن ذلك لا يعني السيطرة على كل هذه المنطقة، بل ربما تعني الإشارة إلى معرفة السومريين لهذه المنطقة وتعاملهم بالتجارة معها. وأغلب الظن أن حدوده لم تزد عن بلاد سومر نفسها، وبخاصة أننا سنلتقي بـ «كيش» بعد قليل تبسط سيادتها على بابل الشمالية، وربما تمكن لوجال زاجيزي من الحصول على اعتراف الساميين في ماري بخضوعهم له أو الاتحاد معه وكان هؤلاء بدورهم لهم نفوذ على الساميين في سورية.

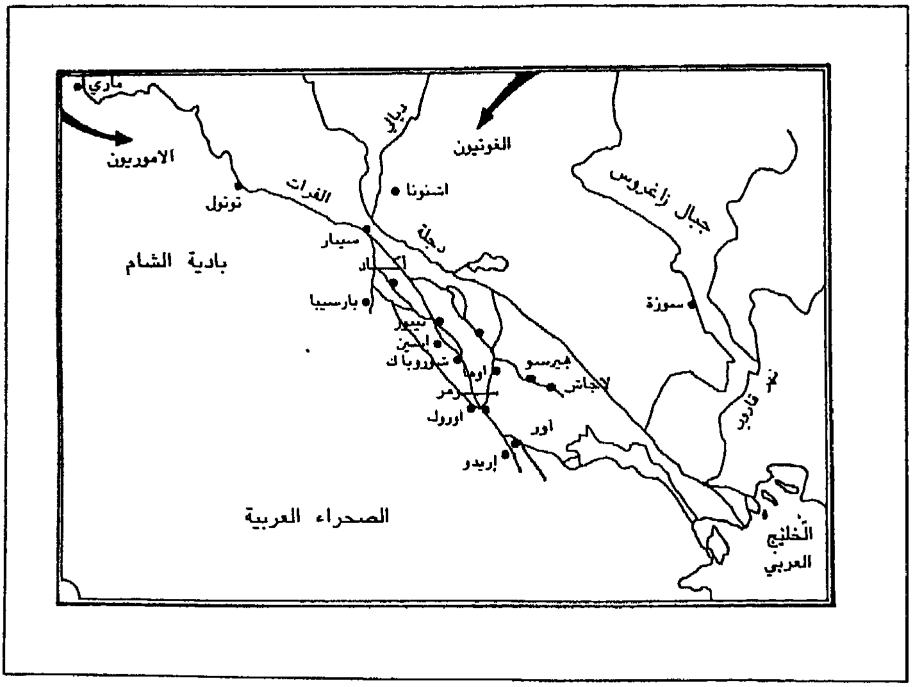
وعلى أية حال فإن حكم «لوجال زاجيزي» لم يستمر أكثر من ٢٥ سنة حيث قضى عليه وعلى دولته «سرجون» ملك آكد. وبسقوط «لوجال زاجيزي» وهو الملك الوحيد في أسرة الوركاء الثالثة ينتهي عصر الأسرات المبكرة لحكومات المدن في تاريخ العراق القديم، وتبدأ بعدها مرحلة جديدة مميزة يتغير فيها طابع البلاد من تاريخ حكومات المدن إلى تاريخ الدولة، وتنتقل السلطة من السومريين إلى الساميين.

الفصل الخامس

العصر الأكدي

(٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق. م)

يمثل قيام الأسرة الأكدية في العراق القديم سيادة العنصر السامي بدءاً من هذه المرحلة، وحققت هذه الأسرة منذ قيامها وحدة سياسية للبلاد أنهت بها عصر حكومات المدن الذي ساد خلال العصر السابق، على أيام السومريين، ونجحت في مد نفوذها على مناطق بعيدة خارج نطاق السهل العراقي. (خريطة رقم ٣)[١].



خريطة رقم (٣) سومر وأكاد في الألف الثالث قبل الميلاد

(١) عيد مرعي: المرجع السابق، خريطة ص ٤٤.

فقد كان للساميين عدة مدن في العراق القديم بجانب المدن السومرية، وقد تعايشوا جنباً إلى جنب مع السومريين بعد وفودِ السومريين إلى جنوب العراق منذ مرحلة ما قبيلَ الكتابة على الأقل وأثناء عصر الأسرات المبُكرة، وذلك وفقاً لما يشهد به ورود الأسماء السامية في اللغة السومرية.

وقد احتوت أقدم الوثائق السومرية من الألف الثالث ق. م على كلمات لم تكن سومرية، ويرجح أن أصحابها هم أسلاف الساميين الذين سبقوا السومريين في الاستيطان بالقسم الجنوبي من السهل العراقي وفرضوا كلماتهم على اللغة السومرية، ومن أمثلة هذه الكلمات غير السومرية بعض أسماء الحرفيين مثل الفلاح والراعي والنساج وصانع السلال والنجار، ولعل من أقدم هذه الكلمات كانت كلمة تاجر والتي كان يطلق عليها «مكر».

وتكثر الأسماء السامية في اللغة السومرية منذ بداية العصر التاريخي، ومن أهمها ما يدخل في تركيبة الكلمة السامية «إيل» التي تعني إله، كما حمل أقدم ملك لأول حكومات المدن التي نزلت عليها الملكية وهي أريدو إسماً سامياً هو «الوليم». وكان نزول الملكية للمرة الثانية بعد الطوفان في مدينة كيش التي يبدو أنها كانت مركزاً للعناصر السامية إذ حمل ما يقرب من إثني عشر ملكاً من ملوكها الثلاثة والعشرين أسماء سامية.

ولا يتبين من أحداث عصر الأسرات المبكرة في جنوب العراق القديم ما يشير إلى قيام منازعات أو عداء بين السومريين والساميين قبل قيام أسرة أكد السامية مما يعبر عن تعايشهم وقتئذ في سلام، وستبدو مظاهر العداء واضحة بين السومريين والساميين منذ عصر أسرة أكد نتيجة لفقد السومريين سلطانهم وتفوقهم السياسي.

ويرجح أن القسم الشمالي من جنوب العراق كان منطقة تجمع العناصر السامية، وتوجد في هذه المنطقة مدن بابل وسيباروإكشاك وكيش وأكد التي أسسها سرجون، ولذلك أطلق على هذا القسم تسمية أرض أكد، بينما حمل

القسم الجنوبي الذي يمتد من مدينة نيبور شمالاً إلى مدينة أريدو جنوباً تسمية أرض سومر، ويصعب في الواقع تحديد فواصل محددة لمناطق الاستقرار السامي والسومري في عصر الأسرات المبكرة، وخاصة أن الأسماء السامية ترد في أسرات الوركاء وأور السومرية، كما ترد الأسماء السومرية في أسرات كيش وسبار، فضلاً عن أن المدينة الأخيرة وهي سبار ترد في أسطورة الطوفان السومرية كإحدى المدن السومرية الخمس التي أنزلت عليها الملكية من السماء(١).

ويختلف المؤرخون بشأن تاريخ الوجود السامي في جنوب ووسط العراق القديم، وإن كان يرجح أنه بدأت الهجرات السامية من موطنها الأصلي في شبه الجزيرة العربية إلى سهل دجلة والفرات منذ الألف الرابعة قبل الميلاد، وأنه وجدت علاقات بين سكان شرق شبه الجزيرة العربية وسكان جنوب العراق في عصر حضارة العبيد، ثم استطاع هؤلاء الساميون أن يكونوا لهم إلى جانب السومريين مدناً لكل منها أمير يحكمها، وأخذ هؤلاء الساميون من السومريين الكتابة والعمارة والنظم الإدارية.

غير أن هناك من يرى بأن الساميين ربما كانوا هم الذين سبقوا السومريين إلى جنوب العراق القديم، ويستدلون على ذلك بوجود أسماء وكلمات سامية متفرقة في اللغة السومرية.

وليس هناك ما يعرف يقيناً عن تفاصيل الظروف التي هيأت لهؤلاء الساميين الاستقرار في بلاد النهرين والتأثير في مجريات أمورها، ولكن يحتمل أنهم قد بدأوا دخولهم إليها عن طريق التسلل البطيء، وهيأ تطاحن المدن السومرية في جنوب العراق من أجل الزعامة الداخلية لهم الفرصة من السيطرة

(١) انظر: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ١٨٢ ـ ١٨٤، وكذلك عبد الكريم عبدالله: «ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكدية» مجلة سومر، العدد ٣٠، ١٩٧٤، ص ٦٥ ـ ٦٨.

على بعض مدن سومرية النشأة، كان من أهمها مدينة كيش فاستفادوا من حضارتها، هي وأمثالها من المدن الأخرى، ولقد نجح العنصر السامي إلى أبعد الحدود، وتركز في المنطقة الوسطى من العراق. وقد عرفت هذه المنطقة باسم «آكد» ولذا يطلق على الدولة التي أسسها سرجون إسم «الدولة الأكدية».

سرجون الأول (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٥ ق. م):

ورد اسمه في النصوص الأكدية ك «شارو (م) كين Sharru (m) Kin» التي تفيد معنى «الملك الحقيقي» أو «الملك الصادق» أو «الملك المكين»، أما تسمية سرجون وصارجون فهي مأخوذة من التوراة، ورغم عدم قبولها علمياً إلا أنها هي الأكثر شهرة له.

وتشير قائمة الملوك السومرية[1] إلى سرجون على أنه مشيد مدينة أكد التي انتقلت إليها الملكية بعد قهر مدينة الوركاء (أسرة الوركاء الثالثة) وهي تقع بالقرب من «كيش» في جنوب العراق، في نقطة غير محددة، حيث أنه لم يتم التعرف على موقع المدينة، وإن كان يرى بعض الباحثين أنها تقع غربي بغداد بحوالي ١٨ كم. وربما اختار هذا المكان باعتباره من المراكز الرئيسية لعبادة عشتار التي اعتبرها راعيته منذ صغره، وكان معبدها فيها يسمى «يولماش».

وتهتم القائمة بإيراد بعض المعلومات عن نشأة سرجون المتواضعة قبل أن تؤول إليه الملكية، فتشير إلى أنه نشأ بستانياً، ثم أصبح ساقياً للملك «أور ـ زابابا» ملك كيش (ثان ملوك أسرة كيش الرابعة) وأنه ثار ضد مولاه واستطاع أن يخلعه ويعتلي العرش من بعده، ذلك لأنه كان يقوم بالخدمة في معبد الإله السامي «مردوك» (مردوخ) في مدينة بابل، وأنه قد أحسن عمله، فتقبله مردوك،

(١) T., Jacobsen, The Sumerian King-List, Chicago, 1939.

ومن ثم جعله سيداً على البلاد في مكان مولاه «أور ـ زابابا» الذي أراد الإخلال بطقوس عبادة مردوك بتغيير قربان الشراب بمعبده[١].

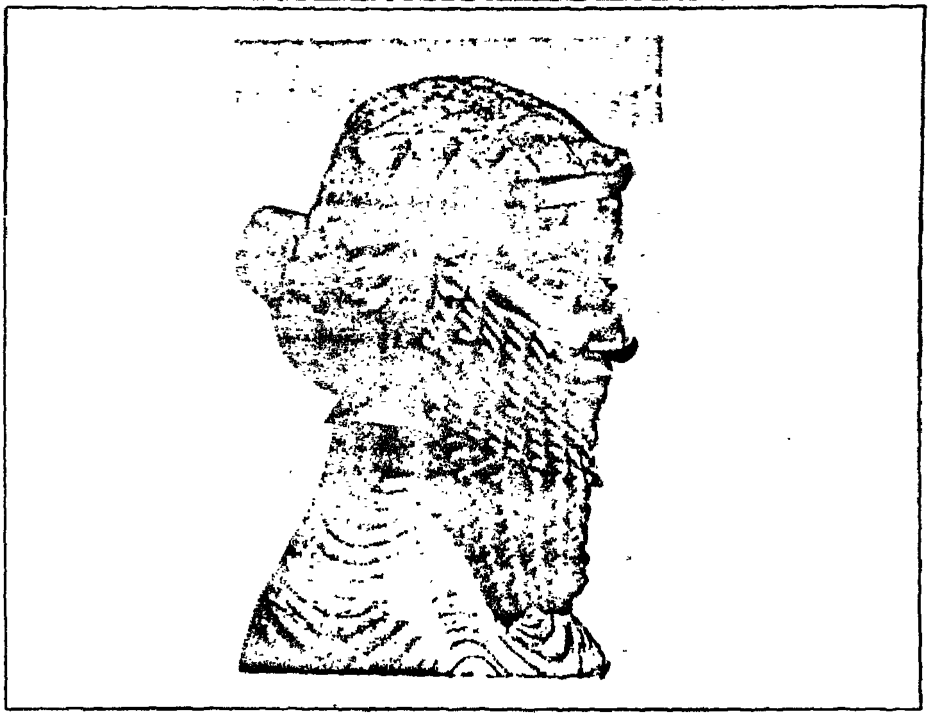
وتقدم اسطورة أخرى متأخرة بيانات أخرى عن نشأته المتواضعة فتقول: «شاوركين الملك القوي، ملك أكد هو أنا، كانت أمي كاهنة إله ولم أعرف أبي، سكن عمي في الجبال، مدينتي هي أزوبيرانو Azupirano التي تقع على ضفة الفرات. أمي الكاهنة حملت بي وولدتني سراً ووضعتني في صندوق من القصب أغلقت بابه بالقار ورمتني في النهر الذي حملني إلى آكي AKKI الفلاح الذي انتشلني، أكي البستاني جعلني ولده ورباني، أكي الساقي جعلني بستانيه، عندما كنت بستانياً أحبتني عشتار، أصبحت سيداً وحكمت ذوي الرؤوس السوداء، خربت جبالاً قوية بواسطة بلطات مصنوعة من البرونز، صعدت الجبال العليا، وعبرت الجبال السفلى، حاصرت بلاد البحر ثلاث مرات، فتحت مدينة ديلمون...»[٢].

ويبدو أن سرجون لم يقصد بهذه الرواية إظهار التواضع، بقدر ما تعمد تأكيد عصاميته ورعاية الربة له، ووصوله إلى العرش بفضل تأييدها له. هذا ويتضح من رأس تمثال عثر عليه في نينوى ويرجح أنه يخص سرجون، أن صاحبه يتميز بالحزم والقوة والثقة التي تمثلها ابتسامته الهادئة (شكل ٦٠).

وأياً ما كان نصيب هذه الأساطير من الصحة أو عدمها، فإنه بعد توليه العرش في كيش بعد القضاء على سيده بدأ في تكوين امبراطوريته، ومهد لذلك بتوحيد العراق لأول مرة توحيداً ظل فترة طويلة نسبياً، فاتخذ لقب «ملك (أرض) سومر وأكد» ثم مهد لأطماعه الخارجية بأن ادعى لنفسه لقب «ملك

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، وانظر أيضاً:
E.A. Speiser, «The Legend of Sargon» in ANET., p. 119.

(٢) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٤٥.



(شكل رقم ٦٠)

رأس من البرونز بالحجم الطبيعي لملك أكادي ربما يكون سرجون ٢٣٧٠ ـ ٢٣١٥ قبل الميلاد. وقد وجد في معبد عشتار في نينوى. الارتفاع ٣٠ سم.

الجهات (أو المناطق أو الأوطان) الأربعة» وهو لقب اعتاد أسلافه أن يصفوا به آلهتهم الكبار، فانتحله لنفسه، وهدف من ورائه أنْ يقنع به نفسه ويقنع شعبه بأنه نائب الأرباب على جهات الأرض كلها[١].

ويفيد أحد نصوص الملك سرجون أن المدن السومرية التي تمكن من السيطرة عليها وهي كما ورد في النص مدينة الوركاء التي دمرها وحطم سورها واقتاد ملكها لوجال زاجيزي أسيراً وهو مربوط في طوق حول عنقه إلى بوابة

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤١٧.

معبد إنليل السومري ربما لإظهار تبجيله لهذا الإله، واسترضاء السومريين الذين أجبروا على الخضوع له، أو ربما كان يهدف من وراء ذلك أن يخلع عن لوجال زاجيزي ألقابه الدينية والدنيوية أمام المعبود إنليل ويتخذها لنفسه. ثم تمكن بعد ذلك ـ حسبما ورد في النص ـ من إخضاع بقية المدن السومرية وهي أور وأوما وبلغ بجيوشه الخليج العربي.

وبعد أن تمكن سرجون من توحيد أرض سومر وأكد اتجه إلى توسيع رقعة بلاده وتكوين امبراطوريته وكان المجال الرئيسي الذي اتجه إليه ناحية الشمال الغربي، وحسبما ورد في نص كتب في أعقاب نهاية أسرة أكد[١] وذكر خط سير حملة سرجون، وقد جاء فيه أنه قد بدأ حملته من مدينة توتول التي تقع إلى الغرب من بغداد بحوالي ١٥٠ كيلومتر، ومنها اتجه إلى مدينة ماري التي تقع إلى الشمال الغربي من توتول بحوالي مائتي كيلومتر، وهي تعتبر أولى المواقع الهامة التي سيطر عليها سرجون. وبعد ذلك يشير النص إلى استيلاء قوات سرجون على مدينتي يارموتي وإبلا، ويصعب تحديد موقع هاتين المدينتين. وفيما يتصل بمدينة «يارموتي» فترجح بعض الآراء أنها في غرب البحر الميت بفلسطين، أو أنها تقع إلى جنوب مدينة جبيل وذلك طبقاً لما ورد من ذكر لها في خطابات العمارنة[٢]، إلا أنه يرجح أن تكون يارموتي تقع فيما بين ماري وإبلا أي إلى الشمال والشمال الغربي من ماري. أما مدينة إبلا فيرجح أن تكون في وادي نهر بلخ بالقرب من أورشو إلى الشمال الشرقي من قرقميش.

ويذكر النص بعد ذلك، أنه بعد الاستيلاء على مدينة إبلا توجهت جيوش سرجون إلى غابة الأرز التي تقع إلى الغرب منها، والتي يرجح أن تكون جبال الأمانوس التي تقع في أقصى شمال سوريا، وتنتهي الحملة عند «جبل الفضة»

(١) A.L. Oppenheim, «Sargon of Agade» in A NET. PP. 267- 268.

(٢) S. Smith, Early History of Assyria to 1000 B.C., London. 1928, PP. 375 (note 6).- 376.

وهي جبال طوروس إلى الشمال من جبال الأمانوس[١].

هذا ويتجه «بوتيرو Bottero»[٢] إلى الاعتقاد بأن «يارموتي» تمثل الحد الجنوبي للتوسع الأكدي جهة الشمال الغربي، وإن إبلا تمثل الحد الشمالي لهذا التوسع، ويرى أن تعبير غابة الأرز الوارد في النص لا يشير إلى جبال الأمانوس، بل كان المقصود به غابة أخشاب الأرز عامة والتي تتوفر بالدرجة الأولى في لبنان.

ويستدل مما جاء في قصة متأخرة تعرف باسم «ملك المعركة» وعرفت معظم أحداثها من لوح عثر عليه مع خطابات العمارنة في مصر، أن نفوذ سرجون قد امتد في الشمال الغربي إلى ما وراء جبال طوروس في الأناضول، حيث مد نفوذه على مدينة بورو شخاندا Purushkanda التي تقع بالقرب من تبه كول. ويرى Gadd أنه إذا كان لهذه القصة أصل تاريخي، فإن نفوذ سرجون في هذه الحالة يكون قد امتد إلى آسيا الصغرى[٣].

وفيما يتصل بالجهود الحربية لسرجون في الشمال الشرقي، فيستدل من النصوص أنه قد تمكن من الاستيلاء على «سوبارتو» وهي تقع في شمال العراق وتمتد من نهر بلخ غرباً حتى جبال زاجروس شرقاً، كما كانت منطقة آشور خاضعة لنفوذه، وامتد نفوذه إلى منطقة عيلام، التي نهب ثروات مدنها العظيمة سوسة وأوان.

أما في الجنوب، فقد امتد نفوذه إلى رأس الخليج العربي، وأصبح له بعض الإشراف على المناطق التجارية المتصلة بالخليج العربي والقريبة منه، مثل جزيرة دلمون (جزيرة البحرين) وماجان التي يحتمل أنها كانت تشغل عمان

---

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٢) J. Bottero, «Syria Before 2200 B.C.,» In C.A.H., Vol I Part II, PP. 324-325.

(٣) C.J. Gadd, «The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion», In C.A.H., vol. I. Part II. PP. 426- 427.

الحالية، وملوخا، التي يحتمل وقوعها بين المنطقتين السابقتين[١].

. ونتج عن انتصارات سرجون وفتوحاته تدفق ثروات البلاد المفتوحة على أكد، ويعبر نص يطلق عليه تسمية «لعنة أكد» عن مدى ما نعم به مواطنوها من رخاء في عهد سرجون، ولقد جاء فيه:

«في هذه الأيام (عهد سرجون) امتلأ مقر أكد بالذهب، واكتظت منازلها المتألقة الضياء بالفضة. وأحضر إلى مخازنها النحاس والرصاص وألواح اللازورد، وانتفخت جوانب صوامع غلالها (من كثرة ما بها من حبوب)، ووهبت نساؤها المسنات الرأي (السديد)، ووهب رجالها المسنون فصاحة (القول)، ووهب شبابها (قوة الأسلحة)، ووهب أطفالها الصغار قلوباً مرحة... وامتلأ داخل المدينة... وخارجها... بالموسيقى.. (ولم) يشهد أهلها (سوى) السعادة[٢].

ولعل مما يشير كذلك إلى عظمة سرجون ما جاء في أحد النصوص ويشير إلى أنه قد أحاط نفسه بحرس خاص بلغ قوامه ٥٤٠٠ جندي كانوا يأكلون يومياً في حضرته، وأن أهل بلاطه سكنوا حول قصره في مساحة لا تقل عن خمسة أميال.

ولقد قام سرجون بالعديد من الإصلاحات الداخلية، ففي الناحية الإدارية، لم يعتمد على ولاء المدن السومرية كثيراً، بل أنه كون له أتباعاً يدينون له بالولاء، ثم منحهم قسماً من الأراضي التي كانت تتبع المعابد من قبل، الأمر الذي أثار عليه الكهنة فيما بعد، فانضموا إلى الثائرين ضده، ولقد أنشأ سرجون حاشية خاصة به تتصل به برابطة الدم والنسب بالمعنى الواسع للعصبية القبلية، مما يشير إلى محاباة الملوك الأكديين للعنصر الأكدي على حساب العنصر السومري.

---

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤١٨.

(٢) انظر: محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٧١، وكذا:

S.N. Kramer, «The curse of Agade». In ANET, PP. 646-647.

ولقد أدخل سرجون اسم الملك في العقود مع أسماء الآلهة. وكان هذا أمراً هاماً من ناحيتين، الواحد: أنه يعني طاعة الملك والتمسك بولائه، والآخر: تثبيت حقوق المتعاقدين، ذلك لأن الذي يخل بشروط العقد ـ بعد أن أقسم باسم الملك ـ إنما يسيء إلى الملك نفسه، ومن ثم فقد اتسعت صلاحية القضاة الذين كانوا قبل أيام سرجون أشبه ما يكونون بالمحكمين، وقد صار حكمهم ـ منذ العهد الأكدي ـ إلزاماً باسم الملك، ومن ثم يكون سرجون، بموجب هذا العرف الجديد قد أوجد بوجه عملي محكمة للاستئناف في البلاد، مستقلة عن المدن الأخرى، وعلى رأسها الملك نفسه، وليس هناك من ريب في أن هذه خطوة هامة في تطور الشرائع في العراق القديم(١).

ومن ناحية أخرى فلقد اهتم سرجون بالجيش وأسلحته، فتطورت أساليب الحرب والأسلحة في عهده، فاستعمل الأسلحة الخفيفة كالأقواس والنبال بدلاً من الأسلحة السومرية الثقلية كالتروس والرماح الطويلة، كما أدخل طريقة المبارزة ـ رجلاً لرجل ـ في القتال، واعتمد الأكديون على الأعداد الكبيرة في تعبئة الجيش، فيذكر سرجون في أحد نصوصه أنه قاد جيشاً قوامه ٥٤ ألف جندي(٢).

ويلاحظ أن سرجون قد شيد العديد من المعابد للآلهة في المدن المختلفة، ففي نيبور أعاد بناء معبد انليل الكبير، كما اهتم بمعبد الإله شمس في سيبار، كما شيد معبداً للإله زبابا إله الحرب، ومعبداً آخر للإلهة عشتار في مدينة أكد العاصمة.

ولقد أنشأ ميناء في أكد لتنشيط التجارة مع المناطق البعيدة عبر الخليج العربي، فذكر في أحد نصوصه: «شاروكين، هو ملك كيش، خاض أربعاً وثلاثين معركة انتصر فيها ودمر أسواراً حتى شاطىء البحر، وجعل سفناً من

(١) طه باقر: المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٣٠.

ميلوخا وسفناً من ماجان وسفناً من ديلمون ترسو في ميناء أكد[١]

ومع ذلك فعند نهاية حكم سرجون، تعرضت دولته للعديد من المشاكل الداخلية والخارجية، والتي ورد بعض أخبارها في بعض النصوص مثل ما يعرف باسم «ألواح الفأل» و «أخبار سرجون»[٢]، ويفهم من هذه النصوص أنه نشبت ضده عدة ثورات بتأييد من سكان سهل سوبارتو، وأن عاصمته قد حوصرت، ولكنه تمكن من هزيمتهم وسحق جيوشهم وانتقم من مدنهم. ولقد أرجع النص المعروف باسم «أخبار سرجون» أسباب هذه المتاعب التي تعرض لها سرجون في أواخر أيامه إلى غضب الإلٰه مردوك عليه لتنكيله بمدينة بابل وهدمه معابد الآلهة وإزالة أساساتها وإعادة بنائها من جديد حسب هواه، فبسبب هذا الانتهاك غضب عليه الإله مردوك فأهلك شعبه، وحول عنه الشعوب من الشرق إلى الغرب، وابتلاه بألا يستريح في قبره.

وتجدر الإشارة ـ فيما يذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح ـ أن هذا التفسير الديني ليس إلا صورة من تخيلات الشعوب القديمة عن أسباب زوال الدول، وبخاصة أن عبادة مردوك لم يكن لها شأن في أيامه، وأن نصوصه صورته حريصاً على التقرب من أربابه واعتبرته رئيس كهنة عشتار، والكاهن المنتخب للإله آنو ملك الأرض، والإنس العظيم لإنليل، وذكرت أنه ركع ذات مرة في صلاته أمام المعبود داجان[٣].

ومات سرجون بعد أن حكم حوالي ٥٦ عاماً، وذلك حسبما ورد في قائمة الملوك السومرية، ولقد حظى بتقدير الأجيال التالية له، فنسجت عن نشأته وأعماله وفتوحاته الأساطير، كما حمل بعض ملوك أشور اسمه تيمناً به وتقديراً له.

---

(١) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) C. J. Gadd, op. cit., P. 433.

(٣) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤١٩.

ريموش Rimush: (٢٣١٥ ـ ٢٣٠٧ ق. م)

خلف سرجون الأول ابنه ريموش الذي يفيد اسمه معنى «هديته» وهو اختصار لـ «ريموشو» ولقد بلغت مدة حكمه طبقاً لقائمة الملوك السومرية تسعة أعوام (٢٣١٥ ـ ٢٣٠٧ ق. م). وكان عليه منذ توليه العرش مواجهة الثورات التي نشبت ضد أكد سواء في داخل العراق أو خارجها. وعلى ذلك، فلقد وجه جهوده كلها في سنوات حكمه الأولى لقمع هذه الثورات.

وبدأ ريموش بقمع الثورات الداخلية التي نشأت من جراء تمرد المدن السومرية بعد موت سرجون محاولة التخلص من السيادة السامية الأكدية، وتزعم التمرد السومري مدينة أور، وتمكن ريموش من قمع هذا التمرد وأسر ملك مدينة أور «كاكو». وتظهر النصوص المتخلفة من عهد «ريموش» أنه قد بالغ في إنزال العقاب بالمدن الثائرة، ففضلاً عن الأعداد الضخمة من القتلى والأسرى الذين أوردتهم قوائمه، فقد أنزل عقابه على المدن فحطم أسوارها.

وبعد أن تمكن ريموش من إخضاع المدن السومرية، وجه جهوده الحربية نحو المناطق الشرقية لإعادة إخضاعها لسيادته، بعد أن حاولت التخلص من النفوذ الأكدي بعد وفاة والده. وفي العام الثالث من حكمه اتجه نحو الشرق حيث بدأ بمدينة كازالو التي أسر حاكمها وعدداً كبيراً من سكانها بجانب الأعداد الأخرى التي قتلها.

وتوجه بعد ذلك إلى عيلام، حيث دارت حروبه التي سجلها على العديد من النقوش التي عثر عليها في نيبور، ويتضح من هذه النقوش الانتصارات الكبيرة التي حققها ريموش في هذه المنطقة. ورغم أن تسمية عيلام تطلق بشكل عام، فإن انتصاره الرئيسي كان على مقاطعة باراخش Barakhshe، حيث حارب والده سرجون واحدة من أهم معاركه. وحسب نصوص ريموش فلقد اتحدت جيوش عيلام وزخارا Zakhara (دويلة صغيرة على حدود عيلام) تحت قيادة

«أبالجاماش Abalgamash» ملك باراخش، ووقعت هذه المعركة بين الفريقين في منطقة بين أوان وسوسه، وانتهت المعركة بنصر كبير للملك ريموش، حيث تمكن - حسيما تذكر نصوصه - من قتل ١٦,٠٠٠ شخصاً وأسر أربعة آلاف رجل، فضلاً عن كميات كبيرة من الذهب والنحاس والأوان المرمرية، التي أهدى الملك جزءاً منها إلى معبد الإله انليل في نيبور، كما كان من نتائج المعركة أيضاً استرداد منطقة باراخش من السيطرة العيلامية وتدمير بعض المدن العيلامية، وكذلك إخضاع عيلام نفسها، حيث تذكر نصوصه: «ريموش ملك كيش، سيد عيلام»[١].

وفيما يتصل بالقسم الشمالي من العراق، فلقد تمكن «ريموش» من إعادته إلى حظيرة الدولة الأكدية، وأصبح مساوياً لوالده في سعة ملكه، ومن ثم فقد حق له أن يتباهي في أحد نصوصه قائلاً: «لقد أخضعت من أجل انليل البحر الأعلى والبحر الأسفل، وكذلك الجبال وكل ما فيها». ولقد قام ريموش بتسجيل انتصاراته على العديد من النقوش التي عثر عليها في أجزاء متفرقة من دولته، ويلاحظ بصفة خاصة أنه سجل انتصاراته على عيلام على قطع من المرمر يبدو أنه أحضرها من عيلام بعد انتصاره عليها، ولقد عثر على إحدى هذه القطع في أقصى شمال دولته في منطقة تل البراك وجاء فيها: «ريموش ملك الجميع، الذي ذبح عيلام وباراخش»[٢].

وحرص ريموش على إظهار تبجيله للإله انليل، فأقام تماثيله بمعبده في نيبور، ومنها تمثال من الرصاص، يباهي الملك به، لأن أحداً لم يصنع مثله من قبل[٣].

ولقد انتهت حياة «ريموش» بطريقة مؤسفة، إذ مات نتيجة مؤامرة حيكت

---

(١) C.J. Gadd, op. cit., pp. 436-437.

(٢) M. Mallowan, «Excavations at Brak and Chagar Bazar» in Iraq, 9, (1947), P. 27.

(٣) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٣٣.

ضده من رجال قصره، وربما كان لأخيه «مانيشتوسو» دخل فيها، ولقد ظلت ذكرى «ريموش» باقية في وجدان خلفائه، فظهر اسمه في لوحات القتال لدى البابليين المتأخرين والآشوريين مما يشير إلى أهمية الدور الذي قام به في تاريخ العراق القديم.

مانيشتوسو : Manishtusu:

خلف «مانيشتوسو» أخاه «ريموش» على عرش آكد، ودام حكمه طبقاً لقائمة الملوك السومرية خمسة عشر عاماً (٢٣٠٦ ـ ٢٢٩٢ ق. م)، وقد نعم في بداية عهده بهدوء نسبي في أجزاء من دولته، إلا أنه ما لبث أن ووجه بحركات التمرد في شرق دولته وغربها أو على حد تعبيره هو نفسه «لقد سارت كل البلاد التي تركها أبي سرجون في عداء ضدي». وحتى يواجه هذا التمرد فقد قسم جيشه إلى قسمين، اتجه أحدهما إلى عيلام، حيث تمكن من قمع التمرد الذي قامت به مدينتان من مدن عيلام.

أما القسم الثاني من جيشه فقد اتجه حسبما تشير نصوص هذا الملك «إلى الجانب الآخر من البحر» حيث خاض حرباً ضد اثنين وثلاثين من ملوك المدن، وتشير النصوص إلى أنه قد انتصر عليهم وأخضع مدنهم وذبح قوادهم داخل بلادهم «حتى مناجم الفضة»، حيث أرسل الأحجار من هذه المنطقة لعمل تمثال له أقيم في معبد إنليل بنيبور، كما أرسل الأخشاب لبناء معبد في سبار.

ويصعب تحديد مجال النشاط الحربي للملك مانيشتوسو ناحية الغرب، إلا أنه يمكن افتراض أنه شمل الجزء الشمالي من سوريا التي أحضر منها الأخشاب، وإن مجاله الحربي امتد حتى جبال طوروس حيث مناجم الفضة كما تشير إلى ذلك نصوصه(١).

(١) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٧٧.

وكان الجزء الشمالي من العراق خاضعاً لنفوذ مانيشتوسو، ولم تحدث به اضطرابات، وتشير النصوص إلى أنه قد بنى معبداً للإلهة عشتار في نينوى. ولقد دار الزمن دورته عليه هو الآخر، إذ مات ـ كما يشير أحد نصوص ألواح الفأل ـ مقتولاً نتيجة مؤامرة بالقصر الملكي كما حدث لأخيه ريموش.

نارام ـ سن Naram- Sin:

خلف نارام ـ سن والده مانيشتوسو على عرش أكد، ودام حكمه طبقاً لقائمة الملوك السومرية ستة وخمسين عاماً (٢٢٩١ ـ ٢٢٣٥ ق. م) وإن كان هناك من يقدر هذه المدة بسبعة وثلاثين عاماً فقط ويجعل حكمه ينتهي في عام ٢٢٥٥ ق. م، بينما يجعل البعض الآخر مدة الحكم ستة وستين عاماً، ويجعلون حكمه ينتهي في عام ٢٢٢٥ ق. م.

ورغم ما عمر به عهد نارام ـ سن من أعمال إلا أن أثاره المتخلفة من عهده جد قليلة لا تكفي لمعرفة أحداث عهده، وعلى ذلك فإن الباحث يعتمد على الروايات المتأخرة، ويلاحظ أن هذه الروايات تضفي في ذكرها لأحداث عهد نارام ـ سن طابعاً بطولياً، وذلك مثلما أضفت من قبل على أحداث عهد سرجون الأول.

ويتميز عهد نارام ـ سن بظاهرة فريدة من نوعها في تاريخ العراق القديم، وهي حمله الصفة الإلهية في ألقابه، حيث ذكر في نصوصه أنه «نارام ـ سن المقدس إله أكد»، ووضع المخصص الدال على الإله أمام اسمه، كما لقب في نقوش بعض الأختام التي أهداها إليه رعاياه بـ «إله أكد». وتلك الحقيقة من الأهمية بمكان لأن نظام الملكية في العراق القديم كان يقوم على أساس الملكية الإنسانية وليست الملكية الإلهية، بل إن التعبير السومري «لوجال» يعني الرجل العظيم وليس الإله العظيم. وتعتبر هذه الظاهرة من أهم الخصائص التي تميز بها نظام الحكم في العراق القديم بالمقارنة بنظام الحكم في مصر في العصر

الفرعوني حيث كانت الملكية الإلهية من أهم أسس التاريخ والحضارة المصرية القديمة وهو الأمر الذي يدعو إلى القول بأن تأليه «نارام ـ سن» لنفسه لم يجد قبولاً، وربما كانت إشارة نص «لعنة اكد» إلى غضب الآلهة على المدنية، وإلحاق الخراب بها، بمثابة رد فعل لدعوى التأليه هذه[١].

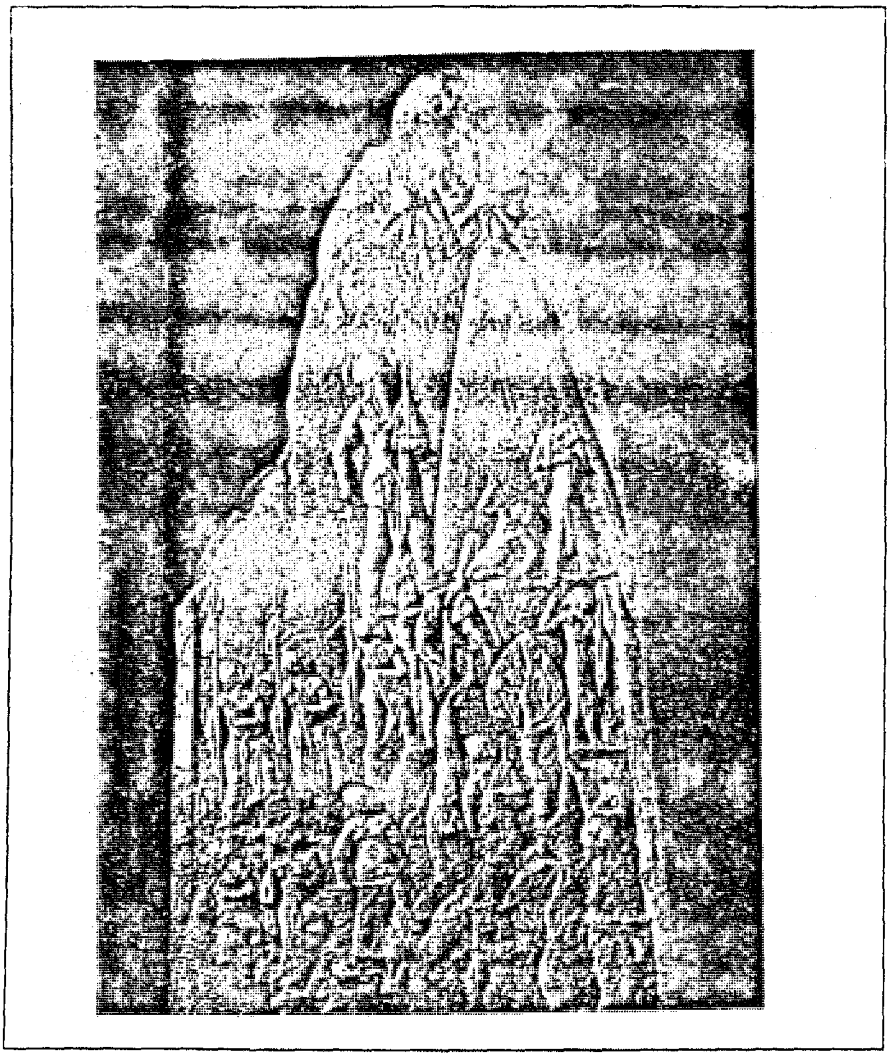
وفيما يتصل بسياسة نارام ـ سن الخارجية، فقد كان أمامه في مطلع عهده خوض عدة معارك مع المناطق التابعة لأكد، فكعادة هذه المناطق في ثورتها في بداية عهد كل ملك جديد في أكد، فقد ثارت المدن التابعة له في الغرب والشمال والشرق. وفيما يتصل بالمناطق الغربية فحسبما ورد في إحدى الروايات المتأخرة، فقد تزعمت مدينة كيش حلفاً تكون من عشرين حاكماً أو سبعة عشر حاكماً، وامتدت بلاد هؤلاء الحكام من الأناضول في أقصى الشمال الغربي إلى ماجان (ساحل عمان) على الشاطىء الغربي للخليج العربي. وتشير النصوص إلى قمعه لهذا التمرد بالإضافة إلى مده حدود دولة أكد إلى مناطق جديدة لم تصلها فتوحات ملوك أكد السابقين، إذ تشير هذه النصوص إلى مده لنفوذ أكد حتى ساحل البحر المتوسط، حيث سيطر على ميناء على الساحل اللبناني بالقرب من صور، وكذلك على ميناء في الشمال السوري ويذكر النص أنها مدينة أبيشال التي يرجح أن تكون في مجاورة أرمانوم.

وفيما يتصل بشمال العراق، فيستدل من الأدلة الأثرية المتبقية من عهده خضوع هذه المنطقة لسيادته فقد عثر على اسمه موسوماً على العديد من الأدلة الأثرية والمباني المعمارية في العديد من المواقع الهامة في شمال العراق مثل موقع تل البراك ومعبد عشتار في مدينة نينوى.

ولم تكن المنطقة الجبلية الواقعة إلى الشمال الشرقي من أكد بأسعد حالاً، إذ اضطربت القبائل الجبلية القاطنة في هذه المنطقة وبخاصة قبائل الوللوبي والجوتيون. ولقد تمكن نارام ـ سن من تحقيق نصر حاسم على قبائل الوللوبي،

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

وسجل ذكرى هذا الانتصار على أثرين من عهده، الأول نقش سجله في مكان المعركة، والآخر سجله على لوح يعرف باسم «لوح النصر» (شكل ٦١) وعثر



شكل (٦١) لوحة النصر للملك نارام ـ سن

عليه في مدينة سوسة العيلامية[١]، وهو موجود حالياً بمتحف اللوفر في باريس.

ويلاحظ في هذه اللوحة أن النحات قد تمكن من تصوير إحدى الحملات العسكرية بمهارة واتقان، ومما يلفت النظر في هذا العمل الفني شكل الملك الضخم وهو واقف فوق جنوده تحميه رموز الآلهة، ويحمل الملك قوسه ويضع على رأسه غطاء رأس له قرون للدلالة على قدسيته، وصور وهو يقوم بسحق أعدائه بقدميه.

ومن الناحية الجمالية تمثل اللوحة تصميماً فنياً رائعاً مما يمكنه من إبراز القدرة الإبداعية لدى الفنانيين الأكاديين[٢].

ويرجح أن يكون نارام ـ سن قد أرسل حملة أخرى إلى مناطق الوللوبي في أواخر عهده ولكنها منيت بالفشل، وذلك حسبما ورد في نقشه في «زهاب» بمنطقة جبال زاجروس إلى الشرق من نهر ديالي، إذ سجل ملك الوللوبي «أنو بانيني» انتصاره على القوات الأكدية.

ويستدل من الأدلة الأثرية وكذلك الروايات اللاحقة لعهد نارام ـ سن أن العديد من مناطق دولته قد تعرض للتخريب من جراء هجوم قبائل الجوتيين، ومن هذه المناطق أرض بابل ودلمون وماجان وملوخا وتل البراك ونينوى وأشور. ويذكر النص المعروف باسم «لعنة أكد» والذي يؤرخ ببداية الألف الثاني ق. م أن ذلك يرجع إلى غضب الآلهة على نارام ـ سن فخربت مدنه. ولقد تمكن نارام ـ سن من صد غارات القبائل الجوتية، إذ استمرت دولته ولم يصبها الانهيار إلا بعد نهاية حكم خلفه.

ولقد كانت العلاقات الودية السلمية، هي الطابع المميز لعلاقات

(١) عثر على هذه اللوحة مورجان في سوسه، حيث كان الملك العيلامي «شوتراك ناهنت» قد أحضرها كجزء من غنائم سيبار، ولقد نشرت في أول الأمر في:

Memoires du Delegation en Perse, vol. I, 1900, P. x.

(٢) سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٢٠٠.

نارام ـ سن مع العيلاميين إذ يفيد نقش على لوح عثر عليه وجود معاهدة ما بين الملك الأكدي نارام ـ سن والملك العيلامي، ومما جاء في هذه المعاهدة يستدل على أن نارام ـ سن أراد أن يستعين بعيلام في حروبه، وأن تكون حليفاً قوياً له، إذ أكد الملك العيلامي في هذه المعاهدة على أن «عدو نارام ـ سن هو عدوي، وصديق نارام ـ سن صديقي»، وتدعيماً لهذه المعاهدة فقد تزوج نارام ـ سن من ابنة ملك عيلام، ولقد أقام نارام ـ سن في مدينة سوسة العديد من الأبنية التي نقش عليها اسمه.

وأشارت أحد نصوص الملك نارام ـ سن إلى أنه قد سار بقواته ضد بلاد ماجان وأمسك بنفسه «ماندانو» ملك ماجان، وأكد هذا الانتصار حقيقة العثور على بعض الأواني المرمرية التي نقش عليها اسم ملك ماجان «ماندانو» ملحوقاً بعبارة «جزية ماجان».

ولقد أثار ذكر مدينة «ماجان» شك بعض المؤرخين في أن تكون «ماجان» هذه هي مصر، حيث أن النصوص البابلية كانت تشير إلى مصر باسم «مالوخا» الغنية بالذهب، كما يشكون في أن «نارام ـ سن» قد هاجم مصر في أوائل عهد الأسرة السادسة، ويستدلون على ذلك بأن الملك ببي الأول كلف وزيره «وني» بالدفاع عن مصر ضد غزوات قوية وجهت إليها في شمالها الشرقي، ولكن «وني» استطاع أن يهزم العدو عند الحدود الشمالية الشرقية لمصر، وربما هذا هو الذي دفع بعض العلماء إلى القول بأن النفوذ المصري والأكدي كادا أن يصطدما في موانىء الشام، لولا أن مصر قصرت نفوذها حينذاك على مجالات الثقافة والحضارة دون السيطرة والغلبة. ولكن توحيد «ماجان» بـ «ملوخا» وهذه الأخيرة بـ «مصر» بعيد عن الصواب، لأن ماجان ـ كما سبقت الإشارة ـ كانت تطلق على منطقة عمان وهي منطقة غنية بالنحاس والحجر.

ولقد كان نارام ـ سن آخر ملك قوي من الأسرة الأكدية، وقد عبر عن سعة ملكه ونفوذه في أحد الألقاب التي اتخذها وهو لقب «ملك الجهات

الأربع»[١].

شاركالي شاري Sharkalisharri:

خلف نارام ـ سن على عرش أكد ابنه شاركالي شاري، وطبقاً لما ورد في قائمة الملوك السومرية فقد حكم لمدة خمسة وعشرين عاماً. ومنذ توليه العرش وجه اهتمامه إلى مدينة نيبور مدينة الإله انليل فشيد بها المعابد الخاصة بهذا الإله.

ومنذ بداية عهده ازداد خطر القبائل الجبلية في الشمال الشرقي كما تحررت عيلام من سيادة أكد وأنهت تبعيتها لها وارتباطها بها بموجب المعاهدة التي عقدت في عهد والده نارام ـ سن، وعلى ذلك فقد هاجمت الجيوش العيلامية أرض بابل نفسها، ولقد تمكن الملك الأكدي شاركالي شاري من صدها.

وبعد هذا الهجوم العيلامي كان على شاركالي شاري أن يواجه تمرد آخر في الشمال الغربي قام به الأموريون الموجودون في منطقة باصار في غرب دير الزور الحالية حيث قمع التمرد، وبعد ذلك تشير نصوصه إلى أنه قد وجه حملة ضد قبائل الجوتيون في الشمال الشرقي لدولته وأنه قد انتصر عليهم انتصاراً كبيراً وأسر ملكهم[٢].

ولقد انتهى عهد شاركالي شاري نهاية مؤسفة مثله مثل بعض من سبقوه

---

(١) فيما يتصل بالملك نارام ـ سن. انظر:

C.J. Gadd, op. cit., pp. 441- 445., J.Bottero, (and Others)., The Near East, The Early Civilizations, London, 1967. P. 108., J. Bottero, «Syria at the Time of the Kings of Agade», In C.A.H., Vol. I, Part II, PP. 325- 326., S.N. Kramer, «The Curse of Agade». In ANET., P. 468, A.L. Oppenheim, «Naram- Sin in the Cedar Mountain», In ANET., P. 268

(٢) C.J. Gadd, op. Cit., P. 444, J. Bottero, (and Others)., op. Cit., P. 120

من ملوك أسرة أكد إذ قتل على يد أتباعه. وبنهاية عهده عاشت أكد في فترة من الخراب والفوضى حكم خلالها عدد من الملوك الضعاف وانتهى الأمر بنهاية الأسرة الأكدية وانتقال مقاليد الحكم فيها إلى قبائل الجوتيين.

نهاية العهد الأكدي و «الجوتيون»: (٢٢٣٠ ـ ٢١٢٠ ق. م):

استغلت بعض القبائل الجبلية من شمال العراق وشرقه ضعف الملوك الأكديين المتأخرين، فغزت هذه الأقوام الجبلية بلاد أكد واستطاعت الاستيلاء على أجزاء كبيرة منها، ومما ساعدها على ذلك بجانب ضعف الملوك الأكديين بعد شاركالي شاري، أن المدن السومرية الخاضعة للحكم الأكدي لم يكن من السهل عليها أن تترك حكمها الذاتي وتدين بالخضوع لأكد، فكانت تعمل على استعادة مركزها السابق والعودة إلى استقلالها وساعد على ذلك تعمد الملوك الأكديين محاباة العنصر الأكدي على حساب العنصر السومري، وأسرفوا في تأكيد مظاهر سلطانهم الفردي، بحيث أصبح من رجال حاشيتهم من يسمى ولده «شاروكين إيلي» بمعنى «سرجون إلهي» وأصبح أنصار «نارام ـ سن» يرمزون إليه كما لو كان إله أجادة وإله بلده، وصوروه بتاج الآلهة، على حين أصبح حكام المدن في عهد يلقبون بخدم الملك أو عبيده[١].

ويضاف إلى ذلك أيضاً أن هذه الأقوام الجبلية بعد أن احتكت بأكد وبخاصة في عهد نارام ـ سن أخذت بعض أساليب الحضارة العراقية وبخاصة فيما يتصل بالأساليب الحربية وبعض الأسلحة، ولقد مكنها ذلك من هزيمة أكد والاستيلاء على أجزاء كبيرة من مملكتها.

ويذكر أستاذنا الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح أن أهل الدين والأساطير في نفر حاولوا أن يبرروا زوال مجد دولة أكد، فأرجعوه إلى إثم نارام ـ سن في حق معبد إنليل في نفر، حيث كان قد عصى إنليل سبع سنوات وأذن لجنده

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٢٤.

بمهاجمة معبده، فنهبوه ودمروه حتى أصبح «البيت وقد تمدد كالشاب المطروح الميت، وقطعت الغلة من الباب الذي لا تقطع عنه الغلة» ونهبوا نفر نفسها، فهاج أنليل وقذفهم بأهل الجبال الجوتيين فعم القحط والجوع أرض سومر كلها وتفشى فيها الغلاء والوباء وتهددت بالفناء، وحينئذ انبرى ثمانية أرباب ومنهم سين وانكى ونينورتا وأوتو ونداباو وعدوه بتدمير أجاده عسى أن يكشف الأذى عن بقية البلاد، وواجهوا أجادة ونطقوا بلعنة الخراب عليها ودعوا عليها بأن يعود طوبها إلى أصله (الطين) في ماء العمق، وتذبح زوجاتها عوضاً عن بقراتها، ويذبح أبناءها عوضاً عن أغنامها، وينضب فيها كل شيء. . . وانتهت الرواية بتأكيد حدوث ذلك كله، وبأن من أراد أن يسكن أجادة لم يعد يجد فيها موضعاً للسكن ومن أراد النوم فيها لم يعد يجد فيها موضعاً ينام فيه[1].

وكان لنجاح هذه العناصر الجبلية التي يطلق عليها «الجوتيون» أو «الكوتيون» في التدخل في جنوب العراق أثره في إحلال الفوضى السياسية والاقتصادية مكان الاستقرار الذي ساد في عصر الدولة الأكدية، ويعتبر هذا العصر من أشد عصور التاريخ العراقي القديم غموضاً نظراً لقلة المادة الأثرية والنصية المتخلفة عنه من ناحية، وما اعتراه من ضعف شامل في جميع مناحي الحياة من ناحية أخرى، وهو الأمر الذي عبر عنه كاتب قائمة الملوك، فبعد أن انتهى من سرد ملوك الأسرة الأكدية علق بجملة ساخرة قال فيها: «من هو الملك، ومن هو غير الملك؟» إشارة إلى الفوضى السياسية التي عمت البلاد في نهاية أسرة أكد[2].

وتشير قائمة الملوك السومرية إلى أن عدد ملوك هذه الأسرة قد بلغ واحداً وعشرين ملكاً، وأنهم حكموا أكثر من قرن من الزمان (٢٢٣٠ ـ ٢١٢٠ ق. م)، أما عن المنطقة التي جاء منها الجوتيون، فلعلها الجبال الشرقية أو من الأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية، وقد نسبوا إلى اقليم «شهرزور» الذي ارتبط فيما بعد

(١) نفس المرجع السابق، ص ٤٢٥.

(٢) طه باقر: المرجع السابق، ص ١٢٨ـ١٢٩، وكذلك C.J. Gadd., Op. Cit., P. 456.

باسم «اللولوبيين» بينما هناك من يرى أنهم من القبائل الهمجية التي كانت تستوطن أواسط زاجروس في منطقة همدان[١].

ويمكن القول اعتماداً على المادة المتاحة لنا، أن الجوتيين قد مارسوا حكمهم للعراق من أرض الجوتيين نفسها، إذ أنهم لم ينزحوا إلى السهل العراقي ويقوموا بحكمه مباشرة، وكان ذلك سبباً في قيام بعض الحكومات المحلية المستقلة بأرض سومر أثناء حكم الجوتيين لبعدها نسبياً عنهم، بينما لم تقم مثل هذه الحكومات بأرض أكد الأكثر قرباً والتي يبدو أنها كانت تحت الإشراف المباشر للجوتيين.

وقد سادت العراق خلال العصر الجوتي مظاهر الفوضى السياسية وعدم تقدير حرمة الآلهة، وعلى الرغم من وراثة الجوتيين لبعض العناصر الحضارية الأكدية، وكتابتهم باللغة الأكدية والخط المسماري، واتخاذهم بعض المعبودات الأكدية آلهة لهم مثل الإله سين والإلهة عشتار، وحمل بعض ملوكهم للأسماء السامية، فإن ذلك لم يجدي أمام نزعاتهم القبلية الجبلية.

وتصف النصوص السومرية هؤلاء الجوتيون بأنهم «الشعب الذي لا يخضع، والأرض التي ليس لأهلها عدد من كثرتهم، جوتيوم، الأرض التي لا تطيق أي حكم عليها، والتي لقومها فهم الإنسان، وأما شكلهم وتهتهة ألسنتهم فمثل الكلب.

ثم تصف حكمهم السيء، وما ألحقه بالبلاد من أذى، بأنهم «وحوش الجبال، الذين رفعوا أذرعهم ضد الآلهة، ونقلوا ملكية سومر إلى أراض أجنبية، وملأوا أرض سومر بالعداوة، الذين فتكوا بالسكان، واغتصبوا النساء من أزواجهم وسلبوا الأطفال من أمهاتهم، وعملوا على فساد الحكم، ونهبوا سومر ونقلوا كنوزها معهم إلى الجبال[٢].

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ١٦١.
(٢) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٢٥.

وعلى أي حال، فإن الجوتيين ـ فيما يبدو ـ لم يستطيعوا أن يسيطروا على البلاد سيطرة كاملة، وأن مركز حكمهم إنما كان في الشمال ـ في أرانجا ـ (مكان كركوك الحالية)، وإن سيطرتهم إنما قد تركزت في المدن الأكدية، ولم يستطيعوا أن يبسطوا سلطانهم على الجنوب، فكان من أثر ذلك أن اكتفوا بأخذ الجزية وتركوا الحكام المحليين يقومون بتسيير دفة الأمور، وقد اتبعوا في حكمهم الأساليب التي اتبعها الأكاديون ولم يغيروا شيئاً من النظم الحضارية، فاستعملوا اللغة السومرية في رسائلهم ومكاتباتهم، وتفاخروا بتلقيب أنفسهم بلقب «ملك الجوتي وأركان العالم الأربعة»[(١)] وهكذا أخذوا رويداً رويداً يخضعون لحضارة الأمة المغلوبة واتخذوها حضارة لهم، فعبدوا إلى جانب أربابهم بعض المعبودات السامية كعشتار وسين[(٢)].

ولقد كان لبعد الجوتيين عن الجنوب وتركهم مقاليد الحكم فيه لأبنائه أثره في إتاحة الفرصة لأبناء البلاد الأصليين وبخاصة في القسم الجنوبي في إعادة مجد الحضارة السومرية، وأن ينهضوا من جديد، فظهرت في ميدان القوة بعض المدن السومرية وخاصة لجش وأور. وتعرف هذه المرحلة باسم: النهضة السومرية، وعصر الأحياء السومري، أو عودة نفوذ السومريين.

(١) C.J. Gadd, op. cit., p. 444.

(٢) J. Bottero, The Near East, the Early Civilization, London, 1967, p. 120.

الفصـل السـادس

العصر السومري الحديث

أسرة لجش الثانية: (٢٢٣٠ ـ ٢١١٣ ق. م):

عاصرت أسرة لجش الثانية أخريات عصر الجوتيين، ومارست لجش لوناً من الاستقلال الذاتي النسبي خلال هذه المرحلة، ويشير إلى ذلك استخدام حكامها في معاملاتهم التجارية التي أرخت حسب الاحتفالات الدينية التي يقوم بها حكام لجش، كما أن حكامها لم يستخدموا لقب «ملك» ضمن ألقابهم[١]، ولم يرد ذكر هذه الأسرة في قائمة الملوك السومرية.

ولقد بدأ دور أسرة لجش الثانية في الظهور منذ عهد حاكمها **«أور ـ بابا Ur- Baba»** الذي كان له من الاستقلال والثروة ما مكنه من إعادة بناء المعابد، وشق الترع والقنوات وأعمال الري الخاصة بمدينته، وبدأت تظهر أعمال النحت في الأحجار الصلدة، وهي التي أنتجت في الجيلين التاليين أفضل أعمال النحت البابلية، ولقد عثر على تمثال له مصنوع من الديوريت وهو حالياً بدون رأس[٢].

وكان «أور ـ بابا» حاكماً محلياً، وكانت إحدى بناته كاهنة في معبد إله القمر في أور، ويوجد لها آنية منقوشة عثر عليها في هذا المعبد[٣]. ويتضح من هذا أيضاً الصلة الوثيقة بين لجش وأور التي تأسست في عصر الأسرات المبكرة منذ عهد الملك «أور ـ نانشي» وكانت له ابنة أخرى تزوجت من حاكم يدعى «أور ـ جار».

---

(١) محمد بيومي مهران. المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٢) A. Parrot, et Tello; Synthese de vingt campagnes, Paris, 1948, P. 144.

(٣) C.J. Gadd, and L. Legrain, Royal Inscriptions, London, and Philadelphia 1928, no. 25.

وقد خلفه في حكم لجش صهره «جوديا Gudea» الذي يعد أشهر حكام أسرة لجش، ولقد جمع بين الحكمة والتقوى والورع مما أدى إلى اجتذابه احترام المجتمع السومري، ولقد كشف عن العديد من التماثيل الخاصة به والتي سجلت عليها أهم الأعمال التي قام بها، كما كشف أيضاً عن أعداد كبيرة من مخاريط طينية وكتابات مطولة على اسطوانات دونت بأسلوب أدبي رفيع، وهي تتحدث عن أعماله المعمارية وجهوده في بناء وصيانة ما لا يقل عن خمسين معبداً من معابد الآلهة[1].

ويستدل مما ذكره «جوديا» بشأن المواد الخام التي جلبها لبناء المعبد الرئيسي في مدينة لجش، أنه خصص الكثير من الثروة والجهد لهذا الغرض حيث أنه ـ طبقاً لأحد نصوصه، قد أحضر الأخشاب من ماجان وملوخا في الجنوب، ومن جبل الأرز (جبل أمانوس) في الشمال، ونقلها عن طريق الفرات، مع التيار، وأنه أحضر الأحجار الضخمة من مناطق لم يذهب إليها أحد من قبل، كما نقلت كميات كبيرة من القار والجبس من مجاورات كركوك بواسطة القوارب، وأحضر النحاس من جبل زاجروس، وأحجار المرمر والأحجار الملونة من سورية، وتراب الذهب من أرمينيا[2].

ولقد تم الحصول على هذه المواد الخام بواسطة التجارة، حيث لم يكن للملك «جوديا» نفوذ في هذه الجهات، ولم تذكر نصوصه سوى قيامه بحرب واحدة مع دولة أنشان، وذلك حسبما ورد في نقش على أحد تماثيله بأنه: «ضرب انشان وعيلام بالأسلحة». ولا يعني ذلك أنه قام بالتوسع في هذه المناطق، بل ربما كانت غارة مفاجئة، أو حملة تأديبية قامت على أثر الاعتداء على رجاله المسالمين، وهو أمر لا يمكن الجزم به على أية حال. ويدعى جوديا

(١) S.N. Kramer, op. cit., pp. 66- 67.

(٢) C.J. Gadd, «The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion», in CAH., vol. I, part II, p. 460.

في نقش له على خاتم اسطواني بأن «العيلاميين جاءوا من عيلام، وأهل سوسة جاءوا من سوسة لمساعدته في بناء معبد الإله ننجرسو»[1] وربما يعني ذلك أنه استعان بالصناع والفنيين من عيلام وسوسة في بناء معبده.

وتمتعت لجش على أيام «جوديا» بعصر من الرخاء والخير الوفير، ويتضح ذلك من قوائم القرابين المقدمة للمعابد، ويرجع ذلك إلى اهتمام «جوديا» الكبير بشق القنوات لتوفير المياه المستخدمة في الانتاج الزراعي، كما اهتم أيضاً بشق القنوات والحفاظ على المجاري المائية الموجودة وذلك لأهميتها أيضاً في نقل المواد الخام التي كان يحتاج إليها في بناء المعابد وكذلك صناعة التماثيل والفنون الصغرى.

ويلاحظ في تماثيل جوديا أنها اتبعت الأسلوب الواقعي الذي بدأ نضجه خلال العصر الأكدي، وعبرت هذه التماثيل بخطوطها المرنة عن الطابع السومري ذي الرأس العريضة، وغلبت على ملامح جوديا وهيئته روح التقوى والتواضع. ولقد ظهر جوديا في أغلب تماثيله وهو واقف في هيئته المتعبد في أحجام تقل عن حجمه الطبيعي (شكل ٦٢). ويذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح، أن بعض تماثيل جوديا الجالسة تتشابه في بعض تفاصيلها مع تفاصيل التماثيل المصرية في عصر الدولة الوسطى، من حيث نقش نصوص رأسية فوق الجزء الأسفل من ثوبه، ووضع مسطح مستطيل على ركبتيه، ومن حيث نقش اسمه داخل مستطيل على كتفه[2] (شكل ٦٣).

وخلف جوديا في حكم لجش ابنه «أور ـ نينجرسو Ur- Ningrisu» الذي عثر له على بعض التماثيل مع تماثيل والده وحفيده، إلا أنه يلاحظ أنه لم يظهر في خلفاء جوديا شخصية أخرى مناظرة له في مدينة لجش، وكان «ناما خني Nammakhni» هو آخر ملوك أسرة لجش الثانية، وربما كان معاصراً للملك

(١) W. Hinz, «Persia C. 2400- 1800 B.C.». ın CAH., vol. I, Part II, p. 654

(٢) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٢٨.



(شكل ٦٢) تمثال واقف للملك جوديا



(شكل ٦٣) تمثال جالس للملك جوديا

«أوتو خيجال» ملك الوركاء، والملك «أور ـ نامو» حاكم أور.

أسرة الوركاء الخامسة: (٢١٢٠ ـ ٢١١٣ ق. م):

عاصرت أسرة الوركاء الخامسة أسرة لجش الثانية ووقع عليها عبء الكفاح المسلح ضد الجوتيين ونتيجة لنجاحها في ذلك فقد اعترفت أغلب المدن السومرية بزعامتها الشكلية ومن هذه المدن مدينة أور، ومن أبرز ملوك الوركاء الملك «أوتوخيجال Utukhegal» الذي استطاع أن يهزم القبائل الجوتية في موقعة فاصلة وتمكن من نقل الملكية إلى مدينته، وتذكر قائمة الملوك السومرية أن مدة حكمه استمرت سبعة أعوام وستة أشهر وخمسة عشر يوماً، ولم تذكر القائمة سواه في أسرة الوركاء الخامسة، إذ يبدو أنهم قد تنازعوا من بعده فانتقلت الزعامة من مدينتهم إلى مدينة أور، ويوضح نقش للملك أوتوخيجال يؤرخ ببداية الألف الثاني قبل الميلاد جهوده في سبيل تخليص البلاد من الجوتيين، وكان لهذا النصر أثره في رفع مكانة أوتوخيجال بين المدن السومرية، إذ يشير أحد النصوص إلى تدخله لفض نزاع على الحدود بين مدينتي لجش وأور، كما كانت مدينة أور تابعة له. لكنه لم ينعم طويلاً بهذا النفوذ إذ انتقلت السيادة على سومر بعد عهده إلى أسرة أور الثالثة.

ونورد فيما يلي أهم الفقرات التي وردت في نقش أوتوخيجال والتي توضح جهوده ضد الجوتيين[١]:

«إنليل، ملك كل البلاد، قد عهد إلى أوتو خيجال، الرجل القوي، ملك الوركاء، ملك الجهات الأربع (للعالم)، الملك الذي لا يستطيع أحد أن يخالفه، بأن يحطم اسم الجوتيين».

(١) انظر محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٢٠٣ ـ ٣٠٥ وكذلك:
S.N. Kramer, The Sumarians, pp. 325- 326

ولذلك ذهب (أوتوخيجال) إلى الإله إننا، ملكته، وابتهل إليها قائلاً: أي ملكتي. . . لقد عهد إلى إنليل بأن استعيد الملكية إلى سومر، فلتكوني حليفتي (في هذا). أن تيريجان Tirigan ملك الجوتيين. . . لم يسر أحد (بقواته) ضده. واستحوذ على الفرات وساحل البحر. . .

أوتو خيجال، الملك الذي وهبه إنليل القوة، الذي اختارته إننا في قلبها، الرجل القوي، قد اتجه قدماً من الوركاء ليخوض المعركة ضد (تيريجان). . .

وكان أهالي الوركاء وأهالي كولاب قد غمرهم السرور، وتبعه (أهالي) مدينته كرجل واحد، وقاد الجيش زاحفاً إلى الأمام. . .

وفي اليوم الخامس (من مسيرته من الوركاء). . . أسر «أورنينازو» (و) «نابو إنليل» قائدي (؟) تيريجان اللذين كان (الأخير) قد أرسلهما إلى سومر كسفراء، ووضع (أوتو خيجال) «قيوداً» خشبية في أيديهم. . . .

وفي مساء (اليوم السادس). . . حشد الجوتيون قواتهم (؟) وأرسلوا فرقهم (المقاتلة) ضد أوتوخيجال، الرجل القوي، الذي قهرها وأسر قائدها (؟). وبعد ذلك فر تيريجان ملك الجوتيين هارباً بنفسه، ولجأ إلى (مدينة) دوبروم Dubrum حيث عامله الناس بعطف (!). (ولكن) عندما علم رجال دوبروم أن أتوخيجال هو الملك الذي منحه إنليل القوة، لم يطلقوا سراح تيريجان. (وجاء) رسل أوتوخيجال إلى دوبروم وأخذوا تيريجان وأسرته أسرى، ووضعوا القيود الخشبية في يديه وأعصبوا (؟) عينيه (وبعد ذلك) أحضر به (تيريجان) أمام أوتوخيجال فألقى بنفسه عند قدمي (أوتوخيجال) الذي وضع قدمه على رقبته. . . وهكذا عادت الملكية إلى سومر».

أسرة أور الثالثة: (٢١١٣ ـ ٢٠٠٦ ق. م):

تعد أسرة أور الثالثة آخر مرحلة للسومريين كحكام إذ انتهى نفوذهم السياسي بنهاية هذه الأسرة، إذ اندمجوا بعد ذلك مع الساميين ولكن ظل تأثيرهم الحضاري مستمراً وتمثل ذلك في لغتهم وأدابهم التي ظلت تؤثر في

حياة العراق القديم، بل أن الدين نفسه كان نواة للديانات التي برزت فيما بعد.

ولقد حكم أسرة أور خمسة ملوك حكموا فترة غير ثابتة تماماً. فقوائم الملوك متباينة في هذا الصدد إذ يقدم بعضها مدة حكم للأسرة تبلغ ١٠٦ سنة، والبعض الآخر يقدم فترة حكم ١٢٢ سنة، وأما النصوص المتصلة بالمعاملات التجارية فلا تقدم سوى ١٠٩ سنة، وعلى أي حال فإن مدة حكم هذه الأسرة قد جاوزت المائة عام.

وقد حكم خلال هذه الأسرة خمسة ملوك، كان أولهم «أور ـ نامو»، ثم «شولجي»، وجاء بعده «أمار ـ سين»، ثم «شوسين» وأخيراً «ايبي ـ سين».

١ ـ أور ـ نامو: **Ur- Nammu**:

تعبر قائمة الملوك السومرية عن انتقال الحكم من أوروك إلى أور بقولها: «وضُربت أوروك بالسلاح وانتقلت الملكية منها إلى أور، في أور أصبح أور ـ نامو ملكاً وحكم ١٨ عاماً».

ولقد تمكن أور ـ نامو من تأسيس أسرة أور الثالثة بعد تمرده على «أوتو ـ خيجال» ملك الوركاء وإنهاء حكمه، وخضعت له ولخليفته من بعده الكثير من المدن السومرية والأكدية، مما جعلهم يتلقبون بالألقاب «ملك سومر وآكد» و «ملك الجهات الأربع».

وحاول ملوك أسرة أور الثالثة منذ البداية إضفاء صبغة الشرعية على حكمهم من خلال تأكيد صلتهم بمدينة أوروك، فاتخذ بعض ملوكها الأسماء التي تنسبهم إلى المدينة مثل «الابن الذي ولدته نينسون» (أم جلجامش)، واستعان ملوك أسرة أور الثالثة بالساميين في مناصب الجيش والإدارة، وجمعوا بين اللغتين السومرية والأكدية في بعض الوثائق الرسمية والأدبية، كما تسمى بعض ملوكها بأسماء سامية الصبغة مثل «شو ـ سين»، و «آبي ـ سين».

وقام أور ـ نامو في السنوات الأولى من حكمه ببسط سيطرته على كل الجنوب السومري، وأعاد العلاقات التجارية مع ماجان عبر الخليج العربي، ويظهر ذلك من إحدى نصوص التي قال فيها: «من أجل نانا بن انليل الأول، ملكه، جعل أور ـ نامو الرجل القوي، ملك أور، ملك سومر وأكاد، الذي بنى معبد نانا، العلاقات الأصلية تظهر لامعة من جديد، وأمَّن على شاطىء البحر على. . . الملاحة التجارية وأعاد سفن ماجان ثانية إلى يده»[1].

ووجه «أور ـ نامو» الكثير من عنايته للعمران والبناء، فقام بتحصين مدينة أور التي اتخذت شكلاً شبه بيضاوي، ويبلغ أقصى طول لها ١٢٠٠ متر، ولقد قام أور ـ نامو بإحاطة المدينة بأسوار واستحكامات وصفها وولي بقوله: «لقد بنى المتراس من القرميد الطيني، وكان السطح الخارجي له منحدراً بشكل مائل جداً، وكان القسم السفلي من البناء يشكل ساتراً على جانب الهضبة التي شكلتها المدينة القديمة، بينما يمتد القسم العلوي منه نحو الداخل فوق قمة الآثار ليشكل مصطبة صلبة البنية، وفي الأعلى من كل ذلك يوجد جدار مبني بشكل مناسب من الأجر. . . ويزيد من قوة هذه التحصينات في الواقع مرور مياه نهر الفرات في أسفل المتراس، بينما حفرت قناة واسعة على بعد خمسين ياردة من السور من الجهة الشرقية مما جعل الماء يغطي الطرف الشمالي من المدينة، لذلك فقد كانت أور محاطة بالماء من جهات ثلاث، وكان الاقتراب منها على أرض يابسة ممكناً من الجهة الجنوبية فقط[2]. وأطل سور المدينة من داخله على ساحة متسعة تبلغ مساحتها ٤٠٠ × ٢٠٠ ياردة قامت فيها معابد المدينة الكبرى.

ومن المآثر المعمارية الهامة لهذا الملك تشييده زاقورة لإله القمر نانا في عاصمته أور، ولقد أكمل بناءها ابنه «شولجي»، وقد سجّل أور ـ نامو بناءه لهذه

(١) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٦٠.
(٢) انظر: سيتون لويد: المرجع السابق، ص ٢١٠.

الزاقورة على إحدى لوحاته التي عثر عليها، وقد نقشت المناظر في مجموعة أفقية، وقد مثل الملك في أعلاها واقفاً أسفل رمز إله القمر نانا الذي كان يمثل بهلال يتوسطه نجمة[١] (شكل ٦٤). وتتكون هذه الزاقورة من ثلاث طبقات فقط (أصبحت الزاقورة تتكون بعد ذلك من سبع طبقات) ولقد قام وولي بدراسة الزاقورة وتسجيلها وإعادة تشكيل مظهرها وتصميمها. وتبلغ أبعادها عند القاعدة ٦١ × ٤٥،٧ م. (شكل ٦٥).

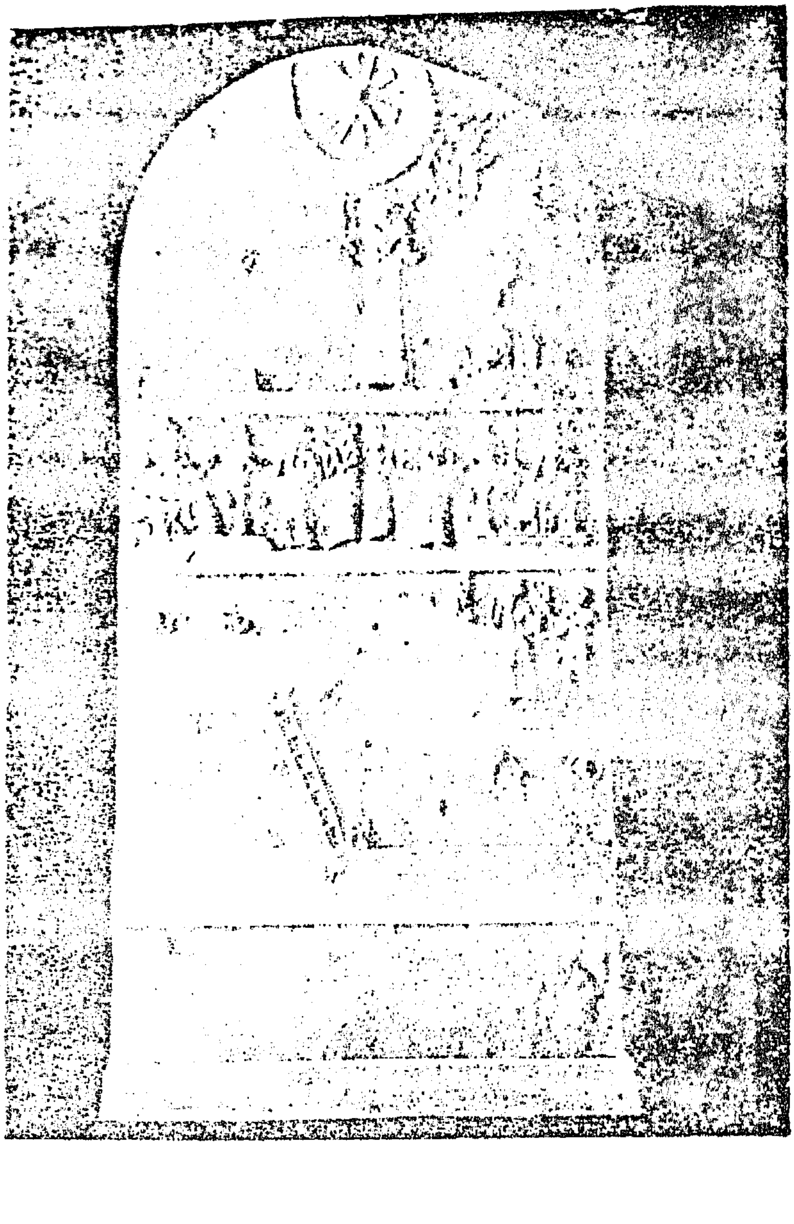
وقد اهتم «أور ـ نامو» بشق القنوات، وهو عمل لا شك في أهميته القصوى في جنوب العراق القديم، لتطهير هذه المجاري المائية من الترسيبات الطمية حتى لا تفقد قيمتها كوسيلة ري ومواصلات في وقت واحد، ولقد قام «أور ـ نامو» بحفر القنوات على حدود عاصمته أور، وقد ربطت إحدى هذه القنوات مدينة أور بالبحر، وذلك حتى يتيسر للسفن الآتية من الخليج العربي أن تفرغ شحناتها في أور[٢].

ومن أهم أعمال «أور ـ نامو» في المجال الفكري قانونه الشهير، وهو موجود فقط على شكل كسرات هي عبارة عن كتابات مدرسية اكتشفت في نيبور وسيبار وأور وهي محفوظة حالياً في متحف الآثار في اسطنبول، وفي المتحف البريطاني بلندن، ويتألف القانون من قسمين: هما المقدمة والمواد القانونية البالغ عددها ٣٢ مادة، وربما كان العدد أكبر من هذا بكثير، وتعالج المواد القانونية التي أمكن ترجمتها الأحوال الشخصية من زواج وطلاق، فضلاً عن النظر في بعض المخالفات وتحديد العقوبة الملائمة لكل حالة. وقد أخذ قانون «أور ـ نامو» بمبدأ التعويض، وربما يتفق ذلك مع الاهتمام السومري بالتجارة، وهكذا أخذ القانون بمبدأ دفع الديات على الجروح التي لا تفضي إلى الموت،

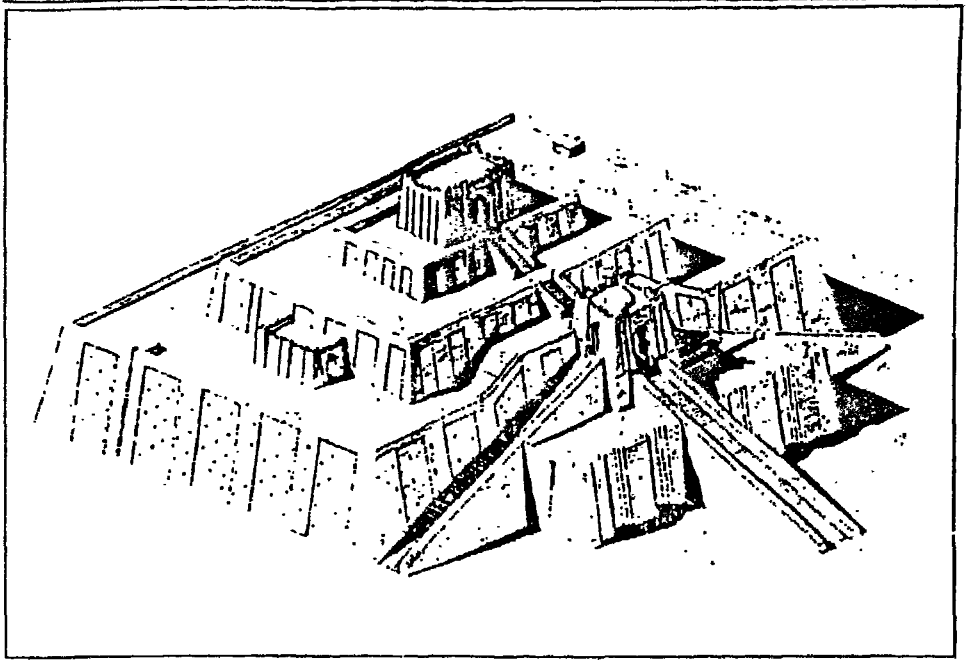
---

(١) H. Frankfort, The Art and Architecture of the Ancient Orient, p. 103, Figs. 110-111.

(٢) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٣٠٩.



(شكل ٦٤) لوحة بناء الزاقورات للملك أور - نامو



(شكل ٦٥) زاقورة أورنامو في أور

كما عمل القانون على توحيد الأوزان والمكاييل[1]. ولقد مات أور ـ نامو بعد أن حكم أور ثماني عشرة سنة وخلفه ابنه شولجي.

شولجي Shulgi: (٢٠٩٥ ـ ٢٠٤٨ ق. م):

كان يقرأ اسمه «دونجي»، وهناك من يقرأه «ساج ـ جي»، ويعتبر حكمه أطول حكم لملك في هذه الأسرة، إذ بلغ حوالي نصف قرن، وقد اتخذ شولجي لقبي «ملك سومر وأكد» و «ملك الأنحاء الأربعة» وقد أطلق اسمه بعد توليه

(١) رضا جواد الهاشمي: القانون والأحوال الشخصية، مجلد حضارة العراق، ج ٢، بغداد، ١٩٨٥، ص ٧٢ ـ ٧٣.

العرش على أحد شهور دولته، ورفعه أهل بلاطه إلى مرتبة الألوهية أو ما هو قريب منها، ورضي هو بطبيعة الحال، فسمى بعضهم أولاده باسم «شولجي ايلي»، بمعنى «شولجي إلهي» و «شولجي باني» بمعنى «شولجي الخالق»[١].

ولقد أقيمت له هياكل انعبادة، وقدمت له القرابين، كما أقيمت عبادته في بعض المدن السومرية، كما يتضح من بعض التعبيرات مثل «شولجي معبود أوما» و «شولجي حياة أرض سومر»[٢].

ولقد وجه «شولجي» عنايته في بداية عهده لبناء المنشآت الدينية وشق القنوات، فقام بإتمام ما بدأه أبوه، فأعاد إلى المدن السومرية والأكدية المعبودات التي كانت قد رفعت منها، وقد وجه اهتمامه بصفة خاصة إلى مدينة أريدو.

وبعد أن استقر الأمر في الداخل، بدأ جهوده الحربية التي كان الهدف منها مد نفوذه حتى سفح جبال زاجروس، ومنذ العام العشرين من حكمه تبدأ نصوص عصره في ذكر حملاته الحربية التي قام بها في شرق بلاده، ولم تكن سنوات حكمه كلها بعد عامه العشرين حرباً بل تخللتها سنوات من الهدوء نلمح من خلالها بعض أوجه العلاقات السلمية مع البلاد المجاورة له، ومنها زواجه من إحدى بنات ملك انشان وهي من الولايات العيلامية، إلا أن ذلك الهدوء لم يلبث أن بددته بوادر الثورة التي ظهرت في الأقاليم التابعة له فاضطر إلى القيام بالعديد من الحملات لإخضاع هذا التمرد. ومن الولايات التي ثارت ضده كانت انشان التي اجتاحها في العام الرابع والثلاثين من حكمه.

ولعل أهم ما يميز عصر شولجي العلاقة المباشرة بعيلام والتي توطدت في عهده أكثر منها في أي عهد سابق، إذ لم تتوقف جهوده عند حد الغارات التي تستهدف الاحتلال بل تعدت ذلك إلى إبراز السيادة والحكم من الحكومة

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٣٣.
(٢) محمد عبد اللطيف: المرجع السابق، ص ٣١٣.

المركزية في أور، وهناك الكثير من الوثائق التي تشير إلى تموين عمال الملك الذين يمرون بمدينة لجش في طريقهم من أور إلى عيلام. ونستطيع أن نتعرف من الأسماء التي وردت للمدن التي عين بها هؤلاء الموظفون على أن السلطان الملكي لأور امتد إلى كافة المدن الهامة هناك، وربما كانت أبرزها جميعاً سوسة، ويبدو أن شولجي خلع الحكام الوطنيين وأحل غيرهم موظفين بابليين وهو أمر تابعه فيه خلفائه.

وقد اهتم شولجي بربط الأقاليم ببعضها البعض عن طريق تنظيم حاملي البريد من العدائين الذين أعدت لهم محطات لضمان وصول تعليماته، كما عني بتنظيم جمع الضرائب من مختلف الأقاليم وتسجيل ذلك كله على لوحات حفظت في دور المحفوظات[١].

ولقد خلفه على العرش ابنه أمارسين Amar- Sin (٢٠٤٧ ـ ٢٠٣٩ ق. م)، ويبدو أن طول الفترة التي حكمها والده قد جعلت من أمارسين رجلاً مسناً عند ولايته العرش، وطبقاً لقائمة الملوك السومرية فقد بلغت مدة حكمه تسعة أعوام فقط، وقد تركزت جهوده الحربية في الشمال الشرقي والشرق، وقد حرص على أن يحكم المنطقة الشرقية من دولته حكماً مباشراً عن طريق أتباعه المخلصين الذين أقامهم في مدن سوسة وخمازي وباراخش، وتخلفت من عهده العديد من التشييدات البنائية في المدن السومرية وبخاصة نيبور وأور وأريدو.

وقد خلفه على العرش أخوه شوسين Shu- Sin (٢٠٣٨ ـ ٢٠٣٠ ق. م) الذي دام حكمه حسبما ورد في قائمة الملوك السومرية تسع سنوات فقط، ومنذ توليه العرش ثارت ضده القبائل الجبلية في الشمال الشرقي حيث وجه إليهم حملتين قضت على هذه المتاعب، ومن ناحية أخرى فقد عمل شوسين على

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ١٦٦ ـ ١٦٨. وكذلك:
C.J. Gadd, op. cit., p. 601.

توثيق علاقاته بعيلام عن طريق المصاهرة أسوة بأبيه شولجي، فقام في العام الثاني من حكمه بتزويج إحدى بناته لحاكم انشان، كما اهتم بإقامة الأبنية الدينية في سوسة.

ويزداد في عهده خطر الأموريون في غرب دولته مما اضطره إلى بناء «حائط أمورو» لصدهم ولقد أقيم فيما بين نهري دجلة والفرات ربما قرب بغداد الحالية[١].

وخلف «شوسين» على عرش أور ابنه «ايبي ـ سين» **Ibbi- Sin** (٢٠٢٩ ـ ٢٠٠٦ ق. م) الذي يعد آخر ملوك أسرة أور الثالثة، وقد بلغت مدة حكمه أربعة وعشرين عاماً وذلك وفقاً لما ورد في قائمة الملوك السومرية.

وقد واجهته المتاعب من ناحية الشرق منذ العام العاشر من عهده، إذ تمردت مدن سوسة وأوان وأدامدوم، ولكنه تمكن من القضاء على هذا التمرد. وفي أواخر عهده انتهز العيلاميون وحلفاؤهم من القبائل الجبلية الشرقية ما واجه إيبي ـ سين من ضغط العناصر الأمورية في الغرب فهاجموا أرض سومر وحاصروا إيبي ـ سين في عاصمته أور، وذلك في نفس الوقت الذي كان عليه فيه أن يصد زحف العناصر الأمورية نحو الجنوب.

ولقد استغل «إيشبي إرا» حاكم ماري هذه الظروف، واستقل بالحكم وأسس أسرة حاكمة خاصة به هي أسرة أيسن، وشمل نفوذه النصف الشمالي من أرض سومر، وامتد إلى أملاك «إيبي ـ سين» المتاخمة لأرض بابل[٢].

وظل «إيبي ـ سين» يقاوم الحصار العيلامي مدة عشر سنين، حيث سقطت أور في أيدي العيلاميين بعد أن أصابها الخراب وحلت بها المجاعة، وأقيمت حامية عيلامية بالمدينة، واقتيد ملكها «إيبي ـ سين» أسيراً إلى عيلام حيث مات بمنفاه هناك.

(١) Ibid., pp. 608- 611.

(٢) C.J. Gadd, «Babylonia c 2120- 1800 B.C. in C.A.H., vol. I, Part II, pp. 361- 362.

وبانتهاء حكم «إيبي ـ سين» تنتهي المحاولات الأخيرة للسيادة السومرية، حيث يعد عهد أسرة أور الثالثة نهاية حياة السومريين السياسية، إذ لم تنشأ منهم بعدها أسرات حاكمة بل اندمجوا في الساميين، وإن ظلت لغتهم وآدابهم تؤثر في العراق القديم حتى آخر عصور حضارته[١].

وقد شجعت الكارثة التي حلت بأور مختلف المدن على إعلان استقلالها، فظهرت أسرتين حاكمتين في العراق إحداهما في أيسين وهي التي أسسها «إيشي إيرا» والأخرى في لارسا وهذه يرجح أنها كانت خاضعة لنفوذ العيلاميين، وفي نفس الوقت كان الأشوريون قد بدأوا يكونون دولة مستقلة كما وجدت بعد فترة مملكة في بابل ينتمي ملوكها إلى أصل أموري، ومملكة أخرى عرفت باسم مملكة أشنونا.

وتعتبر أسرتا أيسين ولارسا من أهم الأسر ذات الخطر التي برزت في هذه المرحلة قبل أن يظهر سلطان بابل، وبدأت المنافسات بين الأسرتين وذلك عقب قيامهما مباشرة.

ومؤسس أسرة إيسين[٢] هو «إيشي إيرا» الذي اصطنع لنفسه الصفات الإلهية وانتحل لقب «ملك سومر وأكد». ومن أشهر ملوك هذه الأسرة «لبت عشتار»[٢] الذي ينسب إليه تشريع مكتوب وصلتنا بعض ألواح منسوخة عنه، وقد بدأت التشريعات بذكر ألقاب «لبت عشتار» وأوصافه وما قام به من أعمال لرعاية المدن السومرية ومقاومة الفساد وعمله على تحرير أبناء مدن سومر وأكد من الرق الذي فرض عليهم، وما تبقى من تشريعاته يرتبط بدعوة تحرير الرق، وبعض حالات الملكية والمواريث والتعويض.

(١) L. Legrain, Business Documents of the Third Dynasty of UR, London and Philadelphia 1947, p. 225ff.

(٢) انظر : V.E. Grawford, Surmerian Economic Texts from the First Dynasty of Isin, New Haven, 1954.

ولقد حكم في أيسين ١٥ ملكاً لمدة تقرب من ٢٢٥ سنة، أما في لارسا فقد حكم ١٤ ملكاً مدة تقدر بنحو ٢٦٠ سنة، وكان ملوك لارسا من البابليين الذين خضعوا لنفوذ العيلاميين، وقد تدخل العيلاميون في شؤون لارسا وقضوا على آخر ملك فيها وعينوا بدلاً منه ابن ملك عيلام في مكانه، ولما مات هذا الأخير عين أخوه «ريم سين» من بعده، ولقد تمكن ريم سين من القضاء على أسرة أيسين وحكمها بنفسه، وفي هذه الأثناء كان حمورابي سادس ملوك الأسرة البابلية الأولى يحكم في بابل وقد تمكن حمورابي من القضاء على العيلاميين بعد حروب طاحنة ـ كما سترد الإشارة ـ كذلك قضى على مملكة أشنونا وتم له ذلك في السنة الثانية والثلاثين من حكمه كما استطاع أن يقضي على استقلال المملكة التي تكونت في أشور[١].

وقبل تتبع أحوال العراق القديم في ظل الدولة البابلية الأولى نلقي بعض الضوء على مملكة أشنونا التي كانت إحدى الدول الهامة في هذه المرحلة.

فلقد كانت مملكة أشنونا من دويلات المدن التي قامت بدور هام في تاريخ العراق القديم، فقد نشأت هذه الدولة التي كانت عاصمتها أشنونا (تل الأسمر الحالية) منذ عصر فجر الأسرات ثم قضى على استقلالها سرجون الأكدي، ثم خضعت بعد ذلك لأسرة أور الثالثة وبعد انهيار أسرة أور استقلت وظلت محافظة على استقلالها حتى ضمها حمورابي إلى مملكته.

ويبلغ عدد ملوك مملكة أشنونا حوالي عشرة ملوك ولعل من أشهرهم الملك «بلالاما» Bilalama الذي يرجح أنه قد استن قانوناً يعد من أقدم قوانين العراق القديم بعد المحاولة التي قام بها «أورنمو» ملك أور، وبقيت من هذا القانون إحدى وستون مادة تتصل بتحديد أسعار المواد التموينية وأجور العربات والقوارب والعمال الزراعيين وتحديد العقوبات، وتجدر الإشارة في أن

(١) انظر: محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤، وكذلك:
C.J. Gadd, op. cit., pp. 636- 637.

تحديدها للعقوبات قد جمعت فيما بين القصاص والدية، كما اهتمت هذه القوانين بتنظيم العلاقات الأسرية والمعاملات الخاصة.

ولقد حاول أحد ملوكها وَيدعى «ابيق ـ أدد الثاني» Ibiq- Adad II توسيع رقعة بلاده، فأراد الاستيلاء على حوض الدجلة وأرض الجزيرة العليا حتى سفوح كردستان، وأنشأ جسر له على نهر الفرات حتى يتحكم في طرق التجارة الآتية من الشمال والغرب ولكن هذا التوسع كان وقتياً، ولم يتمكن الملوك الأخيرين في المملكة من المحافظة على الأراضي التي امتلكوها، إذ أحاطت الممالك القوية التي نشأت في بابل ولارسا في الجنوب وأشور في الشمال وماري في الغرب بها ووقفت سداً منيعاً أمام أطماعها، إلى أن قضى عليها حمورابي كما سبقت الإشارة[1].

---

(١) انظر: محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٦.

الفصـل السـابـع

العصر البابلي القديم

١ ـ الدولة البابلية الأولى

تقع بابل على الفرات على مبعدة ٩٠ كليومتر جنوبي بغداد عند أسفل ملتقى النهرين على ضفة الفرات اليسرى وذلك على رأس السهل الفيضي الذي يقع إلى جنوبها الشرقي والذي تتخلله شبكة من القنوات، وكانت بابل بهذا الموقع بعيدة عن الهجمات المفاجئة من قبائل الصحراء، ومما يزيد في أهمية موقعها الجغرافي مجاورتها للممرات والطرق التجارية الرئيسية التي تؤدي إلى شمال سورية والبحر المتوسط ومصر وكذلك الطريق المؤدي إلى كبادوكيا، وكذلك الطريق المتجه شرقاً إلى عيلام، وعلى ذلك فقد كانت بابل تقع في مركز التجارة العالمي وفي الوقت ذاته كانت تقع على الطريق المباشر لأي غزو يستهدف السهول الجنوبية.

ولم تكن بابل قبل الألف الثاني قبل الميلاد من المراكز السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية القديمة في بلاد النهرين، بل كانت بلدة صغيرة عرفها السومريون باسم «كا ـ دينجير ـ را Ka- Dingir- Ra» وعرفها الأكاديون باسم «باب ـ إليم Bab- Ilim» أي «بوابة الإله». وقد ذكرت لأول مرة بهذا الاسم في أواخر القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، عندما بنى فيها الملك الأكادي «شاركالي شاري» معبداً للإلهة عشتار. وتحول اسم «باب ـ اليم» إلى بابل في التوراة، وبابيلون Babylon عند الإغريق.

ولقد أسس الدولة البابلية الأولى الملك «سمو ـ أبوم» Sumu- Abum

(١٨٩٤ ـ ١٨٨١ ق. م) وكان ذلك في الفترة التي ظهرت خلالها دولتي ايسن ولارسا، وفي الوقت الذي أقام فيه الأشوريون دولة في شمال العراق، وقد كان «سمو أبوم» يحكم في أول الأمر رقعة صغيرة في جنوب العراق، ولقد بدأ توطيد سلطانه بالقضاء على أمراء المدن وأعلن نفسه ملكاً على بابل، وقد بدأ جهوده الحربية في السنة التاسعة من حكمه حيث ضم إليه «دلبات» ثم غزا «سيبار» التي اعترفت بسيادته ثم تحالف مع لارسا لإخضاع كيش ولكنها ظلت تقاوم حتى خضعت على يد خلفه، ولقد مات سمو ـ أبوم بعد أن حكم ما يقرب من خمسة عشر عاماً، ثم خلفه على العرش ابنه «سمولا ايلو».

ولقد حكم «سمولا إيلو Summuael» (١٨٨٠ ـ ١٨٤٥ ق.. م) عرش بابل لمدة تقرب من خمسة وثلاثين عاماً، ويستدل من الوثائق التي تبقت من عهده قيامه ببعض الأعمال العمرانية في دولته ومنها شقه قناة في العام الأول من حكمه وبنائه سور بابل وإقامته معبداً للإله «أد د».

أما فيما يتصل بأعماله الحربية فقد ثارت مدينة «كازاللو» في عهده وتقدم ملكها نحو بابل بعد أن تحالف مع كيش، ولكن الملك البابلي استطاع أن يردهم عن مدينته ثم تقدم إلى كازاللو فدمر أسوارها واجتاح المدينة، وبعد ذلك بعامين أخضع «كوتة» ثم اتجه إلى «سومر» فاستولى على أحد الحصون الحربية الهامة في مدينة نيبور عاصمة سومر الدينية، ولقد تمكن من ضم كل مملكة اكد قبل وفاته.

ولقد خلفه على الحكم ابنه «صبوم» Sabium (١٨٤٤ ـ ١٨٣١ ق. م) الذي حكم لمدة ثلاثة عشرة عاماً وقد حافظ على الدولة التي تركها والده، فلم يقم سوى بحملة واحدة ضد «كازاللو» وشغل بقية عهده ببناء المعابد وشق القنوات وصيانة الحصون، واستمر خليفته «ايبل ـ سن» على سياسته فقام بحفر القنوات ورمم الأسوار.

ولقد خلفه على عرش بابل ابنه «سن مبلط»[1] Sin- Muballit (١٨١٢ ـ

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ١٨٤ ـ ١٨. وكذلك:

=

١٧٩٣ ق. م) الذي قام بعدة حروب في أور ولارساوايسن.

وقد خلفه على عرش بابل الملك «حمورابي» الذي يعد من أعظم ملوك هذه الأسرة بل وأشهرهم جميعاً ومعنى اسمه الآله «حمو» عظيم أو مكثر «وحمو» من أرباب الساميين الغربيين، وقد يكون اسمه «عمورابي»[1]. وقد اختلف المؤرخون في التأريخ لعهد حمورابي، فهناك من يضعه في الفترة (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق. م) وهناك من يضعه في الفترة من (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق. م) وإن كان أصحاب التاريخ المطول يرون أن حكم حمورابي كان من الفترة (٢٠٠٣ ـ ١٩٦١ ق. م).

وأياً ما كان الأمر، فإن الوضع في العراق إبان تولي حمورابي الحكم كالآتي: كانت دولة لارسا تتحكم في الأجزاء التي تقع جنوب بابل بعد أن أخضع ملكها «ريم ـ سن» مملكة ايسن لسلطته، كما كانت مملكة أشنونا تحكم المنطقة التي تقع شمال بابل مباشرة، بينما كانت مملكة أشور تتحكم في الأجزاء التي تلي ذلك شمالاً.

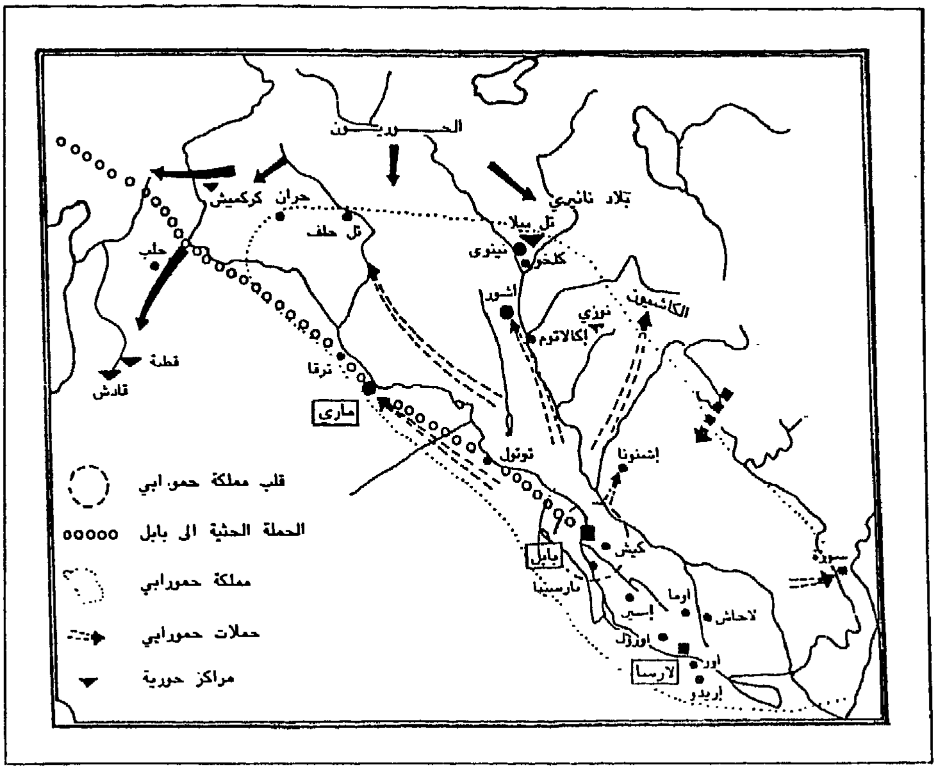
كان برنامج حمورابي هو تقوية الإدارة الداخلية أولاً وتوطيد دعائم عرشه في الداخل ثم تقوية وسائل الدفاع حول المدن الهامة، وفي السنة الخامسة من حكمه بدأ صراعه المنتظر بالاستيلاء على «ايسين» كما نجح في العام الثلاثين من القضاء على الد أعدائه وأخطرهم «ريم سن» ذو الأصل العيلامي ملك لارسا، وكانت الحرب بينهما عنيفة قاسية مدمرة، ولعلها كانت من أخطر الحروب في تاريخ الشرق الأدنى القديم، إذ خرج الملك العيلامي «ريم سن» على رأس جموع جرارة لا حصر لها من الجند العيلاميين ومن سكان المدن العراقية الخاضعة له، وقد أظهر حمورابي من التدبير والحزم ما مكنه من تمزيق جموع العيلاميين وأحلافهم شر ممزق، فكان انتصاره عليهم حاسماً إلى درجة اعتباره

= J.R. Kupper, Les Nomades en Mesopotamie au temps des Rois de Mari, Paris, 1957, p. 106ff.

(١) C. Roux, Ancient Iraq, (Penguin Books), 1980, p. 184.

حدثاً خطيراً في حياة العراق القديم، أرخ به الناس الحوادث وتبارى فيه الشعراء في التغني بمجد حمورابي البطل ورتل الناس أناشيده في المعابد.

وتوالت الهزائم بعد ذلك على أعدائه، فقضى على دويلات المدن الأخرى مثل مملكة اشنونا ثم تابع فتوحه ومدها إلى الشمال، فأخضع بلاد الأشوريين وكذلك المناطق الجبلية إلى الشرق والشمال، كما لاحق فلول العيلاميين إلى عقر دارهم فبسط سلطانه على بلاد عيلام[1]. (خريطة ٤)[2].



(خريطة ٤) مملكة حمورابي البابلي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد)

(١) C.J. Gadd, «Hammurabi and the end of his dynasty». In C.A.H., Vol. II, Part I, pp. 176- 184.

(٢) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ٩٢.

وعلى ذلك، فلقد تمكن حمورابي من السيطرة على كل بلاد النهرين، مما جعله يطلق على نفسه الألقاب «الملك القوي: ملك بابل، ملك كل بلاد أمورو، ملك سومر وأكد، ملك الجهات الأربع»[١]. ويشير أحد نصوصه إلى انتصاراته فيذكر على لسان حمورابي: «قتلت المعادين لي، وحطمت أسلحتهم وضربت ديارهم، وأخذت سكانها أسرى، ودمرت قواتها، وركع تحت قدمي أولئك الذين لم يقدموا لي فروض الطاعة، أنا الملك الذي نفذ رغبة الإله مردوك في القتال، والذي وهبه القوة المدمرة للعدو، لقد طردت المعتدين، واقتلعت بزور الشر من بلادي، وجعلت الناس ينعمون بالرخاء، ولم أدع لقومي ما يفزعون منه»[٢].

وتكشف نصوص حمورابي عن بعض الأساليب المتبعة في الحروب ومنها هدم أسوار المدن التي يخشى بأسها، وتقوية أسوار المدن الموالية له في المناطق الاستراتيجية الهامة، وقد سميت بعض هذه الأسوار بأسماء أرباب مدنها، وكذلك العمل على رعاية تماثيل أربابها بعد الاستيلاء عليها حتى تكون وسيلة لاستمالة مشاعر أتباعها[٣].

وقد أثبتت الحفائر أنه كانت توجد منذ ذلك العهد قواعد لتخطيط مدينة بابل، وقد اتبعت هذه القواعد حتى نهاية عصر الامبراطورية الجديدة، وأهم ما يميز هذا التخطيط أن الطرق الكبيرة كانت موازية جميعاً للطريق المقدس متعامدة مع الطرق الأخرى، في حين أن بيوت المدن السومرية القديمة كانت مجتمعة دون ترتيب، كما أنه لم يكن للطرق اتجاه ثابت.

واتبع حمورابي من الناحية الإدارية نظاماً مركزياً، وربط جميع ولاته به وبالعاصمة بابل وحدد صلاحية الكهنة مما أدى إلى اضمحلال منصب «الانسي» الذي كان يجمع بين السلطتين الدينية والمدنية في حكم منطقته، وأصبح موظفاً

---

(١) G. Roux, op. cit. p. 189.

(٢) هورست كلنجل: حمورابي ملك بابل وعصره، ترجمة، غازي شريف، بغداد ١٩٨٧، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٦٠.

يستمد أوامره من موظف آخر بعد الملك[١].

وتشير الرسائل من عهد حمورابي بوضوح إلى حرصه على معرفة كل صغيرة وكبيرة في البلاد، فضلاً عن حصر السلطة في شخصه، وجعل عماله في البلاد يستمدون أوامرهم منه، فلقد كان حريصاً على أن تصل الأوامر منه شخصياً إلى الحكومات المحلية في المدن السومرية، وأن تصله الرسائل مباشرة ليقوم بحل ما يعتري حكام هذه المدن من مشكلات[٢].

وحتى يضمن سرعة الأداء الإداري بين العاصمة وباقي المناطق، فلقد اهتم حمورابي بربط البلاد بعضها ببعض بشبكة من المواصلات، ومن هنا كان اهتمامه بنظام البريد السريع بغية إيصال أوامره إلى كافة أنحاء البلاد بالسرعة المأمولة، وهكذا استخدم الرجال العدائين حيث كانت الطرق تقسم إلى مراحل يقف عندها هؤلاء العداءون لإيصال ما يتسلمون بالسرعة إلى ساعي المرحلة التالية، وهكذا، وكانوا يحملون الرسائل مختومة مغلقة[٣].

ومن الناحية الاقتصادية، فلقد اهتم حمورابي بزيادة الموارد الاقتصادية لدولته، فمن الناحية الزراعية، قام بشق نهر صغير يبدأ من الفرات أسفل كيش ويمتد حتى الخليج العربي، وذلك لإمداد المنطقة التي يمر فيها وهي نيبور وأريدو وأور ولارسا وأوروك وأيسين بمورد مائي دائم[٤]، كما كان شديد الاهتمام بتطهير الترع والقنوات والمجاري المائية والحفاظ عليها واستصلاح الأراضي. كما اهتم أيضاً بزيادة إنتاج قطعان الماشية، فكان يتم الاحتفال في بابل في فصل الربيع بقص أصواف الأغنام، وكان هذا الحادث من الأعياد الهامة في بابل.

---

(١) سامي سعيد الأحمد: «العصر البابلي القديم» كتاب العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص ٩١.

(٢) J.H. Breasted, La Conquete de la civilisation, Paris, 1945, pp. 136- 137.

(٣) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٣٢..

(٤) ل. ديلا بورت: بلاد ما بين النهرين، ترجمة محرم كمال، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر، الألف كتاب (٣٥) القاهرة، ص ١٢٩.

ومن الناحية التجارية، فلقد عمل حمورابي على تنظيم التجارة وعمل على تنمية التجارة مع أقاليم البحر المتوسط[1] التي استورد منها الأحجار والمعادن وأنواع الأخشاب التي لا وجود لها إطلاقاً في السهول المنخفضة لدجلة والفرات، وليس هناك من شك في أن التجارة على أيام حمورابي كانت مزدهرة كما كانت مصدر ثراء كان له أثره على الحياة في بابل.

ويشتهر حمورابي في التاريخ بتشريعاته الإدارية والقانونية، ولقد بدأ في إصدار هذه التشريعات منذ العام الثامن من حكمه، إلا أنها لم تكتمل إلا بعد ذلك بعدة سنوات، وقد سجلت هذه القوانين على عدة نصب، اشتهر منها نصب كبير من الديوريت يبلغ طوله ٢٢٥ سم وقطره ٦٠ سم، وقد كتب في السنوات الأخيرة من عهد حمورابي، ولقد عثرت عليه في العاصمة العيلامية سوسة بعثة فرنسية للآثار برياسة جاك دي مورجان في شتاء عام ١٩٠١/ ١٩٠٢ وقامت بنقله إلى متحف اللوفر في باريس حيث يوجد حالياً.

وصور حمورابي في الجزء الأعلى من النصب وهو يتلقى الإذن بإصدار تشريعاته من المعبود «شمش» رب العدالة ورب الشمس، ويقف حمورابي وقفة المتعبد وهو يستلم منه العصا وحبل القياس، وهما من رموز وشارات السلطة والحكم في العراق القديم (شكل ٦٦).

ويتكون قانون حمورابي[2] من ثلاثة أقسام هي: مقدمة ومواد قانونية وخاتمة وكتبت المقدمة بلغة شعرية وتتحدث عن أعمال حمورابي المختلفة في المدن التي أخضعها لسلطته وتبجل آلهة تلك المدن، ثم يشير على الأجيال

---

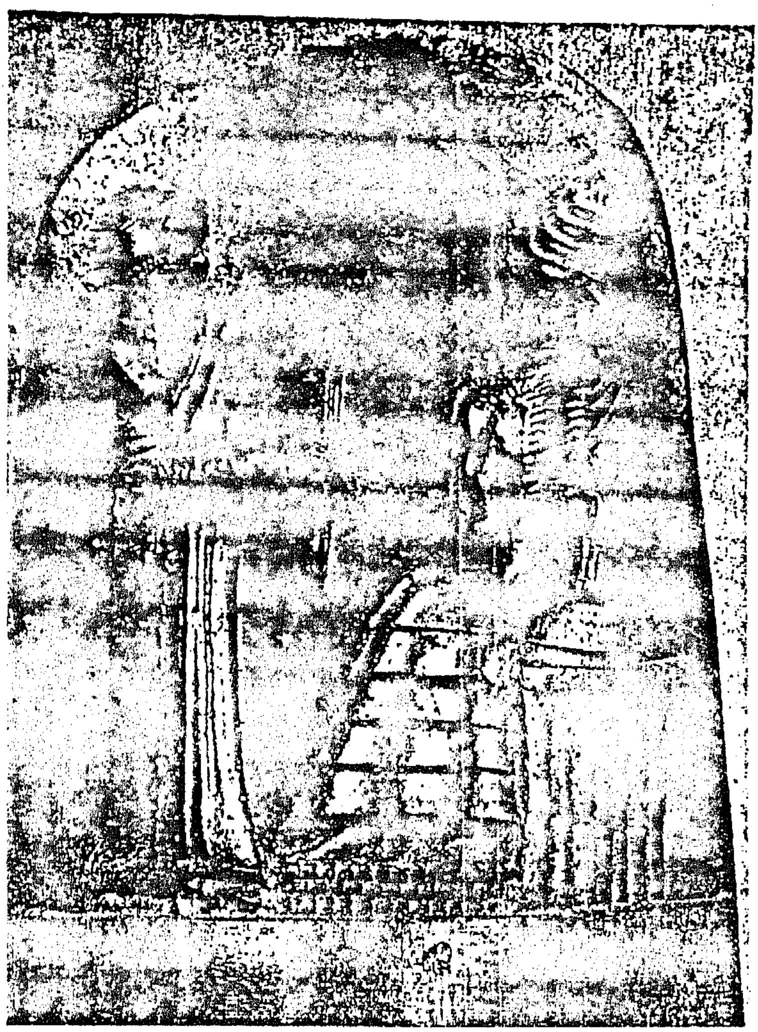
(١) W. F. Leemans, The Old- Babylonian Merchant, Leiden, 1950, p. 7 ff.

(٢) انظر عن قانون حمورابي:

T.J. Meek, «The Code of Hammurabi» in ANET, p. 163FF., D.J. Wiseman, «The Laws of Hammurabi again», in J.S.S., vol 7 (1962) pp. 61ff,

وكذلك عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٦١ ـ ٤٦٧.

محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٣٨ ـ ٢٨٣.



شكل (٦٦) القسم العلوي من نصب قوانين حمورابي

اللاحقة أن تتدبر أحكام قانونه والسير بموجبها لأنها ستكفل لهم العدل والطمأنينة إلى آخر الأيام، إلى أبد الأبدية.

أما المواد القانونية فهي تشمل مختلف نواحي الحياة من اقتصادية واجتماعية، ويمكن تقسيم مواد القانون إلى الموضوعات الآتية:

١ ـ المواد من ١ ـ ٥ تتصل بالقضاء والشهود.

٢ ـ المواد من ٦ ـ ٢٥ تتصل بالاعتداء على الملكية (الجرائم الخاصة بالأموال).

٣ ـ المواد من ٢٦ ـ ٤١ تتصل بأمور الجند وإقطاعاتهم من الأراضي.

٤ ـ المواد من ٤٢ ـ ٦٦ تتصل بشؤون الزراعة والحقول والمنازل.

٥ ـ المواد من ٦٧ ـ ٨٧ مطموسة.

٦ ـ المواد من ٨٨ ـ ١٠٧ تتعلق بالقروض ونسبة الفائدة والتجارة.

٧ ـ المواد من ١٠٨ ـ ١١١ تتصل بساقية الخمر.

٨ ـ المواد من ١١٢ ـ ١٢٦ تبحث في الإيداع والدين.

٩ ـ المواد من ١٢٧ ـ ١٩٤ وتبحث في شؤون الأسرة من زواج وطلاق وميراث وتبني وتربية.

١٠ ـ المواد من ١٩٥ ـ ٢١٤ تتصل بالعقوبات والغرامات عن الأضرار.

١١ ـ المواد من ٢١٥ ـ ٢٤٠ وتتناول أحكام الجراحين والحلاقين والمعماريين وبناة السفن والبيطريين.

١٢ ـ المواد من ٢٤١ ـ ٢٧٣ وتتناول الشؤون الزراعية كحيوانات المزارع والآلات الزراعية وتأجير الرعاة وواجباتهم، وكذا عمال الزراعة والحيوانات والعربات.

١٣ ـ المواد من ٢٧٤ ـ ٢٧٧ وتتناول أجور الصناع والسفن.

١٤ ـ المواد ٢٧٨ ـ ٢٨٢ وتتناول ضمانات بيع الرقيق وشرائه من الخارج.

ويلاحظ في قانون حمورابي أنه يقسم المجتمع العراقي إلى ثلاث طبقات، الطبقة العليا والطبقة الوسطى وطبقة العبيد، وكانت العقوبة تختلف طبقاً للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد الذي وقع منه الجرم فضلاً عن الذي وقع عليه. وسار قانون حمورابي على مبدأ «السن بالسن والعين بالعين»، كما اصطبغت أغلب مواد تشريعات حمورابي بالتشدد في مواجهة الاعتداء على

النفس والمال، وأخضع القانون رجال الدين الأول مرة لأحكام القانون المدني.

. ولقد وصلت بابل في أخريات أيام حمورابي إلى قمة عالية من المجد، وتمثل فترة حكمه التي بلغت ثلاثة وأربعين عاماً، أزهى عصور العراق القديم، ولقد خلفه على عرش بابل ابنه «سامسو ايلونا».

ولقد نعم «سامسو ايلونا Samsu- Illuna» في السنوات الأولى من عهده بفترة سلام وهدوء، وقد أثبتت الرسائل من عصره أنه كان يشرف إشرافاً مباشراً على الموظفين والإداريين والقضائيين في المدن البعيدة عن العاصمة بابل، ولقد قام بشق قناتين في عام حكمه الثالث والرابع، وفي نفس الوقت اعتنى كثيراً بتجميل المعابد الكبرى وتزيينها، وخاصة في بابل وسيبار.

وينسب إليه أيضاً أنه أعفى سومر وأكد من الضرائب في العام التالي لحكمه، وقد يعني ذلك أنه أعفى الممولين من متأخرات الضرائب بمناسبة اعتلائه العرش، كما عمل على إعادة سلطان بابل على الطريق التجاري إلى سورية عن طريق الفرات، وذلك ليعوض خسارته في الجنوب.

ولقد بدأت المتاعب تهدد دولته بدءاً من العام التاسع من حكمه، ففي ذلك الوقت بدأ الكاشيون يثيرون القلاقل على حدوده الشرقية حيث اندفعوا في طريقهم إلى بابل، ورغم تمكنه من هزيمتهم إلا أنهم بدأوا يتسربون إلى بابل كعمال واستمر هذا التسرب طيلة قرنين من الزمان حتى استطاعوا في نهاية الأمر أن يستولوا على السلطة في بابل.

ولم يكن الحال في جنوب بابل بأسعد حالاً إذ خرجت المناطق الجنوبية على سلطان سامسو ايلونا منتهزة فرصة تقدم الكاشيين، إلا أن سامسو إيلونا تمكن من استعادة لارسا إلى نفوذه، وبعد ذلك توجه نحو أور والوركاء حيث قضى على الثورة فيهما.

ولقد اضطر في حروبه هذه إلى استدعاء جزءاً من الحاميات العسكرية البابلية الموجودة في الأقاليم البعيدة، مما كان له أثره في ثورة بعض هذه

الأقاليم في العام الثاني عشر من حكمه، وبخاصة القطر البحري الذي أعلن استقلاله بزعامة «ايلوما ايلوم» وذلك في إقليمه الواقع حول الخليج العربي، ولم يتمكن سامسو ايلونا من إخماد ثورة القطر البحري نهائياً لانشغاله بالعديد من الاضطرابات في أماكن أخرى من دولته، وكان من أخطر هذه الاضطرابات ما حدث في مدينة بابل نفسها من محاولة خلعه عن عرش بابل وتنصيب شخص آخر مكانه. وأتاحت هذه المشاغل الفرصة لـ «أيلوما أيلوم» بتوسيع رقعة نفوذه فامتدت شمالاً حتى نيبور ولارسا.

ولقد أقدم سامسو ايلونا بعد إخماده ثورة بابل ضده على إعادة بناء الأسوار التي تهدمت في بعض مدن دولته، وتقوية قلاعها مثل سيبار وايسين التي كانت تمثل أقصى حدود دولته جنوباً بعد امتداد نفوذ ايلوما آيلوم شمالاً إلى جنوب ايسين.

وحاول سامسو ايلونا تعويض خسائره في الجنوب باستعادة سلطانه على الطريق التجاري إلى سورية ودعم علاقته التجارية معها، ولقد قضى سنوات حكمه الأخيرة في الاهتمام بالمناطق الشمالية والغربية من دولته لعجزه عن السيطرة على الجنوب(١).

ويعتبر سامسو ايلونا آخر الملوك العظام في الأسرة البابلية الأولى، إذ لم يستطع خلفاؤه المحافظة على دولتهم، فانصرفوا إلى رعاية المعابد والمعبودات أكثر من اهتمامهم بالحروب، ودب الضعف في كيان ما تبقى من الدولة حتى تمكن الحيثيون في نهاية عهد الأسرة البابلية من القضاء نهائياً على دولتهم بعد أن حكم فيها إحدى عشر ملكاً لمدة تقرب من مائتين وخمس عشرة سنة.

(١) S. I. Feigin, and B. lands berger, «The date- list of the Babylonian kings Samsuditana», in J.N.E.S, vol. 14, (1955), p. 137 FF.

٢ ـ أسرة بابل الثانية
(أسرة القطر البحري)

نشأت أسرة القطر البحري في الشواطىء الشمالية للخليج العربي، وحكم ملوكها حوالي ٣٦٨ عاماً، وجاءت أسماؤهم في بعض القوائم كعشر ملوك، وإن ذكرتهم القوائم الأخرى كأحد عشر ملكاً[١]. وكان من بين أسماء هؤلاء الملوك أربعة أسماء سامية والأسماء الأخرى سومرية، مما يشير إلى اشتراك العنصرين السامي والسومري في حكم هذه الأسرة.

وأول ملوك هذه الأسرة هو «ايلوما اليو Iluma- Ilu»[٢] الذي تمكن من إعلان انفصاله عن دولة حمورابي مكوناً دولة في الأجزاء التي استقل بها، وفشل «سامسو ـ ايلونا» خليفة حمورابي في القضاء على تمردهم، مما شجع «ايلوما ـ اليو» على أن يضم إليه لارسا وكذلك نيبور.

وأحداث الملوك الذين خلفوا «ايلوما ـ اليو» في القطر البحري غامضة إلى حد يصل إلى الندرة، فلا توجد من عهودهم غير شذرات ضئيلة تلقي بعض الضوء عن أحداث قليلة تمت في عهود بعضهم، وتتصل بعلاقاتهم العدائية تجاه بابل، سواء كانت تلك الاشارات تتصل بمحاولات ملوك بابل استعادة الجنوب

(١) انظر: ليو أوبنهايم: بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعد فيضي، بغداد، ١٩٨١، ص ٤٤٦.

(٢) L.W. King, Chronicles Concerning Early Balylonian Kings, vol. II, London 1907, p. 21.

لسلطانهم، وقيام ملوك القطر البحري بصد هذه المحاولات.

وتوضح المصادر الأثرية انهيار هذه الأسرة في العهد الكاشي، حيث استسلم حاكم القطر البحري «أيا ـ جميل» للكاشيين دون جهد كبير وهرب إلى عيلام، إلا أن أهل القطر البحري لم يستسلموا بسهولة، فاستمرت ثوراتهم حتى استطاع الملك الكاشي «أحوم» من إنهاء عهد هذه الأسرة بالاستيلاء على أهم مدنها وهي مدينة «دور أيا» وتدمير معبد الإله «أيا» المعبود الرئيسي على الأغلب.

ولقد عاصرت أسرة القطر البحري أسرة بابل الأولى منذ عهد ملكها السابع ـ وربما الثامن ـ كما عاصرت الأسرة الكاشية في قرابة نصف عهدها الأول، وتجدر الإشارة إلى أن هناك من يذهب إلى القول بأن أسرة القطر البحري ليست بابلية، رغم أنها تعرف أحياناً باسم «أسرة بابل الثانية» إلا أنه يمكن القول إلى أن جانباً من شعوب أرض البحر إنما كان سامياً وأن الجانب الآخر كان سومرياً، وإن الامتزاج بين الجانبين إنما تم قبل قيام الأسرة بزمن طويل[1].

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٩٥.

٣ ـ مملكة بابل الثالثة
(الدولة الكاشية)

بعد أن قضى الحيثيون على مملكة بابل الأولى وجد الكاشيون الفرصة سانحة لإخضاع بابل فأخذت جموع متتالية من رجال القبائل الجبلية الواقعة في شرق نهر دجلة تهبط من السهول لمهاجمة بلاد بابل وقد استطاعت بعد انسحاب الحيثيين أن تكون دولة قوية عرفت باسم الدولة الكاشية[1] أو دولة بابل الثالثة، ومع أن حكمها يعد أطول احتلال شهدته أي دولة قديمة، إذ استمر ما يقرب من ٤٣٠ سنة، إلا أن معلوماتنا عنه قليلة نظراً لقلة الوثائق التاريخية المتخلفة عنه.

والكاشيون من العناصر الآسيائية التي امتزجت في النصف الأول من الألف الثاني بالعناصر الهندوأوروبية، وربما اكتسب الكاشيون اسمهم من إقليم في شمال عيلام يدعى «كاش ـ شن» وأطلق عليهم اليونان التسمية «كاسيوي».

وتعوز المؤرخ الأدلة النصية الكافية التي تتيح له التعرف على كيفية استيلاء أول ملوك الأسرة الكاشية وهو «جانداش» على العرش في بابل، ويرى المؤرخون أن ذلك قد تم في عام ١٧٥٠ ق. م أو ١٧٤٦ ق. م.

ويتميز عصر هذه الدولة بحدوث الكثير من الغزوات والقلاقل في منطقة الشرق الأدنى القديم، وقد كثرت السلطات المتنازعة على السيادة الدولية في أثنائه وكانت بعض القوى الجديدة تظهر ثم لا تلبث أن تختفي لتحل محلها قوى

(١) C.J. Gadd, op. cit., pp. 224-227.

أخرى ـ وهكذا نجد دولة البحر في جنوب العراق والكاشيين في الوسط والأشوريين في الشمال والشمال الشرقي، وبينما كان الأشوريون يجاهدون في الانفصال عن الكاشيين نجدهم لا يلبثون أن يخضعوا للميتانيين ـ ومن جهة أخرى كان الميتانيون ينافسون الحيثيين الذين استطاعوا القضاء على دولة بابل الأولى والسيطرة على شمال العراق وسوريا واتسعت امبراطوريتهم تدريجياً حتى اصطدموا بالمصريين في عهد الدولة الحديثة التي كانت حينئذ تسيطر على أكثر مناطق العالم القديم المعروفة، أما عيلام فإنها لم تتمكن من أن تعيد قوتها مباشرة بعد أن قضى عليها حمورابي ـ وفي نهاية هذا العهد تعقدت العلاقات الدولية وتبادل الملوك الرسائل وكانت بينهم المعاهدات والمصاهرات الدولية[1].

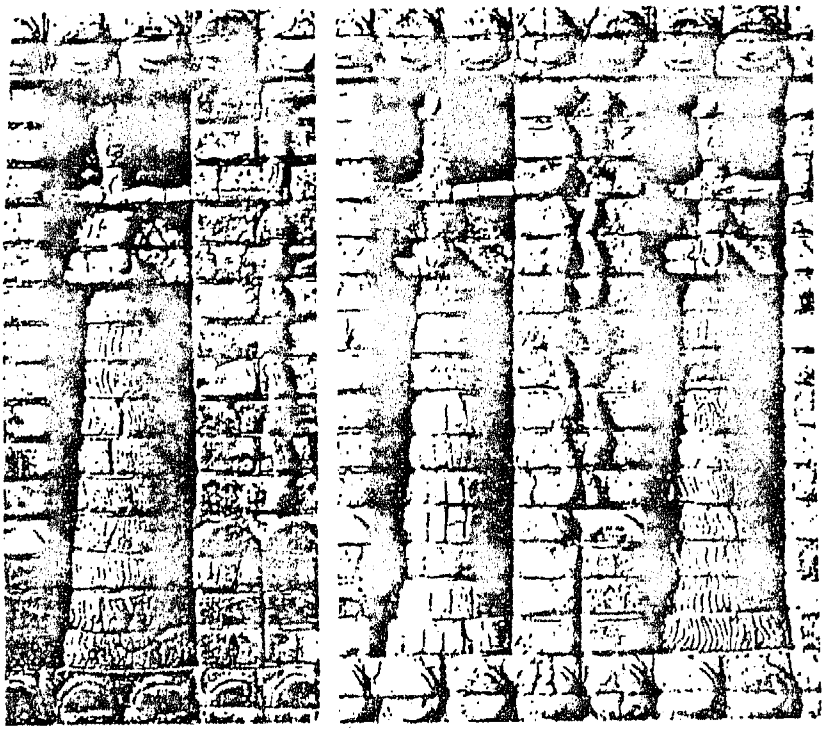
ورغم تمكن الكاشيون من السيطرة على أجزاء كبيرة من مملكة بابل في سرعة كبيرة، إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على دولة القطر البحري بمثل هذه السرعة، إذ ظل ملوك القطر البحري يتمتعون بكيانهم المستقل لفترة طويلة ولم يتمكن الكاشيون من السيطرة عليهم إلا بعد جهود مضنية، وكان ذلك في عهد ملكهم «أولام ـ بورياش».

ونظراً لقلة أعداد الكاشيين بالنسبة لأهل بابل، فقد اعتبروا أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة بين السكان الأصليين واعتبروا اللغة البابلية لغتهم الرئيسية وذلك إلى جانب لغتهم الخاصة، ومن المظاهر الجديدة التي تنسب لهم تأريخهم الأحداث بسني حكم ملوكهم بعد أن كان العراقيون يؤرخون بالأحداث الرئيسية أكثر من غيرها، كما شيدوا بعض المدن الجديدة والتي من أهمها مدينة «دور كوريجالزو» وهي تبعد عن بغداد الحالية بحوالي ٣٢ كيلومتر وقد اتخذوها عاصمة لهم.

وقد عمل الملوك الكاشيون على ترميم المعابد البابلية وإعادة ما تهدم

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠.

منها، وظهر ذلك بشكل واضح في مدينة الوركاء حيث رمموا معبداً للإلهة إنانا كما قاموا بإحداث بعض التطورات والإضافات لمحاور المقاصير الرئيسية وتشكيل الواجهات الخارجية، وظهر ذلك في معبد الوركاء، فقد دعمت أركانه الخارجية بأكتاف ذات مستويين لم يمارسها العراقيون إلا قبيل عصورهم التاريخية ثم هجروها بعد ذلك (شكل ٦٧) وأضافت العمائر المدنية الكاشية



شكل (٦٧) مقاطع من واجهة المعبد الكاشي في أوروك

تجديداً آخر تمثل في بناء صفات ذات أعمدة حول أبنيتها الكبيرة وظهر لها ما يماثلها في عمائر الحيثيين في الأناضول[١].

وفي مجال العلاقات الخارجية فيلاحظ وجود علاقات ود وصداقة بين مصر وبابل خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد وتمثلت هذه العلاقات الطيبة في زواج الفرعون امنحتب الثالث بابنة المَلك البابلي المعاصر له، وبعد ذلك وفي عهد الفرعون أخناتون استنجد الملك البابلي به لتأمين تجارته في سورية وذلك نظراً لوجود اضطرابات في هذه المنطقة خلال هذه المرحلة كان من نتيجتها تهديد التجارة البابلية.

ولقد تحكم الأشوريون في المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من نهر دجلة. بينما تحكم الحوريون في المناطق الغربية والشمالية الغربية من نهر الفرات. وفيما يتصل بعلاقة الكاشيين بأشور فقد ساد الحذر العلاقات بينهما في أول الأمر، ولم يمنع ذلك من حدوث تصاهر بين البيتين الحاكمين في بابل وأشور، أما دولة ميتاني فقد تعرضت بعد فترة من الزمن لهجوم الحيثيين الذين كادوا يقضون عليها لولا حدوث بعض الاضطرابات في الأملاك الحيثية في شمال الشام مما اضطر الحيثيون إلى الانسحاب بجيوشهم من العراق واستغل الأشوريون الفرصة فهاجموا العاصمة الميتانية واستردوا الكنوز التي كان قد اغتصبها الميتان من أرضهم. واكتفى الأشوريون بذلك إلا أن الأحداث سرعان ما أدت إلى نهاية دولة الميتان في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

وفي ذلك الوقت واجهت بابل قوى دولية ذات وزن كبير على حدودها فكان هناك العيلاميون والأشوريون والحيثيون ودخلت بابل في صراع مسلح مع كل من عيلام وأشور لم تكن نتائجه حاسمة لطرف من الأطراف. أما بالنسبة للحيثيين فقد سادت علاقات الود الظاهري بينهم وبين البابليين وذلك نظراً

(١) عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

لانشغال الحيثيين بصراعهم مع كل من أشور ومصر[١].

وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد هاجم العيلاميون بابل وقضوا على الحكم الكاشي فيها ودمروا بابل نفسها ونقلوا معظم آثارها الفنية إلى عاصمتهم سوسة، إلا أن الاحتلال العيلامي لبابل لم يدم طويلاً إذ انتقل الحكم فيها إلى أسرة قوية من أمراء ايسين تعرف باسم الأسرة البابلية الرابعة أو أسرة ايسين الثانية، واستطاع ملكها نبوخذ نصر الأول (١١٢٤ ـ ١١٠٣ ق. م) من مهاجمة عيلام وتحقيق نصراً عليها.

ولقد اكتسب «نبوخذ نصر» شهرة واسعة بين معاصريه وبين الأجيال اللاحقة، ومن ثم فقد صار هذا الحدث التاريخي مناسبة عظيمة يتغنى بها القوم، بل أن صداه إنما بقي يتردد عبر أجيال لاحقة حيث أشارت إليه «نصوص الفأل» الأشورية في القرن السابع قبل الميلاد. وأكسب هذا النصر «نبوخذ نصر» قدرة على تحصين حدوده الشمالية.

وبعد وفاة «نبوخذ نصر» تعرضت أسرة ايسين الثانية إلى تحديات قوية تمثلت في انتعاش الأشوريين وعودتهم كقوة مؤثرة في شمال بلاد النهرين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وذلك فضلاً عن ضغوط القبائل الأرامية على بابل، مما أدى إلى سقوط الأسرة ومجيء أسرة بابل الخامسة أو (أسرة القطر البحري الثانية) وهي تتكون من ثلاثة ملوك حكموا لمدة عشرين عاماً (١٠٢٤ ـ ١٠٠٤ ق. م) ثم جاءت أسرة بابل السادسة وهي تتكون أيضاً من ثلاثة ملوك حكموا لمدة تسعة عشر عاماً (١٠٠٣ ـ ٩٨٤ ق. م) ثم جاءت أسرة بابل السابعة، وتعرف باسم الأسرة العيلامية وحكم فيها ملك واحد لمدة خمس سنوات (٩٨٣ ـ ٩٧٨ ق. م) ثم جاءت أسرة بابل الثامنة وهي تتكون من ٢٢ ملكاً حكموا لمدة ٢٤٥ عاماً في الفترة من ٩٧٧ ـ ٧٣٢ ق. م وأخذت بابل في الانحدار حتى سقطت في أيدي الأشوريين وذلك خلال العصر الأشوري الحديث.

---

(١) L.W. King, op. cit. p. 22.

الفصـــل الثامـن

الأشـوريـون

أطلق إسم «أشور» في النصوص القديمة على كل من المدينة وإلهها والدولة نفسها، وقد وردت كلمة «أشور» في المصادر الأرامية والعربية تحت اسم «أثور» وأما المصادر السومرية فقد عرفت بلاد الأشوريين باسم «مات- أشور» أي بلاد أشور، كما وردت كلمة أشور في هذه المصادر من القرن ١٣ ق. م «اش شر» كما وردت قبل ذلك تحت صورة «آ ـ شو ـ ار» و «اشر».

ويقع الإقليم الأشوري على طول دجلة من خط عرض ٢٧ شمالاً حتى مصبه جنوباً على صورة مثلث يحصره دجله والزاب الأعلى والزاب الأسفل، وتحاده من الشمال والشرق جبال عالية وهضاب وأراضي تتخللها النجاد والأغوار، فهي ليست أرضاً منبسطة، بل هي بلاد ذات طبيعة جبلية في أغلب الأمر تحصر بينها الرقعة الخصبة التي تمثل وديان الأنهار سالفة الذكر، وهذه الرقعة الخصبة من الأراضي الصالحة للزراعة عرفت بها بضعة سهول من بينها سهل اربيل وسهل كركوك، وكان وجود الجبال من ناحية الشمال والشرق بمثابة حدود طبيعية للأقاليم، أما من الجنوب والغرب فالطريق مفتوح، إلى الجنوب بغير حدود طبيعية حتى الخليج العربي، وإلى الغرب حتى الفرات وروافده وما ورائه، ومن ثم فالحدود السياسية جنوباً وغرباً خاضعة لمدى التوسع الاستعماري فهي تتقلص مرة، وهي تمتد مرة أخرى تبعاً لمدى السلطان السياسي للإقليم، وكانت عاصمة أشور هي مدينة «أشور» كذلك، وتعرف خرائبها اليوم باسم القلعة أو «قلعة شرقاط» على مبعدة ١١٠ كيلو متراً من الموصل[١].

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

والأشوريون في الأصل فرع من الأقوام السامية التي هاجرت من مهد الساميين الأصلي، وهو جزيرة العرب على ما يقول به جمهور الباحثين، إلا أنهم لم يأتوا رأساً من جزيرة العرب إلى شمالي العراق وهم بدو غزاة، وإنما حلوا في موطن مؤقت بعد هجرة أجدادهم من الجزيرة وانتقلوا منه إلى البلاد التي صارت فيما بعد موطناً ثابتاً لهم، ويفترض العلماء لذلك فرضين أولهما: أن الأشوريين جاؤوا من الجنوب من أرض بابل ـ وربما في العهد الأكدي ـ معتمدين في ذلك على التقارب بين اللغتين الأشورية والبابلية، رغم وجود بعض الاختلافات بينهما، وثانيهما: إن الأشوريين موجه أرامية جاءت من سورية، أي أنهم من السامين الغربيين، وربما كان الرأيان صحيحان، بمعنى أن الأشوريين فرع من الساميين الذين جاؤوا من سورية، كما أنهم فرع من الساميين الذين جاءوا من الجنوب من بابل. بل إن «ول ديورانت»[١] يرى أنهم خليط من هؤلاء الساميين، ومن قبائل غير سامية جاءت من الغرب (ولعلهم من الحيثيين أو من قبائل تمت بصلة إلى قبائل ميتاني) ومن الكرد سكان الجبال الآتيين من القوقاز، وأخذ هؤلاء كلهم لغتهم المشتركة وفنونهم من سومر، ولكنهم صاغوها فيما بعد صياغة جديدة جعلتها لا تفترق في شيء عن لغة أرض بابل وفنونها.

ويقسم المؤرخون تاريخ أشور القديم إلى ثلاثة عصور متميزة هي:

١ ـ العهد الأشوري القديم ويبدأ من فجر التاريخ الأشوري إلى نهاية حكم أسرة بابل الأولى.

٢ ـ العهد الأشوري الوسيط أو عصر المملكة الأشورية ويبدأ من نهاية مملكة بابل الأولى وذلك في عهد الملك «أشور أو بلط الأول» وينتهي في بداية القرن التاسع قبل الميلاد وذلك بنهاية عهد الملك «أشور دان الثاني».

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الأول، الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

٣ ـ العهد الأشوري الحديث أو عصر الامبراطورية ويمكن أن يقسم بدوره إلى قسمين:

أ ـ الامبـراطـوريـة الأشـوريـة الأولـى وتمتـد مـن حـوالـي عـام ٩١٣ ـ ٧٤٥ ق. م وتبدأ بعهد الملك «ادد نيراري الثاني» وتنتهي بعهد الملك «أشور نيراري السادس».

ب ـ الامبـراطـوريـة الأشـوريـة الثـانيـة وتمتـد مـن حـوالـي عـام ٧٤٥ ـ ٦١٢ ق. م. وتبدأ بالملك «تجلات بلاسر الثالث» وتنتهي بالملك «أشور أوبلط الثاني».

وسنقوم فيما يلي بتتبع تاريخ دولة أشور في هذه العهود الثلاثة:

أولاً: العصر الأشوري القديم

يشغل العصر الأشوري القديم الفترة من ٢٠٠٠ ـ ١٥٢١ ق. م. تقريباً، وهي تقابل تقريباً العصر البابلي القديم. وحكم آشور خلال هذه المرحلة سبعة عشر ملكاً وذلك حسبما ورد في القائمة التي عثر عليها في خورسباد، إلا أنه يرجح أن بعض هؤلاء الملوك كان يعاصر بعضهم البعض، ومن الناحية السياسية فقد خضع الأشوريين في بداية هذه المرحلة لحكم ملوك أسرة أور الثالثة، ولكن بعد سقوط أسرة أور انتهز الأشوريون الفرصة واستقلوا، وذلك مثلهم مثل كثير من المدن الأخرى.

ولقد مرت أشور خلال العصر الأشوري القديم بثلاث مراحل رئيسية، استغرقت المرحلة الأولى منها الفترة الزمنية من ٢٠٠٦ ـ ١٨١٤ ق. م. وهي تتميز بالغموض الشديد حيث لا تتوافر المعلومات في كثير من فتراتها سوى أسماء بعض الملوك إلى جانب أعمالهم العمرانية كما ورد في القوائم الأشورية التي دونت في فترة متأخرة، وكذلك في بعض نصوص الأبنية التذكارية وكذلك

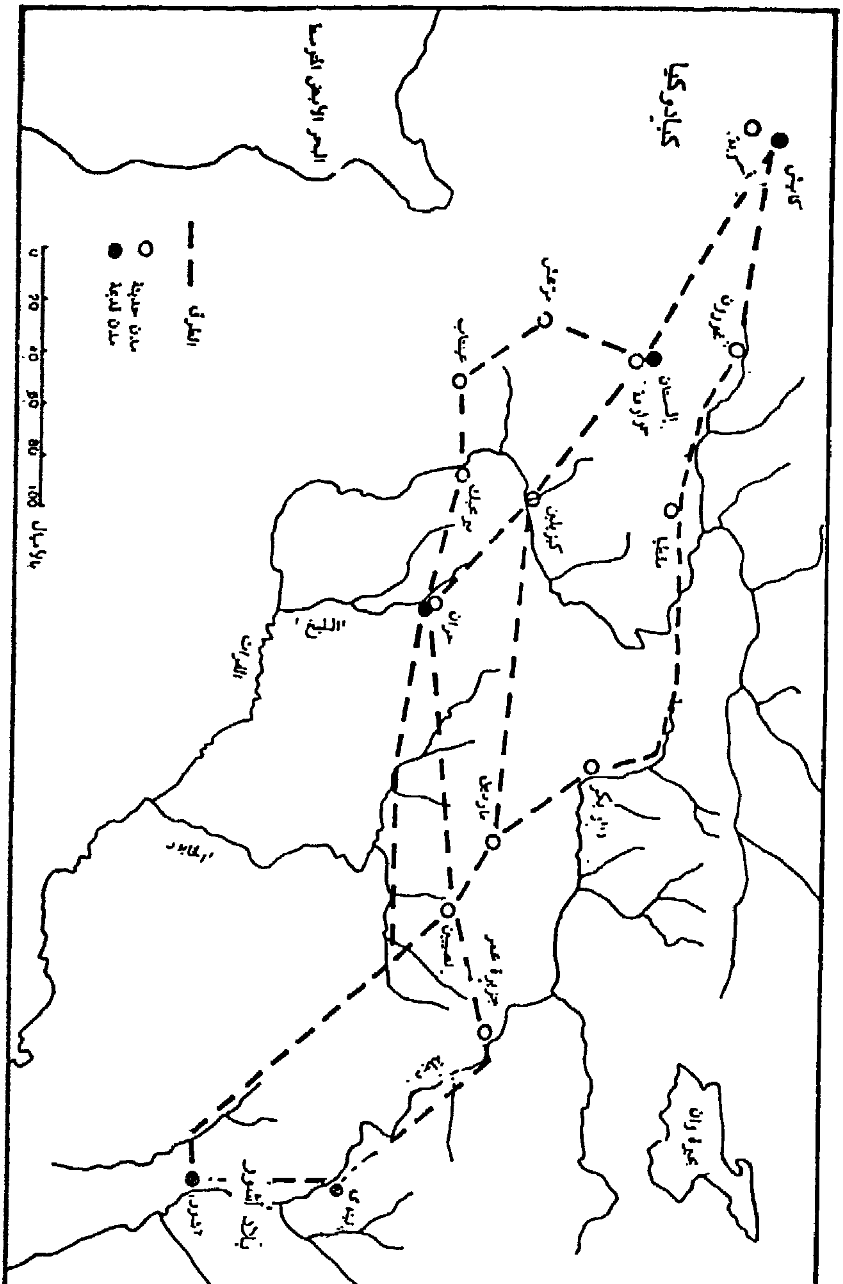
بعض النصوص المكتشفة في المستوطنة التجارية الأشورية في منطقة كبادوكيا في آسيا الصغرى.

ولقد تمكن «بوزور ـ أشور ـ الأول» أن يؤسس أسرة حاكمة في أشور كان ملوكها يحملون أسماء أكدية بحتة، وفي عهد حفيده «ايلو ـ شوما» (١٩٤٠ ـ ١٩٠٦ ق. م) تمكن الأشوريون من التوغل في جنوب بلاد النهرين ربما للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى بلاد عيلام والخليج العربي، ولقد أدعى أنه حرر مدينتي أور ونفر اللتين كانتا تقعان على الطريق التجاري إلى الخليج العربي.

ولا توجد لدينا معلومات عن أشور خلال هذه المرحلة سوى النصوص المتصلة بالمراكز التجارية الأشورية في آسيا الصغرى[1]. ولقد عثر على هذه النصوص التي هي عبارة عن ألواح طينية في موقع «كول تبه» وهو الاسم القديم لمدينة كانيش شمال قيصرية في تركيا، ضمن المنطقة المعروفة باسم «كبادوكيا». وكانت تدين هذه المراكز التجارية بالديانة الأشورية وتعيش الحياة الأشورية مع بعض التأثيرات المحلية، ويرجح أنها تمتعت بنوع من الاستقلال الذاتي وربما كانت علاقتها بالدولة الأشورية من نوع علاقة الفرع بالأصل وقامت هذه المراكز التجارية الأشورية بدور الوسيط بين الدولة الأشورية وبين الدويلات المحلية في بلاد الأناضول (خريطة رقم ٥).

وتبدأ المرحلة الثانية من العهد الأشوري القديم بالملك «شمشي ـ أداد ـ الأول» (١٨١٣ ـ ١٧٨١ ق. م) وهو زعيم أموري تمكن من تأسيس أسرة جديدة في بلاد أشور تمكنت من أن تحكم أشور بشكل مستقل، وتمكن من مد نفوذه على المنطقة الشمالية والغربية من العراق القديم، وضم إلى دولته مملكة

(١) انظر: محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الأشورية في وسط آسيا الصغرى في العصر الأشوري القديم، الإسكندرية، ١٩٨٤ م.



خريطة (٥) الطرق التجارية بين آشور وكبادوكيا (آسيا الصغرى)

ماري[١] كما تمكن من بسط نفوذه على المنطقة الشرقية من بلاد أشور، بالإضافة إلى قيامه بعدة حملات على القبائل الجوتية، مما يشير إلى أن كل بلاد أشور ـ بالمعنى الواسع ـ كانت في عهده مملكة واحدة، ولقد امتدت المنطقة التي حكمها شمشي أداد وولداه من بعده بعيداً خلف حدود بلاد أشور وتنتشر من سفوح زاجروس حتى الفرات، ومن نهر «إبراهيم» حتى مشارف هضبة الأناضول وهو ما يقارب ثلاثمائة ميل طولاً وعرضاً، ولقد اتسع نفوذه عن طريق الدبلوماسية والفعالية الاقتصادية ليصل إلى أبعد من ذلك بكثير.

وساعد شمشي أداد في تكوين دولته دهاؤه الإداري ومهارته السياسية، فكان يتابع عن كثب كل الأمور التي تتعلق بتسيير شؤون دولته ـ وذلك كما يتضح من رسائله التي عثر عليها ـ كما أنشأ شبكة محكمة من الموظفين الإداريين، ومن الناحية الخارجية، فلقد نجح في إقامة علاقات ود وصداقة مع حكام سورية سواء بواسطة المعاهدات أو علاقات الزواج بين السلالات الحاكمة[٢]. وبعد موته تلاشت مملكته بنفس السرعة التي تكونت بها حيث فشل ابنه «ايشمي داجان» الأول (١٧٨٠ ـ ١٧٤١ ق. م) من المحافظة على الدولة التي كونها أبيه.

أما المرحلة الثالثة من العصر الأشوري القديم، فتتميز بخضوع أشور لبابل على أيام حمورابي، وربما استقلت أشور عن بابل بعد وفاة حمورابي غير أن الأمور كانت فيها مضطربة، كما كانت حدودها مقصورة على بلاد أشور الأصلية، وظل الأمر كذلك حتى اعتلاء «بوزور ـ أشور» الثالث العرش في عام ١٥٢١ ق. م حيث يبدأ العصر الأشوري الوسيط.

---

(١) J.R. Kupper, «Nortnern Mesopotamia and Syria» in CAH., vol., II, part, I, (1973), p. 1ff.

(٢) هنري ساغس: جبروت آشور الذي كان، ترجمة د. آحو يوسف، دمشق ١٩٩٥، ص ٦٣.

ثانياً: العصر الأشوري الوسيط

استغرقت هذه المرحلة أكثر من أربعة قرون ونصف القرن (١٣٨٠ ـ ٩١٣ ق. م تقريباً) حكم خلالها ستة وعشرون ملكاً وذلك منذ نهاية أسرة بابل الأولى وحتى بداية العصر الأشوري الحديث. ويعاصر العصر الأشوري الوسيط في مصر عصر الدولة الحديثة، ومن خارج مصر الامبراطورية الحيثية، وفي جنوب العراق كان هناك الكاشيون.

ويبدأ العصر الأشوري الوسيط باستقلال أشور من نفوذ البابليين بعد سقوط دولة بابل الأولى في أيدي الحيثيين الذين ما إن تراجعوا عنها حتى احتلها الكاشيون، ولقد انتهز الأشوريون الفرصة وأعلنوا استقلالهم، وكان ذلك في عهد الملك **«شمشي أداد الثاني»** الذي جعل من الأشوريين قوة لها كيان في ذلك الوقت، إلا أن خلفاءه لم يستطيعوا الحفاظ على القوة التي حققها وذلك نظراً لتطور الأحداث الخارجية بجوار دولة أشور تطوراً سريعاً.

إذ تكونت بجوار الأشوريين في ذلك الوقت من جهة الغرب قوة فتية جديدة هي قوة الميتانيين التي أنشأها الحوريون في منتصف الألف الثاني ق. م. ولقد أخذت قوة الميتانيين تزداد حتى أصبحت لهم اليد الطولى في أحداث الشرق الأدنى القديم خلال هذه المرحلة، ولقد تمكنوا من فرض سيطرتهم ونفوذهم على دولة أشور، واستمرت تلك السيطرة زهاء قرن من الزمان.

ولقد ساعدت الظروف أشور في التخلص من الميتانيين، بل والقضاء عليهم، وتمثلت تلك الظروف في الصراع الذي نشب ما بين الميتانيين والحيثيين مما أرهق الطرفين، وزاد الأمر سوءاً بالنسبة للميتانيين انقسام البيت المالك الميتاني إلى فريقين متناحرين وعاصر هذه الأحداث الملك الأشوري **«أشور ـ أوبلط الأول»** (١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ق. م) الذي انضم لأحد الفريقين المتنازعين.

ونتيجة للمؤمرات والدسائس بين الفريقين قتل الملك الميتاني «توشراتا»

المعارض للفريق الموالي للأشوريين، وفر ولده إلى بابل، ولكن ملك بابل تمسك بمبدأ الحياد ورفض منحه حق اللجوء، فاضطر إلى الذهاب إلى البلاط الحيثي، بينما اقتسمت أشور، ودويلة صغيرة في حوض دجلة الأعلى تدعى «الشي» بلاد ميتاني، وهكذا تمكن «أشور ـ أو بلط الأول» دون أن يدخل في أي معركة حربية من أن يحرر بلاده من سيطرة الميتانيين، بل وتمكن كذلك من أن يتسبب في القضاء على الدولة التي كان أباؤه يدفعون لها الجزية، ولقد اتبع سياسة حكيمة مع جيرانه فتصاهر مع ملك الكاشيين الذي تزوج بابنته أملاً أن يصبح حفيده يوماً ملكاً على بابل[١].

وكان لأشور أو بلط علاقات ودية مع مصر عبرت عنها رسالتان عثر عليهما وجاء في إحداهما ما يلي: «هكذا يقول أشور ـ أو بلط الثاني» لتكن بخير أنت وذويك وبلادك ومراكبك وجنودك، لقد أرسلت إليك مبعوثي لكي يراك ويرى بلادك، إنني أقيم الاتصال معك اليوم رغم أن أحداً من أجدادي لم يُقدم على ذلك من قبل، أرسل إليك عربة جميلة وحذاء وجوهرة من اللازورد كهدية لك، لا تؤخر رسولي الذي أرسلته ليراك، عليه أن يراك ويعود، دعه يستخبر عنك وعن أحوال بلادك ومن ثم دعه يعود»[٢].

وسارت الدولة الأشورية في نموها وتوطيدها ثم توسعها في عهد الملوك الذين خلفوا «أشور ـ أو بلط» وكان هؤلاء الخلفاء من طراز مؤسس الدولة حيث التزموا السياسة الحكيمة في تقوية الدولة دون الدخول في مغامرات حربية وفتوحات جديدة تستنزف قوى الدولة فنهجوا نهجه وعمل بعضهم على توسيع سلطان الأشوريين، فنشأت بذور الامبراطورية الأشورية التي نمت ونضجت فيما بعد منذ القرن التاسع ق. م.

وخلف «أشور ـ أو بلط» على العرش «انليل نيراري» (١٣٢٩ـ١٣٠٨ق.م)

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٣٧٦.
(٢) هنري ساغس: المرجع السابق، ص ٧٠.

ثم جاء بعده «أداد ـ نيراري الأول» (١٣٠٧ ـ ١٢٧٥ ق. م) الذي ينسب إليه بعض المؤرخين دور مؤسس الامبراطورية، وذلك نظراً لدوره الكبير في عملية التوسع الأشوري. فهو يشير في نصوصه إلى البلاد التي حاربها، فيذكر الكاشيين في الجنوب وكذلك بعض الشعوب الجبلية في جبال زاجروس وجبال طوروس الشرقية من جنوب كردستان إلى شمالي ـ غرب بلاد أشور، وشملت فتوحات «أداد ـ نيراري الأول» عدة مدن ميتانية بينها العاصمة الميتانية القديمة «واشوكاني» حيث أعلن الأشوريون أن بقايا المملكة الميتانية تدخل ضمن دائرة نفوذهم، وبذلك وصلت حدود أداد نيراري كل المنطقة حتى المنعطف الكبير لنهر الفرات، والذي كان يمثل الحد الطبيعي الرئيسي، حيث كانت توجد الامبراطورية الحيثية إلى الغرب والشمال من هذا الحد.

وجاء بعده على العرش ابنه «شلمنصر الأول» (١٢٧٤ ـ ١٢٤٥ ق. م) الذي تشير نصوصه إلى أنه هاجم أهل أورارتو (الشعوب القاطنة في هضبة أرمينيا)، كما قام بقمع تمرد في بلاد هانيغالبات (بقايا مملكة ميتان السابقة) واتخذ شلمنصر الأول عاصمة جديدة له هي «كالح» (نمرود الحالية) بدلاً من العاصمة القديمة أشور.

وخلف شلمنصر الأول ابنه «توكلتي ـ ننورتا»[1] (١٢٤٤ ـ ١٢٠٨ ق. م) الذي عمل على توطيد حكم الأسرة وتوسيع حدود بلاده، ونجح في أن يضم إلى أشور مملكة بابل وأن يهزم ملكها «كاشتيلياش» وحق له حينئذ أن يتخذ لقب «ملك سومر واكد» ثم أقام لنفسه عاصمة جديدة هي «كار ـ توكلتي ـ ننورتا» في مواجهة أشور.

ولكن أخريات أيام توكلتي ـ ننورتا لم تكن طيبة إذ طمع ابنه في عرشه فقتله وكان من أثر ذلك اضطراب شؤون الأسرة فتعاقب عدد من الملوك

(١) E.F. Weidner, «Studien Zur Zeitgeschiche Tukulti- Ninurtas I», In Arch, F. or. 13 (1939- 41), P. 109 ff.

الضعاف (١٢٠٨ ـ ١١٧٥ ق. م) مما يسر لبابل أن تخرج عن سلطان أشور وتستيعد استقلالها بل وتعكس الأية وتفرض نفوذها على أشور فترة من الزمن.

واستمرت فترة الانتكاس هذه في أشور حتى اعتلى عرشها «تجلات بلاسر الأول» (١١١٥ ـ ١٠٧٧ ق. م) الذي قام بغزوات ناجحة في الشمال الشرقي والشمال ووصل إلى البحر الأسود ثم اتجه غرباً نحو سواحل آسيا الصغرى وفينيقية وبعد ذلك أخضع بابل فأصبح يحكم معظم أنحاء الشرق الأدنى من البحر الجنوبي إلى البحر الشمالي وساحل البحر المتوسط.

وأدت حروب «تجلات بلاسر الأول» إلى إحضار جزى كثيرة إلى آشور مما كان له أثره في انتعاش الحركة المعمارية، فشيدت العديد من معابد الآلهة، كما أعاد تعمير أسوار العاصمة القديمة «أشور». واتخذها عاصمة لدولته مرة ثانية بعد أن نقل منها «شلمنصر الأول» مركز الحكم إلى عاصمته «نمرود».

ولقد خلف «تجلات بلاسر» أحد عشر ملكاً بلغوا حداً من الضعف والاستكانة جعل الانحلال يدب في جسم أشور ولم يستطيعوا الصمود أمام هجمات الأراميين القوية وانتهى الأمر بأن أصبحت سلطة الدولة الأشورية لا تتعدى المدن الأشورية نفسها.

وكان الأراميون يستوطنون المنطقة ما بين أشور والساحل الفينقي، فوجد فرع منهم في وسط الشام وشرقه من دمشق إلى حماة، وقد كون هذا الفرع فيما بعد دويلات تجارية ازدهرت ولكنها اصطدمت بالتوسع الأشوري منذ القرن التاسع ق. م. واستوطن فرع ثاني من الأراميين منطقة الفرات الأوسط والمراعي الواقعة في شمال العراق، وكان هذا الفرع الأخير هو الذي اصطدم به الأشوريون في أول مرة بعد «تجلات بلاسر الأول»، وتمكن هذا الفرع من الآراميين من التضييق على الأشوريين وهدد دولتهم بالزوال.

ولقد كانت هذه المرحلة من أخطر ما تعرض له الأشوريين وهدد دولتهم بالزوال.

ولقد كانت هذه المرحلة من أخطر ما تعرض له الأشوريون في تكوينهم السياسي، ولقد استطاع الأشوريون مع نهاية القرن العاشر ق. م. ومطلع القرن التاسع ق. م. من الخروج من أزمتهم، بل واستطاعوا خلال القرن التاسع من تكوين امبراطورية عظيمة، وهي المرحلة التي تعرف باسم «العصر الأشوري الحديث».

ثالثاً: العصر الأشوري الحديث

استغرق العصر الأشوري الحديث ما يقرب من ثلاثة قرون، وينقسم إلى امبراطوريتين تخللتهما فترة ركود وضعف، وتبدأ الامبراطورية الأولى بعهد «أداد نيراري الثاني» وتنتهي بعهد «أشور نيراري السادس» وذلك من حوالي عام ٩١١ ق. م ـ ٧٤٥ ق. م. وحكم خلالها تسعة ملوك، وتبدأ الامبراطورية الثانية بعهد الملك «تجلات بلاسر الثالث» وتنتهي بعهد الملك «أشور أو بلط الثاني» وذلك من حوالي عام ٧٤٥ ـ ٦١٢ ق. م. وقد حكم خلالها عشر ملوك.

أ ـ الامبراطورية الأشورية الأولى:

تمكن «أداد نيراري الثاني» (٩١١ ـ ٨٩١ ق. م) من تثبيت قواعد حكمه واسترجع الإشراف الفعلي لدولته على تخومها الغربية حول نهري الخابور والفرات، وإشعار أهل هذه التخوم وبخاصة الأراميين بسلطانه، ويبدو أن هؤلاء الأراميين الشرقيين وإن أخذوا بحضارة العراقيين وعمل بعضهم بالزراعة واستطاعوا أن يرهبوا دولة أشور فترة طويلة وكادوا يسيطرون على طرق تجارتها إلا أنهم ظلوا يؤثرون النظام القبلي وحياة التنقل في جماعات منفصلة، فشجع تفرقهم الأشوريون على محاولة إخضاعهم.

وفيما يتصل بحدوده الجنوبية، فقد حارب بابل مرتين، وانتهت حربه

معها بانتصاره عليها، ووقعت معاهدة حدودية معها اعترفت فيها بابل بسيادته على أرض السواد من الخابور في الغرب إلى ما يجاور بغداد الحالية في الجنوب الشرقي(١).

وخلفه ابنه «توكلتي ننورتا الثاني» (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق. م) على عرش أشور، وقد سار على نهج أبيه فوجه همته لإقامة الحصون على الحدود حيث وضع حاميات قوية يستطيع بها السيطرة على المنافذ المختلفة إلى الشمال والغرب لتأمين طرق التجارة عبر طوروس إلى سورية، ولضمان عدم حدوث تسرب من القبائل من هذه المنافذ، وقد قام بعدة حملات حربية كان الهدف منها استعراض قوته لتأمين الدولة التي أقامها والده، فقام بعدة حملات ضد الأراميين في وسط العراق وغربها ثم اتجه إلى الشمال بغية إرهاب الجماعات الجبلية والوصول إلى مناطق يسهل احتلالها أو يسهل الدفاع عنها. وأخيراً قام بهجوم على منطقة «ميشكي» Mushki في آسيا الصغرى، وهكذا امتدت حدود دولته لتشمل كل شمال العراق من الخابور حتى زاجروس ومن نصيبين حتى عنات وسامرا(٢).

ومنذ ذلك الحين اتجهت سياسة أشور نحو توطيد سلطان الدولة على حدودها الغربية وإخضاع القبائل الجبلية في الشمال والشرق ومحاولة السيطرة الكاملة على الطرق التجارية والحربية التي تتجه غرباً إلى سورية وشمالاً وغرباً إلى جبال طوروس وآسيا الصغرى مع محاولة إضعاف الفروع الأرامية الغربية التي استمرت في شرق سورية وأواسطها وامتد نفوذها إلى موانيها البحرية(٣).

وجاء بعده ابنه «اشور ناصربال الثاني» (٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق. م) ويفيد اسمه

(١) S.M.A. Smith, «The Foundation of the Assyrian Empire«, In C.A.H., vol III, the Assyrian Empire. Cambridge, 1965., pp. 7- 9,. G. Roux, Op. Cit. P. 263.

(٢) D.D. Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Balylonia, 1, Chicago, 1968, Parag. 400- 430.

(٣) S.M.A. Smith, op. cit., pp. 9-10.

معنى «الإله أشور ناصر الابن الوريث» ولقد شغل النصف الأول من عهده على الأقل بالحملات العسكرية التي قام بها والتي سُجلت على العديد من الألواح التي عثر عليها في معبد «نينورتا» في مدينة كالح (نمرود).

ويدأ عهده بتجديد شامل للنظم العسكرية وأدوات الحرب والقتال وحصار المدن، وكانت أولى حملاته العسكرية في الناحية الشرقية من دولته حيث نجح في إخضاع الأقوام الجبلية، ومد النفوذ الأشوري إلى ما وراء حدود أشور السابقة[١].

وبعد ذلك اتجه «أشور ناصربال الثاني» بجيوشه إلى منطقة «كيروري» في شمال أشور، وهي منطقة كانت تابعة للسيادة الأشورية، وكانت تمد أشور بالخيل والبغال والماشية والضأن وأواني البرونز والخمر[٢]. ثم أرسل حملتين لإخضاع المنطقة الواقعة شمال غرب أشور نجحتا في تثبيت السيادة الأشورية عليها.

وفي عام ٨٧٦ ق. م. اتجه «أشور ناصربال الثاني» بجيوشه نحو سورية، حيث عبر نهر العاصي ودخل لبنان ونزل إلى البحر المتوسط بدون مقاومة، حيث خضعت المدن الفنيقية صور وصيدا وجبيل وقدمت له الجزية، وأقام بهذه المناسبة لوحة تذكارية عند نهر الكلب ثم اتجه بعد ذلك نحو جبال الأمانوس للحصول على أخشاب الأرز والسرو والعرعر اللازمة لمشاريعه العمرانية[٣]. ويتضح من ذلك أن «أشور ناصربال الثاني» قد تمكن من إخضاع كل شمال سورية لسلطته بما في ذلك المنطقة الساحلية حتى صور، وحمل من هناك غنائم كثيرة إلى عاصمته أشور، حيث حصل من المناطق التابعة له على المعادن والأخشاب والثروات الحيوانية والمعادن النفيسة إما على شكل جزية سنوية أو

(١) A.T. Olmstead, History of Assyria, New York, London, 1923, p. 84.

(٢) Ibid., P. 85.

(٣) D.D. Luckenbill, op. cit., Parag. 475- 479.

على شكل غنائم في أعقاب كل حملة عسكرية.

وتجدر الإشارة إلى ما صاحب حروب «أشور ناصربال الثاني» من قسوة بالغة في التنكيل بالمهزومين، وهي قسوة اشتهر بها الأشوريون في حروبهم، فيستدل مما جاء في نصوصهم أنهم كانوا من أشرس الشعوب الشرقية القديمة في معاملة أعدائهم، ولقد وصف أشور ناصربال الثاني في أحد نصوصه سقوط إحدى المدن وهي «كينابو» فيقول: «لقد قتلت ٦٠٠ من الجند بحد السيف، وأحرقت بالنـار ثلاثة الآف أسيـر، ولم أبقي على أحد منهم حياً ليصبح رهينة في يدي، وقد وقع أمير المدينة أسيراً في يدي، لقد كومت جثثهم حتى صارت من علوها وكأنها برج، وأحرقت فتيانهم بالنار، وأما الملك فلقد سلخته وعلقت جلده على جدار مدينته، وأما المدينة نفسها فقد دمرتها وأحرقتها بالنار»[(١)].

ومن الناحية الداخلية، فلقد أعاد بناء مدينة كالح (نمرود) التي أسسها شلمنصر الأول واتخذها عاصمة للدولة لكنها هجرت وتهدمت من بعده، واستخدم أشور ناصربال الثاني الآلاف من العمال من أسرى الحروب والأراميين والمهجرين من سورية لإعادة بناء تلك المدينة وإحاطتها بسور دفاعي بلغ طوله ثمانية كيلومترات، وبنى لنفسه قصراً ضخماً فيها يعرف حالياً «بالقصر الشمالي الغربي» وتم افتتاح المدينة في عام ٨٧٩ ق. م. في احتفال كبير دعي إليه قرابة سبعين ألف شخص من مختلف الأقاليم.

ولقد عثر عام ١٩٥١ م على اللوح الخاص بالاحتفال بافتتاح المدينة، وجاء فيه: أن الملك قد أقام احتفالاً بمناسبة إتمام القصر والحدائق المحيطة به، دعا إليه ٦٩٥٧٤ شخصاً من كل أنحاء الامبراطورية، نزلوا ضيوفاً على الملك على مدى عشرة أيام. . .»[(٢)].

---

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٦٣.

(٢) D.J. Wiseman, «A New Sele of Assur- Nasir- Pal». in Iraq, vol. 14 (1952), pp. 23-39.

ولقد شيد «أشور ناصربال الثاني» الكثير من المعابد وبخاصة في العاصمة كالح، والتي خصصها للعديد من الآلهة العراقية مثل انليل ونينورتا وأداد وجولا وسين ونابو وعشتار وغيرها[١].

وخلف «شلمنصر الثالث» (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق. م) أباه على العرش الأشوري ولم يكن أقل اعتزازاً بجبروته من أبيه فوصفته نصوصه بأنه «الأفعوان الكبير» (أو شوم جال) وأنه طحن أعداءه جميعاً كما لو كانوا من طين وأنه المقتدر الذي لا يعرف الرحمة في الحروب... الخ كما أنه لم يكتف بامبراطورية أبيه الواسعة، بل أضاف إليها مستعمرات جديدة وصلت إلى منابع دجلة والفرات كما ساعدته الظروف فتدخل في عرش بابل ولم يكن ذلك بغير ثمن لصالحه وصالح دولته فقد أصبحت له اليد العليا على صاحب عرشها بعد أن ناصره وسمح له ذلك بأن يتعداها بجيوشه إلى كلديا حتى الخليج العربي ويتلقى هدايا ملوكها أو جزاهم على حد قول نصوصه وقد قام بسلسلة من الحملات الحربية في سورية وفلسطين.

وقد دون شلمنصر أخبار حروبه على مسلة تعرف باسم «المسلة السوداء» وهي توجد بالمتحف البريطاني حالياً[٢] (شكل ٦٨)، وقد سجلت بها الحروب التي قام بها شلمنصر حتى العام الحادي والثلاثين من حكمه، وبالإضافة إلى هذه المسلة توجد نقوش أخرى سجلت على البوابات البرونزية أو على اللوحات الطينية التي عثر عليها في أشور، أو على تماثيل لثيران عثر عليها في كالح، كما عثر على نقوش أخرى له سجلت على بعض الألواح الحجرية وكذلك على قطع من الرخام، ويلاحظ أن بعض الأحداث قد سجلت على أكثر من مصدر، وعلى ذلك فلدينا عن بعض الأحداث أكثر من نسخة.

(١) عامر سليمان: «العصر الأشوري»، كتاب العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) A.H. Layard, Nineveh and its Remains, I, 1849, p. 181.



شكـل (٦٨) مسلة شلمنصر الثالث السوداء

ولقد تجرأ شلمنصر الثالث في العام السادس من حكمه على مهاجمة دمشق ـ أكبر الإمارات الأرامية الغربية ـ بعد أن أرهب هو وأبوه الإمارات الأرامية الأخرى التي توزعت بين الفرات وقلب الشام ولكن دمشق لم تكن صيداً سهلاً على الرغم من طول منافستها مع جيرانها من الأراميين والبدو والعبرانيين فعزمت على الوقوف في وجه الأشوريين وهناك وفي قرقر عام ٨٥٣ ق. م. تجمع حلف من الملوك السوريين يضم اثني عشر ملكاً على رأسهم «بتحندد» (حدد عزر) الذي كان جيشه كما يقول نص شلمنصر الثالث نفسه: ـ

«وللخصم ١٢٠٠ مركبة، ١٢٠٠ فارساً، ٢٠ ألف من المشاة من قبل (حدد عزر) الدمشقي وكذلك ٧٠٠ عجلة ٧٠٠ من الفرسان، ١٠ الآف من المشاة من (ارخوليني) صاحب حماة وكذلك ألفين من العجلات وعشرة الآف من المشاة من قبل أخاب الإسرائيلي وكذلك ٥٠٠ جندي من «قي» وألف جندي من «موصري» وكذا عشرة الاف جندي من ارقناتا وكذا ٢٠٠ جندي من «متينو بعلو» الأروادي وكذا ٢٠٠ من أوزاناتا وكذا ٣٠ عربة وعشرة الآف جندي من أدونوبعلو «آل شياني» وكذا ألف راكب جمل من «جنديبو» من بلاد العرب... وعدتهم اثني عشر ملكاً دخلوا ضدي في معركة حاسمة وحاربتهم بعون «أشور» وقوى أشور التي أمدني بها وأسلحة ترجال قائدي الذي أهداني إياها وأوقعت بهم الهزيمة بين مدن قرقارة وجلزوار وذبحت أربعة عشر ألفاً من جنودهم واجتحتهم كسيول «ادد» حين يبعث بها ونثرت جثثهم في كل مكان وملأت السهل كله بجندهم الفارين وقد جعلت دماؤهم تسيل خلال المعركة في «خور بالو» في تلك الناحية وكان السهل أصغر من أن يجعل كل أرواحهم تنزل إلى العالم السفلي وأما ساحة الوغي فقد ضاقت عن أن يدفنوا بها، وعبرت الأورنت فوق جثثهم قبل أن يكون هناك معبر بل إنني خلال المعركة أخذت منهم عرباتهم وخيولهم المدجنة»[1].

(١) انظر: عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٥١٥.

هذه هي معركة قرقارة أو «قرقر» الشهيرة في العام السادس من حكم شلمنصر الثالث (٨٥٣ ق. م) التي تعد إحدى المواقع الحاسمة تم خلالها اندحار حلف من اثني عشر ملكاً تكتلوا جميعاً للوقوف في وجه قواته المنتصرة ولكنهم لم يفلحوا بل حاقت بهم جميعاً الهزيمة ومع ذلك ورغم تفاخر شلمنصر الثالث بالنصر في قرقر ـ فإن الحقائق التاريخية تقول إن نصره لم يكن حاسماً ولم يؤد أبداً إلى استسلام دمشق بل كان على الأشوريين أن ينتظروا سنين طويلة أخرى قبل أن يتمكنوا من إخضاع دمشق على أيام تجلات بلاسر الثالث في عام ٧٣٢ ق. م.

ورغم الانتصارات الواسعة التي حققها شلمنصر الثالث والحملات الكثيرة التي قام بها إلا أننا نجد أن الأحوال في أخريات عهده تنذر بتهديد العرش من الداخل حين طمع فيه أكبر أبنائه المدعو «أشور دان ايلي» وكان من نتيجة ذلك نشوب الحرب الداخلية إذ استطاع هذا الابن أن يضم إلى جانبه بعض الناقمين على أبيه وقد مات شلمنصر الثالث خلال هذه الاضطرابات الخطيرة التي هددت ـ لا العرش وحده بل الامبراطورية كلها ـ بالانقسام والتفكك[١].

ذلك أنه رغم أن ولي عهده المدعو «شمش اداد الخامس» (٨٢٣ ـ ٨١١ ق. م) تغلب على أخيه الثائر، إلا أن تلك الظروف كانت سبباً في فقدان أشور لبعض مستعمراتها البعيدة، وفي تلك الأثناء ظلت بابل على ولائها لأشور، وتحسنت العلاقات بينهما بزواج ملك أشور من أميرة بابلية تدعى «شمورامات» حظت بشهرة كبيرة حتى عرفها اليونان باسم «سميراميس» وقد صارت وصية على ولدها «اداد نيراري الثالث» (٨١٠ ـ ٧٨٢ ق. م) الذي اعتلى العرش وهو صغير بعد وفاة والده، وكان حكمها هو الأساس التاريخي الراهن لأسطورة «سميراميس» اليونانية، والتي تجعل منها نصف إلهة ونصف ملكة، وقائدة باسلة، ومهندسة بارعة، وحاكمة محنكة مدبرة، وتلك الأسطورة هي كل

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢.

ما نعرفه عن هذه الملكة، وقد وصفها «ديودور الصقلي» وصفاً مفصلاً بديعاً.

وجاء بعد ذلك على العرش الأشوري ملوك ضعاف من أمثال «شلمنصر الرابع» (٧٨٢ ـ ٧٧٢ ق. م) و «أشور دان الثالث» (٧٧٢ ـ ٧٥٤ ق. م) و «أشور نراري السادس» (٧٥٣ ـ ٧٤٦ ق. م) الذي قامت ضده ثورة أهلية في مدينة «كالح» (نمرود) قتل فيها وتولى العرش بعده «تجلات بلاسر الثالث» الذي بدأ عهد جديداً في تاريخ الأشوريين تكونت فيه آخر وأعظم امبراطورية أشورية وبدأ كذلك عهد الامبراطورية الثانية.

ب ـ الامبراطورية الأشورية الثانية:

بدأ عهد الامبراطورية الأشورية الثانية بالملك «تجلات بلاسر الثالث» (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق. م) وبعد توليه الحكم عمل على توسيع رقعة دولته وإحلال هيبتها في نفوس الشعوب المجاورة له. وبدأ أعماله العسكرية ضد الميديين في فارس، وبعد ذلك اتجه نحو بابل التي أعلن نفسه ملكاً عليها في عام ٧٢٩ ق. م تحت اسم «پولو».

وتشير حوليات «تجلات بلاسر الثالث» إلى أن جهوده الحربية الفعلية كانت موجهة ضد الأقاليم الواقعة غرب دولته، حيث قضى سنوات حكمه في توجيه الحملات إلى هذه المناطق، فحارب اربد أربع مرات، وتدخل في شؤون مملكة يهوذا، ووصلته الجزية من العديد من البلدان مثل صور وصيدا ودمشق وسبأ وكذلك من بعض المناطق في آسيا الصغرى، وقد تمكن من إخضاع دمشق عام ٧٣٢ ق. م. ولم يكتف بتبعيتها لنفوذه، بل قام بنقل أهلها إلى مناطق أخرى، وبذلك قضى على المملكة الآرامية فيها، ثم عين بها حاكماً آشورياً، وهو بهذا العمل إنما قد استن سنة نقل الشعوب وتشريد أهلها من مواطنهم، وهي السياسة التي سار خلفاؤه على نهجها.

وقام بتنصيب «هوشع» (٧٣١ ـ ٧٢٢ ق. م) ملكاً على إسرائيل ولكن

قامت ضده ثورة جعلت أشور تتدخل وتجتاح الجليل، وقد نزل «تجلات بلاسر» إلى عسقلان التي كان ملكها قد مات واضطر خلفه أن يتنازل عن جانب من مدينته للملك الأشوري اتقاء لشره، وهكذا ينتهز «تجلات بلاسر» كل فرصة ليتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد المتاخمة، بل إنا نراه يسعى جاهداً لتعيين حكام من أشور في كل مكان، حتى في بلاد العرب، أما في فينيقيا فنرى اهتمامه بها يبلغ حد تعيين ابنه الأكبر «شلمنصر» حاكماً عليها منذ حملة عام ٧٣٣ ق. م. وهكذا قضى «تجلات بلاسر» الثالث معظم حكمه في الحروب، ولكنه ترك من بعده لابنه امبراطورية واسعة الأرجاء[١].

ويخلف «شلمنصر الخامس» (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق. م) أباه على عرش أشور وقد نحى منحى أبيه تجاه العرش البابلي حيث توج نفسه ملكاً على بابل وعرفه البابليون باسم «أولولاي» ـ كما ورد في إثبات ملوكهم ـ وذكر المؤرخ اليهودي يوسفيوس أن شلمنصر حاصر مدينة صور وأخضعها بعد أن ثارت عليه ونزل شلمنصر ليتسلم الجزية من «هوشع» ولكن هوشع كان قد غير ولاءه للأشوريين، ويقال أنه نفذ مكيدة سرية مع هذا أو ذاك من الملوك، أو بالأحرى مع «سوا» ملك مصر، ربما كان الملك المقصود وهو الملك أوسركون الرابع (٧٣٠ ـ ٧١٥ ق. م) وهنا رأي «شلمنصر الخامس» أن يؤدب هوشع هذا، فاستمر ليحاصر السامرة[٢]، حيث استمر حصاره لها أعواماً ثلاثة، ولكنه لم يفلح في الاستيلاء عليها إذا عاجلته المنية، ويبدو أنه لم يمت ميتة طبيعية، بل يظهر أن العرش تعرض لمحنة نتيجة لثورة في الداخل فانتقل العرش إلى خلفه الذي يعرف باسم «سرجون» ـ وهو أخوه ـ الذي دخل المدينة ونفى أغلبية أهلها وسباهم.

ويعتبر «سرجون الثاني» (شاروكين ـ الملك الصادق) (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م) في نظر بعض المؤرخين مؤسساً لأسرة جديدة، والواقع أنه ليس كذلك فهو

---

(١) S.M.A. Smith, «The Superemacy of Assyria». In C.A.H., vol. III, pp. 32- 42.

(٢) محمد بيومي مهران: إسرائيل، جـ ٢، الإسكندرية ١٩٧٨، ص ٩٠٠ ـ ٩٠٢.

عضو من الأسرة التي حكمت في أشور، وهو أخ للملك السابق، على الأرجح.

ولقد انتهزت مصر وبابل فرصة قيام ملك جديد على آشور لتثير المتاعب، وكانت الأولى تستهدف إعادة نفوذها الذي ضاع في فلسطين، أما الأخرى فكانت تسعى لرفع النير عن كاهلها وينتهز «مردوخ بلادان الثاني» (مردوك ـ ابل ـ دين) ملك بيت ياكين في إقليم البحر الفرصة[1]، فيتزعم القوم ويوحد القبائل الكلدانية للثورة ضد البابليين، وقد بدأ «مردوخ بلادان»، نشاطه في بداية حكم سرجون، فعاهد العيلاميين وحصل منهم على مساعدة عسكرية، فهجم على البابليين في عام ٧٢١ ق. م، وعزم سرجون على تأديب الثائرين فقاد حملة بنفسه وسار لمنازلة العيلاميين في مدينة «الدير» (القريبة من بدرة الآن)، وقد جاءوا من إيران (إقليم خوزستان) لمساعدة حليفهم «مردوخ بلادان» الذي لم يحضر في الوقت المناسب فالتحم بالعيلاميين، ويؤكد كلا الفريقين انتصاره، ولعل الواقع أن سرجون فضل الانسحاب لمشاغل أخرى طرأت، وإن لم ينتصر أحد الفريقين على الآخر، وأياً ما كان الأمر، فقد ظفر «مردوخ بلادان» بتاج بابل وتمتع بالسلطة فيها عشر سنوات، ولم يتسن لسرجون أن يعيد منازلته إلا في عام ٧١٠ ق. م، بعد انتهاء حملاته في الغرب (الشام) والتجأ «مردوخ بلادان» إلى العيلاميين، ولكن يبدو أنه لم يحصل منهم على مساعدة عسكرية، فهرب إلى منطقة الأهوار في الجنوب، ومن العجيب أن سرجون عفا عنه وعينه حاكماً على ولاية «بيت ياكيني» الجنوبية، ثم توج سرجون ملكاً على بابل ـ كما فعل تجلات بلاسر وشلمنصر من قبل ـ وبذلك حلت المشكلة البابلية حلاً مؤقتاً في أيام سرجون واستتب الهدوء في بلاد بابل طوال أيام حكمه الباقية.

وأما في الغرب فإنه استمر في محاصرة السامرة حتى سقطت في نفس العام الأول من حكمه (٧٢٢ ق. م) وحينئذ سقطت دويلة إسرائيل وانتهت من الوجود كدولة. ووضعت البلاد تحت أمرة ضابط أشوري. ويسجل سرجون في

---

(١) S.M.A. Smith, op. cit., pp. 49- 50.

حولياته أنه «في بداية حكمي وفي السنة الأولى منه حاصرت السامرة واستوليت عليها ونقلت من أهلها ٢٧،٢٩٠ مواطناً واستوليت على خمسين عربة من السلاح الملكي، ثم ملأتها بسكان أكثر مما كان بها فأحللت بها مواطنين جدداً من بلاد كنت قد استوليت عليها، وعينت حكاماً عليها وفرضت الجزية والضرائب كما يفعل الأشوريين».

وفي عام ٧٢٠ ق. م. نشبت ثورة عاتية بتحريض ملك مصر، وقد اشترك فيها ملك حماة وملوك دمشق والأراضي الساحلية والعربية وملك مصر، وتقابل الفريقان في معركتين حاسمتين، الواحدة في الشمال عند «قرقر» (المشهورة منذ معركة ٨٥٣ ق. م)، والأخرى عند «رفح» على الحدود الجنوبية، جنوب غزة وقد أسر فيها «حانون» (أوهنو) ملك غزة، ويذكر سرجون أنه استلم الجزية من «بيرو» (فرعون) ملك مصر ـ كما يزعم ـ وهي من الذهب والجمال والخيول، وكذلك من «سامسي» ملكة بلاد العرب، و ـ «ايتامارا» ملكة سبأ، ولكن الثورة استمرت بين القبائل الصحراوية، وبعد بضعة سنوات، وفي عام ٧١٥ ق. م. أمكن لـ «سرجون» أن يؤمن طرق التجارة الجنوبية، ثم هزم وهجر أهالي بيت عمري «افرايم» ـ وقبائل «ثمود» و «ابايدي» و «مارسيمان» و «خياما» وعرب أقصى الصحراء. ولعل الهدف من حملاته الحربية هذه، هو تأمين طرق المواصلات التجارية والحربية المارة بسورية وكانت بعض هذه الطرق تصل إلى اليمن وحضرموت[١].

وأما في الشمال[٢] فإن ملك «شنوكتو» في طوروس، رفض دفع الجزية، وانضمت له ولاية «أتونا» ورأى سرجون أن هذا الحلف يسند دعوى «ميداس» واستطاع أن يهزمهم وأن يمنح إقليم «كومانو» إلى حاكم ملاطيه في عام ٧١٨ ق. م. وفي العام التالي ضم قرقميش وكان ملكها حليفاً لـ «ميداس» كذلك

(١) Ibid., pp. 56- 60.

(٢) Ibid., pp. 55- 57

فسجنه، ثم ركز جهوده في الأعوام التالية ضد إقليم «أوراتو» (أرارات) ومجاوراته وبخاصة «روشا» التي ظلت تحيك المؤمرات مدى عشر سنوات سابقة لهذه المرحلة وفي عام ٧١٤ ق. م. قام بغارة على «أورارتو» ونهب المدينة، وفي العام التالي احتل «تابال» التي تحولت إلى ولاية أشورية ثم احتل قبرص وأقام في «ستيون» إحدى المستعمرات اليونانية، لوحة نصر وكأنما يتحدى العالم اليوناني، وفي عام ٧١٢ ق. م. خلع ملك ملاطية ودمر مدينته. . . ثم تحول إلى «اشدود» في فلسطين على الحدود المصرية فجعل منها مدينة أشورية.

وبعد أن فرغ من شؤون الشمال والغرب تفرغ لشؤون الجنوب، لينهي ـ كما رأينا ـ صراعه مع «مردوخ بلادان» وبعد انتصاره نقل أهل «بيت ياكين» بعد اجتياحها إلى «كوماجين» ثم حصن الحدود بينه وبين عيلام، واضطر ملك دلمون (جزر البحرين) أن يرسل بهداياه لـ «سرجون» اتقاء قوته وخشية عدوانه واجتياح مدينته.

وفي أخريات عهده نراه يشغل مرة أخرى بالشمال إذ تعرضت «تابال» للكمريين المهاجرين من القوقاز إلى آسيا الصغرى، ولكن سرجون مات ميتة عنيفة في الشهور الأولى من عام ٧٠٥ ق. م. حين كان يتأهب لحملة على الحدود الشرقية وإن كان قد نجح في السنوات الثلاثة السابقة في تثبيت الحدود عند آسيا الصغرى من الغرب ثم ضم «كوماجين» نهائياً في عام ٧٠٨ ق. م. والواقع أن ميتته المفاجئة غدراً جاءت مبكرة لأن الأمور في جميع الأطراف كانت تحتاج إلى جهود أخرى متتابعة من ناحيته لتثبيت أقدام الامبراطورية في الأطراف البعيدة وللقضاء على كل محاولة للانفصال أو الخروج على حكمه.

ورغم حروبه المتصلة في شمال وجنوب وشرق وغرب دولته، فقد لقى بعض الوقت ليعنى بالتعمير في الداخل ويؤسس لنفسه عاصمة جديدة هي مدينته المشهورة «خرسباد» ولقد استقر في أول الأمر في مدينة «أشور» ثم انتقل منها

إلى «كالح» (نمرود) وقبل منتصف الحكم انتقل إلى «نينوى»، وفي العام التاسع (عام ٧١٣ ق. م) بدأ في تشييد عاصمة جديدة له هي «دور شروكين» أي «مدينة سرجون» على مبعدة ١٦ كيلومتر شمال شرقي «نينوى» وهي «خرسباد» الحالية، وقد أحاطها بسور حصنه بالأبراج العالية التي بلغت أكثر من ١٥٠ برجاً، وكان للمدينة ثماني بوابات عرفت كل منها باسم معبود أشوري وزين كل مدخل بوابة بثيران مجنحة ذات رؤوس بشرية لتحرس المدينة وتقيها المخاطر، وكان يؤدي إلى المدينة طريق مرصوف كما كانت شوارعها متعامدة مستقيمة وقد تم بناء المدينة في سبع سنوات فانتقل إليها ليجعل منها عاصمة له في عام ٧٠٦ ق. م[١]، ولكن المنية عاجلته في العام التالي دون أن يكمل بعض المباني التي كان قد ارتأى تجميل المدينة بها، وبموته هجرت المدينة، بل عمل بعض خلفائه ـ فوق إهمالها ـ على تشويه كثير من التماثيل والنقوش التي كانت تزينها.

وخلف سنحريب (سين أخي ريبا) (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق. م) أباه سرجوه الثاني على العرش الأشوري وقد أرجع مركز المملكة إلى العاصمة المقدسة نينوى فجدد أبنيتها وبنى فيها قصوره وجعلها مركز الامبراطورية وجملها بالمنحوتات الكثيرة.

ولقد سار «سنحريب» على نهج الملوك الأشوريين السابقين في إعادة إخضاع الأقاليم التابعة للامبراطورية ولا سيما تلك التي ثارت في بداية حكمه، وعلى ذلك فقد قام بإخضاع مدن قيليقية وفتح المستعمرات الإغريقية على سواحل آسيا الصغرى واتصل بالإغريق الأيونيين، وبنى في طرطوس مدينة أشورية ليحكم منها مستعمراته الجديدة، وكذلك أعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا، حيث أبدت في أوائل حكمه بوادر العصيان.

وكانت مصر وبابل تحرضان ولايات سورية وفلسطين على التخلص من الحكم الأشوري حتى تشغل الأشوريين عنها، فتوجه سنحريب أولاً إلى بابل

(١) G. Roux, op. cit., pp. 291- 292.

حيث قام بدك حصونها وخربها وعين ابنه «أسرحدون» حاكماً على جنوب العراق، وبعد ذلك توجه إلى أقصى الجنوب حيث توجد دويلات أهل البحر والذين كانت لا تهدأ ثورتهم، واستعان في القضاء عليهم بسفن صنعها له الفينيقيون واليونان.

وبعد أن أمن جانبه من ناحية الجنوب توجه إلى الولايات السورية والفلسطينية حيث استولى على مدنها، ثم حاصر مدينة بيت المقدس وأخضعها، واضطر ملكها «حزقيا» إلى دفع ضريبة ضخمة كان من جرائها أن جردت المعابد من كنوزها، وبعدئذ عاد الأشوريون إلى بلادهم حيث يبدو أن وباء انتشر في صفوف جيشهم.

وأما نهاية «سنحريب» فقد كانت نهاية محزنة، إذ اغتيل بواسطة أحد أبنائه، مما أدى إلى اضطرابات داخلية وتنافس بين أبنائه على العرش الأشوري، حتى تمكن أحد هؤلاء الأبناء وهو «أسرحدون» من القضاء على الفتنة وتولى العرش خلفاً لوالده، وقد وجه اهتمامه للانتقام من مصر لتدخلها في شؤون مستعمراته في سورية وفلسطين[١].

أسرحدون (أشور أخادين) (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق. م):

تمكن «أسرحدون» من القضاء على الفتنة التي أعقبت اغتيال والده، وبعد ذلك أعاد الهدوء والاستقرار إلى دولته وبدأ في إعادة تنظيم الخدمات العامة بعد أن أصابها التوقف نتيجة للاضطرابات وأعاد جمع الضرائب بعد ان توقف دفعها[٢].

وبعد ذلك وجه «أسرحدون» اهتمامه للخارج، وكان أول ما قام به في هذا المجال هو قضائه على ثورة أرض البحر، ثم توجه نحو الغرب للقضاء على

(١) S.M.A. Smith, «Sennachrib and Esarhaddon». In C.A.H., vol, III, pp. 61-79.

(٢) G. Roux, op. cit., p. 299.

الحلف الذي تكون ضده من صيدا وقيليقيا وكوندي وذلك بتحريض من مصر، ولقد تمكن من الاستيلاء على صيدا عام ٦٧٧ ق. م. حيث أباد المدينة وسبى أهلها وبنى إلى جوار مكانها مدينة سميت «كار أشور أخادين» أي مدينة أسرحدون. ولما رأى ملك صور ما حل بمدينة صيدا، فإنه أعلن ولاءه للعاهل الأشوري وبذلك أصبح الساحل الفينيقي تحت سيطرة الأشوريين[1].

وفي أعقاب ذلك قام بسلسلة من العمليات الحربية في الصحراء، إذ قام بغزو بعض المناطق في شمال الجزيرة العربية وذلك بهدف تأمين طريق جيوشه إلى مصر، ومن هذه المناطق التي قام بغزوها منطقة ورد ذكرها في الأخبار الأشورية باسم «أدمو» الواقعة في الواحات، ولعلها دوقة الجندل المذكورة في أخبار الفتوحات الإسلامية، وكان قد سبق لأبيه أن حاربها لتأمين حدود الامبراطورية والمحافظة على طرق مواصلاتها البرية.

ثم وجه «اسرحدون» جهوده للانتقام من مصر لتدخلها المستمر في شؤون مستعمراته في سورية وفلسطين، وقد استعد الملك طهراقا لمقابلتهم، ولقد خرج «أسرحدون» في عام ٦٧٥ ق. م. متوجهاً نحو مصر حيث تمكن من الوصول إلى شرق الدلتا، ولكن المصريين استماتوا في الدفاع عن بلادهم حتى تمكنوا من هزيمة الأشوريين وردوهم عنها، واضطر الملك الأشوري إلى العودة إلى بلاده لإعادة الاستعداد لمصر، كما يبدو كذلك أن الأمور في دولته كانت تتطلب عودته، إذ تعرضت حدوده لتهديد الماديين والإسكيزيين، فدخل معهم في حرب أبعد تهديدهم عن بلاده، كما أجبر الحكام على دفع الجزية التي كانوا قد امتنعوا عن دفعها.

وبعد أن تم له تأمين حدود بلاده، أسرع بالعودة إلى مصر حيث تمكن من دخول منف في صيف عام ٦٧١ ق. م. واضطر طهراقا إلى الهرب إلى الجنوب، وبعد أن نظم «اسرحدون» الإدارة في الأقاليم وثبت بعض الحكام في

(١) D.D. Luchenbill, op. cit., Parag. 582- 585.

أماكنهم واستبدل بعضهم بغيرهم من الوطنيين عاد إلى بلاده. وبمجرد عودته بدأ المصريون في الثورة ضد الحكم الأشوري، وحالت وفاة «أسرحدون» المفاجئة دون العودة لقمع الثورة المصرية، فوقع عبئها على خليفته أشور بانيبال[١].

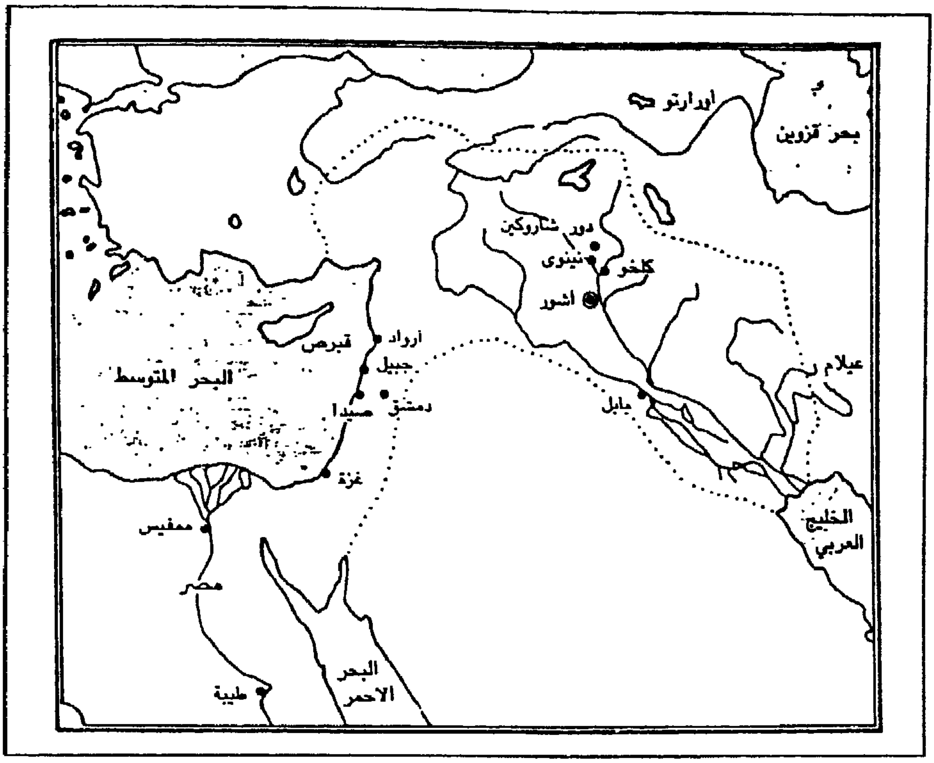
ويخلف «أشور بانيبال» (٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق. م) أباه على العرش وإن كان ذلك لم يكن أمراً سهلاً، إذ حدث في بلاط أسرحدون خلاف على وراثة العرش لأن الملك الأشوري لم يختر أكبر أولاده «شمش شوم ـ أوكين» لولاية العهد والأمر كذلك بالنسبة للابن الثاني وإنما كان ذلك من نصيب الابن الثالث «أشور بانيبال» على أن يكون أخاه الأكبر ملكاً على بابل.

وقد كان «أشور بانيبال» قد نال تهذيباً وتربية في صغره فاق بهما سواه من الملوك الأشوريين، ومن هنا نشأ أديباً ميالاً للعلوم بجانب كونه محارباً من الطراز الأول، وقد تعلم إلى جانب ذلك ممارسة السياسة والإدارة حتى اتقنها على خير وجه، وقد فرغ لهذه الشؤون خلال خروج أبيه إلى حروبه وساعده على ذلك أن الملكة الأم «نيكووا» كان يترك لها عبء إدارة الشؤون أثناء غيبة زوجها، فكانت تشرك معها «أشور بانيبال» إشتراكاً فعلياً في إدارة البلاد.

وهكذا ورث «أشور بانيبال» عرش أبيه عقب وفاته وكان أخوه الأكبر «شمش شوم ـ أوكين» قد عين عقب الحملة على مصر وريثاً شرعياً للمملكة في بابل، ولم يكن من الممكن أن تقسم الدولة على هذه الصورة دون أن تثور المطامع في نفس كل من الأخويين فيحاول كل منهما أن يغتال نصيب الآخر من هذه الدولة المترامية الأطراف، وهو أمر كان له أثره لا في تمزق الدولة فحسب، بل وفي ضياعها نهائياً، ولم يكد أشور بانيبال يجلس على العرش حتى وصلته أنباء ثورة المصريين ضد الأشوريين، فجهز حملة كبيرة سارت إلى مصر ودخلت العاصمة المصرية طيبة وخربتها، ولم يبق الأشوريون بمصر طويلاً، بل عادوا إلى بلادهم واكتفوا بأخذ الجزية، واضطر أشور بانيبال إلى إرسال حملة

(١) S.M.A. Smith, op. cit., pp. 79-87.

أخرى إلى مصر نتيجة لحدوث ثورة أخرى فيها، فدخل الجيش الأشوري طيبة مرة أخرى. (خريطة ٦).



(خريطة ٦)
الامبراطورية الأشورية في عهد آشور بانيبال (القرن السابع قبل الميلاد)

واستمر التعاون قائماً بين أشور بانيبال وأخوه ملك بابل مدة عشرين عاماً إلى أن ثار عليه أخوه ملك بابل.

وقد بدت بوادر ذلك بعد فراغ «أشور بانيبال» من حروب له في عيلام، ومما شجع ملك بابل على تحدي سلطة أخيه، انحياز الزعماء الكلدانيين إليه بعد أن عرفوا ما بين الأخوين، وعلى هذا فقد أخذ ملك بابل يتهيأ للصدام، فبدأ

فبدأ بالمفاوضات السرية مع ملك عيلام واتصل بأمراء العرب وكثير من أمراء فلسطين وبملك مصر (نخاو).

وفي عام ٦٥٢ ق. م. نشبت بين الأخوين حرب قاسية طويلة، لعلها كانت أخطر الحروب الأهلية في تاريخ الأشوريين، وقد أظهر فيها «شمشي - شوم - أوكين» مزايا عسكرية فذة ونصره البابليون بحرارة وانضم إليه بعض الأمراء الأشوريين وحكام المناطق، واشترك معه العيلاميين ضد أخيه، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً تجاه جيوش أخيه المتفوقة، فاضطر إلى الاعتصام في عاصمته بابل حوالي سنتين، حين عملت المجاعة والحصار الشديد فعلهما في سقوط المدينة بيد الجيش الأشوري بعد أن لحقها كثير من التخريب والتدمير، وقضي «شمش - شوم - أوكين» نحبه وسط النيران التي نشبت في قصره.

وهكذا اختتمت حوادث النزاع بين الأخوين في عام ٦٤٨ ق. م. وتلا ذلك أن وجه «أشور بانيبال» همه لتأديب القبائل العربية التي اشتركت في مساعدة أخيه ضده، ثم التفت إلى عيلام وكان غضبه شديداً، فقضى على المدن العيلامية ودمر عاصمة البلاد «سوسة» ونبشت قبور الموتى وأرسلت عظام ملوك عيلام وأمرائها إلى (نينوى) وبهذا انتهت حياة مملكة عيلام.

وظل «أشور بانيبال» يحكم حتى عام ٦٢٦ ق. م. ولكن أخباره الرسمية انقطعت عنا قبل ما يزيد عن عشر سنوات من هذا التاريخ، وكانت ظواهر الأمور جميعها تدل على أن الامبراطورية كانت وطيدة الأركان في سائر أنحائها، ولكن مع كل هذا فإن الملك «أشور بانيبال» نفسه قد أخبرنا في نصوصه بأن أياماً سوداً حلت في أرجاء مملكته وأنه كان يقاسي آلاماً جسمية وروحية سلبت راحته، ولقد حدث بعد وفاته مشاكل واضطرابات حول وراثة العرش ووقع عبء ذلك على ابنه وخليفته «أشور - اتل - ايلاني»[1].

(١) S.M.A. Smith, «Ashurbanipal and the fall of Assyria», In C.A.H., vol. III, pp. 113- 126

أشور - إتل - إيلاني :

خلف والده على عرش أشور، وقد قضى سنوات حكمه التي لم تتجاوز ست سنوات (٦٢٦ - ٦٢١ ق. م) في محاولات مستميتة للدفاع عن عرشه ضد الطامعين فيه، حتى تمكن أخوه الأصغر «سن شار اشكون» من إقصائه عن العرش واستأثر به لنفسه مدة تقرب من ثماني سنوات (٦٢٠ - ٦١٢ ق. م).

وقد أثرت هذه الحروب الداخلية على سمعة الدولة الأشورية وهيبتها، فانفصلت كثير من ولاياتها عنها، فانفصلت مصر وكثير من المدن الساحلية في فلسطين وسوريا وأرمينية وفي بابل تكونت أسرة جديدة تعرف باسم «الأسرة البابلية الأخيرة» أو «المملكة الكلدانية»، واستطاع الملك الميدي «كي اخسار» الاستيلاء على شمال إيران وشمال العراق ثم توغل إلى سهول آشور حيث قامت بينه وبين الجيش الأشوري حروب طاحنة، وبعد أن اتفق مع ملك بابل هاجما العاصمة الأشورية نينوى فسقطت في أيديهما بعد حروب عنيفة، واقتسما مملكة أشور، حيث استولى الميديون على قسمها الشمالي الشرقي واستولى البابليون على جنوبها، وبذلك دمرت العاصمة الأشورية نينوى ونهبت وأحرقت، ولم يستطع آخر ملوك أشور «أشور - أو بلط الثاني» (٦١١ - ٦٠٩ ق. م) الذي استقر في حران أن يفعل شيئاً رغم قيام الملك المصري «نخاو الثاني» بإرسال قوات مصرية لمساندته في عام ٦٠٩ ق. م، إلا أن هذه القوات لم تتمكن من إنقاذ أشور، وإن تمكنت من السيطرة على منطقة عبر النهر وتخوم الفرات جنوب قرقميش[١]. فقد زال مجد الدولة الأشورية وانتهى ودخل العراق القديم في آخر مراحله السياسية، وهو الذي يعرف باسم «العهد البابلي الأخير» أو «المملكة الكلدانية»[٢].

---

(١) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, OxFord, 1961, p. 358.

(٢) S.M.A. Smith, op. cit., p. 131 FF.

الفصـــل التاســـع

العهد البابلي الأخير
المملكة الكلدانية
(٦٢٦ـ ٥٣٩ ق. م)

يرجح أن الكلدانيين كانوا فرعاً من الأراميين استوطنوا جنوب العراق منذ النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد وعرفوا بالكلدانيين. وقد رأينا من قبل كيف انهار كيان البابليين السياسي منذ أواخر الألف الثاني ق. م. وصاروا مرة تحت النفوذ الأشوري ومرة تابعين للدولة الأشورية، ولكن البابليين كانوا يثورون ويتحينون الفرص للتخلص من الأشوريين، فجاءت هذه الفرصة الأخيرة في أواخر أيام الدولة الأشورية.

وكان يحكم بابل في حوالي عام ٦٢٦ ق. م. الأمير الكلداني «نابو بولاسر» (٦٢٦ ـ ٦٠٥ ق. م)، وقد تزعم الثورة ضد الأشوريين ولم تتمكن القوات الأشورية الموجودة في نيبور من هزيمته فأعلن نفسه ملكاً على بابل ومؤسساً للأسرة الحادية عشرة البابلية وهي التي تعرف باسم «الأسرة البابلية الأخيرة» أو «المملكة الكلدانية».

وحمل «نابو بولاسر» لواء تحرير بابل من سيطرة الأشوريين، واستمرت الحرب قائمة ضد الأشوريين نحو إحدى عشر عاماً، تمكن بعدها من الاستيلاء على نيبور وتحرير كل بلاد سومر وأكد، واستمر في فتوحاته شمالاً على طول الفرات حتى وصل إلى منطقة حران، ومنها تقدم على طول دجلة إلى كركوك وأشور، وتمكن من فرض حصاره على أشور ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، وفي ذلك الوقت كان الميديون قد بدأوا غزو الأراضي الأشورية، فتحالف «نابو بولاسر» مع الملك الميدي «كي أخسار» ودعم هذا التحالف بزواج ابنه «نبوخذنصر» من ابنة الملك الميدي. وساعد هذا التحالف على سقوط دولة أشور، ويبدو أن الميديين لم يهتموا بامتلاك أشور فقنعوا بنصيبهم

من الغنائم ثم حولوا أطماعهم إلى أرمينيا وآسيا الصغرى، أما البابليون فقد امتلكوا أشور ولم يحاولو إصلاح ما أتلفوه فيها حيث كرسوا جهودهم لإعادة إحياء المجد الديني والثقافي لجنوب العراق.

ويتفق المؤرخون على عدد ملوك الأسرة البابلية الأخيرة وعددهم ستة ملوك حكموا لمدة ثمانية وثمانين عاماً.

ولعل من أهم الأحداث السياسية في عهد نابو بولاسر بعد تخلصه من أشور، هي تلك الحملة التي أرسلها بقيادة ابنه «نبوخذنصر» لاسترجاع سورية وفلسطين من النفوذ المصري، وحتى يبقى طريقهم إلى البحر المتوسط مفتوحاً.

فلقد تحرك الملك المصري «نخاو الثاني» (٦١٠ ـ ٥٩٥ ق. م) لنجدة الملك الأشوري، وفي طريقه إلى العراق هزم الجيش اليهودي وذلك في موقعه عند «مجدو» واضطرت أورشليم إلى دفع الجزية وبعد ذلك تمكن «نخاو الثاني» من فرض نفوذه على فينيقيا وسورية وبلاد العرب الشمالية وأدوم التي دفعت له الجزية، وبعد ذلك بعامين، وبعد أن وطد «نابو بولاسر» نفوذه في العراق أرسل ابنه «نبوخذ نصر» على رأس جيشه لاستعادة النفوذ الأشوري في سورية وفلسطين حيث قابل الملك المصري عند قرقميش، واضطر «نخاو الثاني» إلى الانسحاب إلى وادي العريش بعد هزيمته من «نبوخذ نصر»، وقام «نبوخذ نصر»، بالتقدم نحو مصر، ولكن والده «نابو بولاسر» مات في ذلك الوقت، فقام «نبوخذ نصر» بالإسراع بالعودة إلى بابل حيث خلف والده على العرش(١).

نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م):

يُعد «نبوخذ نصر الثاني» من أبرز ملوك العهد الكلداني، ويستغرق حكمه قرابة نصف حكم هذه الأسرة، واسمه في البابلية «نابو ـ كودورِّي ـ أو صور» والذي يفيد معنى «ليحم الإله نابو جبدودي».

---

(١) R.C. Thompson, «The New Babylonian Empire». In C.A.H., vol. III. Cambridge 1965. 206-212.

وفي خريف نفس عام توليه الحكم، قام نبوخذ نصر بحملة على سورية دامت حتى شهر فبراير (شباط) ٦٠٤ ق. م. لم يواجه فيها أية مقاومة، وعاد إلى بابل محملاً بالغنائم الكثيرة، إلا أن النفوذ البابلي لم يستقر في سورية نظراً للتدخل المصري ومساعدته للمدن السورية للوقوف في وجه البابليين، وعلى ذلك فلم يجد نبوخذ نصر أمامه من مفر سوى مواجهة المصريين، ومن ثم فقد اتجه في عام ٦٠١ق.م. صوب مصر، ولكنه لم يتمكن من دخولها وتكبد الكثير من الخسائر واضطر إلى العودة إلى بلاده، وأدت هذه الهزيمة إلى انتهاء العداوة المباشرة بين الطرفين مؤقتاً، ومن ثم فقد تجمدت السياسة الحربية الشمالية لمصر بقية عهد الملك المصري «نخاو». ويرى بعض المؤرخين اعتماداً على ما رواه هيرودوت من أنه قد عقدت معاهدة عدم اعتداء بين الملك المصري والملك البابلي، وأن الملك البابلي قد تزوج من ابنة أو أخت الملك المصري التي أصبحت ملكة على بابل، وهي رواية لم يتم التأكد من صحتها التاريخية. وقد يكون الدافع أيضاً وراء هذه الهدنة العسكرية بين الملك المصري «نخاو» والملك البابلي «نبوخذ نصر» نتيجة انشغال الملك المصري بحدوده الجنوبية، ورغبته أيضاً في الاتجاه لإحراز سيادة برية لأغراض التجارة والحرب وحماية السواحل[١].

وفي نهاية عام ٥٩٩ ق. م. استأنف نبوخذ نصر حملاته على سورية، فأرسل فرقاً ضد القبائل العربية التي كانت تناصبه العداء، وتجدر الإشارة إلى أن المصادر العربية قد أشارت كثيراً عن حروب زعمت أنها دارت بين نبوخذ نصر الذي أطلقت عليه «بختنصر» وبين العرب[٢]. ومن المؤكد أنه أرسل حملة في

(١) انظر: محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، ص ٤٤١، وكذا:

K.A. Kitchen, The Third Intermediate Period in Egypt, (1100 - 650 B.C.)., Warminster, 1986, p. 407

(٢) انظر في ذلك على سبيل المثال: تاريخ الطبري، ج ١، ص ٥٥٨ ـ ٥٦٠، المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٣٠ ـ ١٣١، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٤، وانظر المناقشة التفصيلية لهذه الآراء في مؤلف الأستاذ الدكتور محمد بيومي مهران: =

عام حكمه السادس إلى سكان البادية من العرب دونما تحديد بادية بعينها أو قبيلة بذاتها، وأن الحملة نجحت في الاستيلاء على أعداد كبيرة من الماشية وكذلك على أعداد كبيرة من تماثيل معبودات هذه المنطقة.

ونتيجة لهزيمة البابليين أمام المصريين، فلقد ثار «يهوياقيم» ملك يهوذا ضد سيده الملك البابلي «نبوخذ نصر»، مما حدا بالملك البابلي إلى الاتجاه على رأس قواته لإخماد هذا التمرد، وبينما كان في الطريق مات «يهوياقيم» وخلفه ابنه «يهوياكين» على عرش يهوذا، وما أن وصل يهوذا حتى أطبق الحصار على القدس ولم يقاوم «يهوياكين» وإنما خرج ومعه أمه وزوجاته وأهله وسلموا أنفسهم للملك نبوخذ نصر وذلك في عام ٥٩٧ ق. م. وتم نقلهم إلى بابل، ونقل معه ـ حسبما تذكر التوراة ـ عشرة الاف رجل يكونون هم وأسرهم قرابة الثلاثين ألف معظمهم من القدس والبقية الباقية من مدن الجنوب، وترى التوراة في هذا النفي مرحلة حاسمة في تاريخ يهوذا[١].

وتعتبر هذه أول عبودية كبيرة لمملكة يهوذا لإبعاد الرؤساء والحرفيين، وكان من بينهم النبي الكاهن «حزقيا»، ونهب المعبد جزئياً، وبقي الملك اليهودي أسيراً في بابل حوالي أربعين سنة، وعين «نبوخذ نصر» أخوه مكانه، وكان اسمه «متانيا»، إلا أن نبوخذ نضر غير اسمه إلى «صدقيا» وجعله يقسم على أن يكون حليفه، وقد بقي «صدقيا» مخلصاً لفترة، ثم أخذ يعمل للتخلص من الحكم البابلي، وحنث بالقسم الذي أقسمه، وفي ذلك الوقت كانت مصر في عهد «بسماتيك الثاني» تعمل على استعادة نفوذها في فلسطين واستمر الحال في عهد خلفه «ابريس» وهو الأمر الذي شجع بعض حكام فلسطين بزعامة «صدقيا» على التمرد على الحكم البابلي[٢].

= تاريخ العرب القديم، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٨٤ ـ ١٩٢.

(١) ملوك ثان ٢٤/ ١٠ ـ ١٤، ارميا ٢٤/ ١، ٢٧/ ٢٠، ٢٩/ ١ ـ ٦.

(٢) ملوك ثان ٢٤/ ٢٠، ارميا ٥١/ ٩.

واضطرت الأحوال المضطربة في فلسطين الملك «نبوخذ نصر» إلى القيام على رأس جيشه لإخماد هذا القلاقل، فأخذ يحتل مدن يهوذا الواحدة تلو الأخرى، ثم اتجه إلى أورشليم وحاصرها لمدة ثمانية عشر شهراً، ثم وصلتها المساعدات المصرية مما جعل البابليين يتركونها لبعض الوقت ثم يعودون إليها مرة ثانية ويحاصرونها حتى تسقط في عام ٥٨٧ ق. م. وحاول صدقيا الهرب عبر الأردن، ولكن محاولته فشلت وتمكنت جنود نبوخذ نصر من أسره حيث أحضر أمام العاهل البابلي، وذبح أبناؤه أمامه، ثم سملت عينيه وحمل بعد ذلك مقيداً في الأغلال أسيراً إلى بابل حيث مات هناك بعد فترة قصيرة[١]. وبعد ذلك دمرت أورشليم فهدم معبدها والقصر والمبان الهامة وأشعلت النار في المدينة، وأبعد خدم المعبد وجميع الأسرى استعداداً لترحليهم عن المدينة.

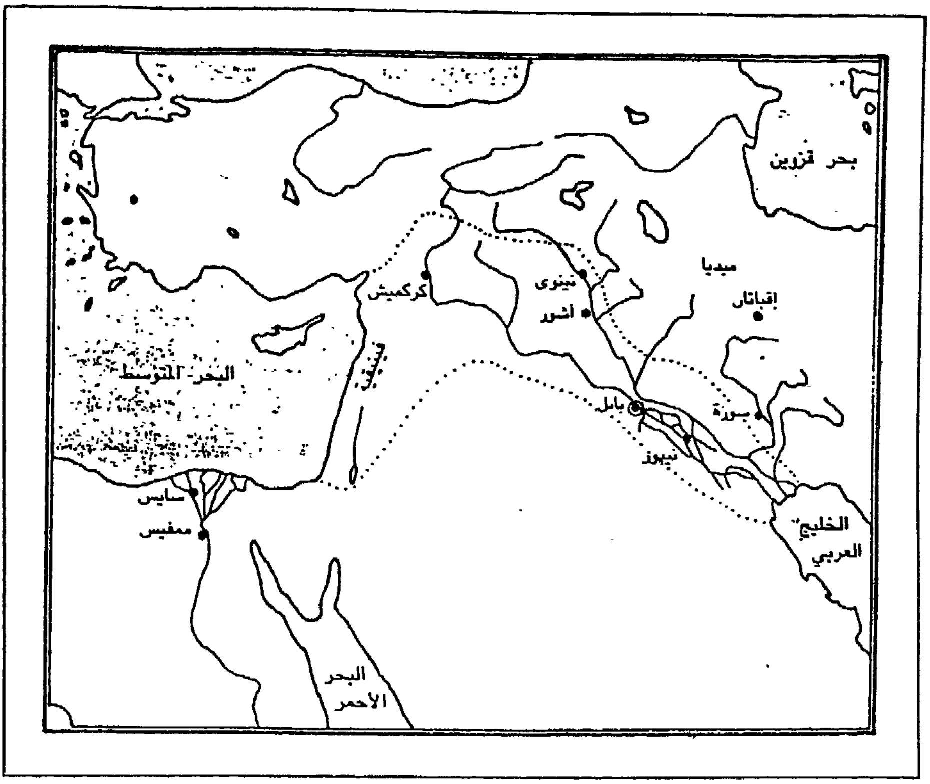
وهكذا انتهت دويلة يهوذا، وأدمجت في التنظيم الإداري للامبراطورية البابلية، واتباعاً للعرف الأشوري فلقد قتلت الطبقة العليا الحاكمة اليهودية، وأما بقية السكان فقد اقتيد الجزء الأكبر منهم والذي يبلغ عدده ما بين الأربعين ألفاً وخمسين ألفاً أسرى إلى بابل، وهذا ما عرف باسم «السبي البابلي». وقد أبقى نبوخذ نصر المزارعين في أماكنهم، ولم يجلب كما فعل الأشوريون سكاناً جدداً، وترك الإدارة لواحد من يهوذا وهو «جداليا»[٢].

وبعد أن فرغ «نبوخذ نصر» من مملكة يهوذا وجه عنايته الحربية إلى المدن الفينيقية التي شقت عصا الطاعة عليه، فاستطاع إخضاعها جميعاً إلا مدينة صور التي استطاعت أن تصمد أمامه ثلاثة عشر عاماً تحطمت مقاومتها بعدها، فاستسلم ملكها، وعندئذ دخلتها القوات البابلية التي دمرت مبانيها وسوتها بالأرض، وهكذا تم توطيد الامبراطورية البابلية الأخيرة، وأصبحت حدوده

(١) M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 286

(٢) محمد بيومي مهران: بلاد الشام، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٤١٥ ـ ٤٢٣. وكذلك:
Ibid., p. 288.

تمتد من الخليج العربي وحتى جنوب فلسطين(١). (خريطة ٧).



خريطة (٧) الامبراطورية البابلية الحديثة في عهد نبوخذ نصر (القرن السادس الميلادي)

ولم تشغل حروب «نبوخذ نصر» الكثيرة تفكيره عن الاهتمام بالمشاريع العمرانية، حيث بلغت بابل في عهده ذروة قوتها ومجدها وازدهارها، وأصبحت من جديد مركز امبراطورية قوية ازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والعلمية.

ونشطت حركة العمران في بابل وبلغ محيط عمران المدينة ١٨ كم، وذكر

(١) R.C. Thompon, op. cit., p. 212 FF.

المؤرخون الأغارقة أن أسوارها كانت دائرية، وقد أحاطت بها أربعة خطوط دفاعية[١] وشيد «نبوخذ نصر» قصره في شمال المدينة وكان قصراً ضخماً[٢] كما استكمل بناء الزاقورة التي كان والده قد بدأ في بنائها، وعرفت الزاقورة في التوراة باسم برج بابل، وكان ارتفاعها يبلغ ٩١ متراً، وهي تتكون من ثمان طبقات مدرجة يمكن الصعود إليها على درج حلزوني وتحمل الطبقة الأخيرة معبداً صغيراً خصص للإله مردوك إله بابل الرئيسي.

ولقد شيد «نبوخذ نصر» طريقاً للاحتفالات يمتد من بوابة عشتار شمالاً وحتى زاقورة بابل ومعبد مردوك جنوباً، وهو شارع للاحتفالات الدينية يبلغ عرضه ١٦ متراً مرصوف ببلاط مستورد من لبنان كتب على كل بلاطة فيه اسم «نبوخذ نصر»، ويحيط بالطريق من جانبيه جدار سمكه سبعة أمتار. ولقد زين بالأجر المزجج ورسمت أشكال لأسود تزأر. ومن تشييدات «نبوخذ نصر» أيضاً بوابة عشتار التي تعد من أجمل بوابات بابل التسعة، وهي عبارة عن بوابة مزدوجة كسيت واجهاتها بالأجر المزجج وزينه بصفوف من حيوانات مقدسة ترمز للآلهة بابل (شكل ٦٩)[٣].

وفيما يتصل بما عرف باسم «حدائق بابل المعلقة» التي تعد من عجائب الدنيا السبع فإنه يرجح أن تكون قد شيدت في القصر الضخم الذي أقامه نبوخذ نصر في بابل، حيث اكتشفت شرفة كبيرة فيه مقامة على أربعة عشر حجرة مقبية، وواجهتها متدرجة على النهر بثلاث درجات، مما قد يتيح إنشاء حديقة مدرجة تطل على نهر الفرات.

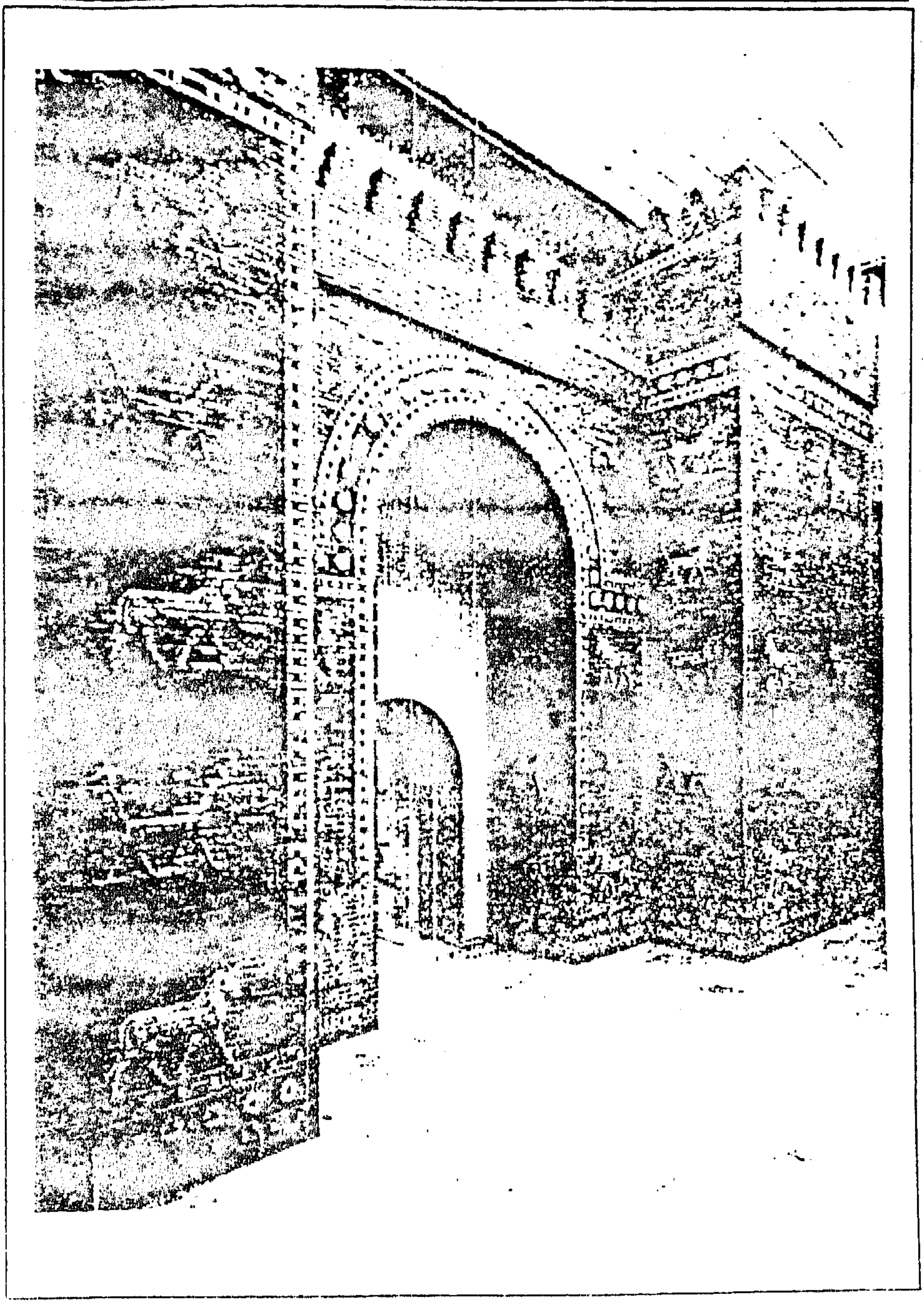
وتوفي «نبوخذ نصر» بعد أن حكم بابل ما يقرب من ثلاثة وأربعين عاماً،

---

(١) مارجريت روتن: تاريخ بابل، ترجمة زينة عازار وميشال أبي فاضل، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) انظر: عبد العزيز صالح: المرجع السابق، ص ٥٥٦.

(٣) عيد مرعي: المرجع السابق، ص ١٢٨، شكل ٢٥.



(شكل ٦٩) بوابة عشتار في بابل

وخلفه على العرش ابنه «أويل مردوك Awel- Marduk» لمدة عامين، ولقد أظهر رحمة واضحة بالملك صدقيا اليهودي فعامله كأمير وليس كأسير، كما سمح لليهود بممارسة طقوسهم الدينية بحرية وعلى نطاق واسع، فكان لذلك أثره في ثورة الكهنة عليه فقتلوه وجاء مكانه على العرش صهره «نرجال ـ شان ـ أوصر» (٥٥٩ ـ ٥٥٦ ق. م) وكان أحد القادة العسكريين في عهد نبوخذ نصر، ولم يعمر طويلاً، ولا يوجد من عهده ما يستحق الذكر، ولما مات خلفه ابنه الصغير الذي لم يحكم سوى فترة قصيرة حددها البعض بشهرين بينما رأى آخرون أنها تسعة أشهر انتهت بقتله في مؤامرة غير معروفة التفاصيل[١].

وجاء على عرش بابل بعده «نابونيد Nabonidus» ويمثل عهده خاتمة المطاف لسيادة بابل في التاريخ القديم (٥٥٦ ـ ٥٣٩ ق. م) وهو موظف كبير من أصل أرامي، وأبوه كما يبدو كان شيخ إحدى القبائل الأرامية، أما أمه فكانت كاهنة الإله سين إله القمر في حران.

وادعى نابونيد في نصوصه بأن وصوله للعرش كان برضى الآلهة وأنه رأى حلماً يبشره بذلك، ومن أجل ذلك فلقد أسرف في إظهار تقواه إزاء المعبودات، فقام بتجديد معابدها وتحسينها، كما يبدو حبه للعلم وشغفه بجمع اللوحات والآثار القديمة، وشاركته في ذلك ابنته التي شغلت منصب كبيرة كاهنات الإله سين.

ولقد تمكن نابونيد من تحرير حران من أيدي الميديين وأقام فيها معبداً للإله سين، ثم توجه إلى سورية عام ٥٥٣ ق. م. حيث أعاد هيبة الدولة البابلية في هذه المنطقة. وبعد ذلك اتجه إلى أدوم ومنها إلى تيماء حيث استولى عليها، وأقام بها[٢]. وكانت هي المركز السياسي الذي أدار منه شؤون الحكم في الشطر

(١) G. Roux, op. cit., p. 351.

(٢) R.P. Dougherty, Nabonidus and Belshazzar, New Haven, 1932, p. 106., G. Roux, op. =cit. p. 356.

الغربي من دولته، بينما ترك ابنه يدير شؤون الحكم في بابل.

ولقد جاءت نهاية بابل على يد الملك «كوروش الثاني» الفارسي الذي تمكن من دخول بابل عام ٥٣٩ ق.م. حيث استقبلته جميع الطبقات وبخاصة الكهنة والنبلاء واعتبروه محرراً لهم. ولقد أعاد كوروش تماثيل المعبودات إلى أماكنها بعد أن كان جمعها نابونيد من معابدها بالأقاليم وجاء بها إلى العاصمة مما أغضب الكهنة ضده وجعلهم يرحبون بكوروش وينضمون إلى جانبه.

ولم يغير سقوط بابل شيئاً من مظاهر الحياة بها، حيث ترك الفرس للبلاد الخاضعة لهم حرية ممارسة عقائدهم والاحتفاظ بعاداتهم، واستمر الأمر على ذلك حتى انتشرت الثورات في الامبراطورية الإيرانية في عهد الملك «دارا» ومنذ ذلك العهد أخذت بابل في الانحدار، وفي عهد الملك «خشيارشا» (كسركسيس» هدم أسوارها ونهب معابدها وحول الكثير من مبانيها إلى خرائب[1].

وبسقوط بابل، انتهت سيادة العناصر السامية، وبدأت سيادة العناصر «الهنود ـ أوربية» من الفرس الأخمينيين (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق. م) حيث جاء بعدهم الاغريق (٣٣١ ـ ١٣٥ ق. م)، ثم حكمها «الفرس الفريثيين» (١٣٥ ق. م ـ ٢٢٦ م) ثم الفرس الساسانيين (٢٢٦ ـ ٦٣٧ م) حتى جاء الإسلام وحررها ودخلت في الدين الإسلامي كغيرها من مناطق وبلاد الشرق الأدنى القديم.

---

(١) R.C. Thompson, «Decay and Fall of Babylonia under Nabonidus», in CAH, vol. III, p. 218-225.

الباب الثاني

إيران

مقدمـــة

استخدم تعبيري «فارس» و «إيران» للإشارة إلى منطقة جغرافية واحدة، ولكنهما ليسا مترادفين تماماً. وتسمية «إيران» هي الأقدم، فلقد وردت في الأوستا كـ «إيريانا فيجا» أي موطن الآريين والإيرانيين، ثم تطورت التسمية فصارت «بلاد إيران»[١]. واستخدم الجغرافي «أراتو سثينيز» الذي كان مديراً لمكتبة الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد مصطلح «بلاد إيران»، «أريانا»[٢]. والآري بمعناها الذي يفيد «نبيل» أو «سيد» يبدو أنها تسمية عامة لهؤلاء الناس الذين يتحدثون اللغة الهندو أوربية الشرقية والذين جاءوا إلى هذه المنطقة الواقعة بين نهر الجانج والفرات عند نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد[٣].

أما تعبير «فارس» فأول من أطلقه هم الإغريق، واستمد هذا الاسم من إقليم بارسا Parsa في الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة، وحرف هذا الاسم عند الإغريق ليصبح «پرسيس» Persis ثم أطلق عليها العرب «فارس» وعلى الرغم من

(١) عبد النعيم محمد حسنين: الإيرانيون القدماء، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١١ هامش ١، وكذلك:

E. Herzfeld, Iran in the Ancient East, OxFord University Press, 1941, p. 192.

(٢) طه باقر: مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد ١٩٥٦، ص ٣٧٣، هامش ١.

(٣) R.N. Frye, The Heritage of Persia, London, 1963, p.2.

أن يارسا تكون إقليماً واحداً في امبراطورية عظيمة، إلا أنها استمدت شهرتها من كونها مسقط رأس الملوك الهخشامنيين الذين كونوا البيت الحاكم الفارسي، وأطلقت هذه التسمية بواسطة الإغريق على الامبراطورية كلها بشكل عام[١].

وأدرك المؤرخون القدامى أن الفرس والميديين يرجعون إلى أصل آري، فظهر في مصادرهم تعبير «آري» للدلالة على كليهما[٢]، ومهما كان الأمر، فإن فارس إحدى أقاليم أيران، وإطلاقه هو من قبيل اطلاق الجزء على الكل، أما سكان هذه المنطقة فيسمون بلادهم «إيران»، ويطلقون عليها أحياناً التسمية «إيرانشهر» بمعنى «إقليم إيران» وكذلك التسمية «إيرانزمين» بمعنى «أرض إيران» وهي مشتقة جميعها من كلمة «آري» Aryan[٣].

ولقد ظل تعبيري «فارس» و «إيران» مستخدمين لعدة قرون مع بعضهما، فكان يطلق عليها أهل البلد «إيران» بينما يطلق عليها الغربيون المتأثرون بشكل رئيسي باليونان «فارس»[٤] وظل الوضع على ذلك حتى عام ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م حينما طلبت الحكومة الإيرانية من الدول الأجنبية مراعاة للتنسيق والتوحيد أن يطلق على البلاد رسمياً اسم «إيران» فظفرت هذه التسمية ذات الدلالة الصحيحة بالاستعمال العام[٥].

وسنقدم فيما يلي دراسة عن تطور تاريخ إيران منذ الدهور الحجرية، وحتى سقوط الامبراطورية الإيرانية على يد الاسكندر المقدوني، ونبدأ الدراسة بجغرافية إيران ومواردها الطبيعية.

---

(١) B. Dicks, The Ancient Persians, How They lived and worked, London, 1979, p. 14.

(٢) انظر في ذلك ما ورد في كتاب هيرودوت السابع الفقرة (٦٢).

(٣) B. Dicks, op. cit., p. 23.

(٤) Y. Armajani, Iran, New Jersy, 1972, p. 23.

(٥) دونالدو لبر: إيران ماضيها وحاضرها: ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، مراجعة وتقديم أمين الشواربي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠.

الفصـــل الأول

جغرافية إيران ومواردها الطبيعية

يتكون القسم الأكبر من إيران من منطقة واسعة تعرف باسم «هضبة إيران»[١] وهي تبدو كمثلث محصور بين منخفضين هما: الخليج العربي في الجنوب وبحر قزوين[٢] في الشمال، وهي توصل ما بين وسط آسيا وغربها، كما أنها بمثابة جسر إلى آسيا الصغرى وإلى قارة أوروبا فيما وراءها، ويوضح ذلك أهمية العوامل الجغرافية للهضبة الإيرانية في قيامها بدورها التاريخي الذي قدر لها أن تقوم به على مدار آلاف من السنين في التاريخ الإنساني. ويحيط بالهضبة الإيرانية سلاسل من الجبال الشاهقة من كل جانب، ويبلغ متوسط ارتفاع إيران فوق مستوى سطح البحر حوالي ٣,٠٠٠ قدم. (خريطة ٨).

ويلاحظ من دراسة المظاهر الجغرافية العامة لإيران، أنها يمكن أن تقسم من الناحية الجغرافية إلى أربعة أقسام رئيسية هي: منطقة جبال زاجروس التي تتضمن السهول الخارجية الصغيرة (وبصفة خاصة في منطقة خوزستان). وهي تكون جزءاً من بلاد النهرين والأرض المنخفضة الواقعة على الخليج العربي. ويتكون القسم الثاني من سلسلة جبال البرز والمنطقة المحيطة ببحر قزوين. أما القسم الثالث فيتضمن الحافة المرتفعة في الشرق والجنوب الشرقي، وأخيراً المنطقة الصحراوية المنخفضة في الوسط. ويجب ملاحظة أن كل قسم من هذه

---

(١) W.B. Fisher, «Physical Geography». In The Cambridge History of Iran, Vol. I, The Land of Iran, Cambridge, 1968, p. 5.

(٢) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم، من البداية حتى نهاية العهد الساساني، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، والسباعي محمد السباعي، ومراجعة وتقديم يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٨ حاشية ١.

الأقسام يمكن أن يقسم إلى عدة أقسام، ولكن هذا التقسيم يعتمد على المظاهر والمعالم الرئيسية، ومن ناحية أخرى، فإن الحدود بين هذه الأقسام ليست دقيقة تماماً، فإنها تتداخل فيما بينها بشكل كبير.

وسنحاول فيما يلي تتبع المظاهر الجغرافية العامة لإيران على أساس هذه الأقسام[1]. (خريطة ٩).

١ ـ منطقة زاجروس:

تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويبلغ طولها نحو ٩٩٨ كيلومتراً، وعرضها نحو ١٩٣ كيلومتراً وتتراوح ارتفاعاتها بين ١٠٠٠ م و ٣٣٠٠ م، وهي تتألف من جملة سلاسل متوازية تخترقها أودية تتراوح في أطوالها من ٩٧ كيلومتراً إلى ٤٨ كيلومتراً طولاً، ومن ١٩ كيلومتراً إلى ١٠ كيلومتراً عرضاً[٢]، ويمكن القول بأنها تحد إيران من جهة الغرب.

وإذا نظرنا إلى منطقة زاجروس من ناحية البنية ومظاهر السطح، فإنه يمكن تمييز منطقتين فرعيتين بمنطقة زاجروس، وهما القطاع الشمالي الغربي ويمتد من الحدود التركية ـ الروسية حتى منطقة حمدان ـ كرمنشاه. وتمتد المنطقة الثانية حتى بندر عباس وهرمز على مضيق عمان. وفي الحقيقة فإن تسمية «زاجروس» تقتصر على هذه المنطقة الأخيرة، ولكن من الأفضل إطلاقه على المنطقتين معاً[٣].

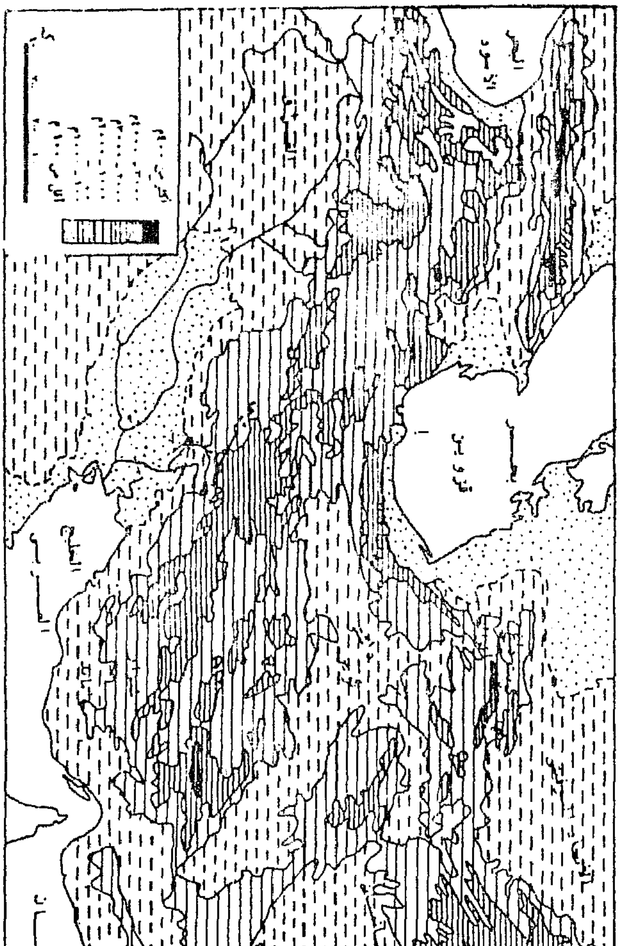
ويمكن وصف القطاع الشمالي الغربي من زاجروس بأنه على هيئة مستطيل تقريباً، وهو يتكون من مجموعة من التركيبات الجيولوجية المعقدة التي حدثت

---

(١) W.B. Fisher, op. cit., pp. 6- 7.

(٢) R. Ghirshman, Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest, Translated from the French by Miss Margared Mum- Rankin, (Pelican Books), London, 1978, p. 21.

(٣) W.B. Fisher, op. cit., p. 8.



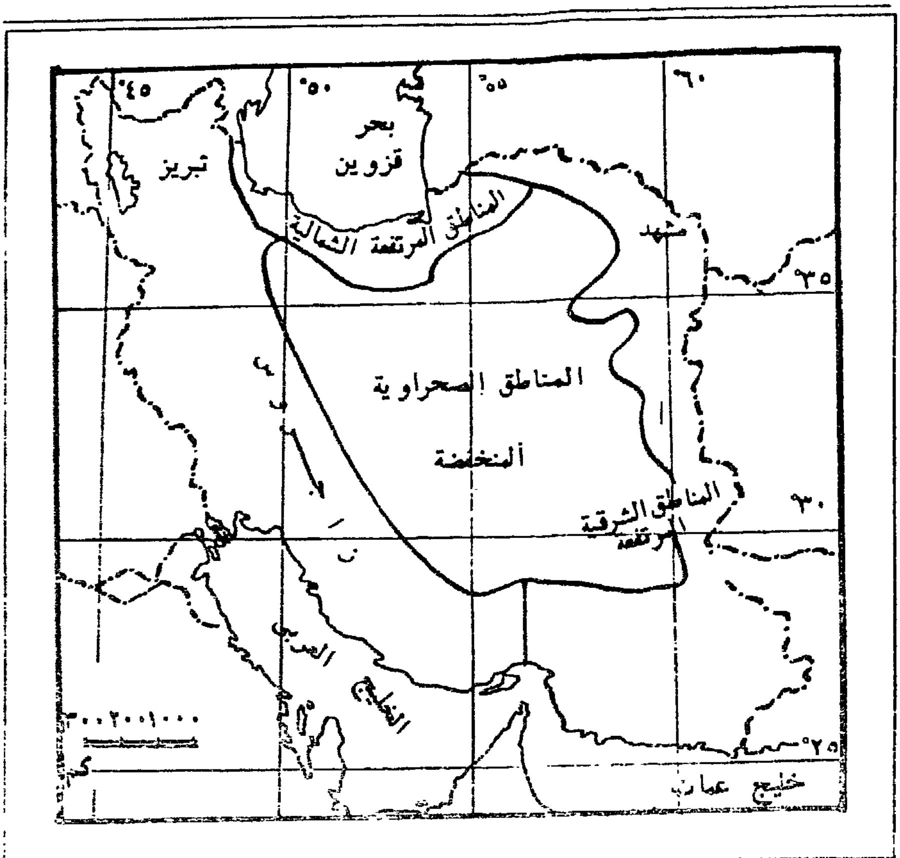
خريطة رقم (٨) مظاهر السطح في إيران

بصفة خاصة أثناء العصر الكريتاسي الأعلى Upper Cretaceous وعصر الميوسين Miocene، وعصر البلايستوسين (الزمن الرابع) Pleistocene.

ويبدو المظهر الطبوغرافي العام له كسلسلة غير منتظمة من الهضاب يتراوح ارتفاعها من ٥٠٠٠ قدم إلى ٦٠٠٠ قدم، ويقع أكثرها ارتفاعاً في أقصى الشمال والغرب، حيث يتراوح ارتفاعها ما بين ٧٠٠٠ قدم و ٩٠٠٠ قدم، وينحدر سطح الهضبة بشكل رئيسي في اتجاه الجنوب والشرق.

واكتسبت المنطقة الشمالية الغربية من زاجروس أهميتها لكونها مركزاً رئيسياً لطرق المواصلات. فهي تضم العديد من الطرق التي تربط ما بين الشرق والغرب، فهي تربط ما بين اليونان وآسيا الصغرى ووسط آسيا والهند.

أما المنطقة الثانية في زاجروس وهي التي تبدأ من حمدان - كرمنشاه في الشمال والتي يمكن أن يطلق عليها منطقة زاجروس الرئيسية، وهي التي يطلق عليها مع المناطق المتصلة بها والتي تكون الفاصل المائي الجنوبي الغربي لبحيرة أورمية التسمية «كردستان» فيلاحظ أن الثنيات الجبلية بها منتظمة إلى حد بعيد، وهي ذات هيئة مستقيمة، وضيقة نسبياً، وتمتد السلاسل الجبلية فيها بجوار بعضها، ويزداد اتساعها ناحية الجنوب، حيث تصبح المجموعات الجبلية أقل كثافة، ويتغير شكلها فتتحول من الهيئة المستقيمة إلى الشكل المقوس. ومن المظاهر المميزة لهذه المنطقة المجاري المائية الموجودة بها. ففي الشمال أدى تساقط المياه بقوة إلى تكوين العديد من الأنهار التي قطعت العديد من الأودية المتباينة والمعقدة. وفي بعض الحالات تشق الأنهار طريقها في شكل متعرج حول نهايات السلاسل الجبلية، ثم تتجه ناحية الغرب لتصب في نهر دجلة والخليج العربي. وقطعت بعض مجاري المياه طريقها في السلاسل الجبلية في ممرات ضيقة. وهذه الممرات أو التشققات كانت عادة على هيئة مستقيمة. ومن أفضل الأمثلة لهذا النوع نهر Saidmarreh والذي يعرف في أجزائه الدنيا باسم نهر الكرخة. أما في الجنوب فإن معدل سقوط الأمطار تقل كميته تدريجياً


٤٥°
٥٠°
٥٥°
٦٠
بحر
قزوين
تبريز
مشهد
المناطق المرتفعة الشمالية
المناطق الصحراوية
المنخفضة
المناطق الشرقية المرتفعة
٣٥°
٣٠°
٢٥°
الخليج العربي
خليج عمان
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كم

كلما اتجهنا جنوباً، ومن ثم فإن وجود التيارات المائية والأنهار الدائمة طوال العام تقل في وجودها أكثر فأكثر، ويصبح معظمها موسمياً، أو تجري لمسافات قصيرة لتنتهي في أحواض مغلقة، وتتسرب مياهها كلها في أعماق الأرض[١].

(هـ) وتمتد سلسلة جبال زاجروس في جنوب غرب إيران، وتسمى هذه المنطقة تانجستان، ومن أهم ما يميز هذا الجزء هو انخفاض كمية سقوط الأمطار بالنسبة لباقي أجزاء منطقة زاجروس مما تتطلب من الإنسان في هذه المنطقة العمل على الاستفادة قدر الإمكان من كميات المياه المتجمعة لديه باستخدام أفضل الوسائل المتاحة للري. ويضاف إلى فقر هذه المنطقة في الإنتاج الزراعي، أن المناطق المرتفعة تطل على شاطىء الخليج العربي مباشرة ولا يتخللها سهول ساحلية مما أدى إلى ندرة وجود الأماكن التي تصلح كموانىء، وكان ذلك من العوامل التي أدت إلى قلة السكان في هذه المنطقة، كما أثرت هذه العوامل البيئية القاسية على طبيعة الإنسان القاطن في هذه المناطق فأصبحت طباعه خشنة نوعاً ما[٢].

٢ ـ المناطق الشمالية المرتفعة ـ البرز وتاليش:

يحد الناحية الشمالية من إيران سلسلة جبال البرز وتاليش، وتبدو هضبة البرز كنتوء ثانوي متجه ناحية الشرق من سلسلة الجبال الرئيسية الواقعة في شمال غرب إيران، وهي تكمل حافة السلسلة المرتفعة التي تشكل حدود المناطق الوسطى لإيران. وفي الحقيقة فإن سلسلة جبال البرز تمتد كقوس ولا يتجاوز عرضها في أقصى اتساعه ١٣٠ كيلومتراً، أما متوسط عرضها فلا يتعدى مائة كيلومتر. ويوجد في سلسلة البرز أعلى قمة جبلية في إيران، وهي قمّة جبل دامافاند Damavand الذي يبلغ ارتفاعه ١٨,٩٩٥ قدماً، وهو يقع في وسط سلسلة جبال البرز شمال شرق طهران بحوالي ٦٤ كيلومتراً. وتجدر

(١) Ibid., pp. 17- 18.

(٢) Ibid., pp. 26- 30.

الإشارة أن قمة جبل دامافاند أعلى من أي قمة جبلية تقع إلى الغرب منه سواء في آسيا أو في أوروبا[١]. ولقد أطلقت المصادر المسمارية على جبل داما فاند التسمية «بكني» أي جبل اللازورد[٢].

وتتكون سلاسل جبال البرز من قسمين رئيسيين: هضاب تاليش في أقصى الغرب والشمال الغربي، وجبال البرز في الوسط والشرق وتتصل هضاب تاليش في نهايتها الغربية إلى منطقة أذربيجان التي تتوسطها بحيرة أورمية المالحة، ويمتاز إقليم أذربيجان بكثرة سكانه، ويطلق على أذربيجان عبارة «برزخ ميديا»، إذ يمكن الدخول إليها بواسطة عدة طرق تأتي من الشمال الغربي، والشمال، والشمال الشرقي. وتتمتع هذه المنطقة بشهرة تاريخية خاصة، إذ ظهرت فيها سلالات الميديين والفرس، كما استوطنتها أقوام أخرى كالكرد والمغول والتتار. ونظراً لطبيعة هذه المنطقة التي تعتبر باباً مؤدياً إلى إيران فقد عملت الدول الفارسية على المحافظة عليه وحمايته وتحصينه إزاء الغزاة القادمين عبر القوقاز من جنوب روسيا، ولا تزال بقايا الحصون التي أقيمت في هذه المنطقة باقية حتى الآن[٣].

وتتكون منطقة البرز من مجموعة من الثنيات الضيقة نسبياً، وتأخذ شكلاً أقرب إلى الشكل الهلالي على امتداد الحد الجنوبي لبحر قزوين. ورغم ضيقها فإن السلاسل الجبلية شديدة الانحدار إلى أبعد حد، وتوجد فيها العديد من القمم الجبلية التي يصل ارتفاعها إلى ما يزيد عن ١٠,٠٠٠ قدم في مساحة لا تتعدى ٤٨ كيلومتراً من شاطىء بحر قزوين ومن أعلى القمم الجبلية الموجودة جبل دامافاند، الذي سبقت الإشارة إليه، وجبل Alam Kuh الذي يبلغ ارتفاعه ١٥,٥٠٠ قدم، وهو يقع شمال غرب طهران بحوالي ٩٧ كيلومتراً.

(١) Ibid., p. 38.

(٢) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الثاني، بغداد، ١٩٥٦، ص ٣٧٤.

(٣) R. Ghirshman, op. cit., pp. 22- 23.

٣ ـ المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية:

تقع هذه المنطقة من إيران بين سلاسل جبال البرز، والحد الجنوبي الشرقي لسلاسل جبال زاجروس. وتتميز هذه المنطقة بعدم وجود وحدة جغرافية تربط فيما بينها، فالمناطق المرتفعة تتباين من حيث اتجاه محاورها واتجاهاتها، كما أنها في كثير من المواضع تتباعد عن بعضها تاركة العديد من المناطق المنخفضة، ويمكن القول، بشكل عام، أن المنطقة الشرقية تتميز بالقحولة، وعدم وجود إنتاج زراعي بها. ويرجع ذلك إلى طبوغرافيتها غير المنتظمة، وتحركات الرمال، والعوائق المناخية.

ومناطق الاستقرار في هذه المنطقة قليلة، وهي توجد فقط في الأماكن المحمية من الرياح الشديدة، وفي الأراضي المنخفضة بالقرب من منحدرات التلال، حيث ينتشر الغرين الناتج عن تفتت الحصى توجد الزراعة، كما توجد أيضاً بعض الأراضي الزراعية بجوار الأنهار القليلة الموجودة في هذه المنطقة. ومن أهم هذه المناطق، المنطقة المنخفضة لحوض نهر هيلماند والذي يطلق عليه سستان، وتتصل المياه إلى منطقة سستان من أنهار أفغانستان(١).

وترتب على هذه المظاهر الجغرافية للمنطقة الشرقية من إيران، والتي تعرف بجبال خراسان، أنه كان من السهل اجتيازها، ولذا فهي تمثل المدخل الثاني إلى إيران، قد عبرها الغزاة الفاتحين خلال العصور التاريخية، الذين جاءوا إليها من سهول وسط آسيا. ولقد أقام الملوك الساسانيون في هذه المنطقة جداراً سميكاً من الأجر يبلغ طوله عدة أميال لدرء الخطر عن أنفسهم من هذه الناحية، وما زالت بعض بقايا هذه السور قائمة حتى الآن. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المنطقة من إيران كانت مهد العديد من السلالات الحاكمة المشهورة كالفرثيين والصفويين والقاجاريين.

---

(١) W.B. Fisher, The Middle East, pp. 285- 287.

وأخيراً فإن الجبال التي تحدد المثلث الإيراني تكتمل بالسلسلة الجنوبية المعروفة باسم جبال «مكران». ويخرج من هذه الجبال ممران يؤدي أحدهما إلى بندر عباس على خليج عمان، ويؤدي الآخر إلى بلوخستان في الشرق[١].

٤ ـ وسط الهضبة الإيرانية:

تحيط سلاسل الجبال المرتفعة بالمنطقة الوسطى من إيران، وهي ذات شكل غير منتظم وتضم عدداً من المناطق المنخفضة الداخلية، بعضها كبير جداً، والبعض الآخر صغير. ويبلغ ارتفاع معظم المنطقة الداخلية حوالي ٣٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، بينما يصل ارتفاع بعض المناطق إلى ١٠٠٠ قدم فقط، وأحياناً أقل من ذلك. ويوجد في بعض أجزائها سلاسل جبلية مرتفعة يصل ارتفاعها من ٨٠٠٠ ـ ١٠,٠٠٠ قدم.

وتصل مساحة المنطقة الداخلية من إيران إلى ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ ميلاً مربعاً، وكان يشغل سطحها البحيرات الضخمة المتتالية والتي كانت تمتد شرقاً حتى افغانستان ووسط آسيا، ولم يتبق من هذه البحيرات حالياً سوى أجزائها السفلى التي تكون بحيرات ملحية أو أحراش مليئة بمخلفات الحصى والرمال وحطام الأحجار والغرين[٢].

وتعد هذه المنطقة الداخلية من أشد بقاع العالم قحولة وجفافاً، وهي تنقسم إلى صحراوين شاسعتين، تسمى إحداهما «دشتي كافر Dasht- i -Kavir» في الشمال، والأخرى «دشتي لوط Dasht-i Lut» في الجنوب[٣] وتتكون دشتي

---

(١) R. Ghirshman, op. cit. p. 23.

(٢) W.B. Fisher, «Physical Geography» in CHI, vol, I. pp. 90- 92.

(٣) تجدر الإشارة إلى أن كلمة «لوط Lut» كلمة فارسية تشير عادة إلى المناطق الصحراوية المنخفضة، ولكنها تطلق في الغالب بشكل أوسع على المناطق القاحلة في الجنوب والشرق. أما كلمة «دشت Dasht» فتشير إلى الصحراء الجافة التي توجد فيها عادة بقايا حجرية صغيرة مثل الحصى والظران. انظر: Ibid., p. 93 .

كافر في معظمها من الطين والملح، ولا ينمو عليها شيء، ومظاهر الحياة عليها نادرة، وهي تنخفض عن سطح البحر من ٢٠٠ ـ ٢٥٠ قدم(١). وتبلغ مساحتها ما يقرب من ربع المنطقة الداخلية من إيران. وفي بعض مناطقها يمكن الحياة حيثما تقل درجة الملوحة في التربة، حيث توجد بعض الواحات القليلة. أما «دشتي لوط» فهي صحراء قاحلة تماماً، وتعد من أشد جهات العالم قحولة(٢).

ويتضح من هذه الدراسة الجغرافية لسطح إيران، أن المناطق التي يمكن أن تتطور عليها الحياة في سطح الهضبة تنحصر في أودية السلاسل الكبرى الرئيسية وفي الواحات والسهول الواسعة، مثل سهل خوزستان في الجهة الجنوبية الغربية، وهي بلاد السوس القديمة التي تعد من الناحية الجغرافية امتداداً لسهل ما بين النهرين الأسفل، لأنها تتكون من الأرض الرسوبية التي كونها نهر كارون وروافده. وتعتبر هذه المنطقة من أقدم المناطق التي استوطنها الإنسان في إيران، كما ظهرت فيها البواكير الأولى لفجر حضارته. وحينما امتدت الحدود السياسية للامبراطورية الفارسية إلى الغرب من زاجروس نشأت في هذه المنطقة العاصمة الكبرى «سوسة».

ويلاحظ كذلك أن السهول الواقعة خارج الهضبة، مثل السهول الواقعة على حدود بحر قزوين، لم تقم بدور رئيسي في التطور الحضاري لإيران الذي تركز منذ أقدم العصور في الواحات المنتشرة في سلاسل الجبال المحيطة بالهضبة، وتمكن الإنسان منذ عصر ما قبل التاريخ من التغلب على المشاكل التي تواجهه في إمكانية زراعة هذه الواحات. ومن أهم هذه المشاكل كيفية تزويدها بالمياه، ولقد استطاع التغلب على هذه المشكلة الحيوية بتجميع مياه

(١) K.W. Butzer, «Physical Conditions in Eastern Europe, Western Asia and Egypt, Before the Period of Agricultural and Urban Settelment», in CAH., vol 1, part I, Cambridge 1970, p. 52.

(٢) R. Ghirshman, op. cit., p. 24.

الأمطار، ثم شق القنوات المؤدية إلى الواحات[1].

ولقد أدى وجود سلاسل الجبال الضخمة التي تحيط بإيران وبخاصة في الوسط إلى عدم وجود وحدة في تطورها الحضاري سواء في مناطق السهول أو الهضاب، ويضاف إلى ذلك أنه لم يوجد في إيران نهر ضخم يوحد إحدى طرف البلد بالطرف الآخر، وأدى تفرق الأنهار الضخمة إلى تركيز تطور النشاط الإنساني في إطار مناطق محدودة.

وكان للعوامل الجغرافية تأثيرها الهام في توزيع مناطق الاستقرار البشري على الهضبة وظهور المدن الكبرى. وظهر ذلك بوضوح على امتداد سلسلتي جبال زاجروس والبرز، وبخاصة على حوافهما الداخلية المواجهة للصحراء. فمن المدن التي ظهرت على الطريق التجاري الواقع على امتداد سلاسل البرز، مدينة أكبتانا وطهران ودمغان وهيرات، ومن المدن التي نشأت على الطريق الجنوبي أصفهان وباسارجادا ويرسبوليس وشيراز.

وتم نفس الأمر كذلك في عصور ما قبل التاريخ، حيث أوضحت التنقيبات الأثرية الحديثة، أن الإنسان منذ أن اتجه إلى السهول قد استقر على امتداد نفس هذا الخط الذي يشبه قوساً حول المنطقة الداخلية القاحلة من إيران (صحراء الملح). ومن المواقع الرئيسية التي كشف عنها سيالك ودمغان وقم[2].

ومن الأمور الهامة التي أثرت في تاريخ إيران وحضارتها، الثروات الطبيعية التي تثرى بها أرضها، فبالإضافة إلى وجود مساحات كبيرة من الأراضي الخصبة بها، فإنها تملك العديد من المحاجر والمناجم الغنية، فهي غنية بأنواع الأحجار الجيدة كالمرمر والرخام، وكذلك الأحجار الثمينة كاللازورد، والفيروز، والعقيق. وتشير الأدلة الأثرية إلى أن الإنسان الإيراني القديم قد

(١) P. Beaumont, The Middle East, A Geographical Study, London, 1976, pp. 449- 450.

(٢) R. Ghirshman, op. cit., pp. 24- 25.

استخرج هذه الأحجار منذ أقدم العصور، كما كان لها دور كبير في طبيعة العلاقات ما بين العراق وإيران منذ أقدم العصور، وذلك نظراً لحاجة الإنسان العراقي إليها في صنع حضارته. ويتوفر بالهضبة الإيرانية، العديد من المعادن كالنحاس والحديد والقصدير والرصاص. ويضاف إلى ذلك أيضاً أن سفوح سلاسل جبال زاجروس ومنحدراتها تتكون من حجارة كلسية تحتوي على النفط الذي كان معروفاً بالفعل في عصر هيرودوت[١]. ووجدت بوفرة الأخشاب الجيدة الموجودة في الغابات التي كانت تغطي الجبال، وكانت الأخشاب من المواد الهامة التي كان سكان العراق القديم في حاجة إليها، فقد استوردوا الأخشاب من إيران منذ أقدم عصورهم، وبصفة خاصة منذ الألف الثالث ق. م.

وعلى الرغم من إحاطة السلاسل الجبلية بإيران، فإنها في حقيقة الأمر مفتوحة من كل جانب، إلى سهول بلاد النهرين وروسيا والهند والخليج العربي. ولقد قامت منذ عصور ما قبل التاريخ بدور هام كوسيط بين الشرق والغرب. ولقد قامت الطرق الموصلة ما بين الشرق والغرب بدور حيوي في الصلات والتأثيرات الحضارية ما بين بلاد النهرين وإيران.

وتمت الصلة بين إيران والعراق كذلك من خلال أودية الأنهار التي تصب في نهر الفرات. وبصفة خاصة نهري الزاب وديالي. ولقد انتشرت بواسطة هذين النهرين العديد من المظاهر الحضارية بين البلدين، وبصفة خاصة بعض أنواع الأواني الفخارية وزيناتها. وكان لامتداد سلاسل زاجروس ناحية الشرق عند نهايته الجنوبية أثر كبير في اتساع الصلات ما بين منطقة السهول في جنوب العراق ومنطقة سوسيانا الإيرانية. فهذه المنطقة من إيران ـ من الناحية الجغرافية ـ لا يمكن التفرقة بينها وبين المنطقة المجاورة لها في جنوب العراق، ووجدت بالفعل في عصر حضارة الوركاء في العراق القديم صلات مميزة في الفنون والمنحوتات بين المدن السومرية ومنطقة سوسة، ويمكن ملاحظة ذلك

(١) Ibid., pp. 25- 26.

بشكل واضح في نماذج الأختام الأسطوانية التي كانت تنحت أحياناً في أشكال متطابقة في كلا المنطقتين(١).

وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجدت العديد من الطرق التي توصل إلى داخل إيران، وأدى ذلك إلى تعرضها للغزو ولعبور القبائل منذ عصور ما قبل التاريخ، وجاء الغزاة والقبائل إليها من وسط آسيا وشمال الهند طمعاً في العثور على مراعي غنية في مناطق إيران.

وبالإضافة إلى هذه الطرق التي ربطت إيران بالعالم الخارجي المحيط بها، فقد قامت الطرق الداخلية بها بدور هام وفعال في انتقال التأثيرات الحضارية بين أجزاء الهضبة الإيرانية، وكان لها دورها الكبير كذلك في التحركات البشرية بها، ومن أهم هذه الطرق، الطريق الذي يبدأ من خوزستان ويتخذ اتجاهاً شمالياً شرقياً إلى لورستان والهضبة، أو يتخذ اتجاهاً جنوبياً شرقياً إلى منطقة فارس. أما الطرق التي تبدأ من شمال غرب زاجروس ووسطها فإنها تلتقي حول كازفين ـ كاشان ـ وتتجه من هذه المنطقة ناحية الشرق على امتداد الناحية الجنوبية لسلسلة جبال البرز حتى مشهد. ويوجد طريق يتجه من فارس جنوباً إلى بلوخستان، ويوجد هناك طريق آخر يربط منطقة فارس بمنطقة كاشان(٢).

(١) M.E.L. Mallowan, Early Mesopotamia and Iran, London, 1965, p. 20.

(٢) R.H. Dyson, «Problems in the Relative Chronology of Iran, 6000-2000 B.C.» in Chronologies in Old World Archaeology, U.S.A., 1967. p. 215.

الفصل الثاني

مصادر دراسة تاريخ إيران القديم

يعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ إيران وحضارتها في العصور القديمة على عدة مصادر رئيسية، يأتي في مقدمتها المصادر الأثرية، ثم ما سجله المؤرخون والرحالة اليونان والرومان، والمصادر المعاصرة في منطقة الشرق القديم، ويلي ذلك في الأهمية المصادر الدينية الفارسية والتوراة ثم القصص الفارسي، ويبدأ الباحث باستعراض المصادر الأثرية.

أولاً: المصادر الأثرية

على الرغم من أن المصادر الأثرية تعتبر المصدر الرئيسي الذي نعتمد عليه في دراستنا للتطور السياسي والحضاري في إيران في العصور القديمة، فإن الحفائر العلمية المنظمة لم تدخل إيران إلا في وقت متأخر، وينطبق ذلك أيضاً بالنسبة لدراسة البقايا الأثرية المتخلفة فوق سطح الأرض، فحتى الثلاثينات من القرن العشرين، كانت إيران مغلقة إلى حد بعيد أمام الباحثين الأجانب.

وعندما فتحت إيران أبوابها أمام بعثات الآثار الأجنبية وذلك منذ عام ١٩٣٠ م حينما أصدرت حكومة إيران قانون الآثار الذي سمحت به لبعثات الآثار الأجنبية بعمل حفائرها في إيران، بدأت العديد من البعثات الأثرية حفائرها في العديد من المواقع في مختلف المناطق الإيرانية، ومنذ عام ١٩٥٠ م بدأت الحفائر المنظمة ذات الأهداف الواضحة وذلك برعاية وتشجيع مصلحة الآثار الإيرانية، وتمثل هذه البعثات العديد من الدول مثل الدانمارك والسويد وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا. وذلك

بالإضافة إلى مصلحة الآثار الإيرانية.

وظهرت ثمار هذه الحفائر في الكشف عن معالم تاريخ إيران القديم، ومع أن هذه المعالم موجزة في كثير من تفاصيلها إلا أنها مكنتنا من معرفة الخطوط المميزة لتاريخ وحضارة إيران في العصور القديمة، وما زالت نتائج الحفاير المتتابعة تزيد من عمق معرفتنا وتوضح ما غمض منها.

ويمكن تقسيم الأدلة الأثرية التي كشف عنها إلى قسمين رئيسين: الأول منهما، الأدلة المادية ويأتي في مقدمتها الأواني الفخارية، والآخر النقوش المدونة بمختلف اللغات الإيرانية. ولقد أمدتنا الأواني الفخارية بنماذجها المتعددة وزيناتها المختلفة والرسوم التي سجلت عليها بدليل مادي أمكن بواسطته تتبع الحضارات الإيرانية القديمة في عصور ما قبل التاريخ، وذلك على أساس مقارنة ما عثر عليه في المواقع الإيرانية المتعددة، إذ كان لكل مقاطعة ولكل مصنع في أغلب الأحايين الشخصية المغايرة من ناحية شكل الآنية وكذلك زينتها، وكان لتنوع نماذج الفخار جماله الخاص، إذ أدى ذلك إلى ثراء هذا الفن البدائي. وبالإضافة إلى الصناعات الفخارية، فهناك كذلك بقايا الآثار المعمارية بأنواعها المتعددة سواء كانت مباني دينية أو بقايا منازل أو مقابر أو عمائر حربية، وتوجد أيضاً العديد من الأعمال الفنية كالنقش والنحت والتصوير، والتي أمكن بواسطتها معرفة الكثير من المظاهر الحضارية الإيرانية في العصور القديمة.

وفيما يتصل بالنقوش، فيلاحظ أنه باستثناء عدد من النقوش التي تنسب غالباً وبشكل رئيسي إلى دارا (داريوش) وخشيارشا (كزركسس) والكتاب الديني الأوستا Avesta(١)، فإن الفرس لم يكتب لهم النجاح في كتابة تواريخهم، ولم توجد لديهم بيوت كبيرة لحفظ كنوز الوثائق والتسجيلات مثلما وجدت في مصر

(١) ينطق حرف الواو في كلمة «الأوستا» مثل حرف «V» في اللغة الإنجليزية. انظر: أمين عبد المجيد بدوي: القصة في الأدب الفارسي، بيروت، ١٩٨١، ص ١٠.

وآشور وخاتي، وعلى ذلك فإن الجزء الأكبر من التاريخ الفارسي يستمد من مصادر الكتاب اليونان وكذلك من الإشارات التي وردت في الوثائق التاريخية الآشورية والبابلية والمصرية[١].

ولقد بدأ التعرف على النقوش الإيرانية منذ القرن الخامس عشر الميلادي حينما زار إيران بعض المبشرين والرحالة، وقد ذكر بعضهم أن النقوش التي شاهدوها لا تمت للفارسية الحديثة بصلة، ولا تشبه العربية أو الآرامية أو العبرية. وربما كان إنجلبرت كيمبفر Engelbert Kaempfer الذي رافق بعثة سويدية إلى إيران عام ١٦٨٣ م هو أول من حاول وصفها وصفاً علمياً وأطلق عليها اسم «الكتابة المسمارية». وفي عام ١٧٦٥ م نسخ كارستن نيبور - وكان ضمن البعثة العلمية التي أرسلها ملك الدانمارك إلى الشرق - بعض النقوش الموجودة في برسبوليس، وكانت مكتوبة بثلاثة كتابات مختلفة، هي الفارسية القديمة والعيلامية المتأخرة والبابلية، ولقد أدرك نيبور أن هذه النقوش بها ثلاثة كتابات مختلفة، كما قام ببعض المحاولات لمعرفة بعض علاماتها، وأسهمت محاولاته في مساعدة من جاءوا بعده في معرفة هذه الكتابات، ومن أهم ممن جاءوا بعده الألماني جروتفند Grotfend الذي خطا خطوات كبيرة في هذا المجال. وهناك كذلك راسك Rask الدانماركي، وبرنوف Bernouf الفرنسي ولاسن Lassen الألماني، وأخيراً السير هنري رولنسن[٢].

ومن أقدم النقوش التي وصلتنا، نقوش الملوك الهخامنشيون، فقد عثر على بعض النقوش المختصرة للملك كوروش الكبير، كما كشف في باسار جادا عن تمثال ناقص لكوروش الكبير، نقشت عليه عبارة «أنا كوروش الملك الكبير». ووصلنا من عهد الملك دارا عدداً كبيراً من النقوش، منها تلك التي قام السير هنري رولنسن في الفترة ١٨٣٧ - ١٨٤٣ م بمحاولة تفسيرها، وقد

(١) B. Dicks, op. cit., p.11.

(٢) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق ص ٣٩٩-٤٠١.

سجلت بثلاث لغات على صخور بيهستون، في مكان يصعب الوصول إليه وذلك على ارتفاع يصل من ٣٠٠ ـ ٥٠٠ قدم، واللغات الثلاث التي سجل بها النقش هي: الفارسية القديمة، والعيلامية العتيقة، والبابلية السامية، وكتب النقش بالخط المسماري، ولقد كتب النص الفارسي بالحروف الأبجدية الفارسية القديمة المكونة من ثلاث وأربعين علامة، وهي التي كان من الممكن إلى حد ما حل رموزها منذ بداية القرن التاسع عشر. وعلى ذلك فلقد زود النص المكتوب بالفارسية القديمة الباحثين بمفتاح لحل رموز الخط المسماري القديم، فوضع أساساً يمكن الاعتماد عليه في تفسير هذا الخط(١). ويذكر داريوش في هذا النقش نسبه والاضطرابات التي نشبت في بداية توليه مقاليد الملك والحملات التي قام بها والحروب التي خاضها لإخماد تلك الثورات.

ومن النقوش الهامة التي وصلتنا من عهد دارا كذلك، النقش المعروف باسم «نقش رستم» والذي يستفاد منه في معرفة اتساع إيران وحدودها في ذلك الوقت. ووصلنا من عهد الملك خشيارشا (كزركسس) بعض النقوش الصغيرة المختصرة، وذلك بالإضافة إلى بعض النقوش الصغيرة التي ترجع إلى بعض ملوك هذه الأسرة، ويتصل بعضها بالناحية الدينية(٢).

وهناك من المؤرخين(٣) من يتجه إلى القول بأنه من الصعب تصور إمبراطورية في امتداد الإمبراطورية الفارسية وحضارتها التي أنجبت رجال دين ورجالاً مهرة مبرزون في مجال العمارة والفنون والإدارة، قد فشلت في إنجاب رجال أدب ومؤرخين، أو حتى من يقومون بتسجيل الأحداث اليومية لهذه الامبراطورية المترامية الأطراف، ومن ثم فإنه يفترض وجود وفرة من الوثائق التاريخية، ولكن هذه الوثائق قد دمرت من جراء ما تعرضت له إيران من الغزو

(١) J.R. Glover, The Ancient World, Pelican Books, 1948, p. 88.,
J.H. Ilife, «Persia and the Ancient World» in The Legacy of Persia, Edited by A.J. Arberry, OxFord, 1963, P. 19-20.

(٢) حسن بيرنيا: المرجع السابق، ص ١٥٦ ـ ١٥٩.

(٣) انظر: Y. Armajani, op. cit. pp. 21-22.

اليوناني، ثم الفتح العربي بعد ذلك بحوالي ألف عام. إلا أن هذا الرأي رغم ما يبدو فيه من وجاهة إلا أنه يفتقر إلى أسانيد تؤيده. ولقد أدت الندرة الشديدة في الوثائق الإيرانية المعاصرة للأحداث إلى اعتماد الباحثين في دراسة تاريخ إيران القديم على ما سجلته المصادر اليونانية والرومانية، وكذلك على المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة العراق ومصر وخاتي، وأدى ذلك من الناحية العملية إلى أن أصبح الكثير من الأحداث التاريخية موضع خلاف حسب وجهات النظر المتعددة ورؤيتها ومفاهيمها.

ثانياً: المصادر اليونانية والرومانية

تعتبر المصادر اليونانية والرومانية من أهم المصادر الخارجية التي نعتمد عليها في دراستنا لتاريخ إيران القديم، وترجع أهميتها إلى معاصرتها للأحداث التي سجلتها في معظم الأحايين، فعلى الرغم من بعد المدن الفارسية الكبرى وشهرتها شهرة تقارب الأساطير، فإن اليونان لم يعدموا الفرص للحصول على معلومات صحيحة عن فارس، فقد ولد كثير منها وعاشوا رعايا لها، وأتيح لبعضهم الذهاب إلى البلاط الفارسي، كما أخذ بعضهم رهائن أو أسرى، وبالإضافة إلى هؤلاء وأولئك فقد كان هناك الكثير من الصناع اليونان الذين جمعهم دارا الأول لتزيين قصره في سوسة، ولا ريب في أن هؤلاء قد عادوا إلى بلادهم بروايات طويلة عما شاهدوه، وهي لا تعدم الصحة تماماً فيما ذكرته[١].

ورغم الأهمية القصوى للمصادر اليونانية والرومانية في دراسة تاريخ إيران القديم، فإنه يؤخذ عليها بعض المآخذ التي منها:

أولاً: إنه لا يوجد الدافع لدى مؤلفي هذه المصادر الذي يجعلهم على ود

(١) L. Lockhart, «Perisa as Seen by the West» in the Legacy of Persia, Edited by A.J. Arberry, Oxford, 1963, pp. 319- 320.

أو عادلين مع الإمبراطورية التي استولت على المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى، ولم تكتفي بذلك، بل هاجمت الإغريق في عقر دارهم.

ومنها ثانياً: أن الكثير مما ورد في المؤلفات اليونانية اقتصر على وصف المعارك الحربية البرية والبحرية التي دارت رحاها بين اليونان والإمبراطورية الفارسية، وذلك من وجهة النظر الإغريقية(١).

ومنها ثالثاً: أنهم قد اهتموا بذكر الوقائع التي تربط ما بين بلادهم وإيران أو التي حدثت على حدود إيران الغربية، ولم يشيروا إلى الأحداث التي جرت داخل إيران أو على حدودها الشمالية أو الشرقية(٢).

ومنها رابعاً: اعتمادهم على الروايات المنقولة والأساطير التي حيكت حول الأحداث البعيدة زمنياً، مما يجعل كتاباتهم حول الأحداث غير المعاصرة لهم يشوبها عدم الدقة إلى حد بعيد.

ومنها خامساً: روح التعصب التي عرفت عن الغربيين لحضارتهم، وإظهارها وكأنها أرقى من غيرها، وذلك عن طريق عرض نواحي الغرابة في الحضارات الشرقية التي عاصرتها أو سبقتها(٣).

ومن أهم هؤلاء الرحالة والمؤرخين اليونان والرومان الذين نعتمد عليهم في دراسة تاريخ إيران القديم:

١ ـ هيكاتيوس الميليتي: **Hekataios of Miletos**:

ينسب إلى مدينة ميليتوس الإغريقية في آسيا الصغرى، وكان من أوائل مؤرخي اليونان في القرن السادس قبل الميلاد الذين انتقلت الكتابة التاريخية

(١) R. Dicks, op. cit., p. 11.

(٢) حسن بيرنيا: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٣) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ١، مصر، الكتاب الأول ـ التاريخ ـ الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٦١.

على أيديهم نقلة كبرى، فقد أخذ بمبدأ نقد الأساطير واستبعاد خرافات أبطالها[١]. قام برحلات في أنحاء الإمبراطورية الفارسية وكذلك في بلاد اليونان وسواحل البحر الأسود ومصر وربما وصل حتى جنوب إسبانيا. تتميز كتاباته التي وصلتنا عن إيران بأنها أقرب إلى الجغرافية التاريخية أو الوصف الجغرافي، فلقد كان أولاً وقبل كل شيء جغرافي، حتى أنه قد أطلق عليه «أبو الجغرافيا» ويعتبر من مؤسسي علم الجغرافيا، ألف كتاباً أسماه «خريطة العالم» أو «رحلة حول البحر» احتوى بجانب الوصف الجغرافي للبلدان والأقاليم دراسة لتاريخها، كما قدم قائمة بتتابع الملوك والحكام وخاصة في أشور وميديا وفارس، وقيل أنه ضمنه خريطة لرحلته أو على الأقل ضمنه صورة من خريطة الفيلسوف الجغرافي أناكسيمندر الميليتي، وأثبت عليها البلاد التي زارها. (خريطة رقم ١٠) وكان له مؤلف آخر يتصل بالتاريخ المبكر لليونان وهو «الأنساب». ولم تصل إلينا كتابات هيكاتيوس كاملة، ولكن وصلتنا فقرات فيها كتابات المؤرخين اللاحقين له، ويستدل مما وصلنا منها أنه مارس في كتاباته نوعاً من النظرة الناقدة للمعلومات التي تجمعت لديه[٢].

٢ ـ أيسخولوس Aeschylus (٥٢٥/ ٤ ـ ٤٥٦ ق. م):

كان أيسخولوس شاعراً ومؤلفاً مسرحياً تراجيدياً، ألف على الأقل ثمان مسرحيات، بقيت منها سبعة[٣]، ما يهمنا منها في دراستنا المسرحية التي كتبها عن الفرس، واعتمد في بعض ما كتبه على تجربته الشخصية في معركة ماراثون التي اشترك في القتال فيها عام ٤٩٠ ق. م. وورد في هذه المسرحية كذلك بعض المعلومات عن معركة سلاميس التي جرت عام ٤٨٠ ق. م والأحداث

(١) عبد العزيز صالح: حضارة مصر القديمة وآثارها، الجزء الأول، في الاتجاهات الحضارية العامة حتى أواخر الألف الثالث ق. م، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٢٤١.

(٢) J.B. Bury, The Ancient Greek Historians, New York, 1958, pp. 11- 18.

(٣) B. Radice, Who's Who in the Ancient World, London, 1971, p. 3.

التي سبقتها مباشرة[١]. ولقد كتب أيسخولوس مسرحيته عن الفرس بعد انتهاء معركة سلاميس بثماني سنوات[٢] أي في عام ٤٧٢ ق. م.

وتبدأ المسرحية في القصر الملكي بسوسة، حيث نجد الملكة الأم، ورجال الحاشية تمزقهم الهواجس بعد أن انقضت عنهم طويلاً أخبار الملك خشيارشا (كزركسس) وجيشه. ونجد رجال الحاشية الذين يكونون جوقة الغناء في ثياب فخمة تجاوزت المألوف، لإعطاء فكرة عن فخامة البلاط الفارسي وبهائه. وصور أيسخولوس في مسرحيته نزعة الفرس إلى التطرف في الانفعال، وذلك حينما وصلت إليهم في القصر أخبار تدمير الأسطول الفارسي، ويحسب له أنه في مجال تصويره لمعركة سلاميس وصف الجنود الفرس بالشجاعة والإقدام[٣].

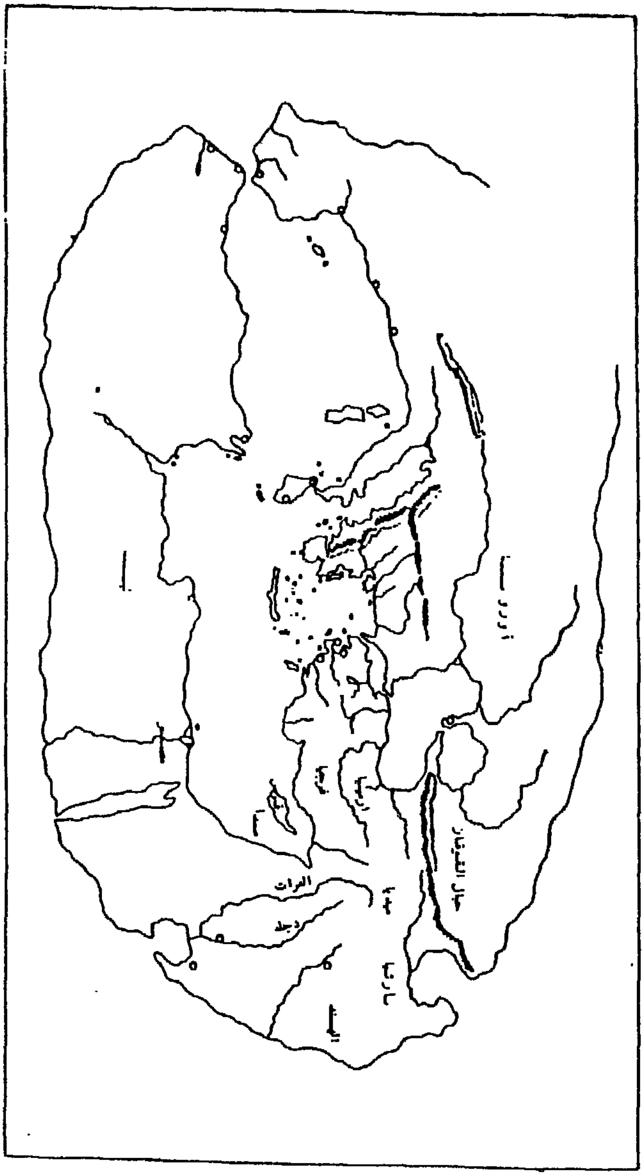
٣ ـ شارون اللامبسكوسي Charon of Lampsacus :

عاش في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، كتب عن تاريخ إيران القديم حتى حملة خشيارشا (كزركسس) التي كان معاصراً لها، ويعتبر مؤلفه من أوائل الأعمال التاريخية التي وصلتنا، وترهص بظهور الكتابة التاريخية. ولقد سمى شارون مؤلفه «Horoi of Lampsacus» وربما يفهم من هذا العنوان ـ أنه قاصر على التاريخ الوطني لمدينته، ولكنه في الواقع كان أكثر اتساعاً وشمولاً، فرغم أن عمله عبارة عن حوليات تؤرخ لسنوات حكام مدينة Lampsacus، إلا أنه سجل بالإضافة إلى الأحداث المحلية لهذه المدينة الأحداث الأخرى ذات

(١) سيد أحمد علي الناصري: الإغريق، تاريخهم وحضارتهم، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٨١، ص ٢٤٨.

(٢) N.G.L. Hammond, «The Battle of Salamis», in Journal of Hellenic Studies, vol, LXXVL, (1956), p. 38.

(٣) Aeshylus, The Persians, Translated by, S.G. Benardete, U.S.A., 1973 pp. 43- 86.



(خريطة ١٠) خريطة العالم كما أوردها هيكاتيوس

الأهمية التاريخية العامة(١).

٤ ـ ديونوسيوس الميليتي Dionysios of Miletos :

عاش في بداية القرن الخامس قبل الميلاد. ألف كتاباً عن تاريخ إيران القديم حتى وفاة داريوش، ويرجح أن يكون هيرودوت قد راجع كتابه، ويتجه بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن هيرودوت قد اعتمد على ما جاء في كتاباته، بل ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيدعون أن كل ما هو ذي قيمة في مؤلف هيرودوت إنما هو مأخوذ منه. ولكن هذه الآراء مبالغ فيها إلى حد ما، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب لعل من أهمها: إنه إذا كانت مؤلفات ديونوسيوس مهمة جداً، فلماذا اختفى معظمها دون أن نجد لها أثراً في الكتابات اللاحقة؟ ويضاف إلى ذلك أيضاً، أنه إذا كان هيرودوت قد اعتمد على ما جاء في كتاباته بشكل كبير، فإنه كان من المتوقع في هذه الحالة أن يستشهد بها بلوتارخ وغيره في محاولاتهم لهدم مؤلف هيرودوت(٢). ورغم كل ذلك، فإننا يمكننا الاستفادة مما تبقى من كتابات ديونوسيوس في دراسة تاريخ إيران القديم وذلك فيما يتصل بالحروب الفارسية اليونانية التي عاصرها.

٥ ـ هيرودوت Herodotus :

ولد هيرودوت عام ٤٨٤ ق. م، حسبما يرى معظم المؤرخون(٣)، وإن كان هناك من المؤرخين من يجعل مولده قبل ذلك بخمسة أعوام(٤). وكان مولده في مدينة هاليكارناسوس، وهي مدينة دورية في إقليم كاريا تدعى الآن

---

(١) J.B. Bury, op. cit., pp. 22- 29.

(٢) C. Hugnett, Xerxes Invasion of Greece, Oxford, 1963, PP. 12- 13.

(٣) Ibid., p. 25., A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 3.

(٤) أحمد بدوي: هِرُدوت يتحدث عن مصر، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٢.



(خريطة (١) خريطة العالم كما أوردها هيرودوت)

Budrnn، في الركن الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى. أما اسمه فهو في الغالب من الأسماء المركبة، فهو مركب من صدر وعجز، صدره «هيرا» وعجزه «دوت» أو «دوتاً» أي «أهدى» أو «أعطى»، وعلى ذلك فإن اسمه يفيد معنى «هدية هيرا» أو «عطاء هيرا»[١].

وكان والداه من أصل نبيل، كما كان عمه أو خاله ويدعى «بانياس» من الشعراء المعروفين، والسياسيين، وقد تعرضت أسرته من جراء مشاركتها في السياسة التي اشترك فيها هو الآخر لألوان من المحن أثرت في حياته فهاجر إلى ساموس[٢] أو نفي إليها[٣] وأقام بها حتى بدأ رحلته التي جاب فيها العديد من أقطار شرقي حوض البحر المتوسط، حيث زار مصر وسورية، بل وجاوز بابل وهمدان، ثم تنقل بين شواطىء البحر الأسود وجنوب روسيا، وبعد أن انتهى من رحلاته استقر به المقام أخيراً في مدينة ثوري Thuri بجنوب إيطاليا، وهي إحدى المستوطنات التي أقامتها أثينا في إيطاليا، حيث كان من أوائل مستوطنيها، وبقي فيها حتى أدركه الموت حوالي عام ٤٢٥ ق. م[٤]، حيث أن تاريخ وفاته غير معروف بالضبط، ومن ثم فإن المؤرخين يجعلونه بشكل تقريبي في أواخر الربع الأخير من القرن الخامس قبل الميلاد، إذ لا توجد أي إشارة في مؤلفه تدل على أنه قد عاش بعد سن الستين[٥]، وهناك بعض النظريات الحديثة التي ترى أنه قد عاد من ثوري إلى أثينا مرة أخرى عام ٤٣٢ أو ٤٣١ ق. م[٦].

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٣.

(٣) C. Hignett, op. cit. p. 26.

(٤) سيد الناصري: المرجع السابق، ص ٥.

ومما هو جدير بالذكر أنه نظراً لطول إقامة هيرودوت بهذه المدينة، فقد نسبه بعض المؤرخين إليها، فأسموه أحياناً «هيرودوت الثوري». انظر: أحمد بدوي: المرجع السابق، ص ١٦.

(٥) ا. ج. إيفانز: هيرودوت: ترجمة أمين سلامة ومراجعة كمال الملاخ، ص ٧.

(٦) C. Hignett, op. cit , p. 26.

ويتضح من كتابات هيرودوت وأسلوبه أنه قد تأثر بالمعارف والثقافة الإغريقية، وبخاصة شعر الملاحم «ملاحم الأبطال» الذي شاع بين القرنين الثالث عشر والحادي عشر قبل الميلاد، وكذلك في القصص المنثور الذي حل محل القصص المنظوم في بلاد اليونان في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد. ويذكر إيفانز[١] أنه يبدو مما كتبه هيرودوت أنه اتبع خطى هومير، ويبدو ذلك جلياً من تصميم وخطة مؤلفه، وترتيب ونظام أجزائه، وروح وطبيعة أفكاره، وأخيراً، من عشرة الآف مصطلح وكلمة استعملها وبالإضافة إلى ذلك، فلقد استفاد هيرودوت في مؤلفه من الكتابات التاريخية التي سبقته.

ونظراً لاهتمامه الكبير بالصراع بين إيران وبلاد اليونان ومحاولته كتابة تاريخ الحروب الفارسية لغزو بلاد الإغريق، ذلك النزاع الذي بدأ بحملة ماردونيوس الأولى، وانتهى بحملة الملك خشيارشا (كزركسس) التي انهزم فيها الفرس، فإنه قد عمل على جمع العديد من المعلومات المتصلة بهذا الموضوع. ففي أثناء وجوده في آسيا الصغرى جمع الكثير من المعلومات عن الحرب التي دارت رحاها عام ٤٨٠ ـ ٤٧٩ ق. م وذلك من اليونانيين الذين حاربوا في جانب الفرس. ومن المؤكد كذلك أنه قد اعتمد على المصادر الأدبية، ولكنها في المقام الأول ليست مصادر تاريخية، وعلى ذلك فإن المعلومات التي استقاها منها تصبح ذات أهمية ثانوية، وهي تتضمن أعمالاً عن الأنساب والجغرافيا. ومن المحتمل أن يكون هيرودوت قد قرأ كتاب أيسخولوس عن الفرس واستفاد منه، وإن أضاف إليه بعض المعلومات التي أخذها من المصادر الشفوية.

وعندما كان هيرودوت يكتب عن بلاد لم يقم بزيارتها، فإنه كان دائماً يحاول الحصول على معلومات من أولئك الذين قاموا بزيارتها وشاهدوها بأنفسهم، ومما لا شك فيه أنه قام بهذا العمل عندما قام بكتابة تاريخ الحروب

---

(١) ا. ج. إيفانز: المرجع السابق، ص ٥.

الفارسية، فقد قام بسؤال من هم على قيد الحياة، كلما أمكنه ذلك، عن ذكرياتهم ومعلوماتهم عن الأحداث التي شاركوا فيها، إلا أنه لم يشر إلى أسماء هؤلاء الأشخاص إلا في القليل النادر.

ومن المصادر التي اعتمد عليها هيرودوت كذلك في دراسته لتاريخ الفارسي وتنظيمات الإمبراطورية الفارسية، المعلومات التي زودوه بها خلفاء أرتابازوس Artabazos أحد قواد الفرس في حملة خشيارشا (كزركسس) والذي عين فيما بعد حاكماً للمنطقة الشمالية الغربية لآسيا الصغرى[١].

وسمى هيرودوت مؤلفه «تمحيص الأخبار» وهو يتكون من تسعة أجزاء، قام بتقسيمها النحويون السكندريون، نسبوا كل جزء منها لإحدى عرائس العلوم والفنون من بنات «زيوس» التسع. ويرى J.B. Bury[٢] أن هذا التقسيم يتفق تماماً مع مضمون الكتاب، ولا يمكن إضافة شيء إليه، ولكنه يذكر أنه يمكن تقسيمه بشكل طبيعي إلى ثلاثة أقسام يضم كل واحد منها ثلاثة أجزاء: القسم الأول، أو الكتب الثلاث الأولى تتضمن عهود كل من كوروش وكمبوجيه (قمبيز) وتولى داريوش العرش. أما القسم الثاني، فأنه يتناول عهد داريوش، ويتناول القسم الثالث عهد خشيارشا. ويهتم القسم الأول بشكل رئيسي بآسيا متضمناً مصر، والقسم الثاني بأوربا، والقسم الثالث ببلاد اليونان.

ويرجح أن يكون هيرودوت هو أول من كتب قصة الحروب الفارسية بأسلوب تاريخي، ولكنه اعتمد فيما كتب على من سبقوه وبخاصة أن الرواية الشعرية التي ألفها إيسخولوس عن الفرس كانت تتردد في أثينا قبل كتابته لمؤلفه، كما لا يستبعد كذلك اعتماده على مؤلفات من سبقوه وبخاصة ديونوسيوس الميليتي وشارون اللامبسكي[٣].

(١) C. Hignett, op. cit., p p. 29 - 31.

(٢) J. B. Bury., op. cit., p. 38.

(٣) Ibid., pp. 67- 68

ويؤخذ على هيرودوت أنه اعتمد بشكل كبير على كتابات من سبقوه دون الإشارة إليهم، إذ لم يذكر منهم سوى هيكاتيوس فقط، وحتى حينما أشار إلى Scylas، فإنه لم يشير إليه ككاتب، رغم أنه من الواضح أنه اعتمد عليه. ونظراً لفقدان معظم كتابات هؤلاء المؤرخين، فإنه من الصعب معرفة ما أضافه هيرودوت نفسه إلى البحث التاريخي[١]. وكان لذلك أثره في تشكك الكثيرين في قيمة عمله، بل إن منهم من اتهمه صراحة بالسرقة والانتحال والكذب. ومن أوائل الذين اتهموه «بلوتارخ» (٤٦ ـ ١٢٠ م) الذي رماه بالخبث[٢]. ويؤخذ عليه كذلك جهله بلغات الشعوب التي كتب عنها وتحدث عن تاريخها، وقيامه بعمل واسع غير محدود، كما مال إلى إرجاع الحوادث التاريخية إلى مسببات مباشرة فقط، أو إلى دوافع فردية، وأغرق نفسه في عالم الخرافات الأسطورية، والغيبيات الدينية[٣]. ومن نقاط الضعف كذلك عند هيرودوت الهنات الموجودة في تحديده لتواريخ الأحداث وبخاصة فيما يتصل بالجزء المبكر من تأريخه لبلاد اليونان[٤].

وتوجد في كتاباته آثار من التحيز لا يمكن إنكارها، وإن كان هناك من المؤرخين من يرمون بدائرة اللوم على مصادر معلوماته وليس عليه هو، فيذكرون أنه قد بولغ بشكل كبير في هذا الموضوع، وأنه حيثما توجد آثار من التحيز فإنها توجد في الروايات كما تلقاها، وأنه لم يضعها كوثيقة أصلية، وأنه إذا ارتبط به لوم، فإنه يكون فقط بسبب عدم كفايته في دفاعه عن التحامل الممكن على مصادر معلوماته[٥]. وحتى مع صحة هذا الرأي، فإن ذلك لا يعفيه إطلاقاً من المسئولية، فقد كان من المفروض عليه فحص المصادر التي

(١) Ibid. p. 69.

(٢) أحمد بدوي ، المرجع السابق، ص ١٩ .

(٣) سيد الناصري: المرجع السابق، ص ٣٠٦ .

(٤) C. Hignett, op. cot. p. 34.

(٥) Ibid, pp. 36-37.

يعتمد عليها وتقدير ما بها من معلومات.

ومما يحسب لهيرودوت، أنه رغم تقديره الكبير لطريقة اليونان في الحياة، فإنه قد استطاع تقدير المزايا الطيبة الموجودة في الشعوب المعادية بما في ذلك الفرس، فنراه يصف الشعب الفارسي بالنشاط والشجاعة والحيوية والمرح ورقة الأخلاق والذكاء، وأنه قادر على قول الحكم والأمثال في مواضعها الحقة، وأنه قادر على الردود المقنعة[١]. ويشير إلى أنهم يدربون صبيانهم على ركوب الخيل والرماية بالقوس وقول الصدق من سن الخامسة وحتى العشرين، وأن هذا الحب للصدق يتمثل في حرص الفرس على احترام المعاهدات، وحرص ملوكهم على الوفاء بالوعود[٢].

إن من السهل الإسهاب في الحديث عن ضعف هيرودوت كمؤرخ، ولكن من المهم كذلك، أن نذكر فضله الذي لا يمكن إنكاره، فلقد كان رائداً في مجال كتابة التاريخ، وكان لإنجازاته الفضل في تذنيل الصعاب أمام من جاء بعده وبخاصة ثوكوديدس. وإذا نظرنا إلى مؤلفه من حيث اعتماده في كتابته على ارتياد الأماكن التي تستحق المشاهدة وتتصل بالأقاليم التي يتحدث عنها، وعلى الروايات الشفوية لمن عاصروا الأحداث التي تتضمنها، فإنه يكون قد أنتج كتاباً جيداً في التاريخ، وتعتبر كتبه الثلاث الأخيرة التي تصف حملة خشيارشا من أنجح كتبه من وجهة النظر التاريخية، وذلك نظراً لأنه تعامل مع أحداث تدخل في نطاق ذاكرة من عاصروها ونقل عنهم. وفي حالة وجود اضطراب في الروايات، كان يأخذ مواضع الاضطراب ليراجع أدلتها بمهارته الممتازة ويزودها بفحوصه الشخصية على الواقع، وساعده على ذلك أن المظاهر السطحية لشمال ووسط اليونان كانت مألوفة لديه، كما يرجح أنه قام بزيارة المواقع التي حدثت

(١) Herodotus, I, 37FF.

(٢) Lockhart. op. cit., p. 321.

فيها المعارك[١].

وتجدر الإشارة إلى أن هيرودوت قد توصل من خلال محاولته البحث في أسباب قيام الحروب الفارسية إلى نظرية لها أهميتها، وهي فكرة الصراع بين الشرق والغرب، وذلك على أساس أن فارس تمثل الشرق واليونان تمثل الغرب[٢].

ويمتاز أسلوب هيرودوت بالبساطة والسهولة، وكان يتحاشى استخدام المحسنات اللفظية والصور البلاغية، ويكثر من استعمال الكلمات الشائعة والمألوفة[٣]. ويرى J.B. Bury أنه هومير الحرب الفارسية، وأن هذه الحرب كانت أساس إلهامه[٤]، ولذا فلا غرو إن أسماه الرومان «Pater Historiae» أي «أبو التاريخ» فهو رغم أخطائه التي وقع فيها والهنات الموجودة في مؤلفه، كان أول من جمع المادة ثم نقحها بقدر ما يستطيع، ثم صاغ منها مادته التاريخية في شكل مترابط وهادف[٥].

ولعل من المفيد ـ فيما يتصل بهيرودوت ـ أن نورد الخريطة التي ألحقها هيرودوت بمؤلفه عن العالم، حتى نتبين منها مدى تصوره لمناطق الشرق القديم وبخاصة إيران. (خريطة ١١).

٦ ـ ثوكوديدس Thucydides (٤٦٠ ـ ٤٠٠ ق. م تقريباً):

ينتمي ثوكوديدس إلى إحدى الأسر النبيلة التي جاءت أصلاً من إقليم تراقيا في شمال بحر إيجة، وكان والده ثرياً يمتلك العديد من مناجم الذهب في تراقيا، درس ثوكوديدس الفلسفة والبلاغة في أثينا، وكان بها عندما اندلعت

---

(١) C. Hignett, op. cit., p. 33.

(٢) F.R.B. Godolphin, in Herodotus, The Persian, wars, p. XX11.

(٣) أ. ج. إيفانز: المرجع السابق، ص ١٢.

(٤) J.B. Bury, op. cit., p. 74.

(٥) سيد الناصري: المرجع السابق، ص ٣٠٦.

الحرب البلوبونيزية عام ٤٣١ ق. م. وفي عام ٤٢٤ ق. م. عين ضابطاً كبيراً في قيادة الحرب ضد إسبرطة، وأدت هزيمته إلى طرده من الخدمة العسكرية ونفيه من مدينة أثينا، حيث قضى في المنفى عشرين عاماً عاد بعدها إلى أثينا عام ٤٠٤ ق. م. وعمل ثوكوديدس أثناء فترة منفاه على دراسة الحروب البلوبونيزية وتحليل أسبابها ونتائجها، فزار المناطق التي دارت عليها رحى الحرب، وتمكن من جمع مادة علمية غزيرة مكنه من جمعها صلات أسرته القوية في أثينا، وساعده على تفهمها ثقافته العسكرية واشتراكه في هذه الحرب. وظل ثوكوديدس بأثينا حتى وافته المنية بها. وتختلف الآراء حول عام وفاته، ولكن من المؤكد أنه لم يبق على قيد الحياة بعد عام ٣٩٦ ق. م. وقد توفي قبل أن يتم كتابة مؤلفه التاريخي[١] الذي بلغ ثماني مجلدات، وكان آخر ما سجل فيه الانتصار الخاطف للأسطول الأثيني عام ٤١١ ق. م[٢].

وقدم ثوكوديدس في مؤلفه مستوى جيداً في دقة عرض الحقائق، ونموذجاً جديداً لبحث التاريخ، فقد أراد أن يسجل عرضاً تاريخياً له قيمة خالدة، وهو يُذكر قراءه أنهم سوف لا يجدون في تأريخه شيئاً من الأساطير. وكان حريصاً على عدم ذكر رواية هو في شك منها، وفي الحالات القليلة التي أورد فيها أخباراً ونفى عنها صفة اليقين، كان يلحق بها عبارة «كما يقال» حتى يجعل الأمر في دائرة الاحتمال، وقد امتاز ثوكوديدس بمقدرة فذة على النقد العقلي والمنطقي، واستطاع أن يرتقي بكتابة التاريخ، حتى ليمكن اعتباره مؤرخاً علمياً بمعنى الكلمة[٣].

---

(١) Thucydides, History of the Peloponnesian War, vol. I., with an English Translation by C.F., Smith, London, 1962, p. VII.,
J.B. Bury, op. cit., pp. 75- 77.

(٢) سيد الناصري: المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٣) فيما يتصل بمنهجه في التاريخ والقواعد والأسس التي قام عليها. انظر:
J.H. Finely, The Complete Writings of Thucydids, The Peloponnesian War, N Y . 1951, p. VIIFF.,
J.B. Bury, op. cit., p. 81ff.

وفيما يتصل بالحروب الفارسية، فلقد ألقى عليها بعض الضوء في مؤلفه، وجاءت هذه الإشارات بشكل عارض، وأورد في كتابه الثامن نصوصاً كاملة للمعاهدات المبرمة ما بين فارس وإسبرطة، ويرجح أنه قد قابل بعض من شهدوا هذه الحروب، ويلاحظ أنه قد انتقد هيرودوت عدة مرات دون الإشارة إليه بالإسم، وإن كان قد وافق على ما جاء عند هيرودوت ويتصل بالحرب الكبرى دون مناقشة، رغم ما تعرضت له من نقد بعد ذلك[١].

٧ ـ كتسياس Ktesias:

كان طبيباً في بلاط الملك أردشير الثاني[٢] الذي أطلق عليه اليونان ارتكسركسيس الثاني Artaxerxes II (٤٠٤ ـ ٣٦٠ ق. م) وصاحبه في معركة كوناكسا Kunaxa عام ٤٠١ ق. م. وبعد ذلك بعدة سنوات عاد إلى بلاد اليونان حيث كتب مؤلفه Persika في ثلاثة وعشرين كتاباً، ولكن للأسف لم يبق منه شيء، ولكن الموجز الذي كتبه عنه Photios كان مطولاً بدرجة تكفي لتكوين فكرة طيبة عن طبيعة هذا المؤلف. ويتضح منها أنه اعتمد على الروايات الشفوية التي سمعها من الفرس وذلك فيما يتصل بالأحداث السابقة لعهده والتي جاءت في كتابه الأول[٣]، أما في الفترة التي عاصرها، فإن كتاباته جديرة بالتقدير والاهتمام، ويرجح أن يكون قد أنهى مؤلفه بأحداث عام ٣٩٨ ـ ٣٩٧ ق. م[٤].

(١) C. Hignett, op. cit., pp. 7- 8.

(٢) كان اسمه قبل تولي العرش «أرشك».

(٣) Ibid., pp. 9- 10.

(٤) Ibid., p. 9 no. 2.

٨ ـ أكسينوفون Xenophon (٤٢٩ ـ ٣٥٤ ق. م. تقريباً)[١]:

نشأ اكسينوفون في أسرة أثينية عريقة، كان فيها رجال الحرب والفلاسفة والمؤرخون والأدباء. وهو من المؤرخين الكلاسيكيين القلائل الذين حفظت أعمالهم. وهو يتميز بجانب قدراته التاريخية بمعرفته بفنون كثيرة من المعرفة كالاقتصاد والاجتماع والسياسة والشؤون العسكرية، وكان في شبابه من أتباع سقراط (٤٩٦ ـ ٣٩٩ ق. م) ومعتنقي أفكاره. كتب العديد من المؤلفات التاريخية، ولكنه كان يميل إلى الوصف والعرض العام للتاريخ، فلم يكن باحثاً عميقاً يهتم بالتحليل الدقيق والتفسير المنطقي للأحداث التاريخية، حاول إكمال أعمال ثوكوديدس فسجل تاريخ اليونان منذ عام ٤١٢ ق. م. وحتى عام ٣٦٢ ق. م. وذلك في مؤلفه الذي أسماه «تاريخ الهيللينيين Hellenica»[٢] إلا أنه لم يبلغ في كتابته إلى مقدرة وكفاية ثوكوديدس. ومن أعماله الأخرى التي تهمنا في مجال دراستنا لتاريخ إيران القديم مؤلفه المعروف باسم «الأناباسيس Anabasis» أو «الصعود» أي التوغل في أعالي الشرق داخل قلب آسيا الصغرى، وإلى قلب الامبراطورية الفارسية فيما وراء دجلة والفرات[٣]، وهو يصف فيه سيرة الأمير الفارسي كوروش الذي كان «سترابا» على آسيا الصغرى، واستطاع أن يجند جيشاً من المرتزقة الإغريق، كان من بين صفوفه اكسينوفون، للإطاحة بأخيه الأكبر ارتاكسركسيس الذي تولى العرش بعد والده داريوش الثاني، وقدم اكسينوفون وصفاً رائعاً لهذه الحملة منذ قيامها وما صادفها من أهوال بعد مقتل كوروش، إذ تولى اكسينوفون قيادة الجنود الإغريق في طريق العودة من فارس إلى بلاد اليونان.

---

(١) W. Miller, in Xenophon Cyropaedia, vol, I, London, 1960, p. VII-XIII.
J.B. Bury, op. cit., pp. 151- 154.

(٢) Xenophon, Hellenica, Books VI- VIII, with an English Translation by. C.L. Brownson, London, 1961, pp. 1- 225.

(٣) Xenophon, Anabasis, Book I-III, with an English Translation by C.L. Brawnson, London 1961, pp. 229- 493, Books IV- VII, pp. 1- 371.

ويعتبر هذا المؤلف الذي سجل فيه اكسينوفون يوميات هذه الحملة من أنجح كتبه التي ألفها، فقد تمكن فيه من التعبير عن العديد من المشاعر الإنسانية، وهو حافل بالشجاعة والمغامرة والنظام والتصرف العاقل الرزين في مواجهة الأخطار، كما أنه سجل تاريخي معاصر للأحداث التي مرت بالإمبراطورية الفارسية بعد وفاة داريوش الثاني وصراع أولاده على العرش. ولقد تتبع في مؤلفه تربية كوروش منذ طفولته، وأشار في ثنايا ذلك إلى نظام التعليم في فارس في مراحله المتعددة، كما أشار إلى الرحلات التي قام بها كوروش وبعض هواياته بتفصيل كبير، وذلك في الجزء الأول من مؤلفه Cyropaedia.[١]

٩ - إفوروس Ephoros (حوالي ٤٠٥ - ٣٣٠ ق. م):

يتكون مؤلف إفوروس عن تاريخ العالم من تسعة وعشرين كتاباً، كل كتاب منه يكون وحدة مستقلة في حد ذاته ولكل كتاب مقدمة خاصة به، وأضاف ابنه إليها الكتاب الثلاثين وهو يؤرخ حتى حصار بيرنثوس (٣٤٠ - ٣٣٩ ق. م)[٢]. وعلى ذلك فإنه يتبع نظام الحوليات التاريخية، إذ يبدو أن إفوروس كانت لديه معرفة بما كتب في التاريخ والجغرافيا، وكان مقتنعاً تماماً بقيمة المصادر الأصلية للمعلومات. وتمتع بمقدرة كبيرة في التحليل والنقد التاريخي، وتوصل من خلال قواعد النقد التاريخي التي انتهجها إلى عدم الاهتمام نهائياً بالعصور المبكرة التي غلبت عليها الأساطير، ولذا فقد بدأ مؤلفه التاريخي بالغزو الدوري لبلاد اليونان.

---

(١) Xenophon, Cyropaedia, with an English Translation by W. Miller, London, 1960, pp. 1- 129.

(٢) J.B. Bury, op. cit., p. 163, no. 1.

ولقد تأثر إفوروس في كتابه لمؤلفه بإيسوقراط Isocrate[(١)] الذي تتلمذ عليه، ومن مظاهر هذا التأثر التي يمكن ملاحظتها اعتراض سياق القصة بأمثال أخلاقية لا قيمة لها، وكذلك إدخال خطب إيسوقراط على الأحداث التاريخية حتى عندما يواجه الجيش الأعداء، وكذلك الاتجاه للإطراء[(٢)].

وتعتبر كتابات إفوروس عن الحروب الفارسية من أهم ما كتب عن هذه الحروب في القرن الرابع قبل الميلاد. ورغم أن الجزء الذي تحدث فيه عن هذه الحروب لم يصل إلينا، إلا أن العلماء الحديثيين يتفقون على أن ديودور الصقلي قد اعتمد عليه اعتماداً كاملاً وذلك في فصول مؤلفه المتصلة بالحروب الفارسية وذلك في كتابه الحادي عشر[(٣)]. فلقد كان إفوروس هو المصدر الأول لديودور الصقلي، كما ظل تأثيره قوياً كذلك على المؤرخين الرومان إبان عصر الإمبراطورية[(٤)].

١٠ ـ ديودور الصقلي Didorus Siculus (حوالي ٨٠ق.م ٣٠ق.م):

كتب مؤلفاً في التاريخ العام، أو تاريخ العالم بعنوان «المكتبة التاريخية Bibliotheke» وتناول فيه تاريخ العالم منذ العصور الأسطورية وحتى ٦٠ ـ ٥٩ ق. م. ويقع مؤلفه في أربعين كتاباً، لم تصلنا منها كاملة سوى الكتب من

(١) إيسوقراط (٤٣٦ ـ ٣٣٨ ق. م) خطيب أثيني اشتهر بخطبه القانونية، كما كانت له آراؤه السياسية التي عبر عنها في مقالاته العديدة التي ألقها، وقد افتتح مدرسة في أثينا كان من بين تلامذتها إفوروس، ويعتقد أنه قد قتل نفسه بعد هزيمة الإغريق أمام فيليب في موقعة خايرونيا. انظر:

B. Radice, op. cit., p. 74.

(٢) J.B. Bury, op. cit., p. 164.

(٣) C. Hignett, op. cit., p. 14.

(٤) سيد الناصري المرجع السابق، ص ٥٨٥.

١ ـ ٥، ١١ ـ ٢٠، ووصلت شذرات من بقية الكتب ٢١ ـ ٤٠ ضمن مؤلفات اللاحقين. وما يهمنا في مجال دراستنا لتاريخ إيران القديم كتبه من ١١ ـ ٢٠ وهي التي وصلتنا كاملة، وقد استعرض فيها تاريخ الفترة من عام ٤٨٠ ـ ٣٠٢ ق. م وتناول فيها الحروب الفارسية، وقد استقى معلوماته من العديد من المؤرخين وبخاصة هيكاتيوس وإفوروس[١] كما سبق القول.

١١ ـ سترابو Strabo (حوالي ٦٣ ق. م ـ ٢١ ق. م):

ولد سترابو في أماسيا في بونتوس وذلك حوالي عام ٦٤ أو ٦٣ ق. م. ورث عن أسرته ثراء عريضاً مما مكنه من القيام برحلاته الكثيرة، وتتميز كتاباته بأنها من نوع الجغرافية التاريخية، وينقسم مؤلفه إلى سبعة عشر جزءاً وزع عليها أقاليم العالم، وتتميز كتاباته بالموضوعية والبعد عن العاطفة، زار كثيراً من أقاليم الإمبراطورية الرومانية، وكان أول رحلة يقوم بها إلى روما، وكان ذلك في عام ٤٤ ق. م. وعمره حينذاك لم يناهز التاسعة عشرة أو العشرين، وزار مصر عام ٢٥ ق. م، حيث تتبع مجرى النيل جنوباً حتى أثيوبيا، ولقد عاش بالإسكندرية ما يزيد عن خمس سنوات نهل فيها من مكتبتها الشيء الكثير وهو الأمر الذي انعكس في كتاباته[٢]. ولقد وصف الكثير من المناطق التي شهدت الحروب الفارسية وسجل بعض أخبارها[٣]. وتحدث عن الخليج الفارسي أو البحر الفارسي، حيث اعتبره أحد أربعة خلجان كبرى[٤]، وأشار إلى الفرس ولغاتهم وعاداتهم وديانتهم وبعضاً من تاريخهم، وذلك في كتابه الخامس عشر، ولقد أشار إلى الهخامنشيين (الإخمينيين) بقوله إنهم دون سائر البرابرة جميعاً

---

(١) عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني، بيروت ١٩٧٠، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) H.L. Jones, In The Geography of Strabo, vol, I, London, 1960, pp. XI-XXVIII.

(٣) C. Higentt, op. cit., p. 19.

(٤) Strabo, The Geography of Strabo, with an English Translation by H.L. Jones, London, 1960, Book II, 18, p. 467.

خير من يعرفهم اليونان، فإن أحداً غيرهم من البرابرة الذين حكموا آسيا لم يسيطر مثلهم على بلاد اليونان، كما أنهم يضارعون اليونان في قدرتهم على تقبل حضارة المدن[١].

١٢ ـ بلوتارخ Plutarch (حوالي ٤٦ م ـ ١٢٠ م):

نستمد معلوماتنا عن بلوتارخ من الإشارات المتفرقة التي وردت عنه في كتاباته، ولا يمكن تحديد سنة مولده أو سنة وفاته بالضبط، وحتى اسم والده فإنه غير معروف، ولقد ولد في بلدة خيرونيا في شمال إقليم بويوتيا في بلاد اليونان، درس الفلسفة ولا سيما الفلسفة الأخلاقية والعلوم الطبيعية والبلاغة في أثينا، ثم رحل إلى روما حيث تعلم اللاتينية[٢].

وفيما يتصل بكتاباته عن تاريخ إيران القديم، فيعتبر بلوتارخ من أكفاء المؤرخين بعد إفوروس الذين كتبوا عن الحروب الفارسية، حيث اعتمد في كتابته على مصادر عديدة معاصرة. ويرجع الفضل إليه في حفظ العديد من المعلومات الهامة التي ترجع إلى الحروب الفارسية[٣]. ولقد أشار كذلك في مقالته التي أسماها «Regum Et Imperatorum Apopthegmata» (أقوال الملوك والقواد)، إلى العديد من ملوك الفرس[٤].

(١) Strabo, The Geography of Strabo, with and English Translation by H.L. Jones. London, 1961, Book XV, pp. 155-189.

(٢) Plutarch, Moralia, vol. I, with an English Translation by F.C. Babbit, London, 1960, p. IXff.

(٣) أشار إلى الحروب الفارسية في العديد من مقالاته، ومنها مقالته التي أسماها «القصص اليونانية والرومانية المتقابلة» Parallela Greaca et Romana. انظر:

Plutarch, Moralia, vol. IV, with an English Translation by F.C. Babbet, London, 1962, p. 253ff.

(٤) Plutarch, Moralia, vol. III, with an English Translation by F.C. Babbett, London, 1961, p. 8ff.

ثالثاً: المصادر المعاصرة

يعتمد الباحث في دراسته لتاريخ إيران القديم على المصادر المعاصرة في منطقة الشرق القديم، فلقد ألقت الوثائق والتسجيلات التاريخية التي كشف عنها في العديد من مناطق الشرق القديم الكثير من الضوء على تاريخ إيران القديم وبخاصة أثناء الفتوحات الفارسية، ومن أهم هذه المصادر النقوش السومرية التي أمدتنا بالكثير من المعلومات عن الأحوال السياسية والحضارية في الهضبة الإيرانية، فقد اتصلت سومر منذ أقدم العصور بالهضبة الإيرانية لحاجتها للمواد الخام والمعادن الموجودة بها، وساعد على ذلك قرب سومر من عيلام إذ لا تزيد المسافة بينهما عن مائة ميل وسهولة الاتصال بينهما، وأدى ذلك إلى وجود كثير من أوجه التشابه في الانتاج الحضاري بينهما وهو ما يظهر بوضوح في الأواني الفخارية[1] كما وردت في النقوش الأشورية والبابلية الكثير من الإشارات إلى تاريخ إيران القديم، وهي توضح طبيعة العلاقات السياسية ما بين إيران والعراق.

وبالإضافة إلى المصادر النصية العراقية، فإن الباحث يعتمد كذلك على ما ورد في المصادر النصية المصرية وبخاصة أثناء فترة الاحتلال الفارسي لمصر. ومن هذه النقوش، النقش الخاص بالملك داريوش والمتعلق بالقناة التي أمر بحفرها لربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وتوضح النسخة المصرية لهذا النقش سلوك داريوش مع البلاد التابعة له.

رابعاً: المصادر الدينية

أ ـ التوراة:

التوراة أو «التورة» كلمة عبرية تعني الهداية والإرشاد، ويقصد بها الأسفار

---

(١) J.H. Iliffe, op. cit., pp. 3 - 4.

الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية) والتي تنسب إلى موسى عليه السلام، وهي جزء من العهد القديم، والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم «التوراة» من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى عليه السلام، والتوراة أو العهد القديم ـ تمييزاً له عن العهد الجديد كتاب المسيحيين المقدس ـ هو كتاب اليهود الذي يضم إلى جانب تاريخهم، عقائدهم وشرائعهم(١).

وقسم أحبار اليهود العهد القديم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الناموس: وهو أسفار موسى الخمسة.

٢ ـ الأنبياء: وهم الأنبياء الأولون أي يشوع والقضاة وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني. والمتأخرون وينقسمون إلى الأنبياء الكبار: وهم أشعياء وأرمياء وحزقيال. والأنبياء الصغار وهم: هوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجى وزكر. وملاخي.

٣ ـ الكتب: وهي المزامير والأمثال وأيوب ونشيد الإنشاد وراعوث والمراثي والجامعة وأستير ودانيال ونحميا وعزرا وأخبار الأيام الأول والثاني(٢).

هذا وقد تحدثت التوراة في كثير من أسفارها عن الفرس وعلاقتهم بالإسرائيليين، كما جاء في أسفار التكوين وأشعياء وأستير ودانيال ونحميا وعزرا وأخبار الأيام الأول والثاني.

إلا أنه يلاحظ أن الصورة التي ترسمها التوراة للفرس تنطوي عامة على محاسن كثيرة، ولكن يجب أن نحتاط فلا نصدق كل ما ورد في أسفارها عن

---

(١) قدم الأستاذ الدكتور محمد بيومي مهران دراسة مفصلة عن التوراة في مؤلفه القيم:
محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ١٠، إسرائيل، الكتاب الثالث، الحضارة، الإسكندرية، ١٩٧٩، ص ١ ـ ٣٨٠.

(٢) فؤاد عقاد: قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ٧٦٤.

فارس وملوكها وأهلها، فقد أظهر كوروش وبعض خلفائه تسامحاً مع اليهود وعطفاً عليهم، فلا غرو أن يتحدث هؤلاء خيراً عن الفرس، ويظلوا أوفياء لهم زمناً طويلاً، فعندما فتح كوروش بابل عام ٥٣٩ ق. م. سمح لليهود المنفيين فيها بالعودة إلى فلسطين والاستقرار فيها. وفي عهد داريوش أصدر مرسوماً أيد فيه مرسوم سلفه فتمت إعادة بناء المعبد في السنة السادسة من حكمه[١].

وعبر العديد من أسفار التوراة ـ على سبيل المثال ـ عن هذه الحالة، فقد أشار سفر عزرا إلى الأمر الذي أصدره كوروش بعودة اليهود من المنفى: «هكذا قال كوروش ملك فارس: جميع ممالك الأرض دفعها إلى الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا، من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل هو الإله، الذي في أورشليم»[٢].

ويتضح في مكان آخر الاحترام الشديد الذي عومل به كوروش، فقد جاء في سفر أشعياء: «هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن. أنا الرب صانع كل شيء ناشر السموات وحدي باسط الأرض... القائل عن أورشليم ستعمر ولمدن يهوذا ستبنين وخربها أقيم... القائل عن كوروش راعي فكل مسرتي يتمم»[٣]. إلا أنه يتضح مما ورد في التوراة ويتصل بتاريخ إيران قبل العهد الهخامنشي، أن كاتبي التوراة لم تكن لديهم دراية كافية به، ولذلك جاءت معلوماتهم عنه مشوبة بالاضطراب إلى حد كبير.

وتجدر الإشارة، أننا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي أن نتخلص تماماً من الهالة التي أسبغها عليها المؤمنون بها، وأن ننظر إليها كما ننظر إلى غيرها من المصادر التاريخية، وأن نناقش ما جاء بها، نتقبل ما تقوله بصدر

(١) عزرا: الإصحاح السادس.

(٢) عزرا: ١: ٢ ـ ٤.

(٣) أشعياء: ٤٤: ٢٤ ـ ٢٨.

رحب إن كان يتفق مع الأحداث التاريخية، ويوافق المنطق والمعقول، ونرفضه حين تذهب بعيداً عن ذلك[١].

ب ـ الكتب الدينية الفارسية:

يعتبر الأوستا أو الأبستاق كتاب الزرتشتيين الديني نسبة إلى زرتشت من أهم الكتب الدينية الفارسية القديمة. ولم يتمكن العلماء من تحديد الوقت الذي عاش فيه زرتشت على وجه اليقين، وكذلك المنطقة التي نشأ فيها، والوقت الذي كتب فيه الأوستا، وإن كان معظم العلماء يتجهون إلى الأخذ بالرأي الذي نادى به جاكسون A.V.W. Jackson[٢] وهو أن زرتشت قد ولد في النصف الثاني من القرن السابع ق. م وتوفي في النصف الأول من القرن السادس ق. م وهناك من الباحثين من يرجع الفترة التي ظهر فيها زرتشت إلى حوالي عام ١٠٠٠ ق. م. إن لم يكن قبل ذلك[٣]. بينما يتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنه قد ظهر في النصف الثاني من القرن السادس ق. م[٤].

أما عن المكان الذي نشأ فيه، فكان الرأي يتجه إلى أنه ولد في بلخ، ولكن الرأي الغالب أنه ولد في منطقة أذربيجان وفي شيز على وجه التحديد، هذا ويذكر بعض المؤرخين الإسلاميين كالبلاذري[٥] وابن الفقيه[٦]

(١) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٢٦٣ ـ ٢٩٦.

(٢) A.V.W. Jackson, Zoroaster, the Prophet of Ancient Iran, N.Y., 1919.

(٣) من هؤلاء الباحثين، انظر:

E. Meyer, in Encyclopaedia Britannica, 11th Ed., xx1, 205b.

(٤) من هؤلاء الباحثين انظر:

G.B. Gray, «The Reign of Darus» in C.A.H., vol. IV, Cambridge, 1930, p. 207.

(٥) البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): فتوح البلدان، القاهرة ١٩٥٧، ص ٤٦٢.

(٦) ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني): مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢ هـ. ص ٣٨٥.

والمسعودي[١] وأبي الفداء[٢] أن زرتشت من إذربيجان وأنه ولد في (أرميه)، وعلى ذلك فإنه طبقاً للروايات الزرتشتية والإسلامية وأقوال غالبية المستشرقين يكون موطن زرتشت في غربي إيران، ومن هناك هاجر شرقاً إلى بلخ حيث قام بنشر دعوته[٣].

ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن الموجود بين أيدينا من الأوستا القديمة هو ما يعادل ربعها فقط، وأن الباقي مفقود، وطبقاً لما ورد في كتاب «دينكرت» (أحد الكتب البهلوية المشهورة) فإن الأوستا التي كانت موجودة في العصر الهخامنشي قد احترقت عندما أشعل الإسكندر المقدوني النيران في قصر الحكم، وحصل اليونانيون على نسخة أخرى لها وترجموا أقسامها العلمية الخاصة بالطب والنجوم إلى اللغة اليونانية وألقوها بعد ذلك في النار، وفي العصر الساساني تم جمع ما حذف من الأوستا من علم الطب والنجوم والفلسفة والجغرافيا من اليونان والهند وأضيف إليها، وتم الاعتراف بهذه الأوستا رسمياً في عهد سابور الكبير (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) واعتبرت قانوناً للدولة[٤].

وتتكون الأوستا أو الأبستاق حالياً من خمسة أجزاء هي:

١ ـ يستا: وهي أهم الأجزاء، ومعناها العبادة والتسبيح والصلاة والعيد، وهي تتكون من ٧٢ فصلاً.

٢ ـ ويسپرد: ومعناها (كل السراة) وهو ليس كتاباً مستقلاً بذاته، بل يمكن القول أنه من ملحقات اليستا.

---

(١) المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين بن علي): مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢٢٩.

(٢) أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل): كتاب المختصر في أخبار البشر، الجزء الأول، بيروت، ١٩٥٦، ص ٥٩.

(٣) أمين عبد المجيد بدوي: المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٤) حسن بيرنيا: المرجع السابق، ص ٣١١ ـ ٣١٢.

٣ ـ وندیداد: ومعناه (قانون ضد الشياطين) وهو يتكون من ٢٢ فصلاً، الفصل الأول منه في خلق الأرض والأقاليم.

٤ ـ يشتها: جمع كلمة «يشت» ومعناها (العبادة والتسبيح)، فهي تسابيح للخالق وملائكته، وفيها العديد من الفقرات التي تشير إلى بعض الأحداث التاريخية التي صيغت في قالب أسطوري.

٥ ـ خردة أوستا: أي الأبستاق الصغير، أو مختصر الأبستاق، وهو كتاب للصلاة والأدعية الخاصة بكل وقت من اليوم، والأيام المباركة من الشهر، والأعياد الدينية في العام وغيرها، وفصول هذا الكتاب وأدعيته مستخرجة من الأبستاق الكبير مع إدخال تعديل في أول وآخر كل منها يلائم الصلاة والدعاء في كل مناسبة(١).

وتقوم ديانة زرتشت على أصول ثلاثة:

أولاً: عمارة العالم، فبناء البيت وتكوين الأسرة وكثرة النسل وزراعة الأرض وتربية الماشية والقضاء على الحيوانات المؤذية والهوام والعناية بصحة البدن والطهارة وعدم الصوم (لأنه في رأيه يؤدي إلى ضعف الإنسان فلا يستطيع العمل) أوجب الواجبات.

ثانياً: الثنوية، فالخير الممثل في الإله أهورا مزدا يقابله الشر الممثل في أهريمن، إلا أنه يجعل الانتصار في النهاية للقوى الخيرة.

ثالثاً: تقديس العناصر الأربعة: النار والهواء والأرض والماء، والاحتراز من كل ما يدنسها(٢).

ومن أهم خصائص الفكر الزرتشتي الاهتمام بالجوانب المعنوية والسلوكية

(١) أمين عبد المجيد بدوي: المرجع السابق، ص ٣٣ ـ ٣٥، ١٠٢ وكذلك:
E.G. Browne, A Literary History of Persia, vol. I, Cambridge, 1964, pp. 99- 102

(٢) أمين عبد المجيد بدوي: المرجع السابق، ص ٢١ ـ ٢٢.

الخيرة وخاصة في مجال المعاملات، وقد أدى ذلك إلى الاعتقاد في وجود أرواح خيرة تساعد الإنسان على التغلب على الجوانب الشريرة في الحياة. وقد عبر عن ذلك أحياناً في الاعتقاد في مخلوقات تجمع في أشكالها بين الإنسان والطير وأحياناً الحيوان(١).

ولقد كان زرتشت مصلحاً اجتماعياً هدف بالقواعد التي أتى بها إلى بعث الشعب الإيراني لكي ينهض، ولم يتخذ من الدين وسيلة إلى التصوف أو الانقطاع إلى العبادة وترك العمل، فكان من مبادئه أن العبادة هي العمل، والعمل المثمر في حدود الطبقة التي ينتمي إليها الفرد، وكان يحث على مكارم الأخلاق، فهو يطلب من الفرد أن يعمل عملاً طيباً، وأن يقول قولاً طيباً، وأن يفكر فكراً طيباً، وهو يجعل الكذب شر الرذائل. وبجانب ذلك وضع نظاماً للطبقات، كما أقام الأسرة على أسس كانت مقبولة في وقته(٢).

وعلى ذلك فنحن نعتمد على ما وصلنا من أفكار زرتشت في التعرف على النواحي الأخلاقية والسلوكية والفكرية وبعض النظم الاجتماعية المعترف بها والتي كانت مقبولة في إيران أثناء العصر الهخامنشي، وقت ظهور هذه الأفكار على الأقل، ومدى تأثيرها والتمسك بها في الفترات التاريخية التالية.

---

(١) رشيد الناضوري: المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الثالث، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، بيروت، ١٩٦٩، ص ١٥٥.

(٢) يحيى الخشاب: «فصل في إسلام فارس» في مؤلف تراث فارس، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٤. وكذلك:

G.B. Gray., op. cit., pp. 207- 208., Frye, R.N., The Heriage of Persia, London, 1962, p. 51ff.

خامساً: القصص الفارسي

ومن المصادر التي نعتمد عليها كذلك في دراسة إيران القديم، القصص التي تناولتها وحفظتها الصدور جيلاً بعد جيل، والتي جمعت في العصر الساساني ثم دونت وأضحت مصدراً للتأليف في العصور الإسلامية. ومن أشهر تلك الأعمال ما أبدعه أبو القاسم الفردوسي في قمة أعماله وهي «الشاهنامه». ولقد اعتمد الإيرانيون لفترة طويلة في معرفة تاريخ بلادهم القديم على ما أورده الفردوسي، وكانوا شديدي الإعجاب بما جاء فيه.

وفيما يتصل بالفردوسي، فهو أبو القاسم منصور بن مولانا فخر الدين أحمد بن مولانا فُرخ الفردوسي. وتتفق الروايات على أن لقبه الفردوسي وكنيته أبو القاسم، ثم تختلف في اسمه بين منصور وحسن وأحمد، وفي اسم أبيه بين علي وفخر الدين أحمد وإسحاق، وبعضها يسمي جده فُرخ وبعضها يسميه شرفشاه، وليس في الشاهنامه ذكر اسمه ولا اسم أبيه. والفردوسي لقبه الشعري كدأب شعراء الفرس، ولقد ولد الفردوسي في قرية أسماء باتر من ناحية طبران، وطبران إحدى مدينتي طوس، وذلك حوالي عام ٣٢٩ هـ، وتوفي حوالي عام ٤١١ هـ. ويقال أنه أتم نظم الشاهنامه في خمسة وثلاثين عاماً، كان آخرها عام ٤٠٠ هـ، أو قبلها بقليل، ويبلغ عدد أبياتها ما بين خمسين ألف وستين ألف بيت شعري[1].

وتجمع الشاهنامه معظم ما وعي الفرس من أساطيرهم وتاريخهم من أقدم عهودهم حتى الفتح الإسلامي، وهي مرتبة ترتيباً تاريخياً، فحينما تذكر الأسرة تبدأ بأول ملوكها فتوضح تأريخه، وما كان في عهده من الأحداث ثم تذكر

---

(١) انظر في ذلك التقديم الذي كتبه الدكتور عبد الوهاب عزام للشاهنامة في:
أبو القاسم الفردوسي: الشاهنامة، ترجمها من الفارسية نثراً الفتح بن علي البنداري، وقارنها بالأصل الفارسي وأكمل ترجمتها في مواضع وصححها وعلق عليها وقدم لها عبد الوهاب عزام، جـ ١، طهران، ١٩٧٠، ص ٤٩ ـ ٥٢، ٧٠.

الملك الثاني، وهلم جراً، حتى نهاية الأسرة. وقد قسمت الشاهنامة تاريخ الفرس منذ أقدم العصور وحتى الفتح الإسلامي إلى أربع دول حكمت لمدة ٣٨٧٤ عاماً وذلك على النحو الآتي:

١ ـ الدولة البيشدادية (ومعناها صاحب العدل أو القانون الأول): وعدد ملوكها عشرة حكموا لمدة ٢٤٤١ عام، وهم أول من تعرفهم الأساطير الفارسية، وقد اختلطت في هذا العصر أساطير الهند بأساطير إيران، والتبس فيه الآلهة بالملوك، وكانت العاصمة في طبرستان واصطخر. وجعلت الشاهنامة أول ملوك هذه الأسرة من يدعى «كيومرث» الذي اعتبرته أول إنسان مُلك على الناس، وجاء من نسله الأمم الآرية، وأطلق عليه العديد من الألقاب مثل: ملك الجبل، وملك الطين، والملك العظيم[١]. ومن أشهر ملوك هذه الأسرة «جمشيذ بن طهمورث» وجمشيذ كلمة مختصرة من «يما خشتيا» ومعنى اسمه (المتلألىء) وينسب إليه، أنه هو الذي جهز آلات الحرب وأول من اتخذ الملابس، فاستعمل ثياب الكتان، كما أنه تعرف على خواص الأدوية، وهو الذي فكر في اتخاذ المراكب وتسييرها على وجه الماء، وهو الذي استن عيد النيروز[٢].

٢ ـ الدولة الكيانية: وعدد ملوكها عشرة حكموا لمدة ٧٣٢ عاماً، وهي تتصل بالدولة البيشدادية، وتنتهي بدخول الإسكندر المقدوني إيران[٣].

٣ ـ الدولة الأشكانية: ومدتها مائتا عام، ولا يذكر الفردوسي منها إلا أسماء قليلة، وتعدهم الأساطير الفارسية أجانب.

٤ ـ الدولة الساسانية: ومدتها ٥٠١ سنة، وعدد ملوكها في الشاهنامة

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٤ ـ ١٥.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١ ـ ٢٣.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ٩٩ ـ ١٠٣.

٢٩، وهي موصولة النسب والمآثر بالدولة الكيانية[1].

ومما يؤخذ على هذا المصدر، أن ما ورد به من معلومات قد انتقلت شفاهاً جيلاً بعد جيل، مما أضفى عليها كثيراً من الزيادات، ففقدت الصدق وضاعت الحقائق التاريخية فيها، فنسبت أحداثاً كثيرة وأضيفت إلى فترات أخرى، ونقلت أسماء أشخاص من عصر لآخر، كما أن كثيراً من الأحداث الهامة والملوك لم يرد لهم ذكر في هذه القصص. وعلى ذلك، فإن اعتمادنا على هذا المصدر، لا بد وأن يسبقه الاعتماد على المصادر الأخرى، ثم ننظر بعد ذلك في القصص القديم، علنا بمقارنتها معها نستطيع أن نصل إلى تصور كلي لها.

وتجدر الإشارة في نهاية الحديث عن مصادر تاريخ إيران القديم، أن هذه المصادر لا تقدم لنا صورة متكاملة عن التاريخ السياسي والحضاري لإيران في العصور القديمة، فما زالت هناك العديد من مظاهر الحياة الإيرانية في السلم أو الحرب غامضة حتى الآن. كما أن هناك الكثير من الفجوات التي يحاول المؤرخون معرفتها، ويرجع ذلك بشكل رئيسي ـ كما سبقت الإشارة ـ إلى قلة الوثائق المتخلفة من إيران القديمة. فإننا في الواقع ـ وكما أشار R.N. Frye[2] ـ لا نملك حتى بقايا مليئة بالفجوات، فكل الذي بين أيدينا نذر قليل جداً من المعلومات علينا أن نحاول ضمها إلى بعضها لتظهر في قالب تاريخي.

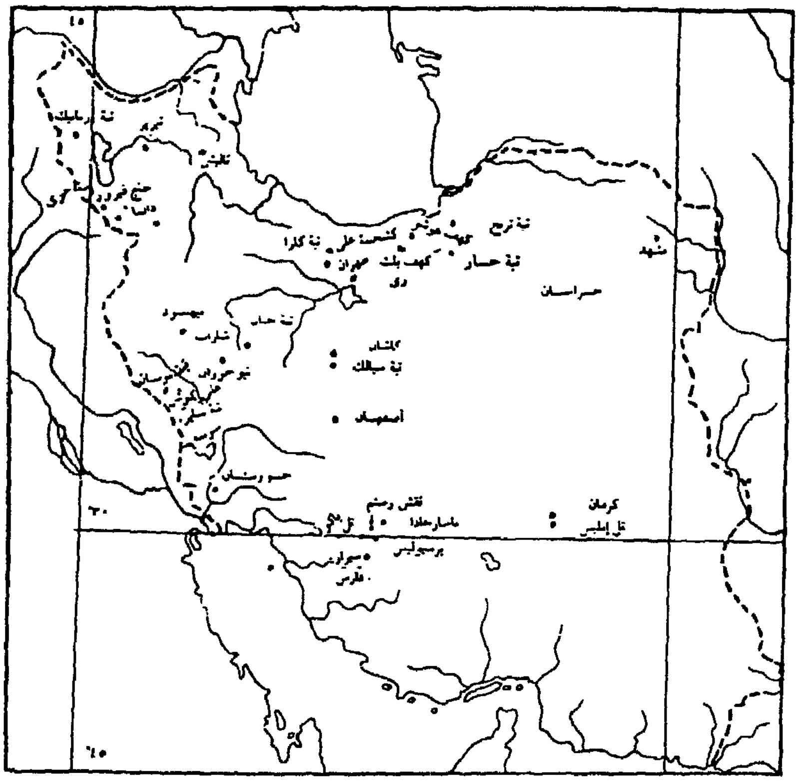
---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٧٤. ويلاحظ أن الشاهنامة قد أخطأت في مدة حكم الدولة الساسانية وذلك مثلها مثل بقية الكتب الفارسية، إذ يلاحظ أنها حكمت في الفترة من ٢٢٤ ـ ٦٥١/ ٦٥٣ م.

(٢) R.N. Frye, op. cit., p.7.

الفصـل الثالـث

عصـور ما قبـل الكتابـة والتدويـن



(خريطة ١٢) بعض المواقع الأثرية الرئيسية في إيران
في عصور ما قبل الكتابة والتدوين

أولاً: العصر الحجري القديم

يميز العصر الحجري القديم (الباليوليتي Palaeolithic) بداية الحضارة الإنسانية، وذلك حينما استطاع الإنسان الأول أن يصنع أدواته عن قصد وهدف، واعتمد في صنع أدواته بصفة رئيسية على الحجر الذي شكله بما يناسب مطالبه المحدودة، واستخدم بجانبه مواداً أخرى كالعظم والخشب والعاج والأصداف البحرية.

ولقد قام العلماء بتصنيف المادة الأثرية الخاصة بالعصر الحجري القديم وذلك حسب التقاليد الصناعية المتبعة في تشكيلها، وكذلك كميتها ووظيفتها، إلى ثلاث مراحل حضارية رئيسية وهي:

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل.

ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط.

جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى.

وسنحاول فيما يلي دراسة هذه المراحل الثلاث بشيء من التفصيل.

أ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأسفل:

تمثل هذه المرحلة الجهد الإنساني الأول في مجال صنع حضارته، ويعتبر الفأس اليدوي Hand Axe الأثر المميز لهذه المرحلة، وسادت خلال هذه

المرحلة حضارتان هما: الأبيفلية[١]، وهي أقدم الحضارات الإنسانية، ثم الحضارة الأشولية.

ولقد أصبحت الفأس اليدوية في الحضارة الأشولية أكثر اتقاناً وأصغر حجماً، ووجه الإنسان اهتمامه بتحديد حوافها وتهذيب سطحها كله تاركاً أقل مساحة ممكنة من القشرة الأصلية في أسفل الأداة لكي يجعل شكلها متناسقاً، ويلاحظ أن الإنسان قد بدأ في هذه المرحلة في صنع بعض أدواته من الشظايا، كما استعمل بعض الأدوات الخشبية والعظيمة.

ويلاحظ قلة المادة الأثرية المتصلة بهذه المرحلة في منطقة جنوب غربي آسيا بشكل عام، وفي إيران بوجه خاص، وهو الأمر الذي أدى ببعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنه لم يعثر في إيران على أية أدلة أثرية تتصل بهذه المرحلة[٢].

ولقد عثر رومان جيرشمان R. Ghirshman على بعض الأدوات الحجرية في كهف تانجي بابدا Tangi- Pabda في جبال بختيار[٣] والتي يرجح نسبتها إلى نهاية هذه المرحلة وبداية المرحلة التالية لها. (شكل ٧٠).

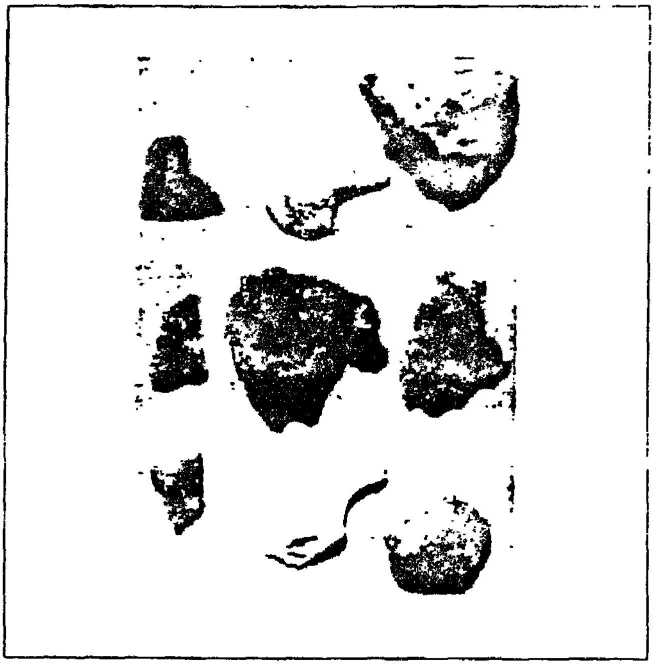
ب ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأوسط:

يطلق على الإنتاج الحضاري المتصل بهذه المرحلة «الأدوات الموستيرية» وذلك نسبة إلى كهف موستييه بفرنسا. واعتمدت صناعة الأدوات في هذه المرحلة على اساس استخدام الشظايا التي تنفصل عن جوانب الفأس اليدوي

(١) كانت تسمى بالحضارة الشيلية نسبة إلى بلدة Chelles على نهر المارن في فرنسا، ولكن نظراً لأن الموقع الشيلي وجدت به آلات خليطة من الحضارتين الشيلية والآشولية، فقد تركت تسمية الحضارة الشيلية. انظر: محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) E. Sunderland, «Early Man in Iran», in CHI, vol. I, Cambridge, 1968, p. 396.

(٣) R. Ghirshman, op. cit., pp.27- 28, pl. Ia.



شكـــل (٧٠)
بعض الأدوات الحجرية من كهف تانجي بابدا

حين صناعته. وتتميز هذه الأدوات الحجرية بصغر حجمها وتنوع أشكالها حتى تمكن الإنسان من تحقيق أغراضه المتعددة. فصنع من هذه الشظايا السكاكين والمكاشط والمخارز وغيرها، وتمكن الإنسان من صنع هذه الأدوات، وذلك بفصلها عن النواة الأصلية حتى تؤدي الوظيفة التي يحتاجها إليها.

ورغم التقدم النسبي الذي حققه الإنسان في صناعة أدواته في هذه المرحلة، فإنه من الناحية الاقتصادية، ظل جامعاً للطعام متنقلاً من مكان إلى آخر بحثاً عن البيئة المناسبة لصيده ومعيشته المؤقتة في الأماكن التي تتناسب مع الأحوال الجوية السائدة في ذلك الوقت[1] والتي كانت في غالب أوقاتها حقباً مطيرة.

(١) رشيد الناضوري المرجع السابق، ص ١٠٣

ولقد عثر على العديد من الأدلة الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة الحضارية في العديد من المناطق الإيرانية، مثل سفوح جبال زاجروس، وشمال جبال البرز، وجبال هندوكوش الإيرانية. فلقد كشف في العديد من الكهوف الموجودة في هذه الجبال على الكثير من الأدوات والأدلة الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة، ومن هذه الكهوف، كهف بيهستون، الذي يقع شرق كرمنشاه بحوالي ٤٨ كيلو متر (شكل ٧١)[١]، وهو يقع أسفل نقش بيهستون، وتقع



شكل (٧١)
منظر خارجي لكهف بيهستون قبل عمل حفائر فيه

(١) C.S. Coon, op. cit., pl. VI., p. 108.

بيهستون على الطريق الرئيسي الذي يصل ما بين إكباتانا وبابل، كما يتجه من عندها طريق فرعي يؤدي إلى برسبوليس في الجنوب الشرقي، ولعل مما يوضح أهمية هذا الموقع، اختيار الملك داريوش الأول له ـ كما سبقت الإشارة ـ ليسجل نقوشه على صخوره.

وقام كارلتون كوون Carleton S. Coon بعمل حفائر في هذا الكهف عام ١٩٤٩ م حيث عثر فيه على بعض بقايا عظام إنسانية مثل عظمة الزند وأحد الأسنان، وكشف كذلك عن بعض الأدوات الموستيرية[١]، ويلاحظ أن الأدوات الحجرية التي عثر عليها توضح تفوقاً ملحوظاً في هذا المجال، وعثر فيه كذلك على كميات كبيرة من السكاكين ذات التقنية التي تفوق مثيلاتها في المناطق الأخرى، وهو الأمر الذي قد يرجح أنها متطورة بشكل كبير، أو أنها متأخرة زمنياً عن مثيلاتها، أو أن الإنسان في هذه المنطقة قد استطاع أن ينمو بصناعته الحجرية نحو التخصص بشكل يفوق الأدوات الموستيرية في المناطق المجاورة لها، ويبدو محتملاً من الأدوات التي عثر عليها في كهف بيهستون أنه كان مأهولاً بالسكان خلال مرحلة فرم الأولى Würm I[٢].

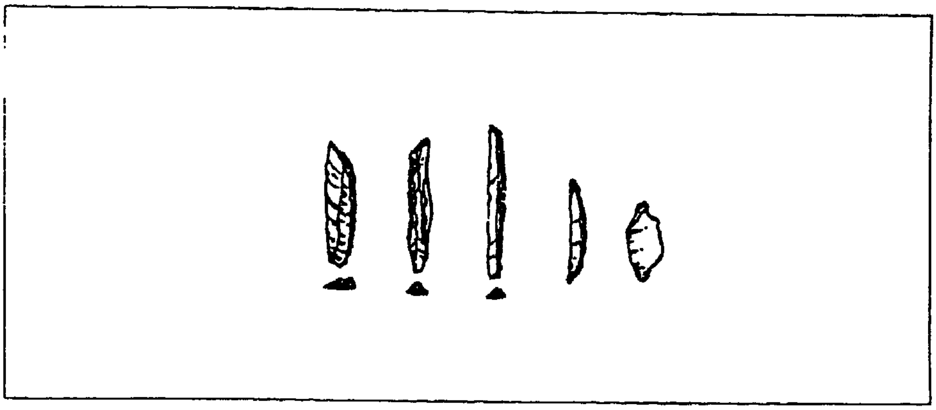
جـ ـ مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى:

أخذ المناخ خلال هذه المرحلة يميل إلى الدفء، وذلك بعد انسحاب الهجمات المطيرة والباردة نحو الشمال، وانحسار المياه المتجمعة في البحيرات

(١) Coon, C.S., «Cave Explorations in Iran, 1949», in University Museum Monographs, Philadelphia, 1951. p. 125 ff., Coon. C.S., Seven Caves, pp. 124- 126.

(٢) يعتبر «دور فرم» آخر الأدوار الجليدية التي حدثت أثناء الزمن الجيولوجي الرابع أو «البليوستوسين»، ولقد سمي كل دور تقدم فيه الجليد باسم أحد أودية الألب، حيث عثر على الركامات الجليدية في تلك الوديان، وهذه العصور الجليدية هي: جنز Güntz، ومندل Mindel، ورس Riss، وفرم Würm على التوالي. انظر:
محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٢٢ حاشية ١.

والمستنقعات والواحات والآبار. وتمتاز هذه المرحلة بصناعة حجرية جديدة هي صناعة الأسلحة النصلية، وهي عبارة عن أدوات حجرية دقيقة وحادة تمكن الإنسان من صنعها بصورة تفوق في دقتها مجهوداته السابقة. وهي تعرف باسم «الأدوات القزمية»، ولا شك أن الإنسان قد أصبح من الميسور له حمل هذه الأسلحة والانتقال بها إلى أماكن جديدة، ويسر له ذلك صغر حجمها وفاعليتها كأداة قاطعة (شكل ٧٢)[١].



شكل (٧٢)

أدوات حجرية ترجع إلى مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى

ولقد كشف في العديد من المواقع الإيرانية على أدوات حجرية وهياكل عظيمة ترجع إلى مرحلة العصر الحجري القديم الأعلى، ومن هذه المواقع كهف هوتو Hotu. ولقد قام كارلتون كوون C.S. Coon بعمل حفائر فيه عام ١٩٥١[٢]. ويتجه محور الكهف في اتجاه شمالي جنوبي بزاوية مقدارها ٤٥

(١) D.A.E. Garrod, «Primitive Man in Egypt, Western Asia, and Europe in Palaeolithic Times», in C A H., vol. I, Part I, Cambridge, 1970, Fig. 6, p. 85, nos 12 - 16.

(٢) نشرت ثلاثة تقارير مبدأية عن الحفائر التي أجريت بهذا الكهف، انظر:

C S Coon, «Excavations in Hotu Cave, Iran, 1951, A preliminary report», in P.A P.S., vol.96, No 3, Philadelphia, 1952, pp. 231 249

درجة بالنسبة للواجهة الصخرية، ويبلغ طول الجدار الشمالي ثلاثون متراً، والجدار الجنوبي عشرون متراً[١]. ويستدل من المخلفات الأثرية التي كشف عنها في طبقات هذا الكهف أنه ظل مسكوناً منذ أواخر العصر الحجري القديم الأعلى وحتى العصر الإسلامي. ولقد كشف فيه عن العديد من الهياكل العظمية البشرية والحيوانية. فلقد عثر على ثلاثة هياكل عظمية، رجح أنها ترجع إلى هذه المرحلة، وذلك اعتماداً على الدراسات التي أجريت عليها باستخدام طريقة كربون ١٤. وعثر على أحد هذه الهياكل على ارتفاع ٢٥ قدم، وتبين أنه هيكل عظمي لرجل يتميز بالطول والضخامة، ويرجح أنه يرجع إلى أواسط الألف العاشر قبل الميلاد، أما الهيكلين الآخرين، فلقد عثر عليهما على ارتفاع ٢٧،٥ قدم، وهما لامرأتين، ويبدو أنهما قد لقيتا حتفهما نتيجة لسقوط كتلة صخرية عليهما من سقف الكهف، ويترجح أنهما يرجعان إلى أواسط الألف الثامن قبل الميلاد[٢].

ويلاحظ أن محتويات هذا الكهف توصف أحياناً بأدوات العصر الحجري القديم الأعلى القزوينية أو المولليانية Mouillian،[٣] ويتجه بعض الباحثين إلى نسبة المخلفات الأثرية لكهف هوتو إلى أواخر العصر الحجري القديم الأعلى أو

= L.B. Dupree, «The Pleistocence Artifacts of Hotu Cave, Iran», in P.A.P.S., vol. 96, No. 3, pp. 250- 257.

J.L. Angel, «The Human Skeletal Remains from Hotu Cave, Iran», in P.A.P.S., vol. 96, No. 3, pp. 258- 269.

ولقد أشار كارلتون كوون في مؤلفه الذي أصدره عام ١٩٥٧ أن التقرير النهائي عن حفائر كهف هوتو لم يكتب بعد، وأنه ليس متأكداً من أنه سوف يكتب نظراً لكثرة الأدوات المكتشفة فيه. انظر:

C.S. Coon, Seven Caves, London, 1957, p. 203.

(١) Ibid., p. 169.

(٢) Ibid., p. 179ff.

(٣) E. Suderland, op. cit., p. 403.

بداية العصر الحجري الوسيط، وذلك اعتماداً على وجود قوس وهيكل عظمي لكلب في مخلفات هذا الكهف(١).

وعلى ذلك، فقد تركز البحث عن الكهوف والمآوي التي عاش فيها الإنسان خلال العصر الحجري القديم الأعلى في مثلث شيراز - مشهد - زاهيدان، وبصفة خاصة في منطقة بام كوهي تافتان. ولقد عثر بالفعل في مأوى صخري يسمى كونجي Kunji يطل على خورام أباد على أدوات حجرية ترجع إلى هذه المرحلة. ويقع هذا المأوى الصخري على ارتفاع يصل إلى ثلاثمائة قدم فوق مستوى سطح الوادي(٢).

(١) C.S. Coon., op. cit., p. 199.

(٢) E., Sunderland,|op. cit., p. 405.

ثانياً: العصر الحجري الوسيط

يمثل العصر الحجري الوسيط مرحلة الانتقال من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث، وتضمنت الأدوات التي استخدمها الإنسان فيه، الأدوات الحجرية ورؤوس السهام، وغيرها من أدوات العصر الحجري القديم الأعلى، وذلك بالإضافة إلى المناجل والأجران التي تمثل عنصراً حضارياً جديداً يقترب بالإنسان من مرحلة إنتاج الطعام والاستقرار أكثر من انتمائه إلى مرحلة الجمع والالتقاط(١).

وتوجد الأدلة الأثرية المرتبطة بهذه المرحلة في عدد من المواقع الإيرانية التي تنتشر من شمال غرب جبال زاجروس إلى شواطىء بحر قزوين، ومن شواطىء بحر قزوين إلى المنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش.

ومن المواقع التي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط في إيران، كهف بلت Belt الذي يطلق عليه كذلك «غاري كامارباند Ghar-i- Kamarband وهو يقع إلى الغرب من مدينة بهشهر Behshahar بحوالي ثمانية كيلومترات، وهو يقع على ارتفاع يصل إلى ثلاث وخمسين قدماً فوق مستوى بحر قزوين، على محور شمالي غربي(٢) وبنيت جدران الكهف من كتل الأحجار الجيرية البيضاء التي وضعت في مداميك أفقية، وهي تتفاوت في سمكها ما بين ٧٠، ٥٠، ٣٠،

(١) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١١٣.

(٢) C.S. Coon, op. cit., p. 143.

٢٠ سم. ويبلغ طول الكهف ثلاثون قدماً وعرضه اثني عشر قدماً وارتفاعه سبعة عشر قدماً(١).

وتوجد الأدوات التي ترجع إلى العصر الحجري الوسيط في كهف بلت أسفل الأدوات التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث. ولقد عثر في الطبقة الحادية عشرة من كهف بلت على كميات كبيرة من قرون الغزال، مما قد يرجح أنها قد استخدمت في عمليات حفر الأرض. ويرجح ـ اعتماداً على دراسة المخلفات الأثرية في كهف بلت ـ أنه قد شُغل بالسكان منذ حوالي منتصف الألف العاشر قبل الميلاد، واعتمد سكانه في حياتهم على صيد عجل البحر، واستخدموا العديد من الأدوات التي ترجع إلى مرحلة العصر الحجري الوسيط مثل الفؤوس والسهام، كما أنهم قد تمكنوا من استئناس الكلاب في هذه المرحلة، ولكن يلاحظ أن موقع كهف بلت قد هجره السكان لفترة تقرب من ثلاثة آلاف عام، حيث سكنه مرة أخرى صيادون اعتمدوا في حياتهم على صيد الغزلان، ثم هُجر الكهف مرة أخرى، حيث سكنه هذه المرة الرعاة، الذين عملوا بالزراعة وذلك أثناء العصر الحجري الحديث(٢). (شكل ٧٣)(٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الأدوات التي كشف عنها في كهف بلت تشبه بشكل كبير تلك التي كشف عنها في كهف شانيدار الذي يقع في أقصى شمال العراق(٤)،

---

(١) Ibid., pp. 142- 143.

(٢) Ibid., pp. 149- 150, 167.

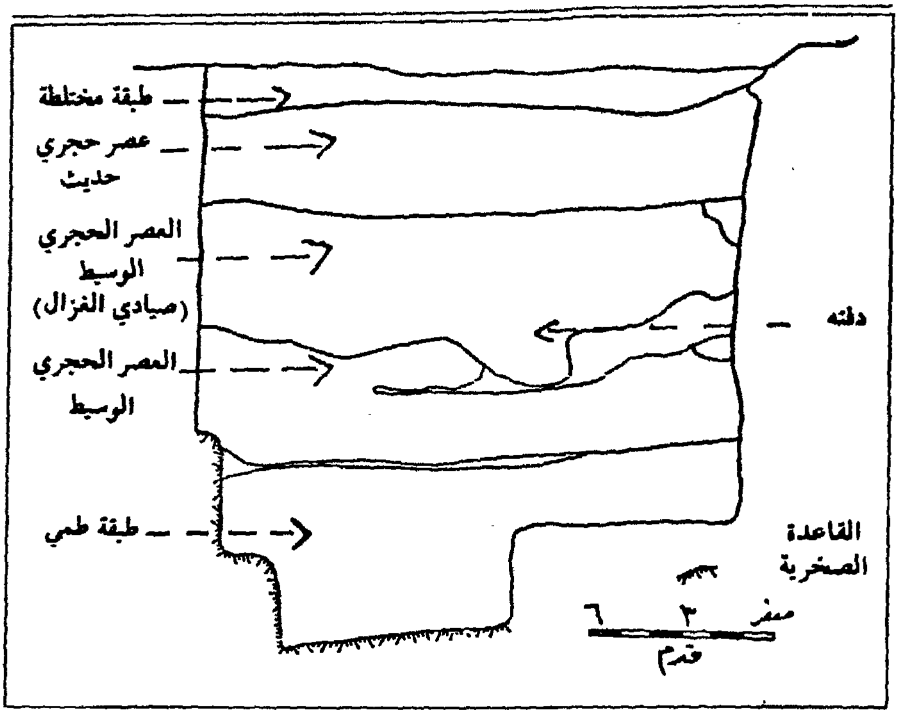
(٣) Ibid., p. 144.

(٤) يعتبر كهف شانيدار من الكهوف الكبيرة التي سكنها الإنسان منذ دور فرم الأول، ولقد عثر فيه على العديد من الهياكل البشرية والأدوات التي ترجع إلى العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط. انظر:

R. Solecki, «Three Adult Neanderthal Skeletons from Shanidar Cave, Northern Iraq» Smithsonian Report Publication (1959- 1960), pp. 603- 635.,

D.A.E. Garrod, op. cit., p. 87.,

J.G.D. Clark, «in Mesotlithic Times», in C A H., vol. I, part I. pp. 120-121.



شكل (٧٣)
رسم تخطيطي لقطاع يوضح ترتيب طبقات كهف بلت

ولا يقتصر التشابه على تقنية صناعة الأدوات الحجرية فقط، بل يتعداه أيضاً إلى أنهما يرجعان إلى نفس الفترة الزمنية[١].

ويلاحظ أن معظم الأدوات الحجرية التي عثر عليها في كهف بلت تتكون بشكل رئيسي من الأسلحة النصلية وتتضمن المكاشط، وأدوات حجرية مشكلة بطريقة هندسية، وهي تعبر عن الإنتاج الحضاري للإنسان في مرحلة العصر الحجري الوسيط وبداية العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة[٢] فقد عثر في هذا الكهف على بعض الأدلة الأثرية المتصلة ببداية العصر الحجري الحديث،

(١) E. Sunderland, op. cit., p. 403.

(٢) J.G.D. Clark, op. cit., fig. 15, nos. 15- 20, p. 119.

مثل بداية ظهور الأواني الفخارية الملساء، واستمرت هذه الأواني مستخدمة في هذه المنطقة حتى تطورت صناعة الأواني، فظهرت الأواني الملونة التي تشبه الأواني الفخارية التي ظهرت في المرحلة الحضارية الثانية في تبه سيالك[١].

ويرجع إلى نفس هذه المرحلة، موقع آخر، هو تبة أسياب Tepe Asyab وهو يقع بجوار تبة جانجي داره ويطل على نهر كاراسو Karasu إلى الشرق من كرمنشاه بحوالي ستة كيلومترات. ولقد كشف في تبة أسياب عن بعض الأدوات الحجرية المصنوعة من حجر الصوان، والتي يحتمل معاصرتها للأدوات التي كشف عنها في موقع كريم شاهير في العراق. وعثر في تبة أسياب على بعض أدوات الزينة المصنوعة من الأحجار كالعقود والقلادات وكذلك بقايا أساور مصنوعة من الرخام. وبالإضافة إلى الأدوات الحجرية والحلي، فلقد عثر على العديد من الأشكال الطينية الصغيرة، منها ما يشمل أشكالاً مبهمة لا يمكن تحديد ما تهدف إليه.

ومن الأمور التي قد تشير إلى وجود نوع من الاعتقاد في العالم الآخر، الكشف في موقع تبة أسياب عن دفنتين نثر فوقهما التراب الأحمر ـ وهو الأمر الذي سنناقشه فيما بعد ـ كما عثر كذلك على كميات كبيرة من العظام الحيوانية والأصداف النهرية.

ويذكر J. Braid Wood أنه من الأشياء الملفتة للنظر في موقع أسياب، الكشف عن كميات كبيرة لما يمكن أن يكون برازاً متحجراً، وفي حالة التأكد من أن هذه المادة هي براز متحجر، وأنها خاصة بالإنسان، فإنها في هذه الحالة تعتبر دليلاً قوياً على وجود مجموعة من الناس استطاعت تحقيق نوع من الاستقرار المعيشي في هذا الموقع، وكانت تعتمد في حياتها بشكل رئيسي على جمع الطعام، وإن كانت تتجه نحو مرحلة إنتاج الطعام. ويضيف Braidwood أن هذه المادة التي يرجح أنها براز، هي على الأرجح براز آدمي، وذلك

(١) Coon., op. cit., p. 166.

ملاحظة حجمها وشكلها، وهي توجد بكميات كبيرة مركزة في داخل المنطقة السكنية في موقع أسياب، وهو الأمر الذي يشير أيضاً إلى أنها براز آدمي، ولا يمكن أن نتوقع وجود براز حيوانات برية بهذه الكمية في هذا الموقع، كما أنه لا يوجد أي دليل على استئناس الإنسان للحيوان في منطقة أسياب[١].

ولقد كشف في موقع أسياب عن بعض حفر في الأرض، يبدو أنها كانت تثبت فيها أعواد البوص التي كانت تستخدم لبناء الأكواخ، ويبدو أنه لم تبن هذه الأكواخ بهدف الإقامة الدائمة، إذ يرجح أنها كانت تستخدم كمكان إقامة مؤقت في بعض فصول السنة فقط[٢].

وبالنسبة للتحديد الزمني للنشاط الإنساني في موقع أسياب، فيذكر J. Braidwood أنه يمكن القول بأنه يقع في الفترة ما بين ٩,٠٠٠، ٧,٠٠٠ق.م[٣].

ويرى جيرشمان R. Ghirshman[٤] أن المرأة في هذا المجتمع البدائي، قامت بالأعمال التي تتطلب مهارة خاصة، فقد كان عليها حراسة النار، وربما كذلك، اختراع وصناعة الفخار، وكانت تبحث عن الجذور الصالحة للطعام، وتجمع الثمار البرية من الجبال. وكانت معرفتها للنباتات نتيجة ملاحظة طويلة ومثابرة كبيرة وأدى ذلك إلى تجربتها للزراعة، وكانت محاولاتها الأولى للزراعة في المسطحات الغرينية. ويرى أنه بينما ساهم الرجل بجزء بسيط في التقدم الحضاري، فإن المرأة بمحاولاتها المبكرة للزراعة البدائية، قد أدخلت العديد من الاختراعات خلال العصر الحجري الحديث، وذلك نتيجة لنقص التوازن الذي نشأ بين الأدوار التي قام بها الرجل والمرأة، وربما كان ذلك أصل بعض

(١) R.J. Braidwood, B. Howe. and, C.A. Reed. «The Iranian Prehistoric Project», in Science, vol. 133, No. 3458 (7 April, 1961), p. 2008.

(٢) J. Mellarat, «The Earliest Settlements in Western Asia from the Ninth to the End of the Fifth Millennium B.C., «In C A H., vol, I, part I, Cambridge, 1970, p. 262.

(٣) R.J. Braiwood, B. Howe and C. A. Reed, op. cit., p. 2008

(٤) R. Ghirshman, op. cit., p. 28.

المجتمعات المبكرة التي كانت السيادة فيها للمرأة. وفي هذا المجتمع الذي تتسلط فيه المرأة (وربما كذلك في المجتمعات التي تمارس فيها المرأة الزواج بأكثر من رجل واحد) فإن المرأة كانت هي التي تدير شؤون القبيلة، وتُرفع إلى مرتبة الكهانة، وتكون وراثة الأسرة وتعاقبها عن طريق خط المرأة، واعتبرت المرأة كناقلة في هيئتها النقية لدم حياة القبيلة، وكان هذا النظام الذي تتسلط فيه المرأة، أحد الممارسات الخاصة للسكان الأصليين في الهضبة الإيرانية، وانتقلت تلك الممارسات إلى عادات الآريين الذين دخلوا الهضبة.

ثالثاً: المرحلة الحضارية الأولى
(بداية الاستقرار البشري على الهضبة الإيرانية)

اصطلح على تسمية مرحلة العصر الحجري الحديث في إيران باسم المرحلة الحضارية الأولى، وهي تمثل أقدم مراحل الاستقرار في منطقة الهضبة الإيرانية، أي مرحلة العصر الحجري الحديث أو مرحلة إنتاج الطعام وما يتصل بها من الصناعات اللازمة للزراعة وبناء القرى والاستقرار.

ويمكن تتبع العديد من المواقع الأثرية التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث في إيران سواء في الأودية أو على سفوح الهضاب، وتختلف التطورات الحضارية من منطقة إلى أخرى، بل أحياناً من موقع إلى آخر وذلك لأسباب بيئية وبشرية، فبينما تمكن بعضها من التوصل إلى مرحلة العصر الحجري الحديث تقريباً، في الوقت الذي توصلت إليه كل من عصر حضارة جرمو وحسونة في العراق القديم والفيوم أومرمدة بني سلامة وحلوان العمري ودير تاسا في مصر أو قبلها بقليل، فأن بعضها الآخر لم يصل إلى مرحلة العصر الحجري الحديث إلا في وقت متأخر عن ذلك. ويلاحظ كذلك أن الكثير من هذه المواقع قد توقف إنتاجها الحضاري بعد مرحلة العصر الحجري الحديث، كما تباين الإنتاج الحضاري فيما بينها بشكل كبير

واستمر الإنسان في العصر الحجري الحديث في سكنى الكهوف والمآوى الصخرية، وبالتدريج أصبحت المناطق المفتوحة مألوفة لديه وكان للرغبة

الإنسانية في المحافظة على القديم وعدم التجديد أثره في أن ظلت بعض المواقع تشغل لعدة قرون، وبمرور الزمن أدى تراكم المخلفات إلى تكوين ما يسمى «تبة» أو «تل».

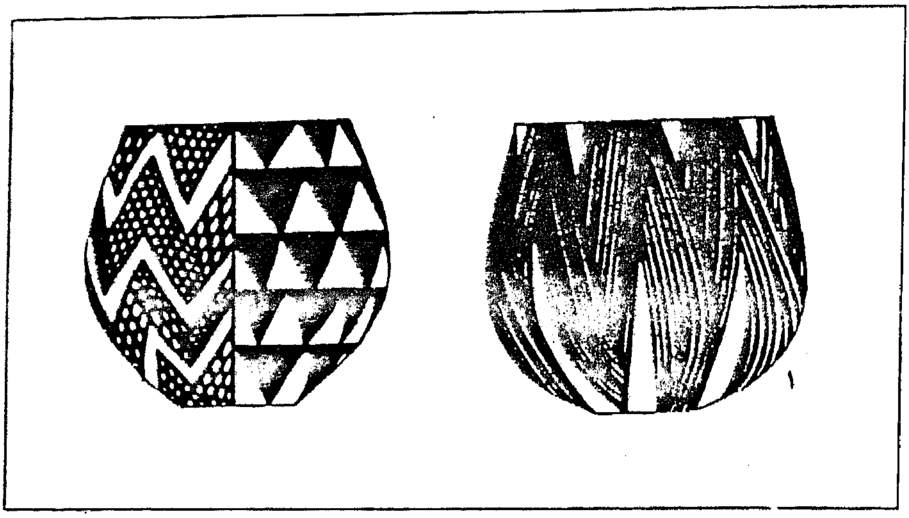
وتعتبر منطقة زاجروس من المناطق الرئيسية التي لها اعتبارها في مجال نشأة المراحل الأولية للزراعة، حيث ظهرت في هذه المنطقة المراحل الأولى المبكرة لاستئناس النبات والحيوانات التي وجدت في حالة برية. ففي الجانب العراقي، كشفت الحفائر الأثرية التي أجريت في بعض المواقع مثل شانيدار وجرمو وحسونة، وجود هذه التطورات الحضارية دون وجود أية فجوات، والتي بدأت بنشأة المجتمعات الزراعية المبكرة بدءاً من مرحلة التنقل والاستقرار البدوي وأخيراً إلى مرحلة القرى الزراعية المستقرة. ويشابه ذلك في إيران القرى التي وجدت في خوزستان ولورستان، وكذلك في منطقة فارس وشمال إيران وشرقها[١].

وتمكن الإنسان خلال هذه المرحلة من التوسع في الإنتاج الزراعي، وكذلك استئناس الحيوان وبخاصة الأغنام والماعز والثيران، مع استمراره في ممارسة حرفة الصيد. وفيما يتصل بالصناعات الفخارية المميزة لهذه المرحلة بشكل عام، فيلاحظ أن الفخار في بداية أمره كان ذو لون أسود، وربما يرجع ذلك إلى عدم القدرة في التحكم في النيران المعدة لحرقه في هذه المرحلة المبكرة، ثم ظهر نوع جديد من الفخار يتميز بأن حافته حمراء وعلى سطحه بقع سوداء ناتجة عن إشعال النار. وتمت الخطوة التالية من التقدم في صناعة الفخار، وهي التي تسمى بالتمهيد للفخار الملون، وقد غطيت الأواني بشرائط بيضاء في خطوط أفقية ورأسية، ويبدو أن هذه الزينة تحاكي السلال التي صنعها الإنسان في أول أمره، وقد أظهر بالألوان جدائل الأغصان[٢]. إلا أن ذلك لا

(١) B Dicks, The Ancient Persians, U.S.A. 1979, p. 19

(٢) R Ghrishman, op cit . p. 29

يمنع من وجود بعض التطورات الخاصة والمميزة لبعض المناطق، والتي قد تختلف مع هذه التطورات أو تتفوق عليها. (شكل ٧٤).



شكل (٧٤)
بعض زينات الأواني في تبة دالما

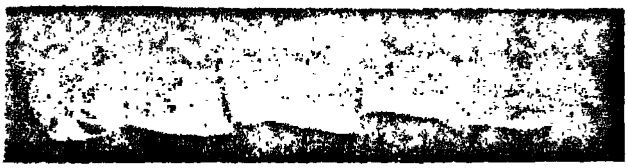
وقرب نهاية هذه المرحلة أخذت الأدوات القزمية في التطور، وبدأ الإنسان يفهم خواص المعدن، فقد تعرف على طرق النحاس، ولكنه ظل جاهلاً بفن صبه. ويتضح مما كشف عنه من أعداد كبيرة من قطع الصلصال التي لها شكل المسند، وكذلك فلكات المغازل الحجرية المستدقة، أن صناعة النسيج الأولية البدائية قد عرفت بالفعل[1].

ويظهر الإنجاز الفني لهذا العصر في أتم صورة في النحت على العظم، فكان يشكل أيدي أدواته على هيئة قرون الغزلان أو الحيوانات البرية، ومن

(٢) Ibid., p. 29.

أجمل القطع التي عثر عليها، يد سكين تمثل رجل من هذا العصر يرتدي غطاء للرأس وثوب أسد ثبت بواسطة حزام[1]. (شكل ٧٥). وأحب الرجال والنساء الزينة الشخصية، فصنعوا عقوداً من الأصداف، ونحتوا خواتم وأساور من الأصداف الكبيرة أو الأحجار، وكانوا يطحنون طلاء الوجه في هواوين صغيرة بواسطة مدقات صغيرة الحجم[2].

ومن أهم المظاهر الحضارية التي تميز هذه المرحلة الأولى من مراحل الاستقرار في الهضبة الإيرانية بناء المنازل، وكانت المنازل في أول أمرها عبارة عن أكواخ بسيطة شيدت من أغصان الأشجار وكسيت بالكتل الطينية حتى تساعد على تماسكها، وبالتالي تكون بمثابة حيطان لهذا المنزل الأول، ثم استخدمت كتل الطين في تشييد هذه الجدران، وفي بعض المواقع الإيرانية كان لهذه الجدران أساس حجري، وقد اتخذت هذه المنازل الشكل المستطيل في تخطيطها.



شكل (٧٥)
يد سكين مصنعة من العظم

وفيما يتصل بدفن الموتى، فقد دفن الموتى أسفل أرضية المنازل في وضع مقرفص، ووضع على عظام المتوفي التراب الأحمر، وهي الممارسة التي

(١) R. Ghirshman, Fouilles De Sialk, vol. I, Paris, 1938, p. 17, PI. VII, LIV.

(٢) انظر على سبيل المثال:

E.F. Schmidth, Excavations at Tepe Hissar Damghan, Philadelphia, 1937, p. 61.

عرفت في أماكن أخرى، ويبدو أن ذلك راجعاً إلى تغطية جسد الإنسان باللون الأحمر، أو يحتمل أن ذرات أوكسيد الحديد كانت تنثر فوق جسد الميت قبل دفنه، ومن ثم فإنه عندما يبلى الجسد تكون العظام قد صبغت باللون الأحمر(١). ويتجه بعض المؤرخين في تفسير وجود اللون الأحمر إلى احتمال فائدته في إعطاء الحياة لصاحب تلك الجثة، وذلك على اعتبار أن هذا اللون الأحمر يرمز إلى الدم الذي يعتبر جريانه في جسد الإنسان دليل على أن هذا الإنسان يتمتع بالحياة، ويمكن الاستدلال من ذلك على إيمان أصحاب تلك الحضارة بالحياة الأخرى(٢). ومما قد يشير إلى هذا الأمر كذلك ـ وهو الإيمان بالحياة الأخرى ـ وأن الحياة في العالم الآخر ستكون مطابقة للحياة الدنيا، ما عثر عليه في المقبرة رقم (T.5) في التل الشمالي في تبة سيالك، فقد وضعت فأس حجرية مصقولة بجوار الهيكل العظمي، وقد وضعت الفأس بطريقة تشير إلى أنها في متناول يد المتوفي، بينما يوجد إلى القرب من رأسه زوج من فكي الماعز(٣). وزودت المقابر بتجهيزات جنزية كانت توضع في أغلب الأمر بالقرب من رأس المتوفي، وأحياناً فوق جسده، وتكونت هذه التجهيزات من الأواني الفخارية والدبابيس النحاسية والسكاكين والخناجز وأدوات الزينة(٤).

ومن المواقع التي ترجع إلى هذه المرحلة في إيران حسب ترتيبها الزمني هي: تبة جوران، تبة ساراب، موقع علي كوش، تبة سابز، تبة موسيان، تبة جودين، كهف بلت، كهف هوتو، تبة حاج فيروز، تبه سالك، تبه جيان(٥).

(١) C. Childe, New Light on The Most Ancient East, London, 1964, P. 192

(٢) رشيد الناضوري: المرجع السابق، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) R. Ghirshman, op. cit., P. 11, Pl, X, 4.

(٤) E.F. Schmidt, op. cit., p. 302.

(٥) انظر عن هذه المواقع بالتفصيل:
أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ ايران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث ق. م، بيروت، ١٩٨٨، ص ١١٥ ـ ١٧١.

رابعاً: المرحلة الحضارية الثانية

تؤرخ المرحلة الحضارية الثانية بحوالي نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع قبل الميلاد، وهي تعاصر المرحلة المعروفة باسم «عصر استخدام النحاس والحجر» Chalcolithic، وهو عصر حضارة البداري[(١)] في مصر وعصر حلف[(٢)] في العراق القديم.

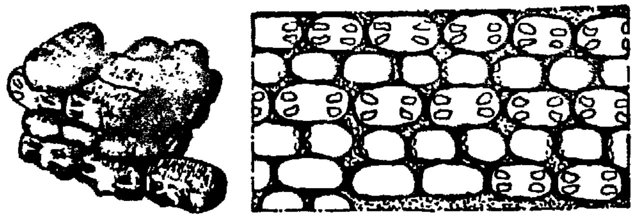
وتعتبر المرحلة الثانية من التطور الحضاري لعصور ما قبل التاريخ في إيران استمراراً للمرحلة الحضارية السابقة، تقدمت فيها مناحي المظاهر الحضارية التي تتبعناها في المرحلة الحضارية الأولى وتوجد البقايا الأثرية لهذه المرحلة فوق المخلفات الأثرية للإنسان في المرحلة الحضارية الأولى مما أدى إلى وجود اشتراك في بعض طبقات التلال بين المرحلتين الحضاريتين الأولى والثانية.

ويستدل من الأدلة الأثرية المتخلفة من المرحلة الحضارية الثانية على استخدام الطوب اللبن في البناء مما أدى إلى ازدياد مساحة المنازل (شكل ٧٦)، وطليت جدران الحجرات بطلاء أحمر اللون مستخرج من أوكسيد الحديد المنتشر بكميات كبيرة على الهضبة الإيرانية. ويشير ذلك إلى تفاعل الإنسان وإمكانات البيئة المحيطة به، ومحاولته استغلالها وما يتفق ومطالب حياته،

---

(١) تقع البداري ـ وهي إحدى مراكز محافظة اسيوط ـ على الضفة الشرقية للنيل ـ فيما بين أبوتيج وطما، عبر النهر.

(٢) يقع تل حلف في أعلى نهر الخابور على مبعدة ١٤٠ ميلاً إلى شمال غرب نينوى.



شكل (٧٦) الشكل المبكر لقوالب الطوب اللبن

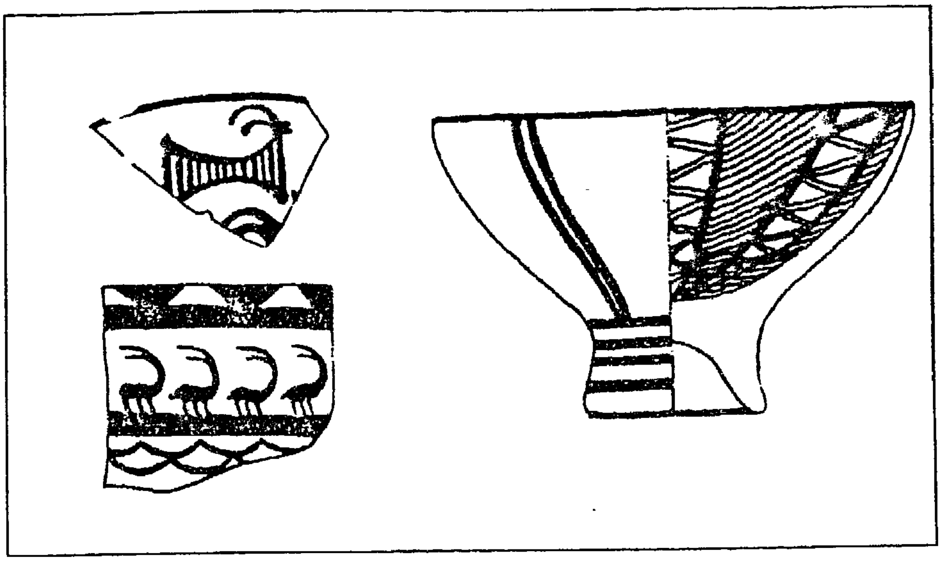
ومما لا شك فيه أنه لم يتوصل إلى ذلك إلا بعد فترات طويلة من الملاحظة والتجارب.

ولقد نمت القرى بسرعة واتسعت تجارب الإنسان في مجال الزراعة، فتمكن من التوصل إلى استخدام المحراث، وتمكن الإنسان من استئناس بعض الحيوانات ـ وذلك بالإضافة إلى الحيوانات التي استأنسها في المرحلة الحضارية الأولى ـ ومن هذه الحيوانات نوع من الكلاب السلوقية، وحصان من نوع Przewalski وكان هذا الحصان صغير الحجم قوي الجسم له عرف فرس منتصب سميك، ولقد استخدم هذا الحيوان في السفر والنقل، وفي نفس الوقت فأنه كان يستخدم في العمل في الحقول[١].

واستمرت الأواني الفخارية تصنع بواسطة الأيدي، ومن المظاهر المميزة للمرحلة الحضارية الثانية ظهور نوع جديد من الفخار ـ وذلك بالإضافة إلى

(١) R. Ghirshman, op. cit., p. 34.

وجود الأنواع السابقة ـ ويمتاز هذا الفخار الجديد بكونه أصغر حجماً، وأنه مصنوع بعناية كبيرة، ومحروق بشكل أفضل بكثير من الأنواع السابقة، والشيء الجديد في هذا الفخار والجدير بالانتباه يتركز في زينته التي نفذت بطلاء أسود على أرضية حمراء داكنة، وهي تتكون من صفوف من الحيوانات والطيور المليئة بالحركة، ولقد تمكن من رسمها بواسطة خطوط بسيطة، وبواقعية شديدة. (شكل ٧٧).



شكل (٧٧) بعض نماذج الأوان وزيناتها من المرحلة الحضارية الثانية

واستمر خام النحاس يطرق ولا يصب، وصنع منه في هذه المرحلة العديد من الأدوات كالمخارز والدبابيس، وأصبحت الحلي أكثر وفرة وثراء، إذ أضيفت إليها بعض المواد الجديدة مثل الفيروز والعقيق الأحمر.

وظل الموتى يدفنون في وضع مقرفص أسفل المساكن، وتجدر الإشارة إلى أن مصر في هذه المرحلة أي أثناء عصر حضارة البداري قد تمكنت من الوصول إلى مرحلة متفوقة فيما يتعلق بإيمان الإنسان بحياته في العالم الآخر،

فقد تمكن البداريون من بناء منازل خاصة للموتى في مكان خاص بهم، أي جبانة، واعتنى البداري بالمحافظة على جثة المتوفي بصورة ملحوظة، فقام بتغطية المتوفي بالحصير والجلد والقماش للمساعدة في الحفاظ على جثته[١]، وقد أعطت هذه الحقيقة لمصر في تلك المرحلة تفوقاً حضارياً ملحوظاً في منطقة الشرق الأدنى القديم، لأن الاهتمام بحقيقة الموت ومصير الإنسان بعد الموت يعتبر تقدماً فكرياً يصل إليه الإنسان بعد تطوره المادي الدنيوي بصورة ملحوظة.

واعتمد الإنسان في سد بعض حاجياته الغذائية على القمح والشعير الذي كان ينمو برياً، ويحتمل كذلك أنه قد تمت زراعته بالفعل على بعض المسطحات الغرينية، ويتجه الأستاذ جيرشمان إلى القول بأن إيران قد أدخلت زراعة القمح إلى الأقطار المجاورة ومنها مصر[٢]، ولكن هذا الرأي يصعب تقبله، حيث تثبت الأدلة الأثرية التي كشف عنها أن مصر قد توصلت إلى إنتاج القمح ـ أي إلى زراعته ـ توصلاً محلياً صرفاً في عصر حضارة الفيوم أ[٣]. ومن ناحية أخرى فإنه يلاحظ أن الأبحاث الحديثة يتجه بعضها حالياً إلى إثبات أن مصر قد توصلت إلى زراعة القمح منذ الألف الثامن ق. م.

ونتيجة للتطور الحضاري المادي الذي حققه الإنسان في هذه المرحلة، فقد وجدت دوافع كبيرة للتجارة والتوسع، وكانت كل المنتجات التي ينتجها الإنسان تستخدم كعملة في التبادل التجاري في هذا المجتمع البدائي. وفي هذا العصر، وعندما كان الإنسان ما يزال في بداية استخدامه للمعادن، فإنه من المتفق عليه بشكل عام أن نشاطه التجاري كان يتضمن ما في بيئته من نباتات وأشجار وحيوان ومواد طبيعية، كبعض أنواع الأحجار الجيدة والأصداف وغيرها.

(١) E.J. Baumgartel, «Predynastic Egypt», In C A H, vol I, Cambridge, 1970, p. 469.

(٢) R. Chirshman, op. cit., p. 35.

(٣) G. Caton- Thompson, and E.W. Gardiner, The Desert Fayum, vol. I, London, 1943, pp. 41-48.

ولقد ظهر الإنتاج الحضاري لهذا العصر في العديد من المواقع على الهضبة الإيرانية، مثل: تبة سيالك (خلال المرحلة الحضارية الثانية) وتبة كارا وتبة جيان (مرحلة جيان الخامسة) وموقع كشمة علي، وتل باكون «ب».

وأدى التطور الحضاري الذي حدث على الهضبة الإيرانية خلال المرحلة الحضارية الثانية إلى الانتقال إلى مرحلة حضارية أكثر تطوراً وهي ما تعرف باسم «المرحلة الحضارية الثالثة».

خامساً: المرحلة الحضارية الثالثة

يتمثل التطور الحضاري التالي لعصور ما قبل التاريخ في إيران في المرحلة الحضارية الثالثة، وهي تتضمن الجزء الأكبر من الألف الرابع قبل الميلاد. وتعاصر هذه المرحلة حضارة العبيد والجزء المبكر من حضارة الوركاء في العراق القديم، وفي مصر تعاصر حضارة جرزة الأولى وحضارة العمرة وعصر حضارة نقادة الأولى.

وتوضح الأدلة الأثرية التي كشف عنها في العديد من المواقع الإيرانية خلال المرحلة الحضارية الثالثة وجود تقدم ملحوظ في مجالات النشاط الإنساني أثناء هذه الفترة على الهضبة الإيرانية. ففي مجال العمارة يلاحظ اختفاء الجواليص الطينية التي كانت تستخدم في بناء المساكن، وحل مكانها قوالب مصنوعة من الطمى ذات شكل مستطيل، ويلاحظ مما تبقى من هذه المباني أن أبواب المنازل كانت ضيقة ومنخفضة فكان ارتفاعها عادة أقل من ثلاثة أقدام، وكانت النوافذ تقع على الشارع، ووضعت في الجدران أواني فخارية لتحمي المنازل من الرطوبة، وظلت الجدران الداخلية للمنازل تزين باللون الأحمر، ولكن يلاحظ أنه قد استخدم إلى جواره اللون الأبيض كذلك، وقسمت أحياء القرية بواسطة شوارع ضيقة وملتوية.

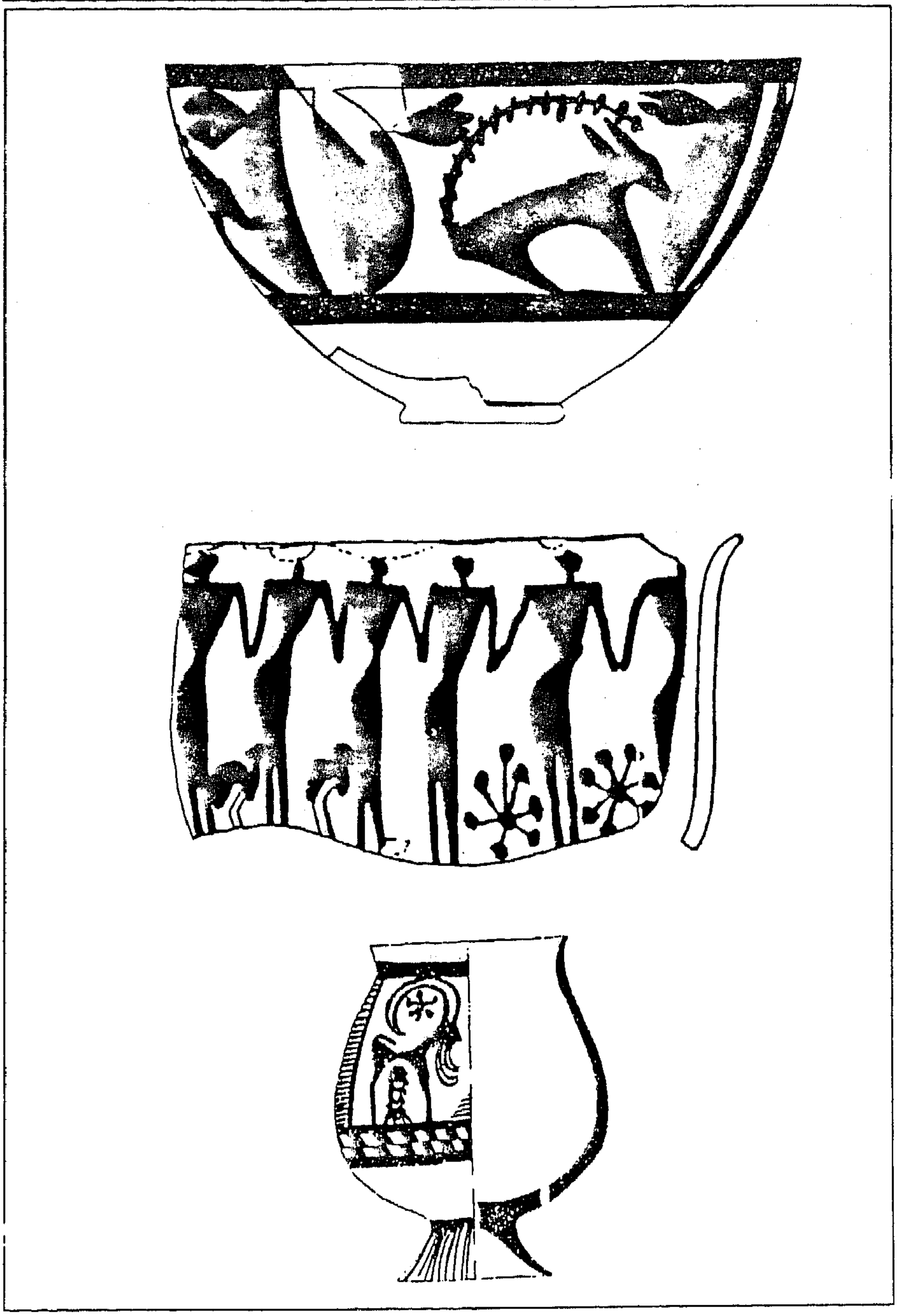
ومن نتائج هذا التقدم الحاسمة في مجال صناعة الأواني الفخارية، اختراع عجلة الفخار وحرق الأواني في أفران معدة لذلك. وكان من نتائج التوصل إلى اختراع عجلة الفحار ظهور العديد من الأواني الفخارية ذات الأشكال المختلفة،

مثل الكؤوس الكبيرة والأقداح ذات القواعد المرتفعة والأواني التي تستخدم كأدوات زينة وغيرها. وأدى إعداد أفران خاصة بحرق الأواني إلى التمكن من التحكم في ضبط قوة النيران، وتنوعت ألوان الأواني ما بين الرمادي والوردي الأحمر والأخضر.

وفيما يتصل بزينة الأواني خلال المرحلة الحضارية الثالثة، فيلاحظ أن الفنان قد اتجه في أول الأمر نحو الواقعية في زخرفة أوانيه، فقام برسم الحيوانات الموجودة في بيئته مثل الأفاعي والنمور والوعول والنعام، وأدى هذا العمل بمهارة كبيرة، فلم يعد يعبر عن أجساد الحيوانات بواسطة الخطوط المستقيمة، بل أخذ في إعطاء اعتبار لحجم الحيوان الذي يقوم برسمه، وبعد ذلك أخذ الفنان في رسم ذيول الحيوانات ورقابها وقرونها وقد استطالت بشكل سيء، ثم أصبح يرسم قرون الحيوانات ملتفة حول نفسها في عدة دوائر وقد اتصلت بالجسد، وفيما بعد، وجدت رغبة في العودة للواقعية مرة أخرى. وتعددت موضوعات هذه المناظر فكان منها مناظر الصيد التي تتعاقب مع المناظر الخلوية التي تمتلىء بمناظر الصراع مع الحيوانات، ومنها ما يظهر فلاحاً وهو يقود ثوره بواسطة حلقة موضوعة في أنفه، ومن هذه المناظر ما يمثل مواكب الراقصين وهم يقومون برقصة مقدسة[١]. (شكل ٧٨).

وكان صانع الفخار فناناً تشكيلياً كذلك، فلقد شكل نماذج للحيوانات وصنع لعباً للأطفال وقرابين نذرية للآلهة المسؤولة عن حماية قطعان ماشيته وقد وضعت أمامها تماثيل للحيوانات التي يرغب في حمايتها. ولقد عثر على أعداد كبيرة من التماثيل تمثل إلهة الإخصاب، ولقد عثر عليها غالباً بدون رأس، وهذا البتر كان يتم عمداً، ويتجه الأستاذ جيرشمان إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك منع أي شخص آخر من استخدام هذه التماثيل الصغيرة بعد موت

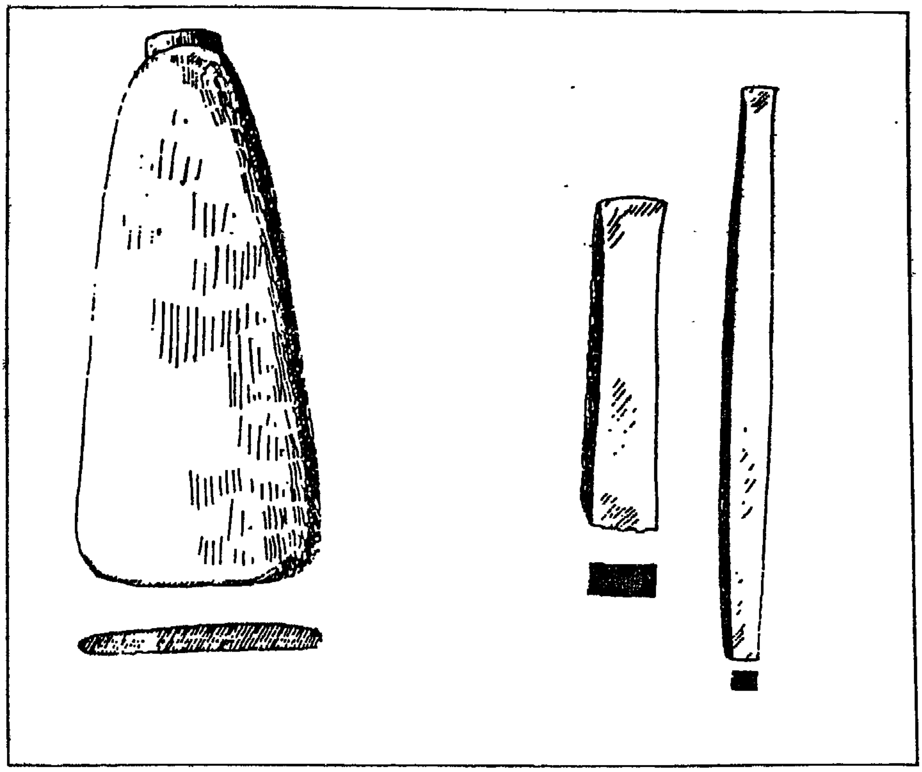
(١) R. Ghirshman, Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest, p. 36.



شكل (٧٨) بعض زينات الأواني من المرحلة الحضارية الثالثة في إيران

صاحبها[١].

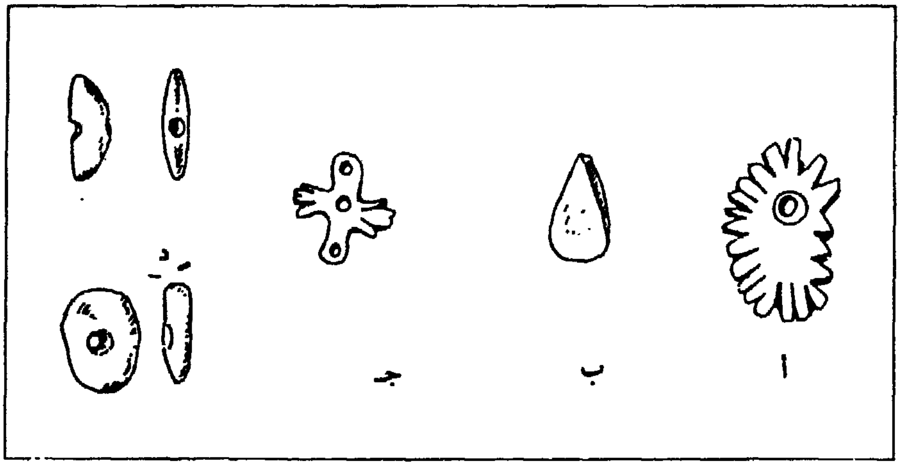
وواكب هذا التقدم الذي شهدته الهضبة الإيرانية خلال المرحلة الحضارية الثالثة، تقدم صناعة المعادن، فتوصل الإنسان خلال هذه المرحلة إلى عملية صهر النحاس وصبه، وأدى ذلك إلى زيادة المصنوعات النحاسية وتنوعها بشكل كبير، وأخذت تحل تدريجياً محل الأدوات الحجرية، فاستبدلت الفأس الحجرية بأخرى مصنوعة من النحاس، كما عثر في المنازل التي ترجع إلى هذه المرحلة على سكاكين مصنوعة من النحاس كذلك. (شكل ٧٩).



شكل (٧٩) نموذج للأزاميل والفؤوس النحاسية من الطبقة الأثرية الخامسة في سيالك

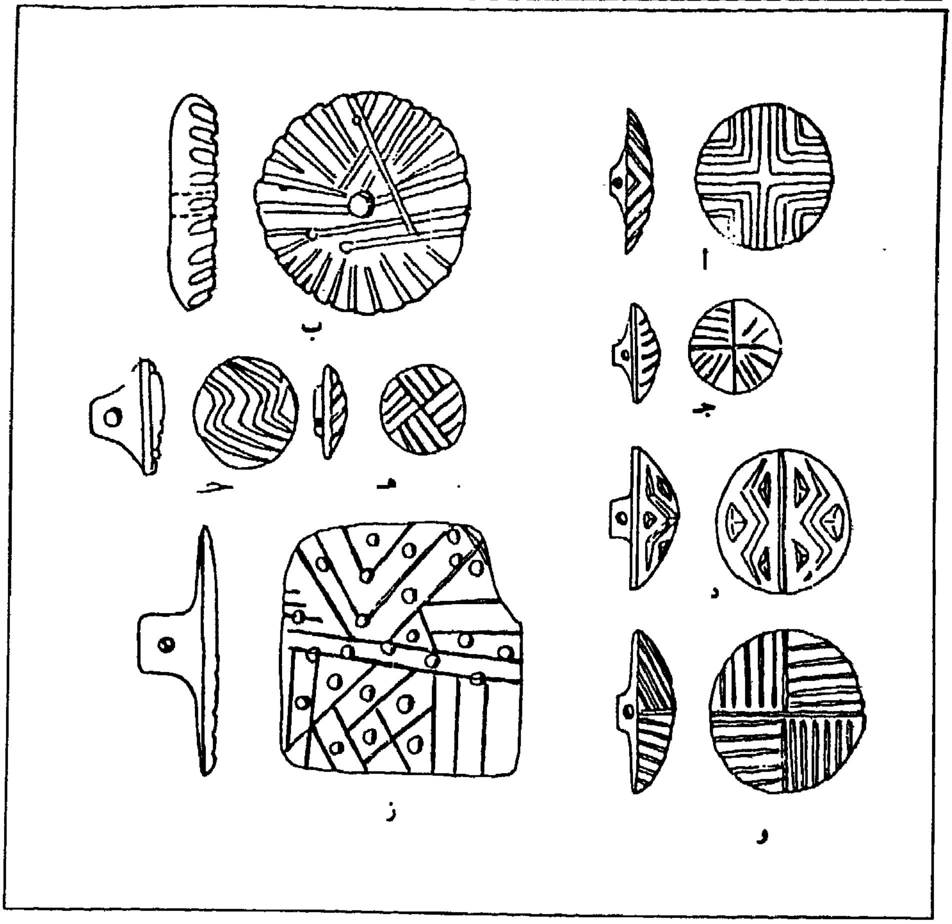
(١) Ibid., p. 40.

وأصبحت الحلى أكثر تنوعاً وثراء، فبالإضافة إلى الأصداف والعقيق الأحمر والفيروز، وجدت كذلك القلادات والخرز المصنوع من أحجار الكريستال واللازورد، كما بدأ الصناع في صناعة بعض الأدوات الخاصة بالزينة مثل اسطوانات مسطحة للمرايا ذات حواف مرتفعة قليلاً، ودبابيس كبيرة برؤوس نصف كروية. (شكل ٨٠).



شكل (٨٠) نماذج لبعض أدوات الزينة

ونظراً لازدياد النشاط التجاري فقد ظهرت الحاجة لتأمين كميات الأواني وضمان صيانة البضائع، وحتى يستطيعوا تمييز ملكية هذه الأشياء، فقد بدأوا في استخدام الأختام التي أصبحوا يختمون بها السدادة التي تغلق فتحة الآنية، وفي بعض الأحيان كانوا يقومون بختم قطعة من الطين تتصل بالآنية بواسطة حبل (شكل ٨١). وهذه الحقيقة لها أهميتها من الناحية الاجتماعية، فهي تدل على شعور الفرد بشخصيته الذاتية وملكيته الفردية في المجتمع. وكان شكل الأختام المبكرة، التي ظلت بدون تغيير لفترة طويلة، عبارة عن قطعة حجرية ذات شكل كمثري مزودة بشريط، وكانت النقوش التي عليها في أول الأمر عبارة عن زينات هندسية، ولكن سرعان ما حل مكانها أشكال إنسانية ونباتية ثم رموز، ويمكن



شكل (٨١) نماذج لبعض الأختام الحجرية

القول أن هذه الرموز قد استلهمت من الزينة الملونة التي ظهرت على الأواني الفخارية[١].

وفيما يتصل بالاعتقاد في الحياة في العالم الآخر، فلم يحدث تقدم فكري ملموس على الهضبة الإيرانية خلال هذه المرحلة، حيث ظل الموتى يدفنون

(١) Ibid., p. 41-42.

أسفل أرضية المنازل، واستمرت الممارسة التي اتبعت من قبل وهي نثر التراب الأحمر فوق أجساد الموتى.

ولقد ظهر الانتاج الحضاري للمرحلة الثالثة في العديد من المواقع على الهضبة الإيرانية، مثل موقع تبة سيالك وذلك خلال المرحلة الحضارية الثالثة بطبقاتها الأثرية السبع، وتبة حسار خلال المرحلة الحضارية الأولى بطبقاتها الأثرية الثلاث، وموقع تل باكون أ من الطبقة الأولى وحتى الرابعة، وموقع بسيدلي وتبة جوي Geoy وتبة يانيك Yanik وموقع تبة جيان خلال المرحلة الخامسة، وأخيراً فمن أهم المواقع التي ترجع إلى هذه المرحلة موقع سوسة في جنوب غرب إيران.

الفصــل الرابـع

إيران في الألف الثالث ق. م

في بداية الألف الثالث ق. م. دخل السهل العراقي الغني العصر التاريخي. ويرجع الفضل إلى السجلات التي كتبها سكانها عن تاريخ بلادهم، في إماطة اللثام عن تاريخ إيران الذي توجد الإشارات الأولى له والتي أزاحت الظلام الذي يكتنف تاريخ إيران منذ ٢٠٠٠ سنة فقط، ومع ذلك فإن هذا لا ينطبق على عيلام التي ما لبث أن أصبح لها دورها الخاص في تاريخ إيران. أما بقية المناطق الواقعة شمال سهل سوسة فإن معلوماتنا القليلة عنها تأتي من المصادر البابلية. وعلاوة على ذلك فإن هذه المصادر البابلية لا تذكر شيئاً عن الجهات الداخلية البعيدة في إيران، وإنما تكتفي فقط بالمناطق المتاخمة لها على الحدود والتي كان يعيش سكانها على التلال، وكانوا دائمي الاحتكاك بأهل بلاد النهرين السومريين والساميين.

وسكان التلال هؤلاء هم من الجنوب إلى الشمال العيلاميون والكاشيون واللوللوبيون والجوتيون وهم ينتمون جميعاً إلى جنس واحد ويتكلمون لغات متشابهة. وقد أدى الضغط المستمر الذي كانت تفرضه عليهم الممالك المتحضرة في السهول إلى اتحادهم أحياناً وبصفة مؤقتة، إذ كان الكفاح مستمراً بين الأمم المتحضرة في السهول وبين البدو وأشباه البدو في المناطق الجبلية، وكانت كلما تكونت أسرة قوية في بابل تحاول مد نفوذها على حساب سكان المناطق الجبلية، ومن ناحية أخرى، كلما ضغطت بابل انحدر سكان المناطق الجبلية إلى مناطق السهول الغنية يحتلونها لفترات مختلفة[١].

(١) R. Ghirshman, Iran. From the Earliest times to the Islamic conquest, p. 50 ff.

ويشير بعض المؤرخين ومنهم طه باقر[١] أن السومريين قد سموا الإقليم الكائن إلى شرق وادي الرافدين الأسفل بمصطلح «نم» الذي يفيد معنى النجد المرتفع، وسماه الأكديون الساميون في العراق باسم «ايلامتو» ولا يعرف بالتأكيد هل الكلمة الأكدية ترجمة للمصطلح السومري أو هي تصحيف للكلمة السومرية «إنم» (NIM) وذلك بإبدال النون لاماً وإن جاز احتمال اشتقاق الاسم السومري من الاسم السامي «عيلام ـ إيلام».

وأما العيلاميون فسموا أنفسهم «حاورتي» أو «حافرتي» وله قراءة أخرى هي «خاتمتي» التي ربما تفيد معنى «أرض الإله» وأما النصوص الفارسية المتأخرة فعرفت الإقليم «هوفاجا»، ومنه الكلمة العربية «خور» و «خويرة» وهو إقليم «خوزستان» وأما اليونان فسموه باسم عاصمتهم «السوس» (سوسا) وأطلقوا عليه اسم «سوسيانة» كما ورد جزء منهم من بلاد عيلام باسم «أنشان» و «انزان» وبلغ من شهرة هذا الإقليم أن عرفت به جميع بلاد عيلام، كما كانت هناك مدينة تحمل نفس الاسم إلى شمال غرب سوسة على نهر الكرخا، وقد وردت كلمة «ايلامتو» في التوراة تحت اسم «عيلام»[٢] كما وردت «سوسا» تحت اسم «شوشان» أو «شوشن»[٣].

ويجب استثناء عيلام من هذه الصورة العامة. ففي حوالي الربع الأول من الألف الثالث ق. م كانت هناك أسرة عيلامية قائمة بالفعل تحكم مساحة كبيرة من السهول والمناطق الجبلية وتضمنت كذلك جزءاً هاماً من ساحل الخليج

(١) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، جـ ٢، ص ٣٨١.
(٢) اعتبرت التوراة «عيلام» أكبر أبناء سام، وأنه إليه ينتسب العيلاميون، وأن الفرس من ذريته أيضاً. انظر: سفر التكوين: ١٠: ٢٢، أخبار الأيام الأول: ١: ١٧، عزرا: ٤: ٩.
(٣) نحميا: ١: ١، دانيال: ٨: ٢، استير: ١: ٤ ـ ٦، وانظر في ذلك:
A. Poebel, «The Name of Elam in Sumerian, Akkadian, and Hebrew», In A.J.S.L., vol. 48 (1931 - 1932), p. 20ff.

العربي ومنطقة بوشير ولقد عثر على نقش في هذه المنطقة يحتمل أنه خاص بأحد الملوك. وقد كتب هذا النقش بالخط السومري، وهو الأمر الذي يشير أنه في ذلك الوقت ورغم أن العيلاميين كانت لهم كتابتهم الخاصة بهم إلا أنهم قد استخدموا لغة جيرانهم السومرية.

وباعتلاء سرجون الأكدي العرش (٢٣٧٠ ـ ٢٣١٥ ق. م) دخلت عيلام في كفاح مرير دفاعاً عن حريتها وكيانها. ولم تكن القوتين متكافئتين، فلقد تمكن سرجون من الانتصار على عيلام في موقعتين، ويحتمل أنه قد تمكن من ضم سوسة إلى ممتلكاته[١]. وسار ابنه مانيشتوسو على نفس دربه وكان موفقاً في حروبه ضد إيران فتمكنت جيوشه بالفعل من عبور الخليج العربي لتأمين الطريق المؤدي إلى المرتفعات التي كان يجلب منها المواد اللازمة للبناء. وفي عهد نارام سن تمكن من إخضاعها بشدة وعين نارام سن موظفاً كبيراً ليحكم سوسة، وجعل من سوسة مقراً له ورفعه إلى مرتبة «شاكاناكو» (محافظ) وتمكن هذا الموظف من تشييد بعض المباني الهامة في المدينة. وقد حلت اللغة الأكدية (السامية) محل العيلامية، حتى أن الأسماء الخاصة أصبحت في غالبيتها سامية أكثر منها عيلامية واستمالت سياسة القوة هذه الثقافة المحلية، التي أوشكت أن تختفي لولا أنها ظلت قائمة في المناطق الجبلية الوعرة.

ومع ذلك فقد تمكن بعض العيلاميين في ظل سياسة الاخضاع هذه من استعادة هذا المنصب ومن هؤلاء «كوتيك ـ انشو شناق Kutik- In- Shushinak» والذي ظهر اسمه في الوثائق الأكدية كـ «بوزور ـ انشو شناق»[٢] والذي عينه نارام سن حاكماً تابعاً له في عيلام خلفاً للحاكم السابق. وقد انتهز «بوزور ـ انشو شناق» كل فرصة للنهوض بعيلام من جديد، وكان قادراً على تبني الحركة

(١) W. Hinz, «Persia C. 2400- 1800 B.C». In C.A.H., vol. I, part II, pp. 647- 649.

(٢) G.A. Barton, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1929, p. 156ff.

الوطنية فيها، وسرعان ما أخذت عيلام بزمام المبادئة فعادت إلى الظهور من جديد في الوثائق العيلامية نقوش مكتوبة بنقوش الكتابة ما قبل العيلامية جنباً إلى جنب مع النصوص المكتوبة بالأكدية، وأكثر من ذلك، فقد تظاهر «بوزور ـ انشوشناق» بالدفاع عن سيده نارام سن وأقدم على اتباع سياسة جديدة تقوم على التوسع ومد حدوده بعيداً نحو الشمال حتى وصل إلى الاحتكاك بقبائل الجوتيين. وقد أثرى بلاده بالغنائم التي حصل عليها وشيد الكثير من المعابد والمباني، وقدم الحكام المجاورين له فروض الطاعة والولاء.

وبموت «نارم سن» أعلن «بوزور ـ انشوشناق» استقلاله، وهاجم بابل نفسها على رأس جيشه حتى وصل أكد، التي رد عنها بصعوبة، ومع ذلك فقد احتفظ باستقلاله عن بابل، وعند عودته أعلن نفسه ملكاً على «أوان» وانتحل لقب «ملك الأنحاء الأربعة» وعلى أية حال فهو آخر حاكم على «أوان» لأن قائمة سوسة التي تقدم أسماء ملوك «أوان» تنتقل من بعده مباشرة إلى أسرة «سيماش» وبعد ذلك نرى بابل قد أخذت في الضعف تدريجياً، واتجهت إليها الأنظار وخاصة بعد نجاح «بوزور ـ انشوشناق» فغزتها قبائل اللولوبي والجوتي الواحدة بعد الأخرى فقد جاؤوا من الأودية المرتفعة لغزو بابل.

وقد عاش اللولوبيون Lullubi في عبر الطريق القديم الذي لا يزال يصل إلى بغداد مخترقاً كرمنشاه إلى حمدان وطهران وذلك في الجزء الشمالي من مرتفعات زاجروس. وكانوا جزءاً من مجموعة الشعوب التي تنتمي لأصل آسياني أو ما سمي «Zagro Elamite» وقد امتد إقليمهم حتى بحيرة أورميا وربما إلى أبعد من ذلك شمالاً[١]، وهي المنطقة التي تقع على أحد الطرق الطبيعية القليلة التي شكلتها الطبيعة المؤدية إلى الهضبة منذ آلاف السنين. ولقد قام سرجون الأكدي بالفعل بهزيمة سكان التلال هؤلاء ولكن الملك نرام سن وجه إليهم ضربات أشد، فبعد الثورة التي قاموا بها وسبق ذكرها، قام الحاكم السامي

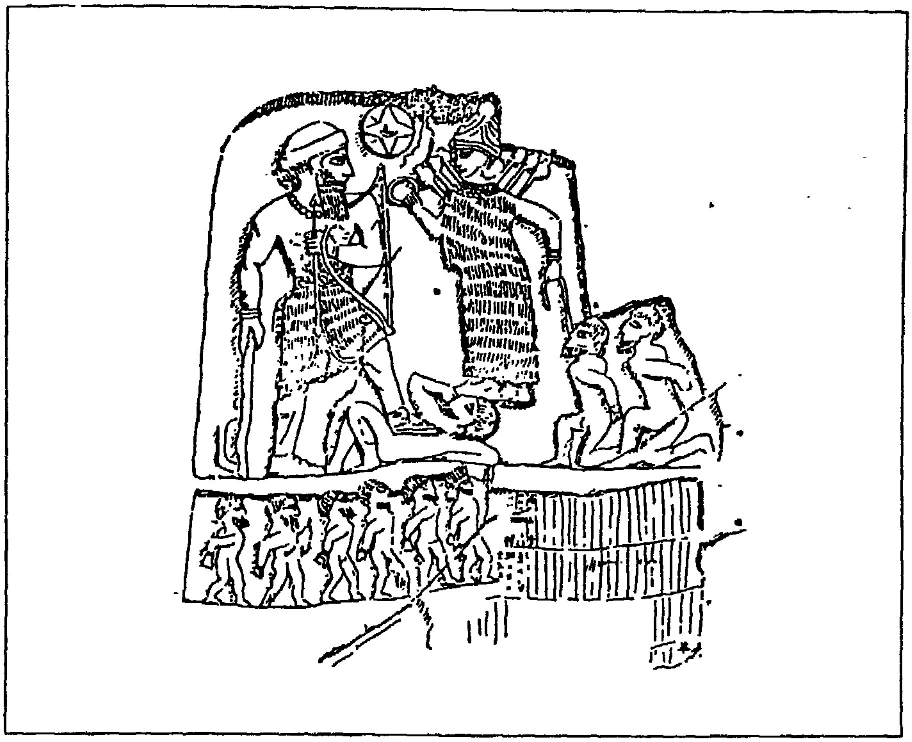
(١) عبد الحميد زايد: الشرق الخالد، القاهرة ١٩٦٦، ص ٥٦١ ـ ٥٦٢.

بتوجيه ضربة شديدة إلى الوللوبيين المتحدين مع الجوتيين في معركة كبيرة خلد نتائجها على لوحة منحوتة في الصخر في نواحي شهري زور، ومع ذلك فإنه في هذه المعركة، مثلها مثل أي اتصال آخر حدث بين القبائل التي تعيش على التلال وبين سكان السهول لم تكن نتائجها حاسمة سوى في زمن المعركة فقط. ونظراً لطبيعة الموقع الجغرافي لبلادهم، وسيطرتهم على الجبال المتحكمة في الطريق المؤدي إلى غرب إيران، فقد تحكموا نتيجة لذلك في حركة القوافل التجارية والتجارة.

وعلى الرغم من وجود عداوة بينهم وبين بابل، فإنهم قد زودوا بابل في نفس الوقت بالبضائع ومن خلال زيادة المعاملات التجارية التي لا بد منها، فقد وقعوا تحت التأثير الحضاري لجيرانهم الأكثر تحضراً. ومما يبرهن على ذلك نقشين بارزين نقشهما اثنين من ملوكهم على الصخور الجبلية في منطقة «سر - أي - بول - أي - زوهاب» ويحتمل أن أحد هذين الملكين على الأقل كان تابعاً للملك «نرام سن» وصور هذا الحاكم المحلي وهو يمسك بقوس ويطأ بقدميه أعداءه الراكعين تحت قدميه وهم يتوسلون إليه في ضراعة، ويبدو أن النقش المدمر جداً يعطينا اسمه وهو «تارلوني» Tar Lunni وتوجد هذه اللوحة في «الشيخ خان».

ويوجد نقش آخر أكثر أهمية، وهو مسجل في سطرين في نقوش بارزة في أعلى الصخر عند مدخل قرية سر - أي - بول الحديثة ويمثل هذا النقش الملك «أنوبانيني» Annubanini أمير الوللوبي، وهو يقف بقدميه فوق أعدائه، ويرتدي لحية طويلة، وغطاء رأس دائري، ونقبة قصيرة، ومسلح بقوس ويأخذ أنواع السيوف. ويوجد أمامه المعبودة نيني وهي ترتدي تاجاً طويلاً وتمسك بأصابع قدميها أسير ملقى على ظهره أسفل قدميها، وهي تمد إحدى يديها للملك وتمسك بالأخرى نهاية حبل قيد فيه أسيرين في الصف العلوي، وستة آخرين في الصف السفلي، وجميعهم عرايا، وقد ربطت أيديهم خلف ظهورهم ويوجد في مواجهة الأعداء الأسرى نقش مكتوب بالأكدية يبتهل فيه إلى العديد من

المعبودات التي يلاحظ أن معظمها معبودات أكدية[١]. (شكل ٨٢).



شكل(٨٢) نقش بارز للملك أنوبانيني ملك الوللوبي

ونظراً لندرة الآثار المتبقية بشكل عام من هذا العصر في إيران نفسها وعدم وجود أية نقوش في هذا الجزء من إيران، فإن الأثرين السابقين يعتبران ذا أهمية كبرى في إمدادنا بالمعلومات عن مستوى الحضارة المحلية ويقودانا رغم كل شيء إلى نتيجة مؤداها أن ساكني هذه المنطقة لم تكن لديهم كتابة خاصة بهم يعبرون بها عن لغتهم. ومع ذلك فإنه يبدو أنهم في ذلك الوقت قد تأثروا بالحضارة البابلية، ثم ما لبثوا أن استخدموا الكتابة واللغة الأكدية وذلك عند

(١) R. Ghirshman, op. cit. 54- 55 fig. 22.

اتصالهم بجيرانهم الموجودين في الغرب ويمكننا القول كذلك أن فنانيهم القليلين قد تأثروا بشكل كبير بالفن الموجود في بلاد ما بين النهرين وحدث هنا مثلما حدث في عيلام، فقد انتقلت حضارة السهل العراقي إما بالطرق السلمية أو بقوة الجيش. ومع ذلك فإن دور الإيرانيين في هذين النقشين كان كبيراً أو مستمراً، فقد استمرت هذه الفكرة، ومن ثم فقد رأينا على امتداد تاريخ إيران الطويل أجيالاً من الحكام يتركون العديد من نقوشهم على كل جوانب الهضبة ويتضح من هذه النقوش الأخيرة تأثرها بهذه النقوش المبكرة.

وفي أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، روعت بابل مرة أخرى بهجمات الجوتيين الذين جاؤوا إليها من جبالهم الواقعة إلى الشرق من الزاب الأدنى واتجهوا إلى وادي ديالي الأعلى وقد ظلوا قروناً طويلة يهددون مدن السهل. وقد كشف في وادي الخابور (شرق الفرات) على بقايا قلعة ترجع إلى عصر الملك نارام سن ملك أكد. ويبدو مرجحاً أن هذا البناء الذي شيد على الطريق التجاري بين أكد والأناضول، قد أقيم لحماية طريق التجارة من هؤلاء المتبربرين وسكان الجبال، الذين سرعان ما تحولت غاراتهم إلى غزوات قضت على أسرة أكد.

ولقد قضى الجوتيون على أسرة الوركاء الرابعة التي لم تعمر أكثر من ستة وعشرين عاماً حكم خلالها خمسة ملوك قوضت عاصمة ملكهم هجمات الجوتيين العنيفة، الذين نهبوا البلاد وفرضوا الضرائب الباهظة على الأهلين، وكان من أثر هجماتهم الوحشية المضنية شلل عام في مرافق البلاد وانهيار شامل في اقتصادها الزراعي والتجاري. وللأسف فإنه لا يوجد لدينا تفصيلات عن هذه المرحلة التي تتسم بزلزلة بنيان الحضارة ومحاولة القضاء عليها، فالقوائم الملكية قلما تتفق، ولعل مما يشير إلى الاضطراب قصر مدد الحكم، وأما النقوش القليلة الباقية فلا تكاد تقدم سوى أسماء لا تصحبها تفصيلات حيوية، فنجد أحد الملوك واسمه «لا سيراب» يسجل نقشاً بالأكدية، ونجد ملكاً آخر وهو «أريد ويزير» يشير إلى لقبه «ملك الأنحاء الأربعة» في نقش يكرسه للمعبود

«انليل» رب «نيبور». ومع ذلك فقد ظلت بعض المدائن مزدهرة، وربما يرجع ذلك إلى أنها كانت تؤدي الضريبة المفروضة عليها بانتظام كما هو الحال في مدينة «أوما» ويبدو أن «أور» و «لجش» قبلتا كذلك الاحتلال على مضض وبدأتا تباشران حياة تعمير هادئة بقدر الإمكان، وربما كان تقبلهما للأمر الواقع كرد فعل ضد أكد والوركاء.

ويبدو واضحاً أن عيلام هي الأخرى لم تنج من هجمات الجوتيين الذين ظلوا طوال أكثر من قرن من الزمان هم السادة المسيطرون وإن كان ذلك قد تم بشكل همجي، فاحتلوا القرى والمدن وقطعوا أوصال المملكة، ولم يتركوها إلا وهي إمارات صغيرة. وتشير قائمة ملوكهم الطويلة إلى هذا العصر المضطرب. وقرب نهاية عهد الاحتلال الجوتي، بدأت الثقافة البابلية يصبح لها دور السيادة، وبدأت تتكون ببطء حركة مقاومة لهم، وقادت الأسرة الجديدة التي تكونت في أور حركة المقاومة ضدهم. وتمكن ملوك بابل المحاربين من تحطيم قوتهم، وأصبحت سوسة وسهولها مرة أخرى ولاية بابلية.

ولكن هذه الأسرة لم تستمر طويلاً، إذ هزم ملكها بعد أقل من قرن من ظهورها، واقتيد أسيراً إلى الجبال. وفي هذه المرة فقد جاء الغزو من اتجاه مغاير لاتجاه الجوتيين. وينتمي هؤلاء الغزاة إلى مملكة «سيماش» التي تسكن الجبال الواقعة إلى الغرب من أصفهان. وهكذا دخلت أرض الصيد في جبال زاجروس الحرب ضد المملكة البابلية وتمكنت «سيماش» من السيطرة على كل من سوسة وعيلام إلا أن أسرة ايسن تمكنت من احتلال «سيماش» واستولت على عيلام التي سقطت مرة أخرى في أيدي الاحتلال الأجنبي.

وازداد دور إيران في حياة شعوب غربي آسيا خلال الألف الثالث قبل الميلاد ونظراً لازدياد حاجة الممالك الكبرى في بلاد ما بين النهرين إلى المواد الخام اللازمة للمباني، وكذلك الأسلحة وغيرها، كما ازدادت كميات البضائع المصنعة، مما اضطرهم إلى البحث عن أسواق جديدة، فنحن نعلم أنه منذ عهد

سرجون الأكدي كان هناك تجار عراقيون ومراكز تجارية سامية في آسيا الصغرى[١]. وكانت إيران من بين البلاد التي اتجه إليها ملوك ما بين النهرين، وذلك نظراً لمتاخمتها لهم وغناها بالثروات الطبيعية المعدنية، أصبحت مركز جذب لكل من يملك بعض القوة ليحاول ضم مقاطعاتهم الغربية.

وهدف ملوك بابل من حملاتهم العسكرية ضد إيران خلال الألف الثالث ق. م. إلى هدفين الهدف الأول سياسي، وكان الغرض منه عدم وجود دولة قوية منظمة في البلاد المتاخمة لحدودهم والهدف الثاني اقتصادي والغرض منه الحصول على ثروات إيران ونقلها إلى المدن العراقية. ومع ذلك فقد تمكنت إيران خلال الألف الثالث من القضاء على أسرتين بابليتين وهما أسرة سرجون الأكدي التي قضى عليها الجوتيون، وأسرة أور الثالثة التي تلقت ضربة قاضية من ملوك سيماش.

ولا تتوفر لدينا المعلومات عن الأحوال السياسية في الهضبة الإيرانية كما أننا لا نعلم شيئاً عن مدى اتساع نفوذ أمراء العيلاميين أو ملوك الوللوبي أو الجوتيون. وفي سيالك توجد فجوة تصل إلى ألفي عام وأما في جيان فقد استمرت الحياة فيها دون تغير كبير. واستمر فن صناعة الفخار ممثلاً في الفخار الملون، الذي يشبه بشكل كبير الفخار الذي عثر عليه في سوسة ويعرف بالنموذج الثاني وعثر في المقابر على حلى مصنوعة من البرونز والفضة والعقيق والدلايات وعثر كذلك على دبابيس مصنوعة من البرونز، كانت تستخدم لتثبيت الملابس وكان بعضها بدون رأس وعثر في مواقع أخرى على أدوات مصنوعة من البرونز، وهو المعدن الذي كان شديد الندرة في هذا الوقت، مما يرجح إنه كان أغلى ثمناً من الذهب والفضة، ويستدل من ذلك على أن إيران كانت تسير نحو

---

(١) محمد عبد اللطيف: المراكز التجارية الأشورية في وسط آسيا الصغرى في العصر الأشوري القديم، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ١١ ـ ١٢.

عصر البرونز[1].

وهكذا أمضت الهضبة الإيرانية الألف الثالث قبل الميلاد، حسب ما وصل إلينا من معلومات حتى الآن. وسواء أمدتنا الحفائر في المستقبل بمعلومات أهم أو بقينا على معلوماتنا الحالية، فإنه من المؤكد أن سكان الهضبة الإيرانية لم يكونوا في الألف الثالث قبل الميلاد أو حتى في الألف الثاني أي وحدة قوية كما حدث فيما بعد. بل ظلت قبائل متفرقة يحارب بعضها البعض، ولا يهمهم إلا البقاء في أوطانهم، يحيا بعضها حياة سكان الجبال قانعين بوديانهم الخصبة القليلة، ومعتمدين على مراعيهم وعلى ما يجنونه من التجارة، فقد كانت إيران منذ أقدم عصورها تستخرج النحاس من مناجمها وتبيعه في بلاد الرافدين. ونشأت فيها مراكز هامة لصناعة الأدوات النحاسية. أما الذهب واللازورد فكان يجلبهما التجار من إقليم باكتريا في افغانستان عن طريق إيران، كما كانت عيلام تمد بلاد الرافدين دائماً بأنواع الحيوانات لتبقي على سلالتها، لأن جو السهل لم يكن صالحاً لها.

---

(١) R. Ghirshman, op. cit., pp. 58- 60.

الفصـل الخامـس

إيران في الألف الثاني ق. م

إن الحدث الذي يميز تاريخ غرب أسيا خلال الألف الثاني قبل الميلاد، هو ظهور عناصر من أصول هندو أوروبية في هذا الجزء من العالم القديم. وفي الحقيقة فإن الدور الذي قاموا به كان محدوداً في بداية الأمر. ويبدو أن هذه الشعوب قد تحركت من أماكنها الأصلية الموجودة في السهول الواقعة جنوب روسيا نتيجة ضغط شعوب أخرى عليهم.

وخرجت العناصر الهندو أوروبية في شعبتين: شعبة غربية دارت حول البحر الأسود (بعد أن عبرت البلقان والبسفور) ووصلت إلى آسيا الصغرى حيث كونت المملكة الحيثية، التي استطاعت أن تمد غاراتها فيما بعد حتى بابل، ثم نراهم بعد فترة يلاقون مصر وجهاً لوجه في عنفوان الامبراطورية المصرية.

والشعبة الأخرى، فهي الشعبة الشرقية التي عرفت باسم الهندو ـ ايرانيين، وقد تحركت شرقاً حول بحر قزوين وخرجت منها بضعة فروع اتجه أحدها عبر القوقاز إلى أعالي الفرات حيث اختلط بالحوريين أهل البلاد السابقين وكونوا مملكة ميتاني التي سيطرت على شمال بلاد ما بين النهرين ووديان شمال زاجروس، وتحالفت هذه الدولة مع مصر، وارتبط ملوكها مع ملوك مصر بروابط المصاهرة، واختفت هذه الدولة من مسرح الأحداث بنهاية القرن الرابع عشر ق. م. نتيجة الخلافات الداخلية وهجمات الحيثيين عليها. واتجه فرع آخر وسط جبال زاجروس إلى المنطقة الواقعة في جنوب طريق القوافل حيث استقر فيها كأقلية نشيطة، (اشتهرت منطقتها فيما بعد بتربية الخيول)، عرفت باسم الكاشيين الذين يحتمل بأنهم هم الذين تسببوا في القضاء على مدينة حسار أثناء

اندفاعهم غرباً للاستقرار في تلك المنطقة وذلك في حوالي منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

وقد انحدرت شعبة أخرى من هؤلاء المهاجرين إلى الشرق، فدخلت إلى ممرات «هندوكوش» متبعة الطريق القديم لغزاة الهند على طريق نهري «بنديشير» و «كابول» وقد خرجت من بين هذه المجاميع شعبة إلى الغرب قرابة منتصف الألف الثاني ربما كانت موجة تبعتها موجات أخريات جاءت في القرون التالية بالإيرانيين إلى الهضبة. كان السواد الأعظم من أولئك الهندو ـ أوروبيين يعيشون حياة البداوة وكانوا يمتازون بالقوة والجلد ولديهم ميزة حب القتال، ويربط بينهم نظام قبلي وليس معنى حياة البداوة أنهم لم يعرفوا التقدم أو كانوا همجاً لم يصل إلى علمهم شيء من مقومات الحضارة، ولكنهم كانوا أقوياء يعرفون الكثير من الأشياء وعلى الأخص ما يتصل منها بالحرب أو الدفاع، كما عرفوا بعض الصناعات التي تناسب بيئتهم المتنقلة، وكانوا يحسنون الفروسية وصنع الأسلحة أو ما يماثلها من الأدوات المعدنية.

وأمثال تلك الشعوب لا ينقصها الذكاء، ولا تنفر من اقتباس كل ما يقع تحت أنظارها إذا وجدته نافعاً لها، ولكنها تنفر من ترك تقاليدها المتأصلة في نفسها وكثيراً ما يبقى زعماؤها قادة حربيين لشعوبهم يعيشون في حصون أو خيام ولا تحلو لهم متعة في أوقات فراغهم مثل متعة الصيد الذين يرون فيه مراناً لهم، وميداناً تتجلى فيه مواهب الشباب من أبنائهم أو أتباعهم.

ومن الملاحظ أن الأجيال القليلة الأولى من أمثال تلك الشعوب تظل في هدوء نسبي ولا تسبب مضايقات لا مبرر لها مع أي سكان ينزلون بينهم، ولكن أبناءهم الذين يشبون على مرأى من مظاهر الحضارة وربما كانت أمهاتهم من بنات البلاد التي ينزلون بها يصبحون أمراء أذكياء ناجحين، ويطمحون نحو التوسع، وينجحون في ذلك بفضل تماسك قبائلهم وقوتهم الحربية، وبفضل من ينضم إليهم من أبناء البلاد أنفسهم طمعاً فيما ينالونه من مغانم في تلك الحروب.

عيــلام:

ظهرت في عيلام في الألف الثاني قبل الميلاد أسرة وطنية من الحكام الذين أطلقوا على أنفسهم القاب «الرسول الإلهي، الأب والملك (لانزان وسوسه)» وسجلت الوثائق التي ترجع إلى هذا العصر بالكتابة الأكدية، التي ظهرت فيها الكثير من الكلمات الوطنية التي تشير إلى تطور الحضارة المحلية. ويتضح هذا الأمر كذلك في الديانة «المعبودة «شالا» والمعبود «انشوشيناك» كانوا أكثر شعبية من الآلهة البابلية[١].

وفي أوائل الألف الثاني قبل الميلاد غزا العيلاميون بابل، وأسس أحد أمرائهم أسرة في لارسا. وبعد ذلك تغلب العيلاميون على أسرة أيسين وسيطروا على الوركاء وبابل ولكن قيام «حمورابي» وضع حداً للتوسع العيلامي وتطلب ذلك منه قرابة ٣١ سنة حتى تمكن من هزيمة غريمه «ريم سن» وبعد هزيمة العيلاميين اختفوا من مسرح الأحداث قرابة قرن من الزمان، حتى عادوا إلى الظهور من جديد بزعامة أحد ملوكهم الوطنيين وهو «كوتير ناهونتي» الذي أعاد تأسيس الدولة من جديد. ويلاحظ أن الوثائق التي ترجع إلى عهده قد كتبت بالأكدية مما يشير إلى سيطرة الثقافة السامية خلال القرن السابق. ولكن سرعان ما تختفي عيلام، وكان ذلك خلال الغزوات الكبرى التي قام بها الكاشيون.

الكاشيـون:

تسجل النصوص التي ترجع إلى أوائل عهد «سامسو إيلونا» بن «حمورابي» قيام هذا الملك بصد هجمات الجيش الكاشي. وبعد ذلك بحوالي مائة وخمسين عاماً تعرضت بابل إلى اختراق سلمي من ساكني الجبال هؤلاء الذين هبطوا إلى السهل ليعملوا كعمال زراعيين. واستطاعوا في حوالي منتصف

(١) انظر: W. Hinz, op. cit., pp. 665- 667

القرن الثامن عشر ق.م. أن يصلوا إلى مركز الصدارة والسلطان في بابل. ويعتبر احتلالهم أطول احتلال تعرض له العراق القديم، إذا استغرق ٥٧٦ سنة ولم ينته إلا في عام ١١٧١ ق. م.

ولقد سكن الكاشيون قبل مجيئهم إلى بابل، السلاسل الوسطى من زاجروس، وهي لورستان الحالية، ولكن نفوذهم كان يمتد إلى الشمال والشرق من إقليمهم ويتجه بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن هذا النفوذ قد شمل كذلك المنطقة المحيطة بهمذان. وفي بداية الألف الثاني قبل الميلاد، امتزجت مجموعة السكان التي ترجع إلى الأصل الأسيائي Asianic بالمهاجرين الهندو - أوروبيين الذين كونوا أقلية حربية أرستقراطية، ووصلوا إلى الحكم كطبقة حاكمة، ولكنهم سرعان ما تركوا لغتهم الأصلية بعد فترة قصيرة. وتوضح الوثائق البابلية التي تشير إلى الكاشيين أنهم قد مزجوا بين الآلهة، فمزجوا بين الآلهة ذات الأصل الأسيائي والآلهة البابلية وكذلك المعبودات الهندو أوروبية. فنرى في مجمع معبوداتهم «شورياش» و «مروت تاش» و «ماروت» و «بورياش». ويبدو أن الحصان كان الرمز المقدس لدى الكاشيين، ويحتمل أن الطبقة الحاكمة هي التي قامت بإدخاله، مثلما حدث في مملكة ميتاني. وكان إلههم الوطني يسمى «كاشو»، ومما لا شك فيه أنه قد حمل اسم الشعب، وهو الأمر الذي نعلم حدوثه بين القبائل الأسيائية الأخرى.

وتوجد أقدم إشارة عن الكاشيين في وثائق ترجع إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد وتنتمي إلى عهد الملك بوزور - أنشو شناق. ويبدو أنهم لم يقوموا بدور هام خلال الألف الثالث قبل الميلاد. ولقد عرفهم الأشوريون تحت اسم «كاس» وذكر سترابو أنهم يوجدون إلى الشرق من بحر قزوين شمال طهران. ويرى البعض أن كلمة «كاس» تقرن بكلمة الصفيح باليونانية «كاسيتيروس» التي تعني «المعدن الذي يجلب من بلاد الكاسيين». وكان إسم همذان قبل مجيء الميديين «أكيسيا» Akessaia، وأسماها الأشوريون «كاركاس» التي تعني «مدينة الكاسيون».

ومع ذلك فإنه يبدو محتملاً أن اصطلاح «كاس ـ س» أو «كاس ـ بي» كان له معنى جنسياً أكثر اتساعاً، أكثر من إشارته إلى شعب واحد، من شعوب عديدة سكنت في زاجروس، بل هو يتضمن المنطقة التي احتلها كل الأسيائيين في إيران(١).

وترك احتلال الكاشيون لبابل آثاراً عميقة في نفوس البابليين، فارتبط في أذهانهم بالقوة غير العادية التي تمتع بها الغزاة الأجانب. ويمكننا أن ندرك الأرضية التي ساعدت على هذا الاعتقاد في طول مدة الاحتلال الكاشي للعراق، ورغم قلة المعلومات التي يمكننا الحصول عليها من الوثائق الكاشية، فإنها مع ذلك تثير الدهشة، فإنه يبدو أنه لم يتم اختراع شيء حيوي في عهدهم. ورغم أن هذه الوثائق لا تتضح فيها أحوال بابل وعيلام، إلا إننا نعرف من مصادر أخرى أن الكاشيين قد اتصلوا بالمصريين خلال عصر العمارنة إذ تشير وثائق وخطابات العمارنة إلى وجود علاقات ود وصداقة بين امنحتب الثالث والملك الكاشي المعاصر له، الذي يبدو أنه الملك «كادشمان خاربي».

وهدفت القـ :ت البابلية إلى طرد الكاشيين، وجاءت الحركة الأولى من عيلام التي تمت على يديها الضربة الأخيرة كذلك. ذلك أنه في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، نشأت أسرة جديدة في عيلام تمثل عصرها الذهبي الذي يتمثل في مجموعة من ملوكهم هم «شوترك ـ ناهونتي» و «كوتير ـ ناهونتي» و «شلهاك ـ أنشوشناك». وأسس هذه الدولة «أونتاش حوبان» (أو أونتاش جال) الذي تميز بأنه كان بناء كبيراً، فبنى مدناً جديدة، وعمر المدن القديمة ورمم مبانيها. وفي مجال الفنون فقد وصلت الأعمال المعدنية إلى درجة عالية من الاتقان، وذلك إذا حكمنا عليها من التمثال الذي عثر عليه وهو خاص بزوجة الملك «أونتاش حوبان» الملكة «نابيراسو». وضعفت بابل في ظل السيطرة الكاشية، فلم تعد خصماً يخشى خطره، بل ربما جاء الخطر من أشور

(١) R. Ghirshman, op. cit., p. 65.

التي مدت يد الصداقة إلى بابل، وشبت الحرب، التي سجلت فيها عيلام أولى مراحل نجاحها.

ووصلت عيلام إلى ذروة مجدها في عهد الملك «شوترك ـ ناهونتي الأول» (١٢٠٧ ـ ١١٧١ ق. م تقريباً)، وقام هذا الملك بتشييد المعابد في كل المدن الهامة في مملكته. واتجه قدماً وغزا بابل، وطرد آخر ملوك الأسرة الكاشية ووضع مكانه ابنه «كوتور ـ ناهونتي» الذي حمل معه إلى سوسة تمثال المعبود مردوك معبود بابل الوطني.

ويلاحظ من ذلك أن بابل قد نجت من احتلال رجال الجبال الإيرانيين، لتسقط بين فكي رجال السهول الإيرانيين. واستطاعت عيلام في عهد «الملك شلهاك ـ انشوشناك» (١١٦٥ ـ ١١٥١ ق. م تقريباً) إن تمد فتوحاتها إلى الشمال في منطقة ديالي، فوصلت حتى إقليم كركوك، واستمرت في اندفاعها شمالاً حتى آشرر. ثم نزلت إلى بابل وحاصرتها، وهكذا بسطت عيلام سلطانها على وادي دجلة كله، وكذا على معظم شواطىء الخليج العربي، وسلاسل زاجروس. وهكذا تكونت أول دولة موحدة تحت الحكم العيلامي، وشملت هذه الدولة كل غرب إيران الذي ضم أقاليم الجبال الجنوبية والغربية. وأدت هذه الانتصارات إلى بعث الروح الوطنية العيلامية، التي كان من مظاهرها عودة الكتابة بالكتابة «ما قبل العيلامية» وبدأ التعصب ضد الثقافة الأجنبية يزداد وضوحاً، وأصبح «أنشوشناك» إلهاً وطنياً، كما أله الملك وأسرته خلال حياتهم. وتعتبر الفنون والعمارة التي عثر عليها عن معالم تلك النهضة، ومن أكثر المدن التي تمتعت بثمار هذه النهضة مدينة سوسة.

ولكن مثلما حدث غالباً في تاريخ شعوب العالم القديم، فإن عصر قوتهم تلاه عصر من الانهيار السريع. وكان ذلك هو مصير عيلام عند نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وكان ذلك على يد أسرة بابلية جديدة استطاع أحد ملوكها وهو «نبوخذ نصر الأول» بعد عدة محاولات من القضاء على عيلام والاستيلاء

على سوسة، وأعاد مرة أخرى تمثال المعبود «مردوك» في موكب النصر إلى معبده في بابل. وتختفي عيلام مرة أخرى من مسرح التاريخ، واستمر ابتعادها هذه المرة لمده ثلاثة قرون. وانشغلت المملكتين الجديدتين في بابل وأشور في منافسة طويلة للسيطرة على السهل. وقلت أهمية الهضبة، وعلى الرغم من استمرار قيمتها، فإنها قد اضطرت إلى انتظار الأحداث التي غيرت بعد عدة قرون تالية وجه العالم القديم[١].

واستمرت الفجوة التي وجدت في سيالك خلال الألف الثالث قبل الميلاد معظم الألف الثاني. واستؤنفت الحياة في هذا الموقع في وسط الهضبة نحو نهاية الألف الثاني. وسبق أن رأينا مصير حسـ ر في الشمال الشرقي التي اختفت أخيراً خلال النصف الثاني من الألف الثاني.

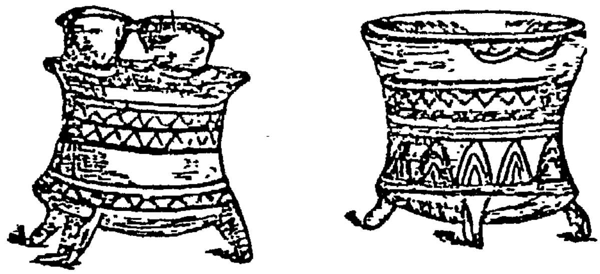
أما جيان في الغرب فقد أمدتنا بمعلومات قيمة، وألقت الضوء على التيارات المتغيرة التي أثرت في إيران في هذا الوقت. ويستدل من البقايا الأثرية التي عثر عليها في الطبقة الثالثة التي يبدو أنها تمثل استمرار صناعة الأواني الفخارية الملونة المحلية فإنها تتميز بظهور نوع جديد من الفخار له أشكال غريبة تميز بعضها بأن له ركيزة ثلاثية. ويبدو أن هذه الأواني كانت مألوفة في أجزاء معينة في زاجروس واستمرت مستخدمة فيها وبصفة خاصة في لورستان حيث عثر في المقابر التي ترجع إلى الألف الأول قبل الميلاد على عدد من هذه الأواني[٢] (شكل ٨٣).

واستمر فخار ما قبل الإيرانيين في الطبقة الثانية في جيان، ولكن وجدت عودة إلى تزيينه بزينة من الحيوانـ التي لم تستخدم في الطبقة الثالثة، ومع ذلك، فقد اتبعت هذه الزينة طرازاً جديداً، وانتشر هذا الطراز في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد خارج إيران ووصل حتى فلسطين. ووجد بجانب هذا الفخار

---

(١) Ibid. pp. 67.

(٢) Ibid. pp. 67- 68.



شكل (٨٣)
بعض نماذج الأواني الفخارية في موقع جيان (الطبقة الثالثة)

المحلي، نوع آخر من الفخار أكثر جودة، وهو مزين بأشكال هندسية دقيقة مرسومة بألوان عاتمة، وكان في بعض الأحيان من نوعيات فقيرة وملونة باللون الأسود، ويسمى هذا النموذج فخار «خابور» وقد انتشر غرباً حتى وصل إلى منطقة البحر المتوسط. ويتطابق تاريخ هذه الطبقة مع غزو الهكسوس لمصر، وغزو الكاشيين لبابل.

ولقد تعرضت طبقة جيان الأولى التي ترجع إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد إلى تأثيرات مختلطة ومضطربة. ومن الصعب فحص كل التغيرات التي أثرت على فخار هذه المرحلة دون الأخذ في الاعتبار الأحوال السياسية بين الجماعات المجاورة لزاجروس من الشرق والغرب. ويتميز فخار المستقرين القدامى بكونه على هيئة الكأس ومزين بزينة على هيئة الحيوان أو زخارف هندسية. وجلب هذا الفخار من ما يسمى بالفخار «الحوري» والذي

وجد بصفة خاصة عند حكام ميتاني، الذين كانوا في هذا الوقت في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد يمدون حدود مملكتهم نحو الشرق، وضموا إليهم منطقة زاجروس التي كان يسكنها الجوتيون. واحتوت المقابر التالية في جيان على فخار له صلة به. على الرغم من أنه يمكن القول من الوهلة الأولى أنه فخار محلي، فقد كان غير مزين، ولقد سبق التأكيد طويلاً على توحيد هذه الفخار والحلى وكل شيء عثر عليه مع الأشياء الموجودة في بابل، وذلك عند نهاية الحكم الكاشي في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد.

ويبدو أن المؤثرات الغربية التي كانت تؤثر على غرب الهضبة قد توقفت عند هذا الحد. ودخلت بابل وأشور في صراع طويل مع بعضهما، ويبدو أن هذا الصراع قد قطع الاتصال بين زاجروس والعالم الغربي، حيث ظهرت في هذا الوقت التأثيرات الشرقية، وتتضح أولى علامات التغير في توصل سيالك وجيان إلى الفخار الرمادي ـ الأسود، أو الفخار الأسود، والذي لم يكن يوجد من قبل فيهما، ومع ذلك فإنه كان قد ظهر بالفعل في الألف الثالث قبل الميلاد في حسار، حيث تمكنت الجماعات التي ترتبط به من تكوين نفسها تدريجياً، ثم تمكنت بعد مدة من نبذ الفخار الملون، وانتشرت في شمال إيران، ووصلت هذه الحضارة واستعملت في سيالك وكان الفخار الأسود الرمادي مستخدماً في الجبانة «أ»، وبالنسبة إلى جيان فقد كانت متأثرة إلى حد ما بالفترة السابقة وأبقت على فخارها المميز وكذلك على شكله.

وتعد النظرية التي قدمت بشأن القبائل التي جاءت مطرودة من الشمال والشمال الشرقي نتيجة ضغط داخلي عليها من أفضل النظريات التي فسرت تدمير حسار، ولقد كون «الجبل الهلالي» من قبل ستاراً حامياً بين سكان الهضبة، وبين العالم الواقع إلى شمالها وشمالها الشرقي. ولكن بدأ الضغط من هذه المنطقة. وبالفعل فإنه بعد ذلك بفترة قصيرة ظهر فخار جديد محل الفخار الأسود الرمادي. ويميز هذا الطراز الجديد بالجبانة «ب» في سيالك، وهي تشبه

مقابر «لورستان» في جيان ووجدت الرابطة بين هاتين الحضارتين في قرية خورفين (Khurvin) التي تقع إلى الغرب من طهران بحوالي خمسون ميلاً، على سفوح التلال الجنوبية لسلسلة البرز. وعثر على عناصر مميزة لكل من الجبانتين أ، ب في سيالك في هذه القرية ولكن الأواني الفخارية تكاد تقتصر على الفخار الأسود الرمادي (وذلك فيما عدا بعض الأواني المصنوعة من الفخار الخشن الشائع الاستعمال). واستخدم الحديد بشكل أكبر من استخدامه في الجبانة «أ»، وعثر كذلك على العديد من الأواني ذات القاعدة الطويلة، ويحتمل أنها أواني جنزية.

الفصـل السـادس

إيران منذ بداية الألف الأول ق. م
وحتى مجيء الإسكندر الأكبر

أولاً ـ هجرة الميديين والفرس

في بداية الألف الأول قبل الميلاد تأثرت منطقة غرب آسيا بحادثين بالغي الأهمية تركا تأثيراً كبيراً وفعالاً في تاريخ شعوب هذه المنطقة، ويتمثل الحدث الأول في الغزو الهندوأوروبـي، أما الحدث الثاني فكان زيادة استخدام الحديد. ومع ذلك، فإنه بالرغم من هذه الموافقة فإنه لا يوجد أي سبب يجعلنا نفترض بأن هؤلاء القادمين الجدد قد أدخلوا استخدام هذا المعدن.

ويبدو أن هذا الغزو الهندو أوروبي ـ يشبه في طبيعته بشكل كبير هجماتهم المبكرة كما يحتمل كذلك أنهم قد جاؤوا من نفس المناطق وتحركو في نفس الطرق فأخذوا طريقهم عبر البلقان والبسفور. فمنذ حوالي عام ١٢٠٠ ق. م. دفع «الألليريون» القبائل «التراقية الفريجية» إلى آسيا الصغرى وتوجه البلقانيون والفرجيون والأرمن والتراقيون والميسينيون إلى الامبراطورية الحيثية التي قاموا بتدميرها، وألحقوا الدمار بالموالي والأعداء على حد سواء. وضمت هذه الموجة الفلسطينيين الذين استقروا في فلسطين فحملت الأرض التي استقروا بها منذ هذه المرحلة اسمهم. وقد حلت هذه الجموع التي عرفناها باسم «شعوب البحر» تصحبها العربات والفرسان وتسندها قوة بحرية من الشواطىء على شواطىء سورية وفلسطين ووصلت حتى حدود مصر، حيث تمكن الفرعون رعمسيس الثالث من إنقاذ مصر من عدوانهم المدمر. فعادت أدراجها إلى سوريا وآسيا الصغرى، حيث أنشأت «الدويلات الحيثية الجديدة» في حلب وحماه وقرقميش

وملاطية. وضمت ملاطية مملكتين الفريجيين في الغرب ومملكة الموشكي في الشرق.

وكان دخول الإيرانيين لإيران في بداية الألف الأول قبل الميلاد يخالف الشكل الذي عهدناه قبل الألف عام. فقد دخل الغزاة بالقوة وفي موجات متتابعة. ويبدو أنهم قد اتخذوا نفس الطريقين اللذين اتخذوهما في المرة الأولى، وهما طريق القوقاز وطريق «ترانسوكسيانا» Transoxiana ومع ذلك فإنهم في هذه الموجة لم يندمجوا بالسكان الأسيائيين، كما حدث بالنسبة للحوريين، والميتانيين والكاشيين. فبعد دخولهم البطيء استمروا عدة قرون، حتى تمكنوا من جعل أنفسهم سادة للبلاد، ثم بدأوا منها غزو العالم المحيط بهم.

ولم تتمكن الشعبة الشرقية من هؤلاء الإيرانيين القادمين عن طريق «ترانسوكسيانا» أن تتوغل إلى الجنوب من هندوكوش، لأن ما وراء هذه البقعة من البنجاب كانت تحت أيدي شعبة أخرى من الآريين الذين أصبحوا الهنود فيما بعد، وقد استقرت هذه الشعبة في هذه المنطقة منذ الغزو الهندو أوروبي الأول. وعلى ذلك فقد اضطر القادمون الجدد إلى أن يتجهوا ناحية الغرب إلى الهضبة عبر الطريق الطبيعي الذي يؤدي من «بكتريا» إلى قلب إيران[١].

وارتبطت هذه الهجرة الكبرى الهندو أوروبية في آسيا مع العناصر التراقية الفريجية في آسيا الصغرى، والإيرانيين في الهضبة الإيرانية بشكل ما مع التحركات الواسعة جداً التي غزت وسط غرب أوروبا والتي حدثت في نفس الوقت تقريباً. ويتشابه النوماديون الذين غزوا أوروبا مع الإيرانيين في كونهما يحيون حياة البداوة معتمدين على قطعانهم ولم يكونوا من الشعوب الزراعية. وفوق كل ذلك فقد كانوا يحسنون تربية الجياد ويجيدون ركوبها واستخدامها في الحروب. وكانت مقابرهم، مثل مقابر الإيرانيين القدامى ذات سقف مدبب على

(١) R. Ghirshman, op. cit., pp. 73 - 74.

شكل جملون مثل سقوف منازل الشعوب الشمالية.

وكانوا يضعون إلى جوار الميت أسلحته وحليه وملابسه وكثيراً من الأواني وغير ذلك من الأشياء الخاصة. وقد عثر جيرشمان على الآف من تلك الأشياء من الحراب والسيوف والخناجر وأنواع الأسلحة المختلفة، ومنها أطقم الخيل، كما وجد أيضاً كثيراً من الحلى مثل الأساور والعقود والأقراط والخلاخيل، وبعض ما كان يتحلى به النساء والرجال من أحذية وصديريات وما كان النساء يضعنه في شعورهن من دبابيس معدنية طويلة لها رؤوس حيوانات، أما المعادن التي صنعت منها تلك الأسلحة والحلى والأواني فإنها كانت في الغالب من النحاس والبرونز، ولكن أكثر أسلحة الزعماء كانت من الحديد أما الحلى فكان بعضها من النحاس والبعض من الفضة والحديد أو الذهب.

ولقد شكلت سلاسل جبال زاجروس عقبة أمام تقدم الإيرانيين، وكان يوجد وراءها شعوب لها ماضي عريق وحضارة متطورة عبر مئات بل الآف السنين، فقد كانت هناك عيلام وبلاد النهرين. ثم كان هناك إلى الشمال والشمال الشرقي حول بحيرة «ڤان» مملكة «أورارتو» التي أصبحت أرمينيا بعد أربعة قرون.

وعلى ذلك فلم يتمكن الإيرانيون في ذلك الوقت من اقتحام هذه التخوم، وقنعوا بالاستقرار في وديان زاجروس، وعملوا طوال أربعة قرون تالية على امتصاص السكان الأصليين، وقد تخلى الإيرانيون الغزاة عن الكثير من مظاهرهم السياسية والثقافية بل وبعض عقائدهم الدينية، وبدأوا يتخذون حضارة القوم الذين نزلوا بينهم.

ويعتبر النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد نقطة تحول كبيرة في تاريخ الإنسانية فقد انتقل مركز «السياسة الدولية» من الأودية التي ظهرت فيها أقدم الحضارات مثل وادي النيل، أو بلاد النهرين، وانتقل شمالاً إلى مناطق ذات مظاهر طبيعية قاسية. حيث تركز الصراع على القوة الدولية.

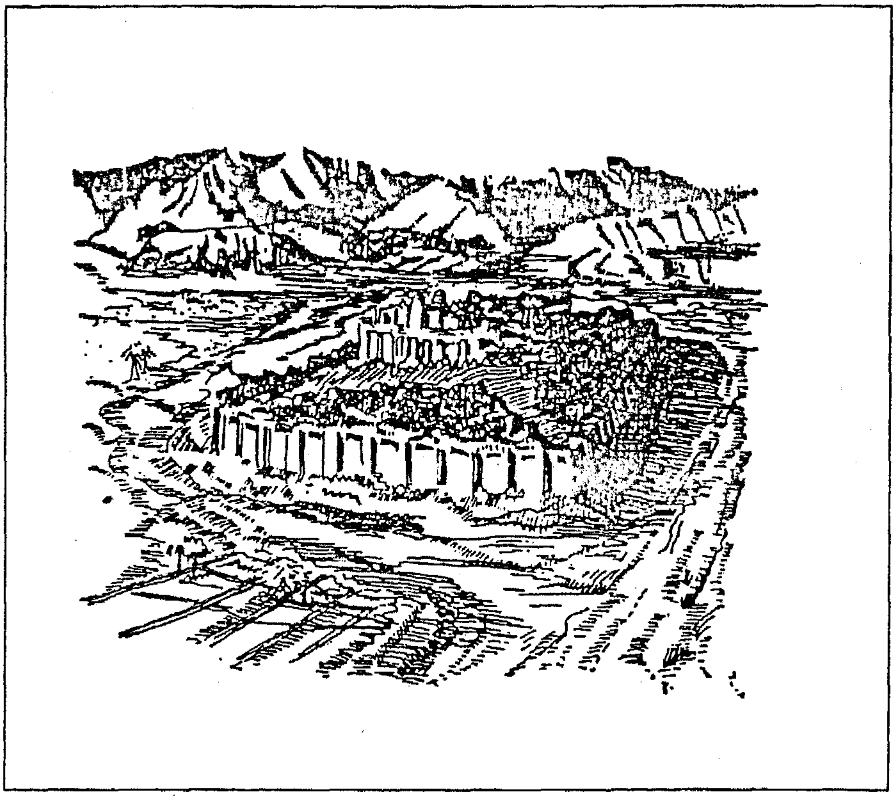
ووجدت ثلاث قوى رئيسية: الأشوريون الساميون بامبراطوريتهم الواسعة، ومملكة أورارتو المملكة الناشئة القوية ذات الأصل الآسيوي، والتي كانت خصماً وعدواً لدوداً للأشوريين، وأخيراً الآريون، الإيرانيون الذين تمكنوا بعد كفاح طويل وشاق من الانتصار على كلا القوتين السابقتين واستطاعوا بما غنموا من أسلاب أن يقيموا على أنقاضهما امبراطورية ضخمة.

وجاء الفرسان الإيرانيون ومعهم نساؤهم وأطفالهم وقطعان ماشيتهم وكان لانقسام الهضبة إلى ولايات متعددة صغيرة فرصة كبيرة لهم فقد دخلت معظم هذه الولايات في خدمة الأمراء المحليين وتمكن رجال الحرب الذين يتعيشون من ورائها وكذلك الجنود المرتزقة من إزاحة الأمراء الذين كانوا يخدمونهم وحلوا في الرئاسة مكانهم. وبهذه الطريقة انتقلت هذه الولايات الصغيرة التي لم تكن أكثر من مدن يحيط بها الحدائق والحقول إلى أيدي القادمين الجديد. وتمت عملية إحلال بطيء بمرور القرون، أثرت على مختلف مناطق الهضبة بصورة غير متكافئة. وأرغم السكان المحليين تدريجياً على تسليم ممتلكاتهم إلى الجيش الغازي.

ومن الصعب كتابة تاريخ هذه التطورات وذلك نظراً لقلة المعلومات المتاحة لنا والناجمة عن ندرة المصادر إلى حد بعيد. وتعتبر الحوليات الملكية الأشورية هي السجلات الوحيدة المتاحة لنا. وتعتبر عملية توحيد ومطابقة أسماء الأمراء والمدن والبلاد التي ذكرت فيها غير مؤكدة حتى الآن.

وفيما يتصل بحضارة هؤلاء المحاربين وبصفة خاصة تلك القبائل التي تمكنت من السيطرة على سهول كاشان. فتجدر الإشارة إلى أنه قد شيد أحد هؤلاء الأمراء في سيالك مقراً ضخماً له على قمة تل صناعي وبنى مدينة شيدت منازلها على سفح هذا التل، وأحاط بها سور ضخم تطوقه أبراج. (شكل ٨٤)[١].

(١) Ibid, Fig. 28, p. 77.



شكل (٨٤)
رسم تخطيطي للمدينة التي شيدت في سيالك

ووجد تغير هام في طريقة الدفن، ويعتبر هذا التغير علامة لتغيير جوهري لعادة قديمة بواسطة شعب جديد. فلم تعد المقابر تبنى تحت أرضية المنازل، ولكن شيدت جبانة تبعد عن المدينة بعدة مئات من الأمتار وأطلق عليها «مدينة الموتى» ووضع الميت على أرضية المقبرة، ووضع بجواره الكثير من الأدوات والمصنوعات، فقد عثر في إحدى المقابر على عدة مئات من الأشياء. ووضع على رؤوس الموتى خوذات من الجلد، وقد اختفت هذه الخوذات الآن، ولكنها نقشت على اللوحات الفضية الصغيرة كزينة وعثر على العديد من أدوات

الحلى وبصفة خاصة الفضة وكذلك البرونز، ومن بين هذه الحلى الدبابيس التي زينت بأشكال رؤوس الحيوانات، والأساور والحلقان وزينات الشعر، والخواتم وكان الرجال والنساء يستخدمون هذه الزينة وصنعت الخلاخيل عادة من البرونز، ولكنها صنعت أحياناً من الحديد كذلك. وصنعت معدات القتال من السيوف والخناجر والدروع ورؤوس السهام من البرونز والحديد. واحتوت مقابر المحاربين عدة الحرب المصنوعة من البرونز أو الحديد، واحتوت كذلك على ألجمة خيول محطمة، وعناصر متعددة لتزيين رأس وصدر الحصان.

ومع ذلك، فإن الفخار يعتبر من أكثر الأدوات شيوعاً في هذه المقابر، وكان هـذا الفخار أما ملوناً، أو ذا لـون واحد، وكان هذا اللون أما رمادياً مسوداً أو أحمر أو ذي لون عسلي، وكانت هذه الأواني أما ذات غرض جنازي أو استخدام شخصي، ويستدل منها على التقدم الذي حدث في صناعة الفخار.

ومن أكثر أشكال الأواني جذباً للانتباه تلك التي تتميز بصنابير مستطيلة وكانت هشة بشكل كبير وسهلة الكسر مما يوحي بعدم استخدامها في الحياة العادية. وإن الغرض من صناعتها هو أن توضع مع الميت ووجد طراز هذا الفخار في جميع أنحاء إيران فقد عثر عليه في سيالك وجيان ولورستان وغرب طهران، وبالقرب من كاراج وجنوب بحيرة أورميا وكذلك في سولدوز.

ويتميز الفخار الذي عثر عليه في سيالك بكونه مزيناً برسوم قيمة ومثيرة للانتباه ومن المؤكد أن أصول تلك الزينة ترجع إلى فن رسوم الأواني على الهضبة، والذي لم يتوقف إنتاجه، ولكن يلاحظ أن الأواني التي عثر عليها في سيالك تعكس هذا الاتجاه الجديد. وبالإضافة إلى الأشكال الهندسية فقد احتل قرص الشمس مكاناً بارزاً في هذه الزينة وكذلك الوعل الجبلي (شكل ٨٥)(١)

(١) R. Ghirshman, Perse, Proto - Iraniens. Medes, Achemenides, Paris, 1963, p. 291, Fig. 349.

الذي سرعان ما حل مكانه الحصان (شكل ٨٦)[١]. وارتبط رمزي الشمس والحصان بصفة خاصة بكل الشعوب الهندو أوروبية وأصبحا بالتدريج موجودين بكثرة في الفن. فقد عثر في سيالك على أواني رسم عليها حصان بجناحين (شكل ٨٧)[٢] وكذلك على بعض المصنوعات البرونزية.

ولقد جاء أول ذكر للإيرانيين في حوليات الملك شلمنصر الثالث، إذ كانت توجد مواقع إقامتهم في طريق الجيش الأشوري أثناء قيامه بغزو زاجروس. ففي حوليات عام ٨٤٤ ق. م. جاء ذكر اسم الفرس (بارسوا). وفي عام ٨٣٦ ق. م. جاء ذكر الميديين (ماداي). ولكن لا يوجد لدينا أدلة تجعلنا نعتقد أن الفرس وصلوا إلى هذه المناطق قبل الميديين.

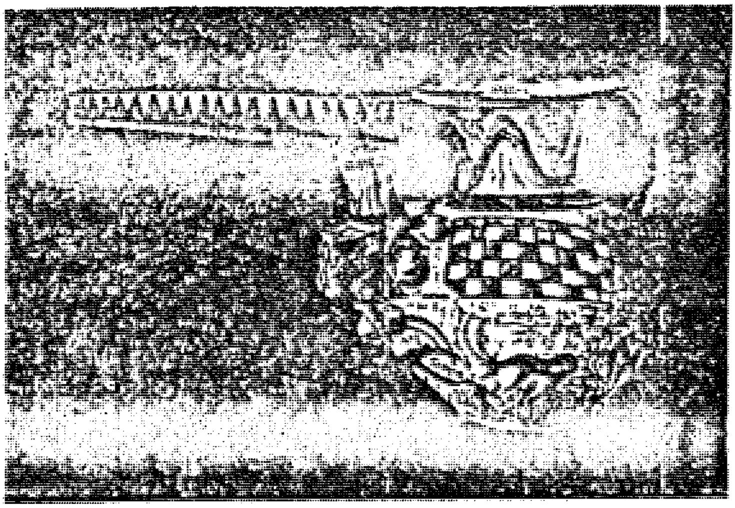
وإذا وافقنا على ما ذكره الكتاب الأشوريين، فإن الفرس في هذا العصر كانوا يستقرون في المنطقة الواقعة إلى غرب وجنوب غرب بحيرة أورمية. أما الميديون فكانوا يستقرون في الجنوب الشرقي في مجاورات همذان. ومع ذلك، فإنه لا يمكن الاعتقاد بأن هذه الأسماء (الفرس والميديون) تشير إلى أصول جنسية. وإن يرجح أنها تشير إلى المناطق التي استقروا فيها منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد.

ومن أضخم وأهم القبائل الإيرانية قبيلة «زيكيرتو» Zikirtu التي سماها اليونان «ساجارتيون» Sagartians وقد استقرت بعيداً في الشرق، ووصلوا حتى تبريز وحدود مملكة أورارتو وانتشرت شعبة من الميديين حتى أصفهان حيث صدهم العيلاميون. وقد استقر الـ «بارثانا» وهم البارثيون فيما بعد حول بوابات بحر قزوين، بينما شغلت قبيلة «هارليفا» الواحات الواقعة في المقاطعة الجنوبية لخراسان[٣].

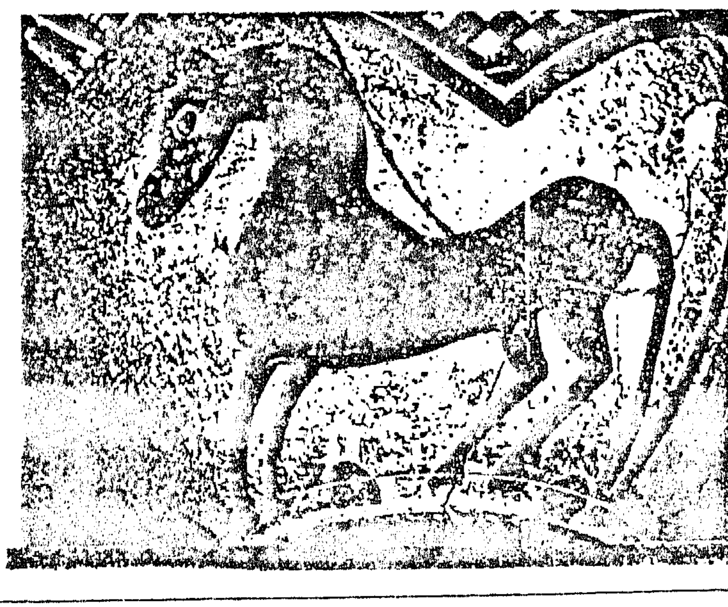
(١) Ibid, p. 15, Fig. 13.

(٢) Ibid. p. 291, Fig. 350.

(٣) R. Ghirshman, Iran, p. 90.



شكل (٨٥) نموذج لزينة الأواني التي صور عليها الوعل الجبلي



شكل (٨٦) نموذج لزينة الأواني التي صور عليها الحصان



شكل (٨٧)
نموذج لزينة الأواني التي صور عليها حصان بجناحين

وتشير حوليات الملك الأشوري «شمس أداد الخامس» إلى هزيمته لأحد القواد الإيرانيين من إقليم شمال بحيرة أورمية واستيلائه على ١٢٠٠ مدينة من مدنه. وهذه الإشارة لها مغزاها العميق، فقد انتشرت المدن المحصنة التي يحكمها أمراء إقطاعيون في غرب إيران، وكان يوجد بكل مدينة قوات صغيرة من الفرسان يصل عددها من ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ رجل. وكان تنافسهم وعدم وجود وحدة منهم الورقة الرابحة في يد الأشوريين الذين استولوا عليهم الواحدة بعد الأخرى.

ومن المؤكد في هذا العصر أنه قد أطلق على الإيرانيين لقب «ملوك» وذلك كما أطلق عليهم الكتاب في ذلك الوقت، حيث أنهم كانوا أقلية، ويبرهن ذلك على أن هجرتهم كانت لا تزال قائمة، أو أنهم قد استقروا بالفعل في أماكنهم، حيث تمكنوا من الإمساك بزمام السلطة تدريجياً فلم يدخل الإيرانيون غزاة بجيوش، وإنما كان يدخل الفرد منهم ـ بعد التسرب البطيء ـ في خدمة أحد الأمراء ويظهر تفوقه كفارس وجندي ثم يعمل على خلع من استخدمه ويأخذ لنفسه قصره وأملاكه وضياعه.

وظهر إسم الإيرانيين في هذا العصر كذلك في جيوش ملوك أورارتو، وكانت توجد في الداخل، جنوب بحيرة أورمية مملكة ماناي Mannai التي شملت منطقة كبيرة من كردستان الحالية وكان سكان هذه المملكة من الأسيائيين، وكانت لديهم القوة الكافية لإيقاف توسع الميديين.

ويبدو أن الفرس لم يستقروا طويلاً في الشمال الغربي من إيران أو أنهم لم يستطيعوا الاستقرار في هذه المنطقة كنتيجة لضغط الأشوريين من ناحية ومملكة أورارتو التي تقع إلى شمالهم من ناحية أخرى أو تعرضهم لضغط قبائل أخرى. وعلى ذلك فقد أخذوا خلال القرن الثامن قبل الميلاد يتحركون إلى الجنوب الشرقي على امتداد ثنيات زاجروس وفي حوالي عام ٧٠٠ ق. م استقروا في غرب جبال بختياري إلى الشرق من مدينة شوستار الحالية وقد أطلقوا على المنطقة التي أقاموا بها «بارسواش» أو «بارسوماش» وقد ورد هذا الإسم في الحوليات الأشورية. ومثلما حدث غالباً في هذا العصر، فقد كانت القبائل تطلق اسمها على كل من المنطقة التي تقيم بها وكذلك على المدينة الرئيسية فيها.

وبحلول نهاية القرن التاسع قبل الميلاد، وفي النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، بدأت قوة الامبراطورية الأشورية في الضعف وهو أمر استطاعت مملكة أورارتو المجاورة لها من الإفادة من آثاره، وتمتد مملكة

أورارتو إلى الشرق من التقاء رافدين للفرات، بما في ذلك بحيرة فان، وتمتد حتى وادي أراكس.

واستمر الكفاح بين مملكتي أورارتو والأشوريين خلال عهد الملك الأورارتي أرجيستيس Argistis الذي كان يعاصر الملك الأشوري شلمنصر الرابع (٧٨٢ ـ ٧٧٢ ق. م) وتمكن الملك أرجيستيس من ضم كل المناطق الواقعة حول بحيرة أورمية، ثم اتجه غرباً وفرض سلطانه على معظم الولايات الموجودة في شرق آسيا الصغرى والتي كانت تابعة من قبل للأشوريين ويبدو أن الأشوريين ظلوا في هذا الضعف أمام مملكة أورارتو حتى تولى الملك الأشوري تجلات بلاسر الثالث عرش أشور، وحينئذ فقد تمكن من تغيير ميزان القوى بين المملكتين.

فقد تمكن تجلات بلاسر الثالث بعد عدة حملات سريعة من أن يستعيد الإقليم الواقع بين الفرات والبحر المتوسط، وأن يهزم ملك أورارتو المدعو «ساردورس الثاني» Sarduris بل أنه نقل ميدان المعركة إلى قلب دولة أورارتو وحاصر عاصمتها الواقعة على شواطىء بحيرة فان، ثم تابع حملاته في زاجروس، وانتصر هناك ـ كما تشير حولياته ـ على بعض الأمراء الإيرانيين واستطاع أن يعود بالعديد من الأسلاب والغنائم فلقد قدمت إحدى المدن المهزومة عشرة أطنان من أحجار اللازورد. ثم تابع انتصاراته في ميديا إلى شمال غرب حمدان، وكانت «بارسوا» من بين الأقاليم التي ذكر في حولياته انتصاره عليها ودفع تجلات بلاسر الثالث بجيوشه بعيداً حتى وصلت إلى جبل بكنى أو عند حدود صحراء الملح(١).

ومن بين أسماء المدن التي ذكرت حوليات الملك الأشوري استيلاءه عليها جاء اسم شيركاري Shirkari أو شيكا (كي) Shika (Ki) التي يبدو أنها

---

(١) Ibid., pp. 93 - 94.

سيالك. وتتحدث الحوليات كذلك عن أرض نشاي Nishai وسهل نيسيان Nisaean، جنوب طريق حمدان الكبير الذي يشتهر بخيوله وهذه هي مقاطعة جيان.

وقام الملك الأشوري بتنظيم المناطق التي استولى عليها تنظيماً إدارياً، وأعاد بناء المدن التي دمرت أثناء حصارها، ويبدو أن ذلك قد تم في جيان، حيث عثر في قمة جبل فيها على بقايا قصر أشوري محصن فلقد كان تجلات بلاسر الثالث إدارياً ممتازاً مثلما كان محارباً عظيماً.

ويتميز عهد سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٧ ق. م) بإفراغ السامرة من اليهود وبعثرتهم في أنحاء دولته. وبلغ عدد اليهود ما يقرب من ٣٠،٠٠٠ كان نصيب الميديين منهم أعداداً كبيرة، أحلهم سرجون في المدن الميدية. وهكذا نجد جنساً جديداً في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد يمتزج بأهل زاجروس. ونتيجة لضم بابل إلى الامبراطورية الأشورية، فقد أصبحت عيلام تقع على حدودهم، وسرعان ما دخل سرجون في حرب مع عيلام ولكنه لم يحقق أي نجاح في هذه الحروب وربما كان هذا من الأسباب التي دفعت إلى اشتعال نيران الثورة ضده في الأقاليم الواقعة بين عيلام وآسيا الصغرى، ورغم أنه حارب في أكثر من جبهة فقد ظلت ميديا الشوكة التي تؤلمه، وقد ثارت «مناي» تحت إمرة حاكمها الإيراني بإيعاز من «روساس» ولكنها لم تكن ثورة ناجحة، وقد تعرضت «براسوا» عقب ذلك لحملة أشورية جديدة كان من أثرها أن اعترف ثمانية وعشرون من أمراء الميديين بسلطان أشور.

وفي عام ٧١٥ ق. م تحرك ملك أورارتو لدخول «مناي» وهو مطمئن إلى استجابتها له وقد دعم ذلك «دايوكا» حليف أورارتو الذي أرسل ابنه رهينة إلى عاصمته «روساس» ـ ليؤكد ولاءه وليطمئنه على أنه يعمل في صفه، ولكن سرجون استطاع أن يتدخل في الوقت المناسب وأن يقضي على هذه المؤامرة وأن يحمل «دايوكا» أسيراً وقام بنفيه هو وأسرته إلى حماة في سورية. ومهما

سيالك. وتتحدث الحوليات كذلك عن أرض نشاي Nishai وسهل نيسيان Nisaean، جنوب طريق حمدان الكبير الذي يشتهر بخيوله وهذه هي مقاطعة جيان.

وقام الملك الأشوري بتنظيم المناطق التي استولى عليها تنظيماً إدارياً، وأعاد بناء المدن التي دمرت أثناء حصارها، ويبدو أن ذلك قد تمَ في جيان، حيث عثر في قمة جبل فيها على بقايا قصر أشوري محصن فلقد كان تجلات بلاسر الثالث إدارياً ممتازاً مثلما كان محارباً عظيماً.

ويتميز عهد سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٧ ق. م) بإفراغ السامرة من اليهود وبعثرتهم في أنحاء دولته. وبلغ عدد اليهود ما يقرب من ٣٠،٠٠٠ كان نصيب الميديين منهم أعداداً كبيرة، أحلهم سرجون في المدن الميدية. وهكذا نجد جنساً جديداً في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد يمتزج بأهل زاجروس. ونتيجة لضم بابل إلى الامبراطورية الأشورية، فقد أصبحت عيلام تقع على حدودهم، وسرعان ما دخل سرجون في حرب مع عيلام ولكنه لم يحقق أي نجاح في هذه الحروب وربما كان هذا من الأسباب التي دفعت إلى اشتعال نيران الثورة ضده في الأقاليم الواقعة بين عيلام وآسيا الصغرى، ورغم أنه حارب في أكثر من جبهة فقد ظلت ميديا الشوكة التي تؤلمه، وقد ثارت «مناي» تحت إمرة حاكمها الإيراني بإيعاز من «روساس» ولكنها لم تكن ثورة ناجحة، وقد تعرضت «براسوا» عقب ذلك لحملة أشورية جديدة كان من أثرها أن اعترف ثمانية وعشرون من أمراء الميديين بسلطان أشور.

وفي عام ٧١٥ ق. م تحرك ملك أورارتو لدخول «مناي» وهو مطمئن إلى استجابتها له وقد دعم ذلك «دايوكا» حليف أورارتو الذي أرسل ابنه رهينة إلى عاصمته «روساس» ـ ليؤكد ولاءه وليطمئنه على أنه يعمل في صفه، ولكن سرجون استطاع أن يتدخل في الوقت المناسب وأن يقضي على هذه المؤامرة وأن يحمل «دايوكا» أسيراً وقام بنفيه هو وأسرته إلى حماة في سورية. ومهما

ثانياً: الكيمريون والاسكيذيون Cimmerians and Scythians

ظلت القبائل الإيرانية تثير الاضطرابات في شمال غرب إيران منذ نهاية القرن الثامن قبل الميلاد وهي المنطقة التي تعرضت من قبل لحروب الأشوريين والأورارتيين والميديين وقد برز في الأفق عنصران جديدان هما «الكيمريون» و «الاسكيذيون».

وقد أثار هذين العنصرين القلاقل والاضطرابات في اسيا الصغرى وفلسطين وكان غزوهم يخالف كثيراً ما عرفناه من تسرب بطيء مارسه من قبلهم الفرس والميديين منذ ثلاثة أو أربعة قرون. فقد كانوا من العشائر الحربية التي تتألف من المغول والهنود والآريين، وكانوا جبابرة متوحشين، يقيمون في عربات، ويركبون الخيل البرية بدون سرج وكانت الحرب تجري في دمائهم، فكأنهم خلقوا لها ومن أجلها. وقد نزلوا في موجات كالسيل على المنحدرات الجنوبية للقوقاز يجتاحون ما يلقون فهزموا ليديا وساروا بعد ذلك إلى كيليكيا، ولكن أشور بانيبال استطاع أن يطفيء تلك النار المستعمرة وينقذ آسيا الصغرى وسوريا منهم فهزمهم واضطرهم إلى الرجوع إلى الهضبة ليعيشوا مع أقربائهم الإسكيذيين.

أما الاسكيذيون أنفسهم فلهم أيضاً تاريخ آخر. فقد كانوا فرعاً من عائلة كبيرة عثر على كثير من مقابر ملوكهم في جنوبي الاتحاد السوفييتي السابق. ويظهر أن ملوك هؤلاء القوم كانوا يدفنون في مقابرهم التي احتوت على كنوز من الحلى الذهبية والأواني وغيرها التي كانت توضع معهم.

وفي الوقت الذي نحن بصدده، امتد نفوذ تلك القبيلة المهاجرة إلى إقليم أذربيجان الفارسي وعلى منطقة واسعة حوله. وقد عثر الحفارون منذ سنوات قليلة على أثر لأحد الملوك الاسكيذيين على مقربة من مدينة «ساكيز» وقد استطاعت مملكة الاسكيذيين أن تضم إقليم أذربيجان. وقد اعترف ملك «مناي» بسيادتهم. أما علاقاتهم مع الميديين فكانت طيبة. ولما كانت أشور تعد أورارتو

مصدر خطر بالنسبة لها فيبدو أنها سعت لكسب ود الاسكيذيين حتى ليزعم البعض أن ملك الاسكيذيين خطب لنفسه أميرة أشورية.

ثالثاً: الميديون Medians

في الوقت الذي كانت فيه دولة الاسكيذيين في عنفوانها في إيران، أخذ الميديون يوحدون بين قبائلهم التي كانت منتشرة في منطقة تمتد من جبال ديمافند حتى مدينة همذان. فلم يكن استقرار الاسكيذيون حول بحيرة أورمية حائلاً دون تطور قوة ميديا، فلقد نجح ملك ميديا «خشاثريتا ـ فراؤرتس» Khshathrita - phraortes في توحيد بلاده التي كانت تشغل رقعة تمتد من همذان إلى شرق «ديمافند» وتمتد جهة الجنوب حتى حدود صحراء إيران الوسطى.

وقد تمكن ملك ميديا من التحالف مع الكيمريين والمناي، واطمأن إلى ارتباطه برباط الصداقة مع الاسكيذيين، ثم استطاع أن يخضع الفرس الذين استقروا منذ نهاية القرن الثامن إلى الجنوب الشرقي حول بارسوماش، وقبلوا دفع الجزية له.

وبعد ذلك طمع الميديون فيما هو أكثر من ذلك، فقرر ملكهم غزو نينوى ومهاجمتها وكانت هذه مخاطرة أودت بأحلامه جميعاً وأدت إلى مقتله. إذ انتهزت الأسكيذيون ـ حلفاء الأشوريين ـ الفرصة لغزو ميديا، فهاجموا الميديين في عقر دارهم وأخضعوهم لنفوذهم ويشير هيردوت إلى أن احتلالهم لها ظل قائماً على مدى ثمانية وعشرين عاماً من ٦٥٣ ـ ٦٢٥ ق. م.

وخلف «خشاثريتا» على عرش ميديا ابنه «سياكسارس» Cyaxares. ويذكر هيرودوت إلى أن السنوات التي اعترف خلالها «سياكسارس» بسيادة الاسكيذيين كانت ذات أثر بالغ في تدعيم قوته، إذ دأب على إعادة تنظيم الجيش وأنشأ تشكيلات جديدة من المشاة وحملة السهام، كما نقل عن الأسكيذيين كثيراً من خططهم ومهارتهم في حروب الفرسان. وقد استطاع أن يدعم مركزه السياسي

بضم بعض الأقاليم الواقعة حول بحيرة أورمية إليه ثم انتصر على الأسكيذيين انتصاراً حاسماً دفعهم إلى الهجرة إلى اقليم «مناي».

وكان لهذا الانتصار الذي تمكن «سياكسارس» من تحقيقه على الاسكيذيين الأثر الكبير على الميديين، فتمكن «سياكسارس» من توطيد نفوذه، وعادت لبلاده قوتها واسترجعت سيطرتها على الفارسيين وعلى المنايين (سكان جبال الكردستان) ثم جعل أكباتانا ومكانها الآن همدان عاصمة للمملكة.

ولم يكتف «سياكسارس» بذلك، بل أراد مهاجمة بلاد النهرين، ونفذ ذلك فعلاً وتم له الاستيلاء على أشور بعد تحالفه مع ملك بابل. إذ كان حاكم بابل ويدعى «نبو بولاسر» قد شق عصا الطاعة على مولاه الأشوري. وفي عام ٦١٥ ق. م تحرك سياكسارس نحو نينوى التي قاومت الهجوم فاتجه إلى أشور في الشمال واستولى عليها، وأسرع نبوبولاسر لمقابلته وتحالفا معاً ودعما الحلف بتزويج ولي العهد البابلي نبوخذ نصر من حفيدة سياكسارس. وتفسر بعض الوثائق فشل سياكسارس في الاستيلاء على نينوى لمساعدة الاسكيذيين للأشوريين.

إلا أن سياكسارس كرر محاولته مرة ثانية وتمكن من الاستيلاء على نينوى بمساعدة حليفه البابلي عام ٦١٢ ق. م. وذهب آخر ملوك أشور إلى حران إلا أنه بعد ذلك بعامين وجهت له ضربة قاسمة أطاحت بسلطان أشور إلى الأبد حيث اختفت كقوة كبرى في العالم.

وفي نفس الوقت تقريباً سقطت أورارتو تحت سيطرة الميديين، وبعد ذلك اندفع «سياكسارس» غرباً نحو ليديا، حيث استمرت الحروب بينهما مدة خمس سنوات متتالية إلى أن حدث كسوف للشمس ـ حسب رواية هيرودوت ـ ففزع القائدين المتحاربين، واعتقدا أنه نذير من السماء لهما، فوقعا معاهدة للصلح أبرماها بأن شرب كل منهما جرعة من دماء الآخر ودعماها بأن تزوج ابن سياكسارس ابنة الملك الليدي، وتمكن هذا الابن بعد اعتلائه العرش خلفاً

لوالده من تثبيت الحدود بين الدولتين.

لقد كانت قوة ميديا في هذه المرحلة حقيقة واقعة، فنرى بابل تقيم التحصينات على حدودها الشمالية لرد خطرهم، إلا أن عمر دولة الميديين كان قصيراً فلم تستطع أن تسهم بقسط كبير في الحضارة الإنسانية، وانتهت المملكة الميدية على يد كوروش الفارسي الذي تمكن من الانتصار على الملك الميدي (استياجس) الذي اشتهر بانغماسه في الترف والملذات واتباع الشهوات وجنون الحكم، وهو الأمر الذي كان له الأثر الكبير في ابتهاج الميديين أنفسهم بانتصار كوروش على هذا الطاغية وارتضوه ملكاً عليهم، ولم يكد يرتفع صوت من بينهم محتجاً، وبعد موقعة واحدة أصبحت فارس سيدة ميديا وأخذت تعد للسيادة العالمية(١).

رابعاً: الامبراطورية الأخمينية

جاءت أول إشارة إلى بلاد فارس Parsua التي تقع إلى الجنوب والجنوب الغربي من بحيرة أورمية في حوليات الأشوريين من أيام شلمنصر الثالث عام ٨٣٤ ق.م. وقد استقروا في القرن السابع قبل الميلاد في بارسوماش عند سفوح جبال بختياري على نهر كارون، وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من سوسة، في منطقة عيلامية. ولم تكن عيلام في هذه المرحلة من القوة بحيث تقف في وجه الاحتلال الجديد لأرض كانت جزءاً من كيانها الفعلي، وكان هؤلاء الفرس تحت قيادة زعيم لهم يدعى «أخمينس» **Achemenes** الذي يبدو أنه سلم بسيادة عيلام في أول الأمر وأسس مملكته بارسوماش الصغيرة التي دانت بالولاء لعيلام وقامت مملكة فارس في الفترة التي شب فيها النزاع بين العيلاميين والأشوريين.

وجاء بعد أخمينس ابنه تياسبس **Teispes** (٦٧٥ ـ ٦٤٠ ق. م)(٢) الذي حمل لقب «ملك مدينة إنشان» والتي يرجح أنها مدينة داسجيدي سليمان

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٥٩٤ ـ ٥٨٩.

(٢) R.Ghirshman, op. cit., p. 119.

Dasjidi - i Soluiman الحالية. ولقد تمكن تياسبس من الخروج على سلطان الميديين وذلك بعد خضوعهم للإسكيذيين واستغل انهيار نفوذ عيلام في توطيد أقدامه والعمل على توسيع رقعة مملكته، فقام بضم إقليم «بارسا» وعند موته كانت الدولة التي خلفها تضم: بارسوماش، وانشان، وبارسا.

وعند وفاته قسمت مملكته بين ولديه «اريارامن Ariaramne» الذي حمل لقب «الملك العظيم وملك الملوك، ملك أرض بارسا» و «كوروش الأول» الذي حمل لقب «الملك العظيم لبارسوماش».

وحين ازداد سلطان ميديا في عهد ملكها سيكاساريس لم تستطع المملكتان الصغيرتان أن تفلتا من سيادته. وكان من نتائج المعاهدة التي أقيمت بين ميديا وبابل أن وقعت سوسة وسوسيانا ضمن أملاك بابل.

وقد تزوج قمبيز الأول ملك بارسوماش وانشان وربما بارسا، من «مدانة» ابنة استياجس مولاه ملك ميديا، وقد رفع هذا الزواج من قيمة هذا الفرع من الأسرة حتى ضم الفرعان تحت تاج واحد. وكان ثمرة هذا الزواج كوروش الأكبر ـ الذي جعل من «باسار جادا» عاصمة له أقام فيها القصور والمعابد التي نقشت على بعض أعمدتها ألقابه «الملك العظيم الأخميني».

كوروش الأكبر Cyrus (٥٥٩ ـ ٥٣٠ ق. م):

وعندما تولى كوروش أمر الفرس حوالي عام ٥٥٩ ق. م. كان الفرس خاضعين للميديين إلا أن سير الأمور في هضبة إيران أخذ طريقاً آخر بتولي كوروش العرش فقد كان ملكاً على قومه في مملكة صغيرة تسمى انشان، وكان كوروش طموحاً جريئاً ذكياً جمع شمل القبائل الفارسية أولاً ثم جند أيضاً رجالاً من الفلاحين ولم يقتصر على طبقة الفرسان، وتميز ذلك الفاتح الجديد بحيوية متدفقة، فسرعان ما أحسن تنظيم وتدريب جنوده، وبخاصة المشاة الرماة الذين كانوا يبدأون المعارك فيصيبون بسهامهم من أعدائهم المقاتل، فإذا ما بدأت

صفوف العدو تتخاذل أو يدب فيها الارتباك هجم الفرسان من الجناحين فيجهزون على عدوهم، ولا شك أن الفرس تعلموا تلك الطرق من الأشوريين الذين كانوا من أعظم الجنود المحاربين في تلك المنطقة.

وجاهد كوروش في إخضاع القبائل ذات الأصل الإيراني أو الآسيائي التي تعيش في شرق وجنوب شرق وشمال شرق مملكته. وأدرك نبونيد الذي تولى عرش بابل عام ٥٥٥ ق. م. مدى مطامع كوروش، فتحالف معه لاستعادة حران من الميديين الذين كانوا قد استولوا عليها وقطعوا الطريق عليه إلى سورية، ويبدو أن استياجس ملك ميديا علم بما جرى فاستدعى كوروش إلى اكبتانا ليقدم تفسيراً عن تصرفاته، وأبى كوروش الانصياع لرغبة جده استياجس، وعمل الملك الميدي على إخضاع الثورة بالقوة، ودارت معركتين عنيفتين لهذا الغرض قاد الثانية منها استياجس، إلا أن الفشل حالفه فسقط في يد كوروش الذي عامله بالكثير من العطف والمجاملة واختار كوروش اكبتانا لتصبح عاصمة لدولته الموحدة بعد نصره على الميديين.

ولم يتجه كوروش حين أدرك ضرورة الدخول في معركة ضد الميديين إلى طلب المعونة من حلفائه البابليين، بل اعتمد على قواته وحدها، تلك القوات التي ذكرنا آنفاً كيفية تكوينها وتدريبها، واشتملت تلك القوات قبائل من أصول إيرانية وأصول غير آرية من الركن الجنوبي الشرقي لبحر قزوين حتى المحيط الهندي. ويبدو أن جمع هذه القبائل وتوحيدها تم بطريق سلمي.

ويلاحظ أن انتصار الفرس على الميديين لم يكن انتصاراً دامياً من النوع الذي كان يمارسه الأشوريون أو البابليون أو العيلاميون ضد الشعوب المغلوبة، حتى أننا لا نشهد تخريباً حدث في ميديا. ومن ثم فإن كوروش قد اختار العاصمة الميدية اكبتانا لتكون عاصمة لدولته. وفي ظل هذه السيادة الجديدة ظل المواطنون الميديون يباشرون أعمالهم ويقومون بأعباء وظائفهم مع عدد من الفرس ولم يتغير شيء من مظاهر الحكم حتى بدا الفرس، وكأنما يتبعون

السلطان الميدي في كافة مظاهره. ومع ذلك فإن الدولة الجديدة التي احتوت إيران وميديا كان لها من الموارد الطبيعية والموقع الجغرافي ما يكفل لها أن تصل إلى ما لم تحققه غيرها[١].

وبعد أن تحقق لكوروش النصر على الميديين عمل على أن يصل إلى ساحل البحر المتوسط الشرقي وأن يسيطر على آسيا الصغرى حيث إقليم ليديا الغني وحيث القواعد البحرية اليونانية. وفي عام ٥٤٧ ق. م. كان كوروش على أهبة الاستعداد لهذا العمل فعبر دجلة بالقرب من أربلا، وقاد جيشه إلى الغرب عبر الخابور ماراً بشمال سورية متجهاً إلى آسيا الصغرى، وخلال مسيرته نحو آسيا الصغرى استولى في طريقه على حران المركز التجاري الهام الذي كان يحتفظ به «نبونيد» ويحرص عليه.

ووصل كوروش في خريف عام ٥٤٧ ق. م. إلى نهر الهاليس حيث دار قتال مع كرويسوس ملك ليديا ولم تؤد المعركة إلى نتائج حاسمة لكلا الطرفين، وعلى ذلك فقد عاد كرويسوس إلى عاصمته في سارديس، وبدأ يلجأ إلى أعوانه ليساعدوه ومن بين هؤلاء الذين استجابوا له وعاونوه نبونيد. إلا أن كوروش تتبعه إلى عاصمته حيث اضطر الملك الليدي إلى التحصن بعاصمته التي حاصرها كوروش ثم استولى عليها.

وهكذا تحولت ليديا إلى إقليم فارسي تحت اسم ساباردا Sapards أو سارديس Sardis وتحت حكم وال فارسي، كما عين أحد المواطنين ليتولى الإشراف على خزائن كرويسوس[٢].

وفي عام ٥٤٧ ق. م عرض كوروش على المدن الساحلية اليونانية ـ التي كانت رعايا الليديين مدة طويلة ـ التسليم فأبت، فيما عدا ميلتوس Miletus التي

(١) G. B Gray, «The Foundation and Extension of the Persian Empire», in C.A.H., vol., IV, The Persian Empire and the West, Cambridge, 1964, pp. 7 - 8.

(٢) Ibid., pp. 9 - 10.

استسلمت فوراً، ومن ثم فقد عاملها كوروش كما عامل ليديا وتناولها واحدة بعد الأخرى، إما بالغزو أو بالخديعة والرشوة ثم قسم الشاطىء إلى قسمين، وعين والياً على كل قسم: أما الإقليم الأيوني فضم إلى ساردیس وأما أقليم البحر الأسود فعرف بإقليم «أولئك الذين على البحر» ولقد كان الاستيلاء على هذه المدن الساحلية أمراً بالغ الأهمية. وكان الاحتفاظ بها شديد الخطر فهي لم تكن تعني ثراء نتيجة التجارة فحسب، بل أنها كانت تعني عدة من الرجال الفنيون المدربون والجند الممتازون، وكانت في الوقت نفسه مستعمرات غنية ذات أثر في حياة الامبراطورية. ولقد التقى كوروش في هذه المدن بطبقة رأت من مصلحتها أن تهادن الفرس وهي طبقة التجار الذين رأوا في الامبراطورية سوقاً ضخمة لتوسيع تجارتهم وزيادة مواردهم(١).

وتمكن كوروش بعد هزيمته لكرويسوس ملك ليديا من مد نفوذه نحو سورية بدون تعب. ومن الغريب أن ولى العهد البابلي لم يقم بأي مجهود لحماية المنطقة الشمالية أثناء انشغال والده نبونيد في الصحراء العُربية. وتقدم كوروش نحو هذه المنطقة وهو يعلن أنه المحرر لهم من ظلم البابليين وبهذه الطريقة انسلخت سورية وفلسطين من الامبراطورية البابلية دون أي قتال.

وفي عام ٥٤٠ ق. م. ظفر كوروش بقبائل البدو الضاربين في الصحراء حول «تما» وبذلك أصبح موقف نبونيد حرجاً ولم يجد من يؤيده. كما أصبحت خطوط اتصاله ببابل معرضة للانقطاع في أي لحظة، وتعرضت عاصمته الجديدة إلى خطر داهم، ولم يكن أمامه شيء يفعله غير تركها والاتجاه رأساً وبسرعة إلى بابل، وعلى ذلك تقوضت الامبراطورية الجديدة الغربية والتي كان يعقد عليها أمالاً كبيرة بدون قتال.

ولقد دخل كوروش بابل في ١٣ أكتوبر عام ٥٣٩ ق. م بدون قتال وعين عليها استراباً جديداً. وقد ارتأى أن يقدم نفسه للبابليين بوصفه واحداً منهم،

(١) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

وصاحب حق شرعي في عرشهم فأعلن ما يلي: «إنني كوروش ملك العالم، الملك العظيم، الملك القوي، ملك بابل، ملك سومر وأكد. . .».

وحرص كوروش بعد دخوله بابل على المحافظة على الفكرة الطيبة التي أوجدها بين البابليين عنه، فبدأ بترميم معابد الآلهة وأعاد تماثيل الآلهة إلى أماكنها، كما أعاد تماثيل آلهة سوسة إلى عيلام، وآلهة أشور إلى العاصمة القديمة، وكذلك بقية تماثيل الآلهة الأخرى إلى دور العبادة الخاصة بها في مختلف المدن الواقعة بين أشور وبابل[١]، كما ألغى أعمال السخرة التي كان قد فرضها نابونيد، وعاد الكهنة والمواطنون إلى تأدية العبادات القديمة التي كانت سائدة من قبل.

وفي نفس الوقت بدأ كوروش حملة منظمة هدفها تصوير العهد السابق تصويراً سيئاً، فأصدر بياناً مطولاً بيّن فيه بالتفصيل الأعمال السيئة التي قام بها نابونيد وبخاصة إهانته للآلهة، ثم أشار إلى أن الإله مردوك قد لجأ إليه (كوروش) لينقذ البلاد من كارثة محققة. ولم يكتف كوروش بهذا البيان، بل كتب بياناً آخر صيغ بأسلوب شعري حتى يتمكن الناس من تذكره بسهولة ويسر، ويرجح أنه كان موجهاً غالباً إلى الذين لا يستطيعون قراءة الأوامر الملكية. وتمكن كوروش من ترويج إشاعة في جميع أنحاء البلاد مفادها أن الآلهة قد أرسلت كوروش ليحررها، وأعلن كوروش على البابليين أن الإله مردوك هو الذي وهبه النصر، وأعلن لأهل أور أن إلههم «سين» هو الذي أضاء له الطريق، بينما اعتبر اليهود أن الإله يهوه هو الذي منحه الغلبة. وقام كوروش بمحو كل آثار نبونيد من المعابد والمدن، فشوهت النصوص وأحرقت التماثيل وحطمت، ولم يبق شيء يذكر البابليين بمليكهم السابق[٢].

وأثمرت هذه السياسة نتائجها فجاءه الملوك من الخليج العربي إلى البحر

(١) G. B. Gray, op. cit., pp. 10 - 15.

(٢) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٨.

المتوسط وهم يحملون له الجزية التي فرضها عليهم، ولقد أبقى على معظم الموظفين البابليين في وظائفهم، وبقدر الإمكان لم يغير شيئاً مما لم يكن متصلاً اتصالاً مباشراً بحكومة نابونيد.

وبعد دخول كوروش بابل بأيام قليلة أرخت الوثائق بالسنة التي اعتلى فيها كوروش العرش، وتشير هذه الوثائق إلى عدم توقف النشاط التجاري، وقد استمرت العائلات التجارية والمؤسسات في الازدهار ـ وراجت السوق البابلية كما كانت من قبل، ولم يحدث تغير إلا في بعض الوظائف الكبرى.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال أنه حينما دخل كوروش بابل كان بها جالية يهودية هي التي أسرها نبوخذ نصر، وليس من شك في أن هؤلاء اليهود قد عاونوا الفرس على فتح بابل، ومن أجل ذلك كافأهم كوروش بإعادتهم مرة ثانية إلى فلسطين[١] واعتبر اليهود كوروش مخلصاً لهم لينقذهم من الذل والمهانة التي كانوا فيها[٢].

وبقي كوروش نفسه في مدينة بابل أثناء شتاء عام ٥٣٩ ـ ٥٣٨ ق. م ليهيمن على ولايته الجديدة، وحينما عاد إلى اكبتانا في بداية الربيع ترك على بابل ولده قمبيز ممثلاً له وأقام في مارس عام ٥٣٨ ق. م احتفالات رأس السنة الجديدة وتلقى موافقة الآلهة على انتحال ولده لقب «ملك بابل» وعاش السنوات الثماني التالية في سيبار، مركزاً جهده في الناحية الإدارية وتأدية الطقوس الدينية، بينما عين حاكماً على بابل، شملت ولايته بابل والأراضي عبر النهر، وتشمل هذه الأخيرة سورية وفينيقية وفلسطين، وكان للملك موظف يسمى «عين الملك» يقوم كل عام بزيارته وهو في الواقع مفتش ملكي كان يعمل استعلامات كاملة عن حالة كل ولاية.

وكانت الحالة هادئة أيام كوروش إلى أن اضطربت الأمور في الشرق في

(١) عزرا: ٦: ٣ ـ ٥.
(٢) أشعياء: ٤٤: ٢٨، ٤٥، ٤٥: ١.

بداية عام ٥٣٠ ق. م، فقرر كوروش القيام بحملة ضد ماساجتاي على أقصى حدوده الشرقية، وعلى حسب العرف الذي كان سائداً في فارس قام بتعيين خليفة له قبل مغادرة البلاد، فاعترف بابنه قمبيز ملكاً على بابل، ونائباً عن الملك في الامبراطورية، كما عهد إليه كذلك بتجهيز حملة على مصر حتى يفرغ هو من شؤون الشرق، ولكن لم يقدر له النصر، بل قتل هناك بعد فترة قصيرة ونقلت جثته إلى باسارجادا.

قمبيز Cambyses (٥٣٠ ـ ٥٢٢ ق. م):

بعد مقتل كوروش تولى العرش ابنه قمبيز[١] على كل الأملاك الفارسية وكان قمبيز هو أكبر أبناء كوروش من أميرة أخمينية، وكان أبوه قد أشركه معه في الحكم اشتراكاً فعلياً في السنوات الثمانية الأخيرة من عهده، كما أن كوروش كان قد عهد كذلك إلى ابنه الثاني «بريديا» بإدارة أملاكه في الشرق، وكان وجود الأخوين بهذه الصورة أحدهما يحكم في الشرق والآخر يحمل لقب «ملك بابل» مما دعا إلى اضطراب الأمور بمجرد وفاة كوروش، وربما أثارت الأطماع حقد «بريديا» على أخيه ورغبته في استخلاص العرش لنفسه، ووجد من بعض أعوانه سنداً له في ذلك، وأدى ذلك إلى انشغال قمبيز ثلاث سنوات حتى تمكن من اغتيال أخيه بريديا وتثبيت دعائم حكمه[٢].

كان أمام قمبيز بعد مقتل أخيه «بريديا» (سمردس) أن يتابع المشروع الذي أعد له والده من قبل وهو غزو مصر، ويبدو أن قمبيز كان يهاب مصر، ويتباطأ في المضي إلى مهاجمتها، وذلك لعدة أمور منها جهله بأمورها، وعدم معرفته إلا القليل عن أحوالها الداخلية، كما كان يخشى الصحراء ومسالكها الوعرة

---

(١) يعرف اسمه في المراجع الفارسية ك «كمبوجية». انظر: ايرانشهر، مجلد أول، ص ٢٩٨.

(٢) R. Ghirshman, op. cit., P. 136.

المجدبة، وهو لم يعتد الحرب فيها حيث تعود على الحرب في الأراضي المزروعة[١].

وكاد قمبيز يرجع عن هدفه، لولا أن الصدفة ساقت إليه أحد القواد اليونان الذي عمل في مصر فترة طويلة كقائد لإحدى الفرق المرتزقة اليونان[٢] وهو «فانيس» الذي وضع خدماته وخبرته ومعرفته بمصر التي عاش فيها ردحاً من الزمن تحت تصرف القائد الفارسي قمبيز، وتقدم قمبيز ومعه فانيس وبعض اليهود الذين أصبحوا يدينون بالولاء للفرس منذ أيام كوروش الثاني الذي فك أسرهم وأعادهم إلى أورشليم، حيث وصل إلى غزة في ربيع عام ٥٢٥ ق. م.

وتقدمت الجيوش الفارسية في سيناء حتى وصلت قرب «بلوزيوم» (الفرما) وفي تلك الأثناء مات الملك المصري أحمس الثاني وخلفه ابنه بسماتيك الثالث ومن سوء الطالع أنه كان بعيداً عن شؤون الحكم طوال حياة أبيه، فضلاً عن أنه لم يتمرس في شأن من شؤون الحرب والقتال، ويضاف إلى ذلك أيضاً أن الجيش المصري كان يعتمد في غالبيته على المرتزقة من الأغارقة والمتأغرقين، فضلاً عن أن فينيقيا أمدت قمبيز بأسطول كانت له أهميته الكبرى في عملياته الحربية بعد ذلك، وفي ذلك الوقت أيضاً تخلت قبرص عن حلفها مع أحمس الثاني وقدم يونانيوا برقة خضوعهم لقمبيز.

وعلى ذلك فعندما دارت معركة الفرما تمكن الفرس من هزيمة الجيش المصري بعد معركة شرسة واضطر الجيش المصري إلى أن يتراجع إلى العاصمة منف، وتقدم قمبيز بجيشه في الدلتا وحاصر مدينة أون (هليوبوليس/ عين شمس الحالية) ودخلها ثم وصل العاصمة منف حيث دارت معركة انتهت بسقوطها

(١) محمد بيومي مهران: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ٣، حركات التحرير في مصر القديمة، القاهرة ١٩٧٦، ص ٣٤٦.

(٢) انظر: سوزان عباس عبد اللطيف: الجند المرتزقة ودورهم السياسي والحضاري في مصر الفرعونية خلال العصر المتأخر، (رسالة ماجستير) الاسكندرية، ١٩٨٣.

ووقع الفرعون بسماتيك الثالث أسيراً في أيدي الفرس[١]. وبعد ذلك اتجه قمبيز بجيشه إلى طيبة بواسطة نهر النيل حيث استولى عليها ومنها اتجه إلى الواحة الخارجية.

وبعد أن استقر قمبيز في مصر خطط للقيام بحملات ثلاث كان الهدف من الأولى الاستيلاء على قرطاجة والثانية الإستيلاء على واحة سيوه مقر وحي الإله آمون والثالثة تهدف إلى الاستيلاء على كوش، إلا أنه لم يحالفه النجاح في هذه الحملات الثلاث.

فلقد فشلت حملته ضد القرطاجين، وذلك لرفض الفينيقيين ـ الذين كانوا أعواناً له في حملته ضد مصر ـ استعمال اسطولهم ضد أبناء وطنهم من أهل قرطاجة[٢]، أما الحملة التي توجهت إلى واحة سيوه، فربما كان الهدف منها غزو برقة والاتجاه منها نحو قرطاجنة، ولقد تمتعت سيوه في ذلك الوقت باشتهار معبد أمون فيها بصدق تنبؤات كهنته وكان الإغريق يثقون في هذه التنبؤات ثقة كبيرة، وكان كهنة آمون قد تنبؤوا بسوء المصير لقمبيز وفتوحاته، فأراد أن يلقنهم درساً قاسياً، ويثبت للعالم كذب هذه النبوءة[٣]. فأرسل خمسين ألفاً من جنوده خرجوا من طيبة واتجهوا إلى الواحات الخارجية، ومنها إلى سيوه، إلا أن واحداً من جنودها لم يصل إلى سيوه أو يعد إلى الخارجة.

ويؤكد هيرودوت أن كهنة آمون في سيوه سئلوا عن مصير هذا الجيش، فقالوا: بأنه حدث في اليوم الرابع بعد أن تركوا واحة الخارجة، عندما استراحوا في منتصف النهار ليتناولوا طعامهم، أرسل عليهم أمون غضبه وانتقامه فقامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم تحتها، وما زال مصير هذا الجيش الكبير حتى الآن

(١) A. T. Olmstead, History of the Persian Empire, Chicago, 1970, p. 88.

(٢) A. Gardiner, op. cit., p. 365.

(٣) أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

سراً من أسرار الصحراء الغربية، وقد حاول الكثيرون في عصرنا الحاضر البحث عن آثاره مستخدمين الوسائل الحديثة من سيارات وطائرات وأجهزة علمية متطورة ولكن دون جدوى(١).

أما حملته الثالثة التي قادها لأثيوبيا (السودان حالياً) فربما كان الدافع إليها الطمع في ثروات هذه المنطقة وبخاصة وأن المعلومات التي أوردها المؤرخون اليونان عنها أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة، فلقد ذكروا أن أهل هذه المنطقة كانوا من المعمرين، ويعتمدون في طعامهم على اللحم المشوي ومعظم شرابهم اللبن، وأن الذهب عندهم كالتراب حتى أن الأسرى كانوا يوثقون في أغلال من ذهب(٢).

ولقد قاد قمبيز هذه الحملة بنفسه، وكانت معه أعداد كبيرة من جنده، حيث اجتاز كثبان الصحراء الليبية ومنطقة بطن الحجر، ووصلت جيوشه إلى مروى بعد عناء شديد حيث لقى هزيمة قاسية على أيدي ملوك نباثا(٣)، خسر فيها جزءاً كبيراً من جيشه، كما أن هناك من يرى أنه أصيب بضربة شمس أثناء عودته تسببت بعد ذلك إلى إصابته بالجنون.

وتباينت آراء الباحثين حول معاملة قمبيز للمصريين وحكامهم وعقائدهم، فمنهم من رأى أنه هدّم المعابد ونكل بالحكام المصريين ونهب الثروات، بينما هناك من رأى أنه احترم عقائد المصريين واتخذ الألقاب الملكية المصرية، واهتم بدور العبادة(٤)، وعلى أية حال فلم تلبث أن جاءت الأنباء إلى قمبيز بقيام

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢١٨، وكذا: محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٢) Herodouts, III, 18 F., AT. Olmstead, op. cit., p.89.

(٣) G.A. Wainwright, «The date of the rise of Meroe», in J.E.A., vol. 38 (1952), p. 15 FF.

(٤) انظر في ذلك:
سوزان عباس عبد اللطيف: «بعض التأثيرات المصرية في الحضارة الهخامنشية» مجلة كلية الآداب ـ جامعة المنوفية ١٩٩٢.

بوادر ثورة ضده في فارس، فأسرع عائداً إلى بلاده وترك مصر تحت إمرة الوالي «أرياندس» تعضده حاميات فارسية، وهو في طريقه إلى إيران وعندما وصل إلى شمال فلسطين وصلته الأخبار بأن «جاوماتا» الماجي قد استغل شبهه بشقيق قمبيز «بريديا» والذي كان قد قتله قمبيز في بداية حكمه وزعم أنه بريديا الحقيقي وكسب أعواناً كثيرين في أنحاء الأقاليم الفارسية، ولم يلبث قمبيز أن مات بعد أن وصلته هذه الأخبار.

وتختلف الروايات حول موت قمبيز، فمنها ما يذكر أنه مات فور علمه بهذه الأنباء، ومنها ما يرى أنه مات عند عودته إلى بلاده ليحارب مُدعى العرش، وتضاربت الروايات أيضاً في أسباب موته، فذهب بعضها إلى أنه انتحر عمداً، بينما اتجهت روايات أخرى إلى أنه مات متأثراً من جرح أحدثه بنفسه في إحدى نوبات الصرع التي كان كثيراً ما يصاب بها[١].

ولقد تمكن «جاوماتا» أو «بريديا» المزعوم من أن يصبح ملكاً في بابل في ١٤ ابريل عام ٥٢٢ ق. م. وفي أول يوليو من نفس العام تم الاعتراف به في جميع أنحاء الامبراطورية وتقبل الناس حكمه بارتياح وذلك لإيقافه الضرائب والتجنيد لمدة ثلاثة أعوام. إلا أن حكمه لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما اجتمع سبعة من النبلاء بزعامة «دارا بن هستاسبس» ونجحوا في القضاء على الثورة وقتل جاوماتا في ٢٩ سبتمبر من نفس العام ٥٢٢ ق. م. وأصبح دارا ملكاً على فارس، وبذا انتقل العرش الفارسي من فرع قمبيز إلى فرع آخر من أسرته[٢].

---

(١) محمد ميون مهران: المرجع السابق، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ وكذلك:

R. Ghirshman, op. cit., pp. 138- 139.

(٢) A. T. Olmsted, «Darius and his Behistun Inscription» in AJSL, LV (1938), p. 394

G.G. Cameron, «Darius and Xerxes in Babylonia» AJSL, LVIII, (1941), p. 315 FF.

دارا الأول Darius (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق. م)[١]:

قضى دارا العامان الأولان من حكمه في القضاء على الاضطرابات التي سادت الامبراطورية عقب وفاة قمبيز، فبعد مقتل جاوماتا ثارت بابل على الحكم الفارسي، مما استدعى تدخل الجيش الفارسي حيث تم القضاء على الثورة، ومنذ أواخر ديسمبر عام ٥٢٢ ق. م. قضى على استقلال بابل تماماً. ولقد شغل دارا بعد ذلك في إخماد الثورات التي اندلعت في جميع أنحاء الامبراطورية، ومنها بابل التي ثارت مرة ثانية، ولقد تمكن من إخمادها بنفسه.

وقام دارا في شتاء ٥١٩ ـ ٥١٨ ق. م بالتوجه نحو الغرب[٢] على رأس جيش كبير، وتصادف وصوله منف موت العجل ابيس وحداد الناس عليه، فأمر بمنحة كبيرة من الذهب لكل من يكتشف عجل ابيس جديد، وبذلك العمل استطاع أن يستميل الناس إليه، وتم دفن العجل السابق على الطريقة التي كان يتبعها الفراعنة.

ولقد اهتم دارا بمصر وعرف قيمة علمائها، فنجده يرسل إلى واليه على مصر يطلب منه أن يجمع أعقل الرجال من الجنود والكهنة والكتاب، ويكلفهم بكتابة القانون الكامل لمصر حتى العام الرابع والأربعين لحكم الفرعون أمازيس (أحمس الثاني)، وهو عمل ظلوا مشغولين به حتى عامه التاسع عشر.

وتابع دارا عمليات التشييد في معابد الآلهة المصرية، فأقام معبداً ضخماً للإله أمون في واحة الخارجة. ولقد اتخذ لنفسه في هذا المعبد ألقاباً مصرية بحتة، كما قام بترميم العديد من معابد الالهة في قفط وطيبة وسايس وادفو وبوصير. واهتم أيضاً بشؤون مصر العلمية، حيث جاء في أحد النقوش أنه أمر بترميم بيت الحياة المهدمة والتي ترعى الطب.

(١) يعرف اسمه في الكتب الفارسية ك «داريوش». انظر: «ايرانشهر» ص ٣٠٧.

(٢) R.A. Parker, «Darius and his Egyptian Campaign» in AJSL, LVIII (1941), p. 373 ff.

واهتم دارا بإعادة فتح القناة التي كانت توصل البحر الأحمر بالنيل، وهي القناة التي أنشئت في عهد الدولة الحديثة على الأرجح، إلا أن يد الإهمال امتدت إليها حتى عفت آثارها آخر الأمر، ثم جاء «نخاذ» الثاني وأعاد تنفيذ المشروع، إلا أنه توقف ولم يستكمل، وبعد ذلك تمكن دارا من استكمال المشروع. واستطاع أن يوجه فيها أربعاً وعشرين سفينة محملة بالجزية إلى فارس، وقد أقيمت اللوحات التي تخلد ذلك الأمر على مراحل على ضفتي القناة مكتوبة بالهيروغليفية وبالمسمارية[١].

وجاء في النصوص المسمارية في هذا الشأن على لسان دارا مايلي: «إنني فارسي من فارس، لقد استوليت على مصر، لقد أمرت بحفر هذه القناة من نهر النيل باسمي، ذلك النهر الذي يجري في مصر، وحتى البحر الذي يصل إلى فارس، وبعد أن تم حفر القناة كما أمرت، مرت السفن عبر هذه القناة من مصر إلى فارس طبقاً لرغبتي»[٢].

وبعد أن تمكن دارا من إخماد الثورات وأعاد الهدوء والأمن إلى أنحاء امبراطوريته وجه اهتمامه ضد الإسكيذيين في جنوب روسيا ليحرم بلاد اليونان من استخدام أخشابها في بناء أساطيلها، وذلك بعد أن حرم اليونانيين من القمح بخضوع مصر وليبيا وشواطىء البحر الأسود له، وكان استيلاؤه على المضايق يؤدي إلى منع القوافل من نقل القمح إلى بلاد اليونان من الشرق وبذلك يقضي عليها جوعاً، وربما كان يرمي إلى هدف آخر هو القضاء على فلول الرحل الذين يهددون امبراطوريته من ناحية الشرق وأن يضع يده على الطريق التجاري الذي يتم نقل الذهب بواسطته من الأورال[٣]. وقد أعد حملة لهذا الغرض تكونت من

(١) G. Posener, «Le Canal du Nile à la Mer Rouge», in Chronique d'Egypte, 26 (1938), p. 272.

(٢) محمد بيومي مهران: المرجع السابق، ص ٣٦٦ وكذا:
A. T. Olmstead, op. cit., p. 146.

(٣) نجيب ميخائيل إبراهيم: المرجع السابق، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

سبعمائة ألف مقاتل، ورغم نتائجها المحدودة إلا أنه قد تمكن من الاستيلاء على بعض المدن الساحلية، وكان ذلك موجهاً له لوضع يده على العالم اليوناني.

ولقد حاول استغلال العداء الموجود ما بين أثينا وأسبرطة في فرض نفوذه على بلاد اليونان، وكانت أثينا تميل إلى الاعتراف بسيطرة الفرس، ولكن تطور الأمور في بلاد اليونان وحدوث العديد من الثورات بغية التخلص من الحكم الفارسي في بعض المدن اليونانية الخاضعة للفرس اضطرت الفرس إلى خوض العديد من المعارك لاستعادة مركزهم وقد تمكنوا من إخماد هذه الثورات والاستيلاء كذلك على بضعة مدن يونانية من بينها مدينة «ميلتس» و «خيوس» و «لسبوس» و «خلقدونية» ولم يبق أمام دارا إلا اليونانيين أنفسهم فأرسل إليهم حملة مكونة من ٦٠٠ سفينة، إلا أن نصف هذا الأسطول قضى عليه بسبب عاصفة اجتاحت هذه المنطقة، وحدثت مواجهة بين الأسطول الفارسي وبين الأثينين عند ماراثون في إقليم أتيكا، وتمكن الأثينيون من هزيمة الفرس، وأجبر ما تبقى من سفن دارا إلى العودة، ولم يتمكن دارا من معاودة هجومه على بلاد اليونان لانشغاله بإخماد الثورة التي نشبت في مصر، ثم وفاته عام ٤٨٦ ق. م. قبل أن يتم إخماد ثورة المصريين.

ولقد سن دارا العديد من القوانين التي اتخذت من قوانين حمورابي أساساً لها، وكانت تستهدف هذه القوانين تحقيق العدالة وحسن الإدارة في أرجاء دولته الواسعة التي اشتملت تقريباً كل مناطق الشرق الأدنى القديم. وقد طبقت هذه القوانين في بلاد الفرس نفسها، كما كانت تطبق في أنحاء الامبراطورية إلى جانب الشرائع والقوانين المحلية. ولقد قسمت الامبراطورية إلى عشرين إقليماً وضع كل منها تحت حكم وال فارسي يشغل وظيفة «ساتراب Satrap» وارتبطت الأقاليم ببعضها بواسطة شبكة من طرق المواصلات يسرت التنقل في أنحاء الدولة.

وأدخل دارا العديد من الإصلاحات الاقتصادية ومنها توحيد نظام القياس، الخاص بالموازين والمكاييل، كما عمل على إدخال العملة إلى أرجاء امبراطوريته، وقد صور دارا على أغلب العملة التي تبقت من عهده على هيئة ملك نحيل ملتحي وقد وضع رداء ملكياً، وعلى رأسه تاج، ويقبض في يمينه بحربة، وفي يده اليسرى قوس، وقد انتشرت العملة في جميع أنحاء الامبراطورية الفارسية، ومع ذلك فقد استمر نظام المبادلة موجوداً[١].

وبموت دارا الأول انتقل العرش إلى خلفائه الذين قنعوا بما حققه أسلافهم، وركزوا جهودهم في محاولة المحافظة على أمجاد أسلافهم دون العمل الجدي على زيادة هذه الأمجاد، فكانت أهدافهم محدودة وطموحاتهم قليلة، وسنتناول فيما يلي بشيء من التفصيل أحوال فارس في عهود خلفاء دارا وحتى سقوط فارس في أيدي الإسكندر المقدوني.

كسركسيس الأول[٢] Xerxes (٤٨٥ ـ ٤٦٤ ق. م):

خلف كسركسيس أباه دارا على العرش الفارسي رغم أنه لم يكن الابن البكر ويرجع ذلك لأن أمه كان يجري في عروقها الدماء الملكية، بينما كانت أم الابن البكر من عامة الشعب، وكان يشغل قبل ولايته العرش نائباً لوالده في بابل.

وفور توليه العرش عمل على إخماد ثورة المصريين التي مات أبوه قبل أن يخمدها. ولقد استعمل في القضاء عليها الكثير من أساليب العنف والقسوة، ونفس الشيء استخدمه في إخماد ثورة بابل فهدم أسوارها ودمر معابدها، وفرض على أهلها ضرائب باهظة، وأضاف إلى ذلك إلغاء سترابية بابل وأدخلها ضمن أشور، وتخلى عن لقب «ملك بابل» وأصبح اسم «البابليين» من الأمور

(١) R. Ghirshman, op. cit., pp. 142 - 155.

(٢) يعرف اسمه في الفارسية ك: «خشايارشا»، انظر: ايرانشهر، ص ٣١٠ ـ ٣١٢.

الممنوعة رسمياً[١].

وبعد ذلك عمل على الانتقام من اليونانيين فجهز حملة ضخمة ضدهم بقيادته واستسلمت بعض المدن اليونانية له، واستمر في تقدمه حتى استولى على أثينا، وإن ظل بعض الوطنيين يدافعون عنها وتجمع أسطول اليونانيين عند سلاميس وتمكن من هزيمة الملك الفارسي، وخلف كسركسيس وراءه بلاد اليونان تاركاً بها ثلث قواته تحت قيادة أحد قواده الذي عقد تحالفاً مع أثينا لم يقدر له النجاح بسبب عناد اليونانيين، فعاود مهاجمتها ودمر كل ما لم يدمره في حروبه السابقة معهم، مما أجبر اليونانيون على تشكيل حلف جديد التقى مع الفرس في «بلاتيا» عام ٤٧٩ ق. م. وكان النصر فيها لليونان الذين سرعان ما انضمت إليهم بعض المساعدات الأيونية وتمكنوا من إلحاق هزيمة أخرى بالفرس عام ٤٦٦ ق. م. مما مكنهم من استعادة أملاكهم في آسيا الصغرى، وكان من نتيجة هذا النصر اليوناني أيضاً أن كسركسيس لم يعد يفكر في الانتقام من الإغريق بل قنع بالاستقرار في عواصمه الفارسية والاهتمام بالنواحي المعمارية. ولم يعمر كسركسيس طويلاً بعد هزيمة اليونانيين له إذ ذبح بين جدران قصره في عام ٤٦٥ ق. م.

ارتاكسركسيس الأول[٢] Artaxerxes I (٤٦٤ ـ ٤٢٤ ق. م):

خلف ارتاكسركسيس والده على العرش، وبدأ حكمه بداية دموية إذ قام بذبح أخوته جميعاً بعد أن قام أحدهم وهو وال «بكتريا» بالثورة ضده.

وقام المصريون بالثورة ضد الحكم الفارسي فما كان منه إلا أن أرسل العديد من الحملات التي تمكنت من إخماد ثورة المصريين ولكن إلى حين، وخاض العديد من المعارك مع اليونانيين الذين حالفهم الانتصار مما اضطر

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٦٣٢.

(٢) يعرف اسمه في الفارسية ك «اردشير»، انظر، ايرانشهر، ص ٣١٤.

الفرس إلى تقليص نفوذهم على المدن اليونانية في أيونيا. وفي بابل فقد استمر في اتباع سياسة والده نحوها فأصبحت شؤون الإدارة قاصرة على الفارسيين كما بالغ في الضرائب المفروضة عليهم حتى أصبح الناس في حالة من البؤس لا يمكن تصورها[١].

دارا الثاني (٤٢٤ ـ ٤٠٤ ق. م):

خلف والده على عرش فارس، وقد استغل الصراع الدائر بين المدن اليونانية أثناء الحرب البلوبونيزية واستطاع أن يستعيد بعض المدن اليونانية ويفرض عليها قبول حاميات فارسية، وقد ثارت في عهده العديد من المناطق ومنها ميديا ومصر ولم يستطع أن يقوم بخطوة حاسمة إزاءها، حيث وافته المنية في بابل[٢].

ارتاكسركسيس الثاني (٤٠٤ ـ ٣٥٨ ق. م):

حدث صراع بينه وبين أخيه الأصغر كوروش على العرش كان من نتيجته أن قتل أخوه كوروش الذي كان يساعده جيوش مرتزقة يونان يقدرون بعشرة الآف جندي والذين ما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم سيراً على الأقدام، وكان من بين قوادهم المؤرخ كسنوفون الذي سجل أخبار هذه المرحلة وقد ثارت مصر في بداية عهده وأعلنت استقلالها حيث تكونت الأسرات الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين. وأما عن بلاد اليونان فقد تمكن بما قدمه من رشاوي وما قام به من فتن ودسائس بين المدن اليونانية أن يخضع لسيطرته أيونيا وأثينا وأسبرطة وأن يضعف قوى جميع المدن اليونانية حتى لم تعد واحدة تستطيع أن تقف على قدميها وبذا نجح في تحقيق ما فشل فيه

(١) R. Ghirshman, op. cit., pp. 194 - 196.

(٢) Ibid, pp. 196-197.

أسلافه من قبل.

وشاعت روح الثورة والتمرد ضد الحكم الفارسي في الأقاليم الغربية من الامبراطورية فثارت قبرص وفينيقيا وسوريا وأعلنت استقلالها، وتزعمت مصر الحركة ضد الامبراطورية فتحالفت مع الولاة الخارجين عن الحكم الفارسي، وكان ذلك في عهد الفرعون نختنبو الثاني ملك الأسرة الثلاثين، ووصلت الجيوش المصرية حتى الفرات ولكن نتيجة الاضطرابات الداخلية في مصر اضطر على أثرها نختنبو إلى العودة حيث تعرض الحلف للانهيار وكان ذلك من حسن طالع الملك الفارسي. ولكن رغم كل ذلك كان مجد الامبراطورية ينحدر سريعاً نحو الزوال، فقتل ارتاكسركسيس عام ٣٥٨ ق. م.

ارتاكسركسيس الثالث (٣٥٨ - ٣٣٨ ق. م):

بدأ عهده بسفك دماء إخوته وأفراد أسرته حتى يكون بمنأى عن المؤامرات الداخلية، وكانت هذه سياسته أيضاً تجاه الولايات، فقد أخذ الولايات الثائرة بالشدة والعنف فأحرق صيدا وتمكن من الاستيلاء على مصر فهدم الأسوار ونهب المعابد، وقد مات في عام ٣٣٨ ق. م. نتيجة دس السم له فخلفه على العرش ابنه أرسس الذي لم يجلس على العرش سوى عامين حيث مات مقتولاً بواسطة السم أيضاً عام ٣٣٦ ق. م. وخلفه على العرش ابنه داريوس الثالث وذلك في نفس العام الذي تقلد فيه الإسكندر المقدوني مقاليد الحكم في بلاد اليونان حيث بدأ فتوحاته الكبرى بنفس شابة وعزيمة حديدية، في الوقت الذي كانت تذبل وتنزوي فيه الامبراطورية الفارسية، وعلى ذلك فلم يصمد الفرس طويلاً أمام الاسكندر الأكبر الذي بدأ غزوه لفارس عام ٣٣١ ق. م، واقتضى إخضاعها ثلاثة أعوام حتى سيطر عليها كلها، وبذلك قضى الإسكندر الأكبر على الامبراطورية الفارسية حيث دخلت فارس مرحلة جديدة في تاريخها فأصبحت ضمن أملاك السلوقيين.

البـاب الثالـث

آسيا الصغـرى

مقدمة تمهيدية

كان الحثيون من الشعوب الهندو ـ أوربية التي قامت بدور كبير في تاريخ الشرق الأدنى القديم، ومع ذلك، فإن الكثير من مراحل تاريخهم ما زال يكتنفه الغموض، ولعل مرجع ذلك إلى قلة ما كتب عنهم بالقياس بما كتب عن مناطق الشرق الأدنى القديم الأخرى مثل مصر والعراق وسورية وإيران وسنتناول في هذا الحيز المراحل التاريخية المتعددة للحثيين، ونبدأها بتقديم عن الظروف الجغرافية لمنطقة آسيا الصغرى، واللغات السائدة فيها، والمصادر الرئيسية الخاصة بدراستها.

إن المظهر العام لآسيا الصغرى (الأناضول) موطن الحثيين عبارة عن هضبة مرتفعة تأخذ في الارتفاع من ساحل بحر ايجة في الغرب حتى جبال ارمينية في الشرق، ويبلغ ارتفاع أحد قممها وهي إيزيل داغ Eizil Dagh حوالي ٩٦٠٠ قدم.

ويمكن تقسيم سطح الأناضول إلى أربعة أقسام رئيسية وذلك على النحو الآتي:

١ ـ القسم الشمالي الشرقي:

ويتميز هذا القسم بأنه موطن الحثيون الأصلي ويجري فيه نهر الهاليس Halys والذي اصطلح على نطقه بالعربية فيصل يرموق أو قزل أرمق Ezil

Irmak، وسماه الحثيون ماراسنتيا، ويبلغ طوله حوالي ٥٠٠ ميل، وتعددت منابعه من الجبال الشرقية وبخاصة حول منحدرات قمة إيزيل داغ الواقعة عند خط تقسيم المياه الشمالي لنهر الفرات، وينحدر بسرعة من منبعه متجهاً نحو الجنوب الغربي بسبب سلسلة ثانوية عند اقترابه من البحيرة المالحة (طوزجول)، وهكذا ينحني النهر في نصف دائرة كبيرة حتى ينعكس اتجاهه تماماً، ثم يخترق التلال الشمالية في اتجاه شمالي شرقي ويصب في البحر الأسود إلى الغرب من ميناء سمسون، ويجري في هذا القسم الجزء العلوي من نهر إيريس [١] Iris.

ومن أهم المدن التي تقع في هذا القسم مدينة خاتوساس Khattusas العاصمة الحيثية، وهي تقع على السطح الشمالي لأحد المرتفعات حيث تبدأ الهضبة في الانخفاض نحو البحر الأسود، ويجري من هذه السلسلة شمالاً في مجرى صخري شديد الانحدار تياران يتحدان عند نهاية المنحدر بالقرب من قرية بوغاز كوي الحديثة، (يطلق عليها حالياً بوغاز كالي) تاركين بينهما نتوءاً مرتفعاً أقيمت عليه أقدم مستعمرة في خاتوساس، ويتميز موقع هذه المدينة بأنه محصن من الناحية الطبيعية فهي عبارة عن قلعة جبلية إذ يحدها سلسلة جبال نبطس التي تقع إلى الشمال منها بحوالي خمسة عشر ميلاً تقريباً، كما أنه تقع على مقربة من نقطة اتصال أقدم طريقين للتجارة، وهما الطريق الذي يأتي من الساحل الإيجي عبر الهاليس السفلي متجهاً إلى سيياس Siyas، والطريق الآخر الذي يتجه جنوباً من ميناء أميسوس (سمسون) على البحر الأسود حتى مداخل قيلقية [٢].

٢ ـ القسم الشمالي الغربي:

ويشمل هذا القسم فريجيا Phrygia، ويحده شرقاً كل من نهري

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٣٧.

(٢) آ. ر. جرني: الحيثيون، ترجمة محمد عبد القادر محمد ومراجعة فيصل الوائلي، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٣٦ ـ ٣٧.

سانجاريوس Sangarius وهاليس، ويحده جنوباً البحيرات الوسطى والجنوبية الغربية، ويجري في هذا القسم نهر سانجاريوس وروافده، ومن أهم المدن التي تقع في هذا القسم مدينة أنقرة.

٣ ـ المنطقة الواقعة بين السهول الوسطى وبحيرات بسيديان:

يلاحظ أن هذه المنطقة يتخللها مرتفعات لا تصلح منحدراتها غالباً للزراعة، بينما تجود الزراعة في المناطق المجاورة للأنهار، وتجود في هذه المناطق الفواكه، ومن أهم المدن في هذه المنطقة مدينة جابالا أو خابالا.

٤ ـ المنطقة الواقعة أسفل مرتفعات طوروس الشمالية:

ويحدها من ناحية الغرب مرتفعات كارداج Karadag، وتتجمع المياه في داخل هذا القسم في بحيرة آك جبل Ak Geul، وتتميز هذه المنطقة بخصوبتها، ومن أهم المدن الموجودة فيها مدينة تيانا [1] Tyana.

وأطلق على اللغة الرسمية لبلاد حاتي اسم «اللغة الحثية» كما عرفت البلاد باسم «حاتي»، ولم تكن اللغة الحثية إحدى لغات آسيا الصغرى المحلية، وأطلق اسم حاتي على هذه المنطقة السكان الأوائل الذين أطلق عليهم حاثيين، وقد فرض الغزاة اللغة الحثية ـ الهندية ـ الأوروبية على الحاتيين الذين لم يكونوا من الهنود الأوروبيين[٢].

وبجانب اللغة الحثية الهندو أوربية كانت هناك لغتان تنتميان إلى نفس العائلة في آسيا الصغرى، وهاتان اللغتان هما اللغة اللوية Luwian والباليه Palaic.

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٢) O.R. Gurney, The Hittites, (Penguin Books), 1981, pp. 17 - 18.

وفيما يتصل باللغة اللوية فهي تنسب إلى اللويون، الذين يرجح أنهم قد جاءوا إلى الأناضول من الغرب وذلك عند بداية عهد البرونز، وانتشروا على الهضبة في نهاية هذا العهد، وقد تمكنوا من السيطرة على جنوب الأناضول في أواسط الألف الثالث ق. م. وربما قبل ذلك(١).

وتعني كلمة «لويا Luwiya» في الوثائق الحيثية ولاية أرازوا Arazawa التي قامت بدور كبير أثناء الألف الثاني قبل الميلاد كمنافس للمملكة الحيثية، وقد ظهرت الكثير من الأسماء اللوية في النصوص الحيثية، وقد كتبت اللهجة اللوية بالحروف الهيروغليفية التي كانت تعرف باسم «الهيروغليفية الحثية»(٢).

وكانت اللغة البالية Pala هي اللغة الهندو - أوربية الثالثة المنتشرة في الهضبة الإيرانية، ولم يمكن حتى الآن التعرف على الموطن الذي استقر فيه الباليون في آسيا الصغرى. فترى المصادر الكلاسيكية أنه في منطقة Paphla-Gonia (كاستا مونو Kastamonu حالياً) حيث كانت توجد مقاطعة تسمى Blaene بينما يرى البعض أنها كانت بجوار Sebasteia (سيفاس حالياً)، أو أنها كانت تقع في الشمال الشرقي من أرمينية الصغرى وذلك بالقرب من بايبورت Bayburt الحالية.

ودخلت اللغة الحورية فيما بعد إلى آسيا الصغرى، وكان الحوريون أمة غير معروفة فيما وراء المرتفعات الشرقية في السنوات الأولى لظهور مملكة خاتوشا Khattusha ولم يتمكنوا من التأثير على الحيثيين حتى بعد عام ١٥٥٠ ق. م، ويبدو أنهم بدأوا يتسللون إلى الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة

(١) C.W. Blegen, «The Geographical Distribution of Prehistoric Remains in Greece» In A.J.A., Vol, 32 (1928), p. 146 FF.

(٢) انظر:

W.F. Albirght, and T.O. Lambdin, «The Indo - Hittite Family», in C.A.H, vol II, part I, p. 138. FF.

التي كانت آهلة باللويين من قبل[١].

ويعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ الحثيين على العديد من المصادر، ويأتي في مقدمتها المصادر الأثرية.

ولقد بدأ الاهتمام بدراسة الآثار الحيثية منذ بداية القرن التاسع عشر حينما لاحظ أحد الرحالة ويدعى بورخارت Borchardt أحد الأحجار في مدينة حماه عام ١٨١٢م وأشار في كتابه Travels in Syria أن على هذا الحجر عدداً من النقوش والعلامات التي يبدو أنها نوع من كتابة هيروغليفية على الرغم من أنها لا تشابه الهيروغليفية المصرية.

وفيما بين عامي ١٨٣٣، ١٨٣٥ م كان شارل تكسييه Charles Texeir في مهمة من قبل الحكومة الفرنسية في آسيا الصغرى، وشاهد قرب بوغاز كوي بعض الخرائب التي قام بعمل رسم تخطيطي لها.

وحتى عام ١٨٨٠ م كان الاهتمام بآثار الحيثيين اهتماماً فردياً، إذ أخذ علماء الآثار والهيئات الأثرية منذ ذلك الوقت تهتم بهذه المنطقة، حيث تم الكشف عن العديد من النقوش في منطقة جبال طوروس وفي قرقميس، وكانت منطقة بوغاز كوي من أهم هذه المناطق، إذ تمكنت البعثة الألمانية للآثار من الكشف عام ١٩٠٦م عن حوالي عشرة آلاف لوح مسماري. وكان من بين الألواح التي كشف عنها نسخة من المعاهدة التي عقدت ما بين الفرعون رعمسيس الثاني وملك حاتي. وتبين أن هذه اللوحات كانت تمثل السجلات الملكية في الفترة من النصف الأول من القرن الرابع عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر ق. م.

وتوقفت أعمال الحفائر في آسيا الصغرى نظراً لقيام الحرب العالمية الأولى، ولم تستؤنف إلا قبيل عام ١٩٣٠ م حيث قام المعهد الشرقي للآثار في

(١) O.R. Gurney, «Anatolia C. 1750- 1600 B.C.», in C.A.H., vol, II. Part I, pp. 231 - 232.

شيكاغو بعمل بعض الكشوف الأثرية في منطقة «علي شار» على مبعدة ٧٠ كم جنوب شرق بوغاز كوي، ومنذ عام ١٩٣١ م، واصل الفرنسيون حفائرهم حيث تم الكشف عن العديد من الآثار منذ العصر الحجري الحديث، ومنذ عام ١٩٣٥ م أخذت البعثات الأمريكية وكذلك التركية في العمل في مجال البحث الأثري في آسيا الصغرى[١].

ويعتمد المؤرخ في دراسته لتاريخ الحيثيين على المصادر المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر والعراق، فلقد ألقت ألواح العمارنة الكثير من الضوء على الحيثيين خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، كما أوضحت النصوص العراقية بعض المعلومات عنهم وبخاصة في الفترة الواقعة ما بين عهد تجلات بلاسر الأول (حوالي عام ١١٠٠ ق. م) وسرجون في نهاية القرن الثامن ق. م. حين تمكن من القضاء على الولايات الحيثية في سورية الشمالية وشيد في مكانها مستعمرات يديرها حكام أشوريون.

ولقد أشارت التوراة في العديد من أسفارها إلى الحيثيين، فلقد وردت كلمة «حثي» و «حثيون» (مفرد وجمع) ٤٧ مرة في العهد القديم، بينما وردت كلمة «حث» ١٤ مرة أخرى، وكثيراً ما يذكر الحثيون في قائمة الأمم الساكنة كنعان قبل دخول العبرانيين (التكوين ١٥ : ٢٠، خروج ٣ : ٨، تثنية ٧ : ١، ٢٠ : ١٧، يشوع ٣ : ١٠، ١١ : ٣، ٢٤ : ١١) وتشير التوراة إلى أن الحيثيين من ذرية حث ثاني أبناء كنعان، وأن إبراهيم عليه السلام قد اشترى مغارة المكفيلة من عفرون الحثي (تكوين ٢٣ : ١٠ ـ ١٨) كما اتخذ عيسى امرأتين حيثيتين (تكوين ٢٦ : ٣٤) وتزاوج العبرانيون فيما بعد مع الحيثيين (قضاة ٣ : ٥ ـ ٦)، وكان لداود عليه السلام أصدقاء حيثيون (صموئيل أول ٢٦ : ٦) وكان لسليمان عليه السلام زوجات حيثيات (ملوك أول ١١ : ١)، كما اشترك الحيثيون في مشاريع سليمان عليه السلام (ملوك أول ٩ : ٢٠ ـ ٢٢).

(١) O.R. Gurney, The Hittites, p. 1 FF.

وقد اعتبر العبرانيون الحيثيين شعباً قوياً معروفاً، فقد اعترفوا بأرض الحيثيين (يشوع ١ : ٤)، ويذكر ملوك الحيثيين في جملة واحدة مع ملوك آرام (ملوك أول ١٠ : ٢٩، أخبار ثاني ١ : ١٧) ويوضعون في مرتبة واحدة مع المصريين كدليل على عظمتهم (ملوك ثاني ٧: ٦)[1].

وسنتناول في الفصول التالية المراحل التاريخية المتعددة لسكان منطقة آسيا الصغرى (الأناضول) موطن الحثيين ونبدأها بعصور ما قبل الكتابة والتدوين.

(١) انظر: قاموس الكتاب المقدس، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨١، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.

الفصل الأول

عصور ما قبل الكتابة والتدوين

١ - العصر الحجري القديم

يستدل من الحفائر التي أجريت في الأناضول حتى الآن على وجود أدلة أثرية تؤكد وجود الأدوات الحجرية الخاصة بالإنسان في مرحلتي العصر الحجري القديم الأوسط والعصر الحجري القديم الأعلى، وهي تشبه تلك التي عثر عليها في كل من سورية ولبنان وفلسطين[١].

وتجدر الإشارة إلى أن البحث عن آثار هذا الدور قد ظل لفترة طويلة بطريقة غير منظمة وعلى أسس غير علمية، ولقد عثر على البقايا الأثرية الخاصة بالعصر الحجري القديم بشكل رئيسي على سطح الأرض[٢]، وبجانب هذه البقايا فقد عثر على بعض الأدوات بالقرب من أنقرة[٣]. وتعتبر المادة الأثرية التي كشف عنها في كهف كارين Karain بالقرب من أنطاليا من أهم الاكتشافات التي تم التوصل إليها على أساس أنها تعطي نتائج سليمة لهذه المرحلة، حيث وجدت أدوات حجرية أشولية وموستيرية وأورنياسية متتابعة في طبقات، كما عثر على آثار لبعض حفريات حيوانية فقرية أهمها دب الكهوف، وأسد

(١) D.A.E. Garrod, «Primitive Man in Egypt, Western Asia and Europe in Palaeolithic Times», In C.A.H., vol, I, Part I, p. 86.

(٢) S.A. Kansu, «Stone- age Cultures in Turkey», in A.J.A., vol, 51 (1947), p. 227 FF.

(٣) S.A. Kansu, Nouvelles decouvertes Prehistoriques dans Les environs D'Ankara, Istanbul, 1937.

الكهوف، كما عثر على قطعة من أسنان طفل من جنس نياندرتال.

وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن الإنسان قد وُجد في الأناضول في العصر الحجري القديم، ومن المناطق التي لها أهمية خاصة في هذه المرحلة منطقة أدیامان Adiyaman التي تقع في حوض الفرات الأعلى بالقرب من ملاطيا Malatya، نظراً لأن الآثار التي عُثر عليها بها توضح تعاقب وجود الجماعات البشرية بها، كما أنها من ناحية أخرى تعد بمثابة حلقة الاتصال [illegible] حضارات الإقليم المصري [illegible] من جهة أخرى(١).

ويجدر الإشارة إلى أن الأدلة الأثرية الخاصة بمرحلة العصر الحجري القديم تتكون في معظمها من مجموعات متفرقة من المخلفات الحجرية [illegible] الآثار التي اكتشفت كانت غير منتظمة في طبقات.

٢ ـ العصر الحجري الوسيط

تشبه أدوات العصر الحجري الوسيط في الأناضول الأدوات التي كشفت عنها وترجع إلى الحضارة الناطوفية في فلسطين، وهي من ناحية أخرى تعتبر استمراراً وتطوراً للأدوات الحجرية التي ترجع إلى العصر الحجري القديم الأعلى، ومن المواقع التي كشف فيها عن الأدلة الأثرية التي ترجع إلى هذه المرحلة موقع بيلديبي Beldubi بالقرب من أنطاليا Antalya(٢).

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) Enver, Y. Bostanci, «Researches on the Mediterranean Coast of Anatolia. A New Palaeolithic Site at Beldibi near Antalya», in Anatolia, vol. 4 (1959), p. 129 ff.

٣ ـ العصر الحجري الحديث

رغم أن عملية النقلة من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة إنتاجه لم تدرس بالشكل الكافي في الأناضول، إلا أنه يمكن القول اعتماداً على المكتشفات الحديثة أن هضبة الأناضول الجنوبية كانت من المراكز التي شهدت هذه النقلة وذلك خلال الألفين الثامن والسابع ق. م[١].

ومن أقدم مراكز الاستقرار التي كشف عنها في الأناضول موقع سبرد Suberde الذي يؤرخ بحوالي عام ٦٨٥٠ ق. م، وموقع هاكيلار Hacilar الذي يؤرخ بحوالي عام ٧٠٠٠ ق. م، ويوجد كلاهما في جنوبي غربي الأناضول. وبينما لم تكشف الطبقات السفلى من موقع سبرد عن بقايا معمارية فإنه توجد بقايا لأرضيات كهوف، وبعض الأدوات الحجرية المصنوعة من الظران والأبسيدان، وتتضمن هذه الأدوات السكاكين ورؤوس السهام، وظهرت كذلك الأدوات النحاسية المتمثلة في المخارز.

وكشفت الطبقات التالية عن مباني مصنوعة من الطوب اللبن وغطيت أرضياتها ببلاط من الطين، واستمر السكان في ممارسة حرفة الصيد، ويبدو مرجحاً أن الإنسان قد تمكن من استئناس الخنزير، ويحتمل أنه قد توصل أيضاً إلى استئناس الزراعة، ولكن ذلك غير مؤكد[٢]. وتوضح الرسوم التي كشف عنها في كهف كورتون آني Kurtun Ini المجاور لموقع سبرد وجود الماعز البري.

ويتكون موقع هاكيلار من سبع طبقات، تؤرخ الطبقات الخمس العليا منها بحوالي عام ٧٠٠٠ ق. م، وتتكون البقايا المعمارية من جدران مبنية من الطوب اللبن فوق أساسات حجرية، ويوجد في الوسط فناء مكشوف يحتوي على

(١) J. Mellaart, «Anatolia Before 4000 B.C», in C.A.H., vol. I. Part I, p. 306.

(٢) J Bordaz, «Suberde Excavations», In A. St., 15 (1965), p. 30 ff.

العديد من المواقد والأفران وصوامع لخزن الحبوب، واتخذت الحجرات في تصميمها الشكل المستطيل، وغطيت أرضيات الحجرات الرئيسية بملاط من الطين فوق طبقة من الحصى، وطليت باللون الأحمر وكذلك قاعدة الجدران، ولم تزود المنازل بأبواب يدخل منها إلى المساكن، بل كان الدخول يتم عن طريق سقف المسكن بواسطة سلم خشبي، ورغم عدم سهولة تلك الوسيلة، فإنها من ناحية أخرى توفر الأمن والحماية وإمكانية الدفاع بالنسبة للسكان في حالة تعرضهم لخطر من الخارج.

ولم يكشف عن أية أدوات أو أواني فخارية مما يرجح أنها كانت غير معروفة في هذه المرحلة، واستخدم السكان الأدوات والأواني الحجرية، حيث كشف عن بقايا آنية مصنوعة من الرخام، وتضمنت المصنوعات الحجرية، السكاكين.

ولقد كشف عن عظام العديد من الحيوانات مثل الأبقار والأغنام والماعز، وكان الكلب هو الحيوان الوحيد الذي كان من المؤكد أنه قد استؤنس في هذا الموقع، وتوضح الأدلة الأثرية كذلك التوصل إلى استئناس الزراعة حيث عثر على بقايا القمح والشعير(١).

ويمثل موقع Catal Huyuk شطل هيوك(٢) مرحلة متقدمة في العصر الحجري الحديث، وهو يوجد جنوب شرق قونية بأربعين كيلومتر على ضفة نهر «أورشمبتشاي» ومعنى اسمه التل المزدوج. ويتكون هذا الموقع من عدد من

---

(١) انظر:

J. Mellaart, «Excavations at Hacilar: Fourth Preliminary Report», in A.St, 11, (1961). p. 70 ff.,

J. Mellaart, Earliest Civilization of the Near East, London, 1965, Fig. 49., J.Mellaart, In C.A.H., pp. 309 - 315.

(٢) J. Mellaart, «Excavations at Catal Huyuk», in A. St vol. 12 (1962), Vol. 13 (1963), Vol. 14 (1964), Vol. 16 (1966).

القرى، وتغطي البقايا الأثرية التي كشف عنها الفترة الزمنية الممتدة من حوالي عام ٦٨٠٠ ـ ٥٨٠٠ ق. م. وذلك اعتماداً على تحليل الكربون الراديوي C 14. ولقد كشف في هذا الموقع على أربع عشرة طبقة متتالية من البقايا المعمارية.

واعتمد اقتصاد السكان في هذا الموقع بشكل رئيسي على الصيد والزراعة وتربية الماشية، ويعتمد أيضاً على التجارة. ويتضح من البقايا العظمية أن الإنسان قد تمكن في هذه المرحلة من استئناس العديد من الحيوانات مثل الأغنام والماعز والكلاب، ولكن كان اعتماده بشكل رئيسي على صيد الحيوانات البرية والتي لم يتمكن من استئناسها بعد.

وفيما يتصل بدفن الموتى، فلقد كان الموتى يدفنون في المنازل أسفل منصات حجرية، وتوضح الأدلة الأثرية التي كشف عنها اتجاه الإنسان في هذه المرحلة إلى العالم الخارجي المحيط به، حيث عثر على العديد من الأدوات المصنوعة من مواد غير متوفرة في هذه المنطقة.

ومن المظاهر الجديدة في هذا الموقع بداية استخدام الفخار، وكان ذلك على نطاق محدود في أول الأمر، وظهرت البدايات الأولى للصناعات الفخارية في الطبقة الثالثة عشرة. ثم تطورت صناعة الأواني، وكانت زيناتها متأثرة بأشكال الأسبتة والأواني الخشبية.

وفيما يتصل بالبقايا المعمارية، فيلاحظ أن كل منزل كان يتكون من حجرة مستطيلة ملحق بها مخزن ضيق، وقد شيدت الجدران من الطوب اللبن، ولم توجد أساسات حجرية. وشيد القوم مقاصير أو معابد صغيرة، وهي تتميز عن المنازل بزيناتها الدينية، وبوجود تماثيل للعبادة، وقد صنعت هذه التماثيل من الأحجار والصلصال، وتتميز كذلك بدفناتها الغنية، وقد دفن مع الموتى أسلحة رمزية، ومرايا عاكسة من حجر الأوبسيدان، وغيرها.

واتخذت زينات المعابد العديد من الأشكال، فكان منها زينات بارزة مصنوعة من البلاط، وقد ظهرت في هذه الزينات الإلهة الأم وقد مثلت في

شكل إنساني، ومثل ابنها أو زوجها في هيئة ثور، ومثل أحياناً برأس ثور أو كبش، وظهر في أحيان أخرى بقرون حيوانات مفترسة.

وأصبحت الرسوم الجدارية مألوفة منذ الطبقة العاشرة وما بعدها، وقلدت هذه الرسوم نماذج المنسوجات، وشباك صيد الأسماك وشباك صيد الحيوانات، وصفوف من أيدي آدمية، وصفوف من الثيران، وصفوف من الزهور والفراشات، وغيرها، وتوضح بعض المناظر صيد الثيران البرية، ويظهر في رسوم أخرى نسر وهو يهاجم إنسان (شكل ٨٨).

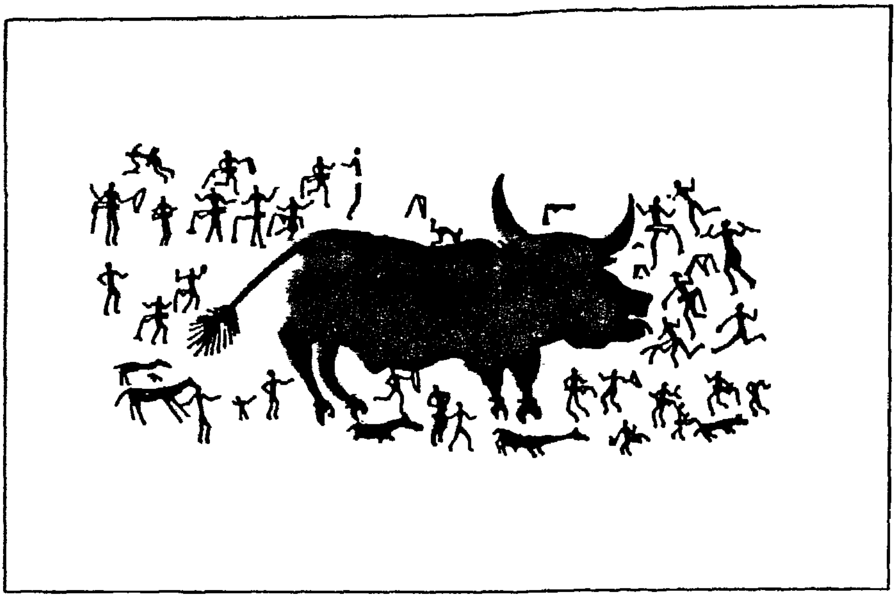
ومن المناظر التي لها دلالتها في هذا الموقع، تلك المناظر التي تمثل مبنى مشيد من البوص والحصير، وقد وضعت العديد من الهياكل الإنسانية أسفله، ومن الواضح أن هذا التعبير الفني، إنما هو انعكاس أو تصوير للعقائد الدينية الجنزية التي ظهرت في موقع شطل هيوك (شكل ٨٩).[١]

وكانت أجساد الموتى تترك مكشوفة إلى أن تتحلل الأجزاء الضعيفة منها، وبعد ذلك يتم لف الهيكل العظمي بقطع الأقمشة أو الحصير، ويوضع أسفل مصطبة بالمنازل أو المعابد، وكان يدفن معه بعض الأثاث الجنائزي، ويلاحظ في هذا المجال، أنه كانت تدفن الجواهر مع النساء، والأطفال، بينما دفنت الأسلحة مع الرجال، وكانت توضع الأواني الحجرية والأسبتة والسلال مع كل الدفنات.

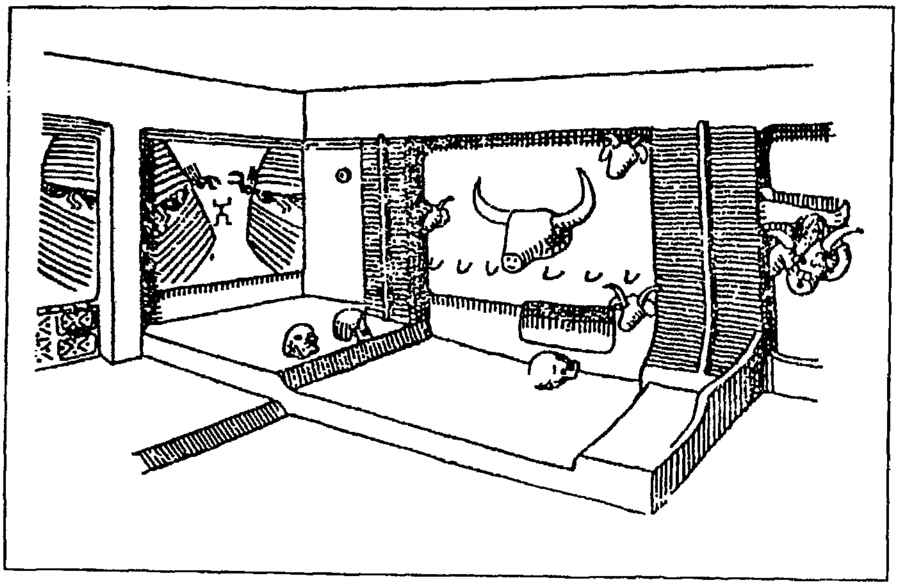
ويلاحظ أن بعض الدفنات الخاصة بالنساء، قد لونت باللون الأحمر الناتج من أكسيد الحديد، وهي الممارسة التي ظهرت في بعض المواقع الإيرانية مثل حاج فيروز وسيالك[٢]، بينما أضيفت الألوان الأخضر والأزرق إلى بعض الهياكل العظيمة الخاصة بالرجال والنساء في الطبقتين السابعة والسادسة، ولكن

(١) J. Mellaart, In C.A.H., vol. I, Part I, p. 312.

(٢) انظر: أحمد أمين سليم: دراسات في تاريخ إيران القديم وحضارتها، جـ ١، إيران منذ أقدم العصور حتى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد، بيروت ١٩٨٨.



(شكل ٨٨) لوحة مرسومة في معبد الصيد (الطبقة السابعة)



(شكل ٨٩) معبد الأسلاف (الطبقة السابعة)

يلاحظ أن هذين اللونين الأخضر والأزرق كانا يوضعان على الرقبة والجفون فقط، وفي الطبقات الأثرية التالية كانت توضع حبات الخرز الزرقاء والخضراء بدلاً من الألوان[١].

ولقد كانت التماثيل الصغيرة شائعة الاستخدام، وصنعت التماثيل التي عثر عليها في الطبقات السفلى من الرخام والحجر الجيري والمرمر، أما التماثيل التي عثر عليها في الطبقات التالية فقد صنعت بشكل رئيسي من الصلصال، وكانت أغلبها ملونة، ومثلت هذه التماثيل الإلهة الرئيسية كأم أو عذراء، وكذلك عبادة الذكر كطفل أو شاب أو في شكل ملتح يمثل الأب. وارتبطت تماثيل الثيران والكباش والنمور مع تماثيل الذكور[٢].

ولا يستطيع العلماء الجزم بأصل هذه الحضارة، وربما توضح الحفائر التي تجري في هذا الموقع الكثير مما لا يمكن تفسيره حالياً، وما زالت نهاية حضارة موقع شطل هيوك غير معروفة، حيث لم تجري حفائر في الطبقات السفلى من الموقع.

وإلى الغرب من موقع شطل هيوك بحوالي مائتي ميل، ظهر قادمون جدد تمثل حضارتهم المرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث[٣]. وبالنسبة للموطن الأصلي الذي جاءوا منه فإنه غير معروف، وإن كان يرجح أنهم قد جاءوا من منطقة بسيديان.

وفيما يتصل بالمظاهر الحضارية الجديدة التي ظهرت في حضارتهم، فمن أبرزها اختفاء الصيد، وظهور الصناعات الحجرية الجيدة، وكانت الأسلحة الرئيسية تتكون من القضبان الشائكة والمقاليع. واختفت الرسوم الجدارية،

(١) J. Mellaart. op. cit., p. 312.

(٢) Ibid., p. 313.

(٣) J. Mellaart, «Excavations at Hacilar: Fourth Preliminary Report» In A. St. 11 (1961), p. 42 ff.

وأصبحت الأرداف أكثر ضخامة في تماثيل النساء وكذلك الرجال الذين يمثلون قوى إلهية.

وأخذت الهياكل الملونة والمزينة طريقها إلى العبادة المنزلية، فأصبحت توجد التماثيل في جميع المنازل تقريباً.

وفي مجال العمارة، ظهرت طرز معمارية جديدة تتمثل في تصميم المنازل بحيث تكون الحجرات حول فناء، ويحيط بها زقاق ضيق، ويحميها جدار دفاعي، وكانت الحجرات تفتح مباشرة على الفناء بواسطة أبواب متسعة، وكان المطبخ وكذلك الحجرات الإضافية توجد خارج المنزل على جانبي المدخل، وشيدت هذه الحجرات من مواد خفيفة مثل الأعمدة الخشبية والأغصان وتغطى بطبقة من الطين. واتخذت غرفة المعيشة الرئيسية شكلاً مستطيلاً، ويبلغ أقصى طول لها ثلاثون قدماً، ويلاحظ أنه ظل يوجد فيها موقداً وفرناً في مواجهة الباب، ويوجد في أرضيتها بجوار الحائط خزانات صغيرة، وأحياناً كانت تبنى هذه الخزانات من الطوب اللبن بجوار الجدران. وكان وجود مخازن الحبوب المستطيلة بجوار الجدار أمراً مألوفاً(١).

واعتمد السكان في حياتهم بشكل رئيسي على الزراعة، حيث قاموا بزراعة العديد من المحاصيل، مثل الشعير والقمح والبازلاء والعدس، ويحتمل أنه قد تم استئناس الأغنام والماعز، وظهرت المواشي والخنازير، كما عرف الكلب، ومن ناحية أخرى فلم يمارس السكان حرفة الصيد.

وتقدمت الصناعات الحجرية والعظمية خلال هذه المرحلة (نهاية العصر الحجري الحديث)، ومنها رؤوس الصولجانات والأواني المصنوعة من الرخام والتي بلغ حجم بعضها قدمين، وكذلك الأطباق، وصنع من العظام المناجل والسكاكين وقد شكلت أطرافها على هيئة رؤوس الحيوانات أو على هيئة رؤوس آدمية، وصنع من العظام كذلك المخارز والمثاقيب والإبر والدبابيس والسنانير،

(١) J. Mellaart, In C.A.H., vol. I, part I, p. 314.

واستخدمت الأصداف في صناعة العقود والدلايات.

وتطورت الصناعات الفخارية[١] عن تلك التي ظهرت في شطل هيوك وكشف عن العديد من أنواع الفخار الأحمر والرمادي، وكانت بعض الأواني سوداء من الداخل وكانت الأواني ذات القوائم العمودية الدائرية المثقوبة شائعة الاستخدام، وكان للأواني مقابض تشبه مقابض السلال. وتعددت الأواني فكان منها الأواني الكبيرة والصغيرة، وتعددة أشكالها فكان منها الأسطواني أو الكروي أو الدائري أو المستطيل.

ومن الأواني الفخارية المميزة التي ظهرت خلال هذه المرحلة كوب ماء مصنوع على هيئة رأس امرأة، وكذلك أواني مصنوعة على هيئة رؤوس حيوانات أو رؤوس طيور.

وعثر على الأدلة الخاصة بالناحية الدينية في جميع المباني التي تم الكشف عنها، فلقد عثر على عدد كبير من التماثيل التي تعبر عن القوى الإلهية، ومنها ما يمثل الألهة الأم وهي مع طفلها تحمله أو تلعب معه.

٤ ـ عصر الحجر والنحاس المبكر

تتميز النقلة من العصر الحجري الحديث إلى بداية عصر الحجر والنحاس بوجود آثار تدمير في بعض المواقع بآسيا الصغرى مثل موقع هاكيلار Hacilar وشطل هيوك، ومع ذلك فإنه لا يوجد أي دليل على دخول عنصر حضاري جديد إلى المنطقة. بل يلاحظ أن كل الأدلة الأثرية تشير إلى استمرارية التقاليد الحضارية السابقة.

---

(١) انظر:

J. Mellaart, «Early Cultures of the South Anatolian Plateau», In A.St. 11 (1961), p. 166 ff, fig. 6.

ومع ذلك فقد ظهرت بعض المظاهر الحضارية الجديدة أو المختلفة عن مرحلة العصر الحجري الحديث الأخير، ومن أهم هذه المظاهر، ظهور الزينات الفخارية، وانحدار الصناعات الحجرية، وظهور معدن النحاس واستخدامه في صناعة العديد من الأدوات.

وتوجد الأدلة الأثرية الخاصة بهذه المرحلة في ثلاث مناطق جغرافية، الأولى في منطقة مرسين Mersin وذلك في سهل كيلكيا(١) وبخاصة الطبقات من الطبقة الرابعة عشرة إلى الطبقة العشرين، والثانية في شطل هيوك Catal Huyuk في الغرب في سهل كونيا(٢)، والثالثة في هاكيلار Hacilar في جنوب غرب آسيا الصغرى(٣).

وبالإضافة إلى هذه المواقع، فإنه توجد مواقع أخرى تقع في أقصى الغرب والشمال ولكن محتوياتها الأثرية سجلت بشكل رديء. ومن هذه المواقع، موقع أيو جالا Ayio Gala، في أزمير، وموقع كارادين بالقرب من أزنيك Iznik.

ويمكن تأريخ هذه المرحلة اعتماداً على النتائج المستمدة من استخدام طريقة كربون ١٤ في موقع هاكيلار على أساس أنه يمتد من حوالي عام ٥٦٠٠ ق. م وحتى الربع الأول من الألف الخامس ق. م(٤).

وتوضح الطبقة الأثرية الثانية في موقع هاكيلار مظاهر حضارية فريدة في

(١) A. Furness, «Some Early Pottery of Samos, Kalimnos, and Chios», in P.P.S., vol. 22 (1956), p. 45 FF.

(٢) J. Mellaart, «Early Chalcolithic Pottery From Catal Huyuk» in A. St, 11 (1961), p. 177 FF.

(٣) J. Mellaart, «Preliminary Report on a Survey of Pre- Classical Remains in Southern Turkey», In A. St. 4 (1954), p. 86, fig 2.

(٤) J. Mellaart., In C. A. H., Vol. I, Part I, P. 317.

هذه المرحلة، وقد كان يحيط بالمنازل سور مستطيل محصن ومزود بأبراج، ويؤدي إلى المجموعة السكنية ثلاثة مداخل ضيقة، وكان يوجد غيرها في الناحيتين الشرقية والجنوبية ولكن لا يمكن تحديد عددها نظراً للتدمير الذي لحق بهذا الجزء، ومن هذه المداخل كان هناك واحد فقط هو الذي يؤدي مباشرة إلى المباني، أما المداخل الأخرى فكانت تفتح في ممر مغطى أو حجرات جانبية تؤدي إلى أفنية مكشوفة تتجمع حولها المنازل.

وفيما يتصل بتصميم المنازل خلال مرحلة عصر الحجر والنحاس المبكر، فقد كانت المنازل في مجموعها مستطيلة الشكل، وكان يوجد في أرضية المنزل موقد وكذلك حفرة كانت تستخدم كمرحاض، وحفظ الطعام في أواني كبيرة أو أواني مصنوعة من الطين توضع في حفرة بأرضية المنزل، وكان لمعظم المنازل فناء خارجي أمام المنزل، وزودت المنازل بنوافذ، وكانت أسقف المنازل مسطحة، بينما زودت المنازل المشيدة في الغابات بسقوف ذات شكل جمالوني وذلك لتجنب الأمطار، وشيدت الأسقف من الأخشاب.

ودفن الموتى في بعض المواقع في أواني كبيرة من الطين. وكانوا يوضعون في هيئة القرفصاء على الجانب الأيسر والرأس متجهة نحو الشرق، ودفن مع الموتى بعض الأدوات الخاصة بهم مثل الخناجر، وفي جبانات أخرى كان الموتى يدفنون على الجانب الأيمن والرأس متجهة نحو الغرب، وقد وضعت بعض الأواني بجوار الرأس، وقد وجدت في بعض الأحيان بجوار الأطفال رضاعات، بينما احتوت المقابر الخاصة بالأثرياء على أطباق مصنوعة من الرخام.

وعثر على العديد من الأدوات المصنوعة من النحاس وكذلك الفضة بينما لم يعثر إلا على أشياء قليلة مصنوعة من الذهب، ومن الأدوات التي صنعت من المعدن: الخناجر ورؤوس الرماح، والمدى المعقوفة، والبلط المسطحة، والدبابيس، والمخارز، والإبر، والمثاقيل، والأزاميل.

وصنع الفخار خلال هذه المرحلة أيضاً بواسطة الأيدي، ولقد تعددت أشكاله ونماذجه، وقد قسم حسب المناطق الجغرافية للأناضول، ففي المنطقة الشمالية الغربية كانت الأواني لها حافة مقلوبة وقاعها مسطح وكانت تزود أحياناً بقاعدة، وزود بعضها بمقابض أو عروات أنبوبية الشكل على الحافة أو أسفلها، ووجدت في بعض حوافي الأواني زخارف محفورة ومملوءة بالطباشير الأبيض، واتخذت بعض الأواني أشكال الطيور.

ويختلف فخار المنطقة الجنوبية الغربية عن فخار باقي المناطق، إذ يتميز بأنه قد صقل صقلاً جيداً، وتعددت ألوانه، فكان منها الأسود الحالك، أو الأصفر الرمادي، والبرتقالي، والأحمر الفاتح، والقرمزي، وزود بأطواق واسعة تستخدم كمقابض، وزينت جدران الأواني برسوم هندسية. كما تعددت نماذجه كذلك، فوجدت أباريق لها رقاب طويلة وميازيب وأواني ذات شكل كروي، وكؤوس ذات شكل مربع، وكان لبعضها قاعدة لها أربعة أرجل.

وتميز فخار المنطقة الجنوبية بألوانه الحمراء المائلة إلى الاصفرار، وزود بعضها بمقابض حفر سطحها بنقط وشرط، كما ظهرت الأواني الفخارية المصقولة ذات اللون الرمادي والأسود والأحمر الداكن.

أما فخار المنطقة الوسطى من الأناضول، فقد كان أغلبه مزين بزينات حمراء بارزة أو غائرة(١).

وتدل الشواهد الأثرية إلى أن نهاية هذه المرحلة قد تمت بشكل عنيف، إذ احترقت المواقع الأثرية في كل من هاكيلار ومرسين، أما بالنسبة لموقع تل تشاتال فإنه إذا كان لم يحترق فإنه قد دمر للأبد. وكما سبقت الإشارة، فإن نهاية هذه المرحلة تقع خلال الربع الأول من الألف الخامس قبل الميلاد(٢).

(١) انظر: عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٤٠ ـ ٢٤٢. وكذلك:
A. Furness., op. cit., p. 73 ff, fig, 34, 52, 53, 54, 56.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 323.

٥ ـ عصر الحجر والنحاس الأخير

يفترض بعض العلماء هروب أصحاب الحضارة السابقة نتيجة للغزو الذي تعرضوا له وأدى إلى تدمير مساكنهم، وفيما يتصل بالبقايا المعمارية المتصلة بعصر الحجر والنحاس الأخير فإن من أفضل النماذج المتبقية منها بقايا مدينة بوليوخني الخامسة Poliochni وحصن أهلاتلبيل Ahlatlbel ومعبدين في بيس سلطان Beyce Sultan.

وتوضح البقايا المعمارية لمدينة بوليوخني أنه كان بها شارع رئيس يبلغ طوله مائتي متر تقريباً، وقد تجمعت المنازل في مجمعات على جانبي الطريق، وتفاوتت أحجام المباني، فقد كان منها الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، ومن المظاهر المميزة في هذه المدينة وجود ما يشير إلى أماكن عامة مثل المخازن الجماعية، وعثر على مبنى كبير كذلك يرجح أنه كان يستخدم كصالة اجتماعات أو مسرح.

أما حصن أهلاتلبيل، فهو يقع على الطريق الذي يمر على حافة السهول التي تفصل سهول أنقرة وجولبازي، ولم يبق منه إلا الجزء الأسفل فقط، وقد عثر على حجرات للدفن في باطن السور، ووضع مع الموتى بعض الأدوات مثل السيوف والخناجر والبلط مما قد يشير إلى أن هذه الدفنات تخص المحاربين الذين يقومون بالدفاع عن الحصن، وأنهم قد ماتوا أثناء قيامهم بالدفاع عنه، ومن ثم فقد دفنوا في باطن السور ودفنت معهم أسلحتهم.

ولقد زود كل من المعبدين اللذين عثر عليهما في موقع بيس سلطان بمذبح يضم لوحتين ووضعت خلف المذبح أواني فخارية كبيرة كانت تستخدم لحفظ السوائل. وشيدت جدران المعبدين من الطوب اللبن، وغطيت الجدران بالملاط ولونت باللون الأزرق، وغطيت الأرضية بحصير.

وعثر بهذين المعبدين على كميات ضخمة من الأواني الفخارية، وكذلك

على بعض الحبوب مثل القمح، والشعير، والعدس، وبذور العنب. وقد عثر على بعض هذه الحبوب وهي محفوظة في أواني[١].

ويوضح موقع مرسين Mersin بعض المظاهر المعمارية خلال هذه المرحلة، فقد كشف عن بقايا بعض المنازل، ومنها يتضح أن كل منزل كان يتكون من حجرة رئيسية مزودة برحى تستخدم في طحن الحبوب، وأواني لحفظ الحبوب، وبعض الأدوات المنزلية، ويوجد في المقدمة فناء صغير.

ويوجد بناء يتضح من تصميمه أنه منزل الحاكم، وهو على شكل مستطيل ويوجد في وسطه فناء مستطيل يقع على كلا جانبيه صف من الحجرات[٢].

وفيما يتصل بدفن الموتى فقد كشف في دوراك Dorak في شمال غرب الأناضول عن قبرين ملكيين، وعلى ثلاثة عشر قبراً في آلآسا Alaca بوسط الأناضول، واختلفت عادات الدفن بين مناطق الأناضول، فبينما كانت المدافن في دوراك (التي تمثل شمال غرب الأناضول) عبارة عن لحود من الحجر يبلغ حجم الواحد منها ١٨٠ × ٢٠٠ سم، نجد مقابر آلآسا (التي تمثل وسط الأناضول) قد حفرت في الأرض وبطنت أحياناً بالحجارة، ويتراوح طول بعضها ما بين ستة وثمانية أمتار، ويبلغ عرضها ثلاثة أمتار ونصف المتر. وبينما غطيت مقابر دوراك بالحجارة، فقد غطيت مقابر الآسا بكتل خشبية رصت عليها رؤوس الثيران وأظلافها.

ودفن الموتى في مقابر دوراك في هيئة القرفصاء، أو ممددين على ظهورهم وقد اتجهوا برؤوسهم ناحية الشرق، بينما دفن الموتى في آلاسا في هيئة القرفصاء في الركن الشمالي الغربي لحجرة الدفن، على الجانب الأيسر وقد اتجهت الرأس نحو الغرب.

ولم يعثر في مقابر الآسا على أي أثر لقماش أو حصير نظراً لكثرة مياه

(١) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٤٣.

(٢) J. Mellaart, op. cit., p. 325.

الرشح التي قد تكون أتلفت القماش أو الحصير، وقد دفن مع الموتى بعض الأدوات الجنزية ومنها تماثيل لثيران، وبعض أدوات الزينة، وبعض الأواني الفخارية، وكذلك أواني مصنوعة من المعدن، وقد دفن مع الحكام صولجاناتهم كرمز للسلطان، وقد عثر في إحدى المقابر على رأس مقمعة مصنوعة من الذهب، وعلى خنجرين مصنوعين من الحديد.

ولقد عثر في موقع دوراك على مقابر ملكية، وقد وضع جسد الملك على كليم أو حصير ووضعت مع الدفنات الملكية أثاث مصنوع من الخشب، ومن الأشياء الجديرة بالاهتمام ما كشف عنه في المقبرة الملكية رقم (٢) ويتمثل في بقايا كرسي مصري مصنوع من الخشب وقد نقشت صفحته المغطاة بالذهب بالكتابة الهيروغليفية المصرية وسجلت عليه اسم ولقب الفرعون ساحورع ثاني ملوك الأسرة الخامسة المصرية (٢٤٩٤ ـ ٢٣٤٥ ق. م تقريباً)[١].

واحتوت مقابر دوراك على أدوات للزينة وأواني معدنية وفخارية، وأسلحة متعددة كالسهام والسيوف والخناجر، كما عثر على رأس مقمعة مصنوعة من الكهرمان والفيروز، وعلى سيف وخنجر مصنوعين من الحديد[٢].

وتمكن الصناع من صناعة الأدوات المعدنية بواسطة الصب في الشمع والطرق وغيرها من الوسائل، كما مارسوا التطعيم في المعادن ولحام المعادن، ووجدت العديد من الأدوات الحجرية، ويلاحظ من المواد التي استخدمها الصناع وجود مواد محلية مثل البللور الطبيعي والعقيق واليشب والأبسيديان، بينما قاموا باستيراد بعض المواد الخام من خارج الأناضول، ومن هذه المواد: الكهرمان الذي أحضروه من البلطيق، واللازورد من باراخشان في شرق أفغانستان، والفيروز من نيشابور في خوراسان شرق إيران.

(١) J. Mellaart, «The Royal Treasure of Dorak», in I11. Ldn New, 28 Nov. 1959, Fig. 1.

(٢) عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٤٤.

ولقد عثر في الأسا على تماثيل ترتدي أحذية ارتفعت مقدمتها[(١)]، كما عثر على أحزمة، وتزينت النساء بالأساور والعقود التي صنعت من أحجار مختلفة الألوان كما تزينوا كذلك بالخواتم والأقراط والأمشاط.

وفيما يتصل بالصناعات الفخارية، فقد توصلت منطقة كليكيا إلى عجلة الفخار، بينما استمرت المناطق الأخرى في صناعته بواسطة الأيدي، وقد تعددت أشكاله وزيناته، وقد ظهرت زينات جديدة في موقع مرسين بالطبقة الأثرية السابعة عشرة، وقد غطيت الأواني بطبقة رقيقة من الخزف الجيد ذو اللون السمني ولونت باللون الأحمر والبني أو الأسود، وكان لبعض الأواني مقابض كبيرة بشكل مبالغ فيه، وزينت بعض الأواني السوداء بزينات بيضاء. ويرجح أن هذه الزينات مرتبطة بظهور هذا الفخار الجديد الذي لم يعرف من قبل في كليكيا[(٢)].

وسنقوم في الفصول التالية بدراسة تاريخ الحيثيين أثناء العصر التاريخي والذي ينقسم إلى فترتين، أتفق على تسمية الفترة الأولى بالدولة القديمة، والفترة الثانية بالامبراطورية أو الدولة الحديثة.

(١) H. Z. Kozay, Les Fouilles D'Alaca Huyuk, Ankara, 1951.

(٢) J. Mellaart, in C.A.H., vol. I, part I, p. 423.

الفصـل الثانـي

الدولـة القديمـة

يبدأ التاريخ الحقيقي في الأناضول بمجيء التجار الأشوريين إلى الهضبة حوالي ١٩٠٠ ق. م وفي هذا الوقت كان أهل أشور يعرفون الخط المسماري البابلي، وقد عثر على الألواح الطينية التي سجل عليها أولئك التجار الأشوريون رسائلهم ويومياتهم في أماكن متعددة وبخاصة في «كول تبه» بالقرب من قيصرية.

ولم يعرف من هذه الألواح إلا القليل عن السكان الأصليين وتاريخهم، ولكننا نعرف بعض المعلومات عن أمراء محليين وقصورهم، ومن الواضح أن الأناضول كانت مقسمة إلى عشر مقاطعات صغيرة على الأقل، وكان من بينها مدينة بورروش خاتوم Burush Khatum ويبدو أنه كان لهذه المدينة سلطات في بادىء الأمر لأن حاكمها كان مميزاً عن الباقين بلقب «الأمير العظيم»، وقليل جداً الأمراء المحليين من هم معروفون لنا بأسمائهم[١].

ويبدأ التاريخ السياسي في الأناضول بتولي الملك «أنيتا Anita» ابن «بيتخانا Pitkhana» عرش كوشار Kushshar: ولقد سجلت انتصاراته بالتفصيل في نصوص حيثية عثر عليها في بوغاز كوي[٢].

ويتضح من هذه النصوص أن أنيتا قد نقل مقر حكمه إلى نيشا Nesha التي كان قد استولى عليها والده من قبل، ولقد واصل أنيتا انتصاراته باستيلائه على

(١) O.R. Gurney, The Hittites, PP. 18 - 19.

(٢) K. Balkan, Letter of King Anum - hirbi of Mama to King Warshama of Kanish, Ankara, 1957, p. 47.

العديد من المدن مثل أولاما Ullamma، وهاركيونا Harkiuna وزالبوا Zalpuwa، وأخيراً خاتوشاش Khattusha نفسها، التي دمرها تدميراً تاماً، وأعلن أنها مدينة ملعونة. وتشير هذه النصوص إلى أنه قد هزم ملك شالاتيوارا Shalatiwara في معركة، وكذلك هزم ملك بوروشخاندا Purushkanda الذي خضع له، وحمل إليه عرشه وصولجانه كهدايا.

وبالإضافة إلى هذه النصوص، فقد ذكر اسم «أنيتا» في ثلاث وثائق أشورية وكذلك خنجر مصنوع من البرونز(١)، ويستدل من ذلك على أن هذا الملك كان معاصراً للمستعمرات التجارية الأشورية، وتؤكد هذه الوثائق اللقب الذي اتخذه وهو «الملك العظيم»، ولكن لا يمكن الجزم في الوقت الذي عاصر فيه هذه المستعمرات التجارية، وهل كان ذلك وقت ازدهارها، أم في الوقت الذي أخذت فيه في الأفول.

وإن كان من المحتمل أن نشاط الأشوريين التجاري في كبادوكيا الذي ظل مزدهراً حوالي ثلاثة أجيال، قد انتهى فجأة خلال حكم الملك «أنيتا»، وإن كنا لا نعرف إذا كان هذا قد تم نتيجة لانتصارات «أنيتا»، أو أن كارثة ما قد حلت بمدينة أشور في هذا الوقت، وليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن موقف الحكام المحليين لم يكن ودياً تجاه الأشوريين، بل الأحرى بنا أن نفترضه أن الأمراء المحليين قد رحبوا بالتجار الأجانب الذين كانوا يجلبون لهم ثمار مدنية وحضارة بلاد النهرين(٢).

وعاصر انتهاء الوجود الأشوري في وسط الأناضول نهاية عهد شمس أدد الأول ملك أشور القوي، وفي العقد الأول من عهد ابنه «إشمي - داجان» (من حوالي ١٧٨٠ - ١٧٤٠ ق. م) الذي لم تكن له كفاءة أبيه، وبعد أن استعاد زمري ليم عرش ماري فقدت أشور سيادتها على وادي الفرات وانقطع اتصالها

(١) T. Özgüc, «The dagger of Anitta», In Belleten, XX, 177, (1956), pp. 33 - 34.

(٢) O.R. Gurney, op. cit., pp. 20 - 12.

بآسيا الصغرى[1].

هذا ويرجح أن «أنيتا» كان ينتمي إلى سلالة غريبة عن الملوك الذين اتخذوا من خاتوشاش عاصمة لهم فيما بعد، حيث من الواضح أن مدينته كوشار كانت مقراً ملكياً في العصور الحيثية القديمة، هذا إذا لم تكن بالفعل العاصمة الإدارية، كما أنه لم يدع أحد من ملوك الحيثيين أن أنيتاس كان سلفاً له، ويضاف إلى ذلك، العداء الغريب الذي أظهره أنيتا تجاه مدينة خاتوشاش[2].

وفيما يتصل بتاريخ الحيثيين أثناء الدولة القديمة، فيلاحظ قلة الوثائق المتصلة بهذه الفترة إن لم تكن ندرتها، كما أن معظم الوثائق التي وصلتنا غير كاملة[3]، ويعتمد المؤرخون في دراسة هذه الفترة على المرسوم الذي أصدره أحد الملوك الأواخر في هذه الفترة ويدعى تيلبينوش Telepinush. ويستدل منه إلى أن أول ملوكهم كان يدعى «لابارناش».

لابارناش Laabarnash:

يتضح من هذا المرسوم أن الملوك الحيثيين المتأخرين كانوا يحبون أن يرجعوا بأصلهم إلى الملك القديم لابارناش Laabarnash، وعليه يمكن القول أن التاريخ الحيثي يبدأ به، رغم أنه لم يكن فيما يبدو أول أسرته، ولم يبق لهذا الملك أي نص أصلي، وكل ما لدينا عنه ما ورد في مرسوم تيلبينوش.

ويبدأ مرسوم تيلبينوش على النحو الآتي:

«في الماضي كان لابارناش ملكاً عظيماً، وكان أولاده وأخوته وأصهاره وأقاربه وعساكره متحدين، وكانت البلاد صغيرة، وكان كلما اتجه للقتال أخضع

(١) محمد عبد اللطيف: المراكز الأشورية في وسط آسيا الصغرى في العصر الأشوري القديم، ص ٣٣.

(٢) O.R. Gurney, op. cit., p. 21.

(٣) E. Laroche, «Catalogues des Textes Hittites», In R.H.A., XIV 158 - XVI 162.

بلاد أعدائه بالقوة، فقد دمر البلاد حتى أصبحت بلا قوة، وجعل البحر حدوده، ولما عاد من المعركة ذهب كل واحد من أولاده إلى أحد مناطق البلاد، فذهبوا إلى خوبيشنا Khupishna، وإلى توانوا Tuwanuwa، وإلى نيناشْشا Nenashsha، وإلى لاندا Landa، وإلى زالارا Zallara، وإلى بارشوخاندا Parshukhanda، وإلى لوشنا Lushna، وحكموا البلاد، وأصبحت المدن الكبرى في قبضة يده.

ثم أصبح خاتوشيليش Khattushilish ملكاً، وكان أولاده، وأخوته، وأصهاره، وأقاربه، وعساكره بالمثل متحدين، وأينما سار إلى قتال كان يقضي على بلاد أعدائه بالقوة، فقد دمر البلاد حتى أصبحوا لا حول لهم ولا قوة وجعل البحر حدودهم، ولما عاد من المعركة ذهب كل من أولاده إلى كل جزء من البلاد، وعادت المدن الكبرى مرة ثانية في قبضة يده»[١].

ويتضح من هذا النص أن قوة المملكة الحيثية قد اعتمدت على قيام العلاقات الودية بين أفراد الأسرة المالكة، وأنها تكونت في هذه المرحلة من مجموعة متماسكة من المدن تبعد عن خاتوشاش بمسافة شاسعة، وعلى ذلك فإنه من المحتمل جداً أن العاصمة في ذلك الوقت لم تكن خاتوشاش بل كانت المدينة القديمة كوشار، والتي لم يحدد في الواقع موقعها ولكنها ربما كانت تقع جنوب الهاليس.

ولقد تأيد ما جاء في النص السابق من أن لابارناش قد اتخذ البحار حدوداً له بنص ثان متأخر عن النص الأول ورد فيه أن لابارناش قد أخضع مملكة أرزاوا Arzawa، وهي تقع في النصف الغربي من آسيا الصغرى، وعلى ذلك فقد سيطرت المملكة الحيثية في عهد أول ملوكها على إقليم يمثل في الجنوب والغرب على الأقل أقصى حد للاتساع وصل إليه أقوى ملوك الامبراطورية

(١) O.R. Gurney, «Anatolia C. 1750 - 1600 B. C», In C.A.H., vol II, Part I, Cambridge, 1973, p. 235.

المتأخرة[١].

خاتوشيليش الأول Khattushilish:

خلف لابارناش على العرش ويحتمل أنه ولده، ويلاحظ أنه بالإضافة إلى التسمية خاتوشيليش قد اتخذ اسماً آخراً هو لابارناش الثاني، ويتجه الباحثون في تفسير ذلك إلى عدة فروض: الأول أن يكون قد تولى العرش تحت اسم لابارناش الثاني ثم اتخذ فيما بعد اللقب خاتوشيليش، ويتجه الفرض الثاني إلى أن اسمه الشخصي كان خاتوشيليش. وعندما تولى العرش اتخذ التسمية لابارناش[٢]. أما الفرض الثالث، فيرى أنه قد اتخذ التسمية خاتوشيليش بعد نقله للعاصمة من كوشار إلى خاتوشاش، إذ أن هذا الاسم يعني «رجل خاتوشاش» وأنه قد اتخذه ليخلد ذكرى انتقاله إليها[٣].

ويستدل من الوثائق التي ترجع إلى عهد خاتوشيليش الأول أنه قد تولى الحكم في العاصمة كيشار، وأنه قد نقل العاصمة بعد ذلك إلى مدينة خاتوشاش، وربما كان هذا الاختيار راجعاً إلى المميزات الاستراتيجية التي تتمتع بها هذه المدينة.

ولقد أخذت المملكة الحيثية في الاتساع جنوباً وشرقاً خلال حكم هذا الملك، ويضيف أحد نصوصه الأحداث الهامة التي تمت في ست سنوات من عهده، وليس واضحاً إن كانت هذه السنوات الست تمثل السنوات الست الأولى في عهده أم أنها بعد ذلك، ورغم أن هذا النص يعتبر من أكمل النصوص الحيثية التي ترجع إلى هذه المرحلة، إلا أنه يقلل من الاستفادة الكاملة من المعلومات التي وردت فيه عدم معرفتنا بحدود كثير من الأماكن التي ذكرت فيه، رغم

(١) O.R. Gurney, The Hittites, p. 22.

(٢) O R. Gurney, in C.A.H., vol. II, Part I, p. 236.

(٣) Ibid., pp. 238 - 239.

العديد من المحاولات والجهود التي بذلت في سبيل تحقيق هذه الأماكن[١].

وسنشير فيما يلي إلى الأحداث الهامة التي وردت في هذا النص.

يتضح أن السنة الأولى من هذه السنوات الست قد خصصت في شن العديد من الحملات على «شاخويتها Shakhiutta» و «زالبار Zalpar» وقد عرفت المدينتان بعد ذلك تحت اسم شانا خويتا Shanakhiutta وزالبا Zalpa. ويغلب أن تكون مدينة شاناخويتا تقع في وادي كانك سو، أو في وادي هاليس العلوي، أما مدينة زالبا فيرجح أنها تقع إلى الشرق أو الجنوب الشرقي من خاتوشاش[٢].

وفي السنة الثانية، يشير إلى أنه قد دمر مدينة الخاخا Alkhalkha التي يرجح أن تكون الألاخ Alalakh الواقعة في سهل أنيتوخ، ويستدل من ذلك أنه قد قاد حملة إلى سهول سورية، ولا بد أنه قد قام باختراق إحدى ممرات جبال طوروس للوصول إلى تلك السهول، ويحتمل جداً أن يكون هذا الطريق هو الذي كان يؤدي إلى أبواب كليكيا التي كانت غالباً ما كانت خاضعة للحيثيين.

وتقدم بعد ذلك للقضاء على مدينة أورشو Urshu التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات إلى الشمال من قرقميش، وتمكن من هزيمتها وقدمت له الجزية، ثم اتجه إلى مدينتي أجاكاليش Igakalish، وتاشخينيا Tashkhiniya، ولم يمكن معرفة موقع هاتين المدينتين بشكل مؤكد.

وفي السنة الثالثة، اتجه خاتوشيليش لغزو أرزاوا التي كانت من أشد المنافسين للحيثيين، وكان نفوذها يمتد إلى الغرب أو الجنوب الغربي من خاتوشاش، وكان لحاكمها مقر ملكي على ساحل البحر. إلا أنه أثناء صراعه مع

(١) انظر: F. Cornelius, «Geographie des Hetiterreiches» In Or. N. S. 27 (1958), p. 225 FF, 373 FF.,
H.G. Guterbock, «The Orth- Central area of Hittite Anatolia», In J.N.E.S., vol. 20 (1961), p. 85 FF.,

(٢) J. Garstang, and O.R. Gurney, The Geography of the Hittite Empire, London, 1959, p. 11 FF.

أرزاوا تعرضت حدوده الشرقية لهجمات الحوريين الذين تمكنوا من السيطرة على أجزاء كبيرة من مملكته، ونتيجة لذلك فقد ترك أرزاوا واتجه نحو حدوده الشرقية حيث قضى على الخطر الحوري وصب انتقامه على بعض المدن التي كان لها دور في مهاجمته.

وتتضمن أحداث العامين الرابع والخامس من عهده بعض الحملات المحلية. وفي السنة السادسة عبر خاتوشيليش مرتفعات طوروس، واتجه إلى مدينة خاشو Khashshu، وهي مملكة حورية تقع إلى الغرب من الفرات.

ولقد شغلت أيام خاتوشيليش بالحروب السورية وبخاصة مع مملكة إمخاد Imkhad (حلب)، ولقد حاول أن يستولي عليها، ولكن يبدو من الوثائق المتأخرة أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها[١].

وتعرضت المملكة الحيثية في أواخر أيام خاتوشيليش للانقسام والفوضى، إذ ثار أمراء البيت المالك بقيادة ابن خاتوشيليش وولى عهده، ورغم تمكن خاتوشيليش من القضاء على الثورة ونفي ابنه الذي ثار ضده، وعين آخر مكانه ولياً للعهد، إلا أن الاستقرار لم يدم، إذ بعد وفاة خاتوشيليش تمكن زوج أخته من قتل ابنه أو حفيده الذي كان قد عينه ولياً للعهد، وبذلك دخلت المملكة في مرحلة من الفوضى استمرت أجيالاً عديدة، وامتلأت هذه الفترة بحوادث القتل والفتن والدسائس.

ولعل من المفيد هنا أن نورد فقرات من حديث خاتوشيليش الذي نشعر فيه بمدى الأسى والمرارة التي كان يشعر بها:

«انظر، لقد مرضت، لقد ناديت بلابارناش قائلاً: سوف يجلس على العرش، لقد سميته ابني، عانقته (؟) وحرصت عليه باستمرار، ولكن ظهر أنه شاب،لا يصلح، فلم يذرف الدمع، ولم يظهر رحمة، إنه بارد وقاس... لم

(١) O.R. Gurney, In C.A.H., vol. II, Part I, pp. 240 - 244.

يضع كلام الملك في قلبه، ولكن وضع في قلبه كلام أمه الأفعى. . . كفى! لن يصبح ابني بعد ذلك. . . وبعد ذلك جأرت أمه كالثور قائلة: إنهم شطروا رحمي من جسدي! لقد هدموه ولسوف نقتله.

«هل فعلت به شر وأنا الملك؟. . . والآن سوف لا ينزل مرة أخرى حراً (من المدينة كما يرغب).

تأمل، لقد منحت ولدي لابارناش بيتاً، لقد أعطيته (أرضاً خصبة) كثيرة، وأعطيته (غنماً) بوفرة. . . دعوه يأكل ويشرب. (وطالما أنا بصحة) ربما يعود إلى المدينة. (ولكن) إذا ظل في موقفه كمدبر (للاضطراب؟). . . فسوف لا ينزل، ولكن سوف يبقى (في منزله).

انظر، الأن أصبح موشيليش ولدي. . . في موضع الأسد. . . وفي ساعة الدعوة لحمل السلاح تقدم. . . أنت، وأتباعي، ومواطن القادة، يجب أن تكونوا (رهن الإشارة لمعاونة ولدي) وإذا أمضى ثلاث سنوات، سوف يذهب للغزو. . . وإذا أخذته (وهو صبي) معك في حمله، احضره ثانياً (سليماً). . .

لقد أساءت إلى شخصي البنت، وإلى اسمي. . . لقد نبذت كلام الوالد جانباً، لقد رضعت دم حياة (أبناء خاتي)، والأن (لقد نفيت من المدينة)، لقد (خصص لها منزل) في القرية، ولها أن تأكل وتشرب، (ولكن) لا يجب أن تفعل (بها أذى). لقد ارتكبت إثماً، سوف لا أعاملها بالمثل إنها لم تناديني أبي، سوف لا أسميها ابنتي.

وحتى الأن لم يستجب أحد (من عائلتي) لرغبتي. (ولكن أنت، يا بني) مورشيليش يجب أن تحقق تلك الرغبة. احترم عهد (والدك). وإذا ما احترمت عهد والدك سوف (تأكل خبزاً) وتشرب ماء. وحينما تبلغ رشدك، فلتأكل مرتين أو ثلاثاً في اليوم، واحسن إلى نفسك! وحينما تصل إلى أرذل العمر، عليك أن تشرب بشره! عند ذلك لك الخيار في ترك عهد والدك.

(الآن) أنت صفوة أتباعي، ويجب أن تحافظ على عهودي. سوف تأكل فقط خبزاً وتشرب ماء سوف تبقى خاتوشاش مرتفع شأنها، وسوف تبقى بلادي في سلام، ولكنه إذا لم تحافظ على عهد الملك... سوف لا تبقى على قيد الحياة، وسوف تفنى.

وأنت (مورشيليش) سوف لا تتأخر، ولا تتراخى. وإذا ما تأخرت (فسيصبح معنى ذلك) أنك فعلت نفس الأذى القديم... ولدي افعل، ولدي افعل دائماً ما يمليه عليك قلبك»[١].

ومن أشهر الملوك الذين ظهروا خلال هذه المرحلة الملك تيليبينوس Telepinus الذي اعتلى العرش حوالي عام ١٥٢٥ ق. م، ورغم أنه كان مغتصباً للعرش، إلا أنه قد تمكن من تقوية مركزه بالتخلص من المدعين الذين ينازعونه السلطة.

ومن أشهر الأعمال التي تنسب إليه سن قانون لتنظيم وراثة العرش، فألف مرسوماً محكماً، استعرض فيه بإيجاز تاريخ الحيثيين، وأوضح أخطار الاختلاف والتفرقة في الجهات العليا، وانتهى إلى إعلان قانون دقيق لوراثة العرش، وعدد من القواعد الأخرى الخاصة بسلوك الملك والأمراء، ويبدو أن هذا القانون الذي أصدره قد اتبع حتى آخر أيام الامبراطورية الحيثية.

وفيما يتصل بسياسته الخارجية، فقد اكتفى بإقامة حدود يمكن الدفاع عنها، فطرد الغزاة من شمال العاصمة شرقاً إلى مسافة مطمئنة، ومن ناحية الغرب والجنوب سلم بفقدان أرزاوا والبلاد الواقعة خلف طوروس بما في ذلك سورية بأسرها.

ومن أهم معالم سياسته الخارجية توقيعه لمعاهدة مع كيزوواتنا Kissuwatna (كاتونيا) وهي دولة قوية كانت تشمل الجزء الشرقي من سهول

(١) Ibid., pp. 247 - 248 وكذلك: عبد الحميد زايد: المرجع السابق، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

قيليقية وامتداد وادي نهر فيراموس. وتعتبر هذه الإشارة من أولى المعاهدات في هذه المرحلة.

ويعتبر تيليبينوس عادة آخر ملوك الدولة القديمة، إذ لم يعثر منذ منتصف أيام حكمه على مصادر تاريخية، فأصبح لا يمكن التأكد من أسماء خلفائه الذين جاءوا بعده مباشرة، وهذا العصر الغامض هو الذي يملأ الزمن الفاصل بين تيليبينوس وتود خالياش الثاني Tudhaliyas الذي أسس أسرة جديدة وكان أول ملوك الامبراطورية، وتثبت الآثار أنه خلال هذه المدة التي استمرت نصف قرن تقريباً لم يكن هناك انقطاع خطير في الاستمرار التاريخي، إذ يرجح أن القانون الذي عثر على نصوصه في بوغاز كوي، يرجع إلى عهد أحد خلفائه، كما أن كثيراً من العقود الخاصة بالأرض والمواثيق تنتمي إلى هذه الفترة أيضاً[١].

(١) O.R. Gurney, The Hittites, pp. 24 - 26.

الفصــل الثالـث

عصـر الامبراطوريـة

كما سبقت الإشارة في نهاية الفصل السابق إلى اضطراب أحوال المملكة الحيثية في نهاية عصر الدولة القديمة، وأن هذه الفترة تبلغ ما يقرب من الخمسين عاماً، وفي نهاية هذه المرحلة دخلت الدولة الحيثية مرحلة جديدة في تاريخها تعرف باسم «عصر الامبراطورية» أو «المملكة الحيثية الحديثة»، وتعاصر هذه المرحلة في مصر عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وبخاصة منذ أيام الفرعون تحوتمس الثالث.

وشهدت هذه المرحلة العديد من المظاهر الجديدة في نظام الملكية الحيثية، فلقد أصبحت الملكية مطلقة بعد أن كانت تتميز في عصر الدولة القديمة بالديمقراطية أو الحكم الخاص (Oligarchic). ومن ناحية أخرى فقد تأثرت هذه المرحلة بشكل كبير بالمؤثرات الحورية، وظهر ذلك في اتخاذ بعض مظاهر العبادة الحورية، كما أن جيش الامبراطورية الذي امتاز بسلاح المركبات قد قام بتدريبه شخص حوري يدعى كيكولي، ويلاحظ أيضاً أن الكثيرين من الملوك والملكات والأمراء قد اتخذوا الأسماء الحورية، ومن أقدم الأسماء الحورية تلك التي تسمت بها الملكات نيكال ماتي، وأشمو نيكال، ولكنه يلاحظ أنه حينما يعين أحد أولئك الذين يتخذون أسماء حورية ملكاً فإنه كان يستبدل اسمه باسم آخر حيثي(١).

ويعتبر الملك تودخالياش الثاني مؤسس الأسرة التي أنشأت الامبراطورية الحيثية.

---

(١) H.G. Güterbock, «The Hurrian Element in the Hittite Empire», In J.W.H., vol. 2 (1954), p 383 ff.

تودخالياش الثاني Tudkhaliash II :

لم يظهر اسم والد تودخالياش الثاني في أي مكان، وهو يعتبر مؤسساً لأسرة جديدة بدأت عصر الامبراطورية الحيثية. ورغم ذلك فإن الوثائق المتخلفة من عهده جد قليلة ولا تشير إلا إلى القليل من أحداث من عهده والتي من أهمها الإشارة إلى غزوه لمدينة حلب وتدميرها.

ومع أن تاريخ تدمير حلب وظروفه غير مؤكدة، إلا أنه يجب وضع هذا الحادث حسب تاريخ سوريا المعروف في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فخلال فترة الضعف التي ألمت بدولة الحيثيين في أعقاب الدولة القديمة، تمكنت إحدى الوحدات السياسية الحورية وهي «هاني جلبات» من السيطرة على شمال سورية حوالي عام ١٥٠٠ ق. م وانتهز أحد موالي المملكة الحورية فرصة ضعف المملكة الحيثية ونجح في الاعتداء على حدودها، ولم يستطع الحيثيون دفعه عنها.

وربما كان غزو الحيثيين لحلب يرجع إلى أنهم أرادوا عقابها على عودتها للخضوع إلى «هاني جلبات»، ولذا يرجح أن يكون غزوها لا يمكن أن يكون متأخراً عن هزيمة هاني جلبات على يد الفرعون المصري تحوتمس الثالث في سنة ١٤٥٧ ق. م الذي تمكن من إنهاء السيطرة الحورية في سورية في حملته الثامنة التي تمت في عام ١٤٥٠ ق. م وأصبح المصريون هم أصحاب السلطة العليا في سورية في ذلك الوقت.

ويرى بعض الباحثين أن الحيثيين قد قاموا بغزو حلب بالإتفاق مع الفرعون تحوتمس الثالث كحلفاء له، ومما قد يؤكد ذلك إشارة نصوص تحوتمس الثالث إلى تسلمه هدايا من «خيتا العظمى»، وربما يفسر لنا ذلك السبب في عدم وجود أي إشارة في النصوص المصرية إلى الاستيلاء على حلب في هذه الحملة[١].

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص ٣١١.

ولقد أشارت النصوص المصرية إلى مواصلة إرسال الجزية من خاتي في عهد الفرعون أمنحوتب الثاني خليفة الفرعون تحوتمس الثالث، إذ ورد في نهاية لوح منف الذي يرجع إلى عهده: «... الآن، لما سمع أمير نهرين، وأمير خاتي، وأمير سيخر النصر العظيم الذي حققته، تسابق كل مع زميله بكل وسيلة من الهدايا من كل البلاد، وقد تحدثوا في قلوبهم وأقسموا بآباء آبائهم أنهم سوف يدعون للسلام مع جلالته رداً على عطائه لهم نسيم الحرية: حضرنا ومعنا جزيتك إلى قصرك، يا ابن رع أمنحوتب حاكم الحكام، الأسد المغوار في كل مصر، وفي هذه الأرض إلى الأبد».

وتشير نصوص تودخاليش أنه قام بغزو المناطق الغربية، وتذكر هذه النصوص أنه حارب في أرزواوا، وتوجد تفاصيل هذه الحرب فيما يسمى «حوليات تودخاليش» وهي الحوليات التي كانت تنسب من قبل إلى الملك تود خاليش الرابع(١).

وتصف الحوليات أربع حملات ناجحة، وفيما يتصل بالحملة الأولى فلم يتبق من النص تفصيلات عنها، وكل الذي لدينا هو نهاية هذه الحملة وتتضمن جزء من قائمة بأسماء البلاد التي تم غزوها، ومن بين هذه البلاد أرزاوا والبلاد التابعة لها، وخابالا Khapalla وأرض نهر شيخه Shekha، وكذلك وولاريما Wallarimma التي تقع إلى الغرب.

أما الحملة الثانية فقد وجهت نحو اثنتان وعشرون مدينة تحت اسم «بلاد آسوا» Assuwa، ويحتمل أن تكون هذه الكلمة هي الأصل الذي اشتقت منه الكلمة الرومانية Asia. وقد ذكرت لأول مرة كاسم لإقليم بالقرب من ساردیس، وما من شك أن آسوا تقع في الغرب. وقام العلماء بدراسة أسماء المدن الاثنتان والعشرين التي وردت أسماؤها في حوليات هذه الحملة وبخاصة اسماء آخر

(١) E. Laroche, «Catalogue des textes Hittites», In R.H.A., XIV/58-XVI/62 (1956), No. 85 and 123.

مدينتين وردتا فيها وهما مدينتا ويليوشيا Qilushiya وتاروشا Taruisha، حيث رأى العلماء أنهما تمثلان مدينتي اليوس Ilios وترويا Troia[(١)]، أما عن باقي المدن فإن معظمها لم يستطع العلماء من تحديد موقعهما بشكل نهائي، وتمثل هذه الحملة أقصى تدخل للحيثيين ناحية الغرب.

واضطرت الظروف الملك تودخاليش للقيام بحملته الثالثة، إذ أنه أثناء انشغاله بحملته الثانية في الغرب هاجمت جماعات «كاسكا Kaska» بلاد الحيثيين، وعلى ذلك، فقد اضطر الملك أثناء عودته إلى خاتوشاش إلى أن يتوجه إليهم حيث دارت معركة بينه وبينهم عند تيوارا Tiwara (لم يحدد مكانها بعد) تمكن من إلحاق الهزيمة بهم فيها.

وبعد هذه الحملة الثالثة قضى الملك عاماً لم يقم فيه بأي حملات، وبعد هذا العام أرسل حملة ناحية الشرق لتقضي على تمرد قام في مدينة أشوا Ishuwa بتأييد من مملكة الحوريين، وتقع أشوا عند منعرج الفرات جنوب مرادسو[(٢)].

ولقد تمكن تود خاليش أن يستولي على ميتاني، ودخل عاصمتها، وقد قام بتسليم كل الأراضي التي استولى عليها إلى ملك كيزوادنا الذي كان حليفاً له.

إن حملات تود خالياش في سورية والغرب، توضح أنه كان حاكماً نشطاً وناجحاً وتوضح النقوش القليلة المتبقية من عهد خلفائه والتي تحمل أسماء كل من أرنووانداش Arnuwandashواشمو ـ نيكال Ashmu - Nikkal، أنه قد واجه اضطرابات قامت بها جماعات كاسكا، كما تعرضت كثير من المراكز الحيثية لهجمات أعداء الحيثيين[(٣)].

---

(١) J. Garstang, and O.R. Gurney., op. cit., p. 105 ff.

(٢) Ibid., p. 40 ff.

(٣) E. Laroche, op. cit., No. 277.,
J.B. Pritchard, Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeton, 1971, P. 399.

وتسجل إحدى القطع التي ترجع إلى هذا العهد أن مدينتي أورا Ura ، وموتاموتاسا Mutamutassa قد خضعت لسيادة الحيثيين، كما توضح قطعة أخرى توقيع معاهدة مع أهل أورا أنفسهم(١). ولقد كانت أورا مركزاً تجارياً هاماً للتجارة البحرية مع كل من أوجاريت ومصر(٢). ويبدو من ذلك أنه كان للحيثيين في ذلك الوقت سيطرة على جزء من الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى. ومن ناحية أخرى فإن هذه الوثائق لا تشير إلى المواقع الأخرى التي تقع إلى الشرق أو في سورية، أو تلك التي في غرب الأناضول.

وفي حوالي عام ١٤٣٠ ق. م بدأت مملكة ميتاني تنتعش، وكان ذلك في عهد ملكها أرتاتاما الأول، ولقد كان على دولة الحيثيين في ذلك الوقت مواجهة دولة ميتاني ومعها مصر، ففي نهاية عهد الفرعون أمنحتب الثاني أرسل ملك ميتاني بعثة إلى مصر تناشد الفرعون السلام. ومن ثم فقد أرسل فرعون رسله إلى أرتاتاما تطلب منه رباطاً يؤكد التحالف الذي قام بينهما، فأرسل أرتاتاما ابنته لتتزوج الملك تحوتمس الرابع الذي تولى العرش في مصر بعد وفاة والده أمنحتب الثاني، وشجع ذلك على قيام سلسلة من الزواج السياسي، ارتبطت بواسطتها الأسرتان المصرية والميتانية برباط المعاهدة.

ولم يكن الملك الحيثي (تود خالياش الثالث) هو رجل الموقف الذي يستطيع مواجهة هذه الأمور المستجدة الدولية في ذلك الوقت، فتأزمت الأمور بسرعة وسارت من سيء إلى أسوأ، وقد ظهرت هذه الأحوال السيئة في مرسوم صدر في القرن التالي لهذه الأحداث(٣).

ولقد كان لفشل الحيثيين في إعادة نفوذهم في سورية أثره في قيام ثورة عامة، فقد غزت جيوش أرزاوا إقليماً يسمى «البلاد السفلى» (ربما تكون سهل

(١) E. Laroche., op. cit., No. 99.

(٢) A. Goetze, «Cilicians», In J.C.S., 16 (1962), p. 48.

(٣) E. Laroche, op. cit., No. 58.

كونيا الحالي)[١]، وقد وصلت هذه الجيوش حتى توانوا Tuwanuwa (تيانا Tyana) وأورا (هيدا Hyde).

وتعرضت الحدود الجنوبية الشرقية لهجوم من رجال أرماتانا Armatana الذين قاموا بنهب الأراضي الحيثية حتى مدينة كيزوادانا Kizzuwadna، مما يدل أن هذه الأخيرة كانت من الأملاك الحيثية ومعها بعض بلاد من طوروس. ولم يستطع أحد حتى الآن معرفة المكان الذي كانت تحتله أرماتانا. كما وقع سهل مالاتيا حتى الغرب إلى مدينة جورون Gurun الحديثة في أيدي رجال أشوا.

ووقعت «البلاد العليا» (الوديان العليا لنهر الفرات وكيزيل أرماك Kizil Irmak) في أيدي أزي خياشا Azzi - Khayasha وهي تقع في الشمال الشرقي، وعلى ذلك فقد أصبح المركز الديني شاموخا Shamukha يمثل الحدود الأمامية للحيثيين. وتعرضت مقاطعة كششيا Kashshiya لهجمات غالباً من الشمال الغربي، كما عادت قبائل كاسكا لنهب المدن المجاورة للعاصمة، حتى وصلت إلـى نينـاشـشـا Neneshsha (ويحتمـل أن تكـون نـانـاسـوس Nanassos الكلاسيكية)[٢]. وأخيراً فإن العاصمة الحيثية نفسها خاتوشاش قد تم غزوها ثم أحرقت، وكان يبدو ذلك وكأنه نهاية المملكة الحيثية[٣].

وأمكن معرفة امتداد سلطان ميتاني وارزاوا في ذلك الوقت من المراسلات التي تمت بين ملوكهما مع الفرعون أمنحوتب الثالث في نهاية حكمه، وقد تزوج الفرعون من أخت الملك الميتاني، كما يبدو كذلك أنه قد تزوج أيضاً من أميرة أرزاوية[٤].

(١) J. Garstang, and Gurney, O.R., op. cit., p. 63 ff.

(٢) L.A. Mayer, and Garstang, J., Index of the Hittite Names, British School of Archaeology in Jerasalem, Supplementary Papers No. 1. London, 1923, p. 35.

(٣) O.R. Gurney, «Anatolia C. 1600 - 1380 B.C»., In. C.A.H., vol. II, Part I, p. 681.

(٤) J.A. Kindtzon, Die El - Amarna Tefeln, Leipzig, 1915, Nos. 17 - 32.

وأشار نص متأخر إلى الأحوال السيئة التي مّرت بها الدولة الحيثية ومهاجمة حدودها من كل جانب، وقد جاء فيه:

«في الأيام الخوالي كانت البلاد الحيثية تغزو البلاد التي تقع خارج حدودها، ثم جاء العدو من كاسكا ونهب الأراضي الحيثية وجعل من نيناسا حدوداً له، كما جاء العدو من أرزاوا خلف الأراضي السفلى ونهب البلاد الحيثية أيضاً، وجعل من توانوا Tuwanua وأودا Uda حدوداً لها.

ومن بعيد جاء العدو من أراءونا Arauna ونهب جميع بلاد جاسيا. ومن بعيد جاء العدو مرة ثانية من أزي Azzi ونهب كل الأراضي العليا واتخذ سموحا Samuha حدوداً له. وجاء العدو من إسووا Isuwa ونهب بلاد تيجاراما Tegarama...

ومن بعيد أيضاً جاء العدو من أرماتانا ونهب البلدان الحيثية واتخذ مدينة كيزواتانا Kizzuwatna حدوداً له، وأحرقت مدينة خاتوشاش»[١].

ويعتمد الباحث في دراسته للهجوم الحيثي المضاد ضد هذه الغزوات على ما يسمى بـ «أعمال شوبيلا ليوماش»، وهي التي قام بتجميعها ابنه «مورشيليش الثاني **Murshilish II**» وأمكن ترميمها من العديد من القطع[٢]. وتبدأ هذه الأعمال في عهد والد شوبيلوليوماش الذي وصف بأنه «جديّ»، ولكن أشارت بعض القطع إلى إسم جده وهو «تود خالياش» أما والده فقد كان خاتوشيليش الثالث، ويوضح ذلك أن العرش قد انتقل من الجد إلى الإبن ثم إلى الحفيد الذي هو شوبيلو ليوماش.

ويلاحظ أن هذه الأعمال ليست تأريخاً ولكنها سيرة شخصية، وهي تبدأ عندما عهد والد شوبيلو ليوماش إليه بقيادة الجيوش، وكان ذلك نقطة تحول في

(١) O.R. Gurney, The Hittites, p. 28.

(٢) H.G. Guterbock, «The Deeds of Suppiluliuma as told by his Son, Mursili II», In J.C.S., 10 (1956), p. 41 ff.

مصير الحيثيين، ويظهر ذلك بوضوح في مرسوم خاتوشيليش الثالث الذي أوضح حجم الكارثة التي ألمت ببلاد الحيثيين وأشرنا إليه من قبل.

ولم تحدد هذه الأعمال بالسنوات، ولكن يمكننا الاستنتاج أنها تغطي فقط العام الأخير أو على أقصى تقدير العامين الأخيرين من عهد خاتو شيليش الثالث، حيث أنه كان مريضاً في ذلك الوقت، ونظراً لمرضه فقد اضطر إلى أن يرسل ابنه لقيادة الجيوش وعلى ذلك، فإنه لا توجد لدينا أية أدلة أثرية أو تاريخية تمكننا من تحديد السنوات التي استغرقها الحيثيون في استرجاع ولاياتهم المفقودة.

ولسوء الحظ فإن الأجزاء الواردة في الأعمال، والتي تتصل بالفترة المبكرة فيها، وذلك حينما كان شوبيلو ليوماش يعمل تحت قيادة والده، قد وصلتنا في حالة سيئة جداً، لدرجة لا يمكننا معها استخلاص الأعمال المتتابعة التي تمت خلال هذه المرحلة الحرجة في تاريخ الحيثيين.

ويبدو أن العمل الرئيسي خلال هذه المرحلة كان موجهاً نحو المنطقة الشمالية الشرقية «البلاد العليا» حيث دارت رحى الحرب مع قبائل الكاسكا وأزي ـ خياشا. وفي هذه الحرب نهبت مدينة أرزيا Arziya بعد أن تم غزوها. وأعدت مدينة شاموخا Shamukha لتكون قاعدة لانطلاق الهجمات منها، كما كانت أيضاً المكان الذي حجز فيه الأسرى.

ويلاحظ أن الإشارات الخاصة بالحروب في باقي المناطق أنها متقطعة وغير مترابطة، ومما جاء في هذه الإشارات، أن مدينة شالابا التي كانت تمثل قاعدة أمامية على الطريق المؤدي إلى أرزاوا، قد قامت الجيوش الحيثية بإحراقها[1].

ومثل الاستيلاء على مدينة شالابا الخطوة الأولى للهجوم على أرزاوا، التي كانت لا تزال تسيطر على توانوا. وتوجد كذلك إشارات إلى جبل نانتي،

---

(١) O.R. Gurney, In C.A.H., vol II, part I, p. 683.

الذي لم يمكن تحديد مكانه.

ولقد فقدت في «الأعمال» الجزء الخاص بوفاة تود خاليش وتولى شوبيلوليوماش العرش، والفجوة الموجودة في النص في هذا الجزء صغيرة، ومن ثم فإنه يمكن القول بأن انتقال العرش لم يشر إليه إلا في جزء صغير من الأعمال. ومع ذلك فإن موت الملك قد عجل بظهور الأزمة. فقد خلفه على العرش «تود خاليش الصغير»، الذي اغتالته جماعة من الضباط ووضعوا مكانه شوبيلو ليوماش، الذي أثبت أنه بجوار كفاءته كقائد عسكري، رجل دولة يتميز بقدرات غير عادية، حيث تمكن من جعل دولة الحيثيين تقف على قدم المساواة مع الدول الكبرى حينذاك في منطقة الشرق الأدنى القديم[1].

شوبيلو ليوماش:

كان تولي شوبيلو ليوماش العرش إيذاناً بانتهاء زمن الضعف السالف وبداية عصر جديد من القوة، وفي ذلك الوقت كان على عرش ميتاني الملك «توشراتا» وكان على عرش مصر الملك أمنحوتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧ ق.م).

ولقد واصل شوبيلوليوماش جهوده الحربية في سبيل استعادة الأملاك الحيثية بعد توليه العرش، وكان عليه أن يوجه مزيداً من الاهتمام نحو أزي (تسمى أيضاً خاياشا Khayasha) في الشرق، وذلك من أجل تدعيم الوضع الحيثي في سورية وقد استطاع إعادة الحدود الشمالية كما كانت عليه من قبل. أما بلاد أرازوا والتي كانت تشغل غربي آسيا الصغرى فقد كانت مستقلة أغلب فترات حكمه[2].

---

(١) Ibid.

(٢) A. Goetze, «Anatolia From Shuppiluliumash to the Egyptian War of Muwatallish», In C.A.H., vol. II, part II, Cambridge, 1980, p. 117-120.

ويمكن القول أن كفاح شوبيلوليوماش في سبيل تثبيت حكمه ودعمه في وطنه حاتي قد استغرق العشرين سنة الأولى من حكمه. ويحتمل أن يكون هو الذي وضع خطة سور الدفاع الضخم في الجانب الجنوبي من مدينة خاتوشاش وكذلك التحصينات الأخرى في العاصمة. ولقد أصبح بعد ذلك قادراً على التفرغ إلى المهمة الرئيسية التي كرس لها نفسه وهي تسوية الحساب مع ميتاني العدو المسؤول عن الحالة السيئة التي وصلت إليها المملكة الحيثية في الجيل السابق.

ولما حانت لشوبيلوليوماش الفرصة قام بغزوته الكبرى نحو سورية، وتعرف هذه الغزوة باسم «الحرب السورية الأولى لشوبيلوليوماش»[١].

ولقد تحركت الجيوش الحيثية نحو سورية، وقد خضعت له كل المناطق بين الفرات والبحر المتوسط، ووصلت إلى حدود المملكة المصرية في سورية، حيث توقفت القوات الحيثية، حيث لم يرغب الحيثيون في ذلك الوقت في الدخول في صراع مع مصر، نظراً لأنهم لم يكونوا قد حسموا بعد صراعهم مع توشراتا الميتاني.

وكان لهذا الانتصار الحيثي أثره في تقلص سلطان الميتانيين على سورية، وأصبحت الولايات السورية الشمالية الملاصقة للحيثيين موالية لهم تماماً، ومن أهم هذه الولايات ولاية حلب والآلاخ وتونب.

وفي تلك الظروف ظهر على مسرح الأحداث الملك الأموري عبدي شرتا وابنه عزيزو اللذين استفادا من هذا الصراع الموجود على الساحة السورية بين الحيثيين والميتانيين والمصريين، فأخذوا يستولون على الولايات السورية وهم يتظاهرون أمام الفرعون المصري بصداقته وولائهم له، في الوقت الذي كان يوجد بينهم وبين الحيثيين شبه تفاهم على الخطوات التي يقومون بها، ويرجح

(١) A. Goetze, «The Struggle for the Domination of Syria», (1400 - 1300 B.C.), In C.A.H., vol II, part II, pp. 8 - 13.

أن عزيزو قد عقد مع شوبيلو ليوماش معاهدة رسمية، كان من نتيجتها اتباعه لنظام الحكم الحيثي.

وفي نفس هذا الوقت فقد قام شوبيلو ليوماش بخطوة أخرى ذات طابع سياسي كبير، فقد تزوج من أميرة بابلية، وبعد زواجها اتخذت اسم أول ملكة حيثية في تاريخ الحيثيين في الأيام الأولى لهم، وكان هذا الاسم هو تاوان ناناش Tawannannash وقد حكمت هذه الأميرة كملكة، ومن الواضح أن الهدف من وراء تلك الزيجة هو حماية نفسه من توشراتا ملك ميتاني.

ولقد اتخذ شوبيلوليوماش من بعض تصرفات توشراتا ذريعة لقيامه بضرب الميتانين، وتعرف هذه الحرب باسم «الحرب السورية الثانية لشوبيلو ليوماش»[١] فلقد قام توشراتا بالتدخل في بلاد نوخاش واشوا.

ولقد استعد شوبيلوليوماش لهذه الغزوة، فعقد حلفاً مع أمير أوجاريت ليحافظ على الجانب الأيمن في طريقه إلى ميتاني، واتجه بجيوشه نحو ميتاني حيث دخل العاصمة الميتانية واش شوجاني، وعندما دخلها وجد أن توشراتا قد لاذ بالفرار منها.

ثم عاد شوبيلوليوماش إلى الغرب مرة أخرى متجهاً نحو سورية فدخلها بعد أن عبر الفرات من الشرق، وحينما وصل إلى سورية سقطت المدن الواحدة وراء الأخرى في قبضته، وكان يقوم بعزل الحكام الذين كان الميتانيون يعتمدون عليهم، ويعين في مكانهم غيرهم ممن يثق فيهم. وقد انتهت الحملة عند أبينا Apina (دمشق) أي عند الحدود المصرية في سورية.

وكان لهذه الحملة أثرها في سياسة الشرق الأدنى القديم بوجه عام، فقد وضعت نهاية لدولة توشراتا، الذي اغتيل بعد هربه بفترة وجيزة، وقد اقتسمت

---

(١) Ibid., pp. 13 - 16.

أشور ودولة ألش الأملاك الميتانية فيما بينهما، ولم يتبق من الدولة الميتانية إلا أجزاء قليلة.

بعد القضاء على دولة الميتانيين، ظل شوبيلوليوماش لمدة ستة أعوام يشن الحملات على بلاد الحوريين أي شمالي سورية(١). حيث تمكن من إخضاع مملكة أرزيا وتوسعت جيوشه في شمال سورية وحاصرت قرقميش، وفي أثناء حصاره لها جاءت الأخبار بوفاة ملك مصر، وتروي المصادر الحيثية أن أرملة هذا الفرعون الذي يرجح أنه توت غنخ آمون قد أرسلت برسالة إلى العاهل الحيثي جاء فيها «مات زوجي، وليس لدي ولد، وقالوا عنك أن لديك أولاد كثيرين، ويمكنك أن تعطيني واحداً من أولادك ويمكنه أن يصبح زوجي، إنني لا أرغب في الزواج من أحد أتباعي، إنني ممتنعة عن جعله زوجي»(٢).

وبعد مشاورات اتخذها العاهل الحيثي أرسل أحد أبنائه إلى مصر بناء على رغبة هذه الأميرة، ولكن لم يقدر لهذا الأمير أن يصل إلى مصر فقد اغتاله في الطريق الجيش المصري، ويرجح أن يكون ذلك بتدبير من القائد العسكري حور محب الذي تولى العرش المصري في نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة.

وكان لمقتل الأمير الحيثي أثره في نفس والده شوبيلوليوماش، فتحركت وحدات من الجيش الحيثي في حملة إلى العمق، وتشير المصادر الحيثية إلى أن الجنود أثناء عودتهم حملوا معهم وباء قضى على كثير من الناس.

وبعد هذه الحملة أدرك شوبيلو ليوماش الخطر الناجم من تزايد قوة أشور بعد سقوط توشراتا ملك ميتاني فأرسل حملة تمكنت من دخول العاصمة الميتانية واش شوجاني وقد عقد الحيثيون معاهدة مع الملك الميتاني الجديد ودعمت بزواجه من إحدى بنات شوبيلوليوماش.

---

(١) H.G. Guterbock, «Mursili's Accounts of Suppiluliuma's Dealings with Egypt», In R.H.A., 18, 1960, p. 59 ff.

(٢) C.D. Noblecourt, Tutankhamen, London, 1963, pp. 202 - 203.

ولقد كان لهذه الحملات السورية التي وجهت أولاً ضد الميتانيين ثم تطورت ضد المصريين والأشوريين وإلى أي قوات أخرى حاولت أن تقف في وجه الحيثيين، أثرها في إجهاد الخزانة الحيثية، وإذا كان الحيثيون قد أحكموا قبضتهم على سورية، فإنهم دفعوا مقابل ذلك إهمال الشؤون الداخلية من الناحيتين السياسية والدينية. وحينما مات شوبيلو ليوماش ثارت الأقطار المتطرفة، وفي الواقع فقد كانت البلاد حين وفاته في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار كما كانت عليه حينما تسلم عرش البلاد.

ولقد مات شوبيلو ليوماش حوالي عام ١٣٤٦ ق. م، وربما وقع فريسة للوباء الذي جاء في ركاب الجيوش الحيثية التي عادت من العمق، وكانت مصر في هذه الفترة مشغولة بأمورها الداخلية في أعقاب ثورة أخناتون الدينية، كما كانت آشور تقوم بإعادة تنظيم نفسها بعد تحررها من الميتانيين[١].

مورشيليش Murshilish :

كان مورشيليش هو الإبن الأصغر لشوبيلو ليوماش، وقد تولى العرش بعد وفاة أخيه الأكبر الذي لم يحكم سوى فترة قصيرة مات بعدها. وفي الوقت الذي اعتلى فيه مورشيليش العرش كان الأشوريون يعدون العدة للتدخل في شؤون سورية، وكانت ميتاني تسير في فلك الأشوريين، أما مصر فإنها في هذه الفترة كانت في نهاية الأسرة الثامنة عشرة وفي عهد الفرعون حور محب تحاول إعادة الأمور إلى نصابها بعد الأحداث التي أعقبت ثورة أخناتون الدينية.

ولقد وجه مورشيليش عنايته وجهوده في السنوات العشر الأولى من حكمه نحو إعادة تثبيت قوة الحيثيين، خصوصاً في آسيا الصغرى، حيث تمكن من إعادة إخضاع جماعات كاسكا وارزاوا وقضى على مراكز المقاومة في جبال

(١) A. Goetze., In C.A.H., vol. II, part II, p. 19.

أرين ناندا Arinnanda وبوراندا Puranda. كما ذهب بنفسه إلى سورية للقضاء على الثورات هناك، ويحتمل أنه ذهب أيضاً إلى القسم العلوي من بلاد النهرين، حيث أشارت بعض نصوص عهده إلى ما يشير إلى إعادة ميتاني إلى سيطرتهم.

وعلى ذلك فقد استطاع مورشيليش أن ينظم امبراطوريته وأن يحافظ على حدودها كما كانت أيام والده فامتدت من لبنان والفرات في الجنوب إلى مرتفعات بونتي في الشمال ووصلت غرباً إلى آسيا الصغرى.

وقد مات مورشيليش بعد أن حكم أكثر من اثنين وعشرين عاماً وكان ذلك حوالي عام ١٣٢٠ ق. م، ويرجح أن يكون ذلك على أيام ملك مصر ستي الأول الذي أرسل حملة إلى آسيا، ويحتمل أن تكون هذه الحملة قد وقعت في نهاية عهده أو في الأيام الأولى لحكم ولده مواتاليش[١].

مواتاليش Muwatallish:

إن الوثائق المتخلفة من عهد مواتاليش جد قليلة، واعتمادنا في معرفة أحداث عهده ينصب على النصوص التي تركها أخوه الأصغر خاتوشيليش وكذلك من النصوص المعاصرة في منطقة الشرق الأدنى القديم وبخاصة مصر.

لقد ورث مواتاليش امبراطورية وطيدة الدعائم بشبكة من الممالك الموالية، فلم تحدث أي اضطرابات ذات خطر عند بلوغ الملك الجديد العرش، ومع ذلك فقد أرسل قواته إلى العديد من مناطق الامبراطورية بقيادة أخيه خاتوشيليش. وقد ثبت الأمراء التابعون له في بلدان أرزاوا في مناصبهم، كما عقدت معاهدة جديدة مع الأكساندوس ملك ديلوسا وهو أحد أقاليم أرزاوا[٢].

---

(١) A. Goetze, In C.A.H., vol. II, Part II, pp. 120 - 127.

(٢) O.R. Gurney, The Hittites, p. 35.

وعندما أمن مواتاليش هذه الناحية اتجه لمجابهة الخطر القادم من الجنوب، ذلك لأن المارد المصري تحرك أخيراً، فقد طمح ملوك الأسرة التاسعة عشرة إلى استعادة أقاليم سورية التي سبق أن فتحها تحوتمس الثالث.

وبدأ ذلك في عهد الفرعون ستي الأول (١٣١٨ ـ ١٣٠٤ ق. م) الذي أرسل حملة على سورية صورت مناظرها على الجدار الخارجي لردهة الأعمدة الكبرى من الناحية الشمالية في معابد الكرنك. ووصلت جيوشه حتى قادش على نهر العاصي، حيث قاومه الحيثيون بشدة، ولم تصل إلينا تفاصيل هذه الحرب، إلا أن نتائجها على ما يبدو لم تكن حاسمة.

وأدرك الخصمان الكبيران بعد هذا اللقاء بينهما أنه لن يتيسر لأحدهما القضاء على قوة خصمه بسهولة، فتميع الموقف بينهما إلى حين، وربما انتهيا إلى عقد هدنة بينهما، والواقع أنه لم يعثر على أي أثر يحمل نصوص ذلك الصلح المحتمل، وإنما أشير إليه في المعاهدة التي أبرمت بين رعمسيس الثاني وخاتوشيليش الثاني، حيث قال الملك في معرض الحديث عن مواد الميثاق: «وكذلك الميثاق السابق الذي كان في زمان أبي، فإني سأتمسك بما جاء فيه، وهذا «رعمسيس» حاكم مصر العظيم سيتمسك بذلك معي من هذا اليوم»[(١)]. ولم يقم الملك ستي بحروب بعد ذلك حتى وفاته.

وظل الملك الحيثي محافظاً على هذه المعاهدة حتى بعد وفاة الملك ستي الأول واعتلاء ابنه رعمسيس الثاني (١٣٠٤ ـ ١٢٣٧ ق. م) العرش. ولكن سرعان ما لاح في الأفق بعض الأمور التي وترت العلاقات بين البلدين، وأخذت بوادر الصراع تظهر بينهما معلنة عن صدام وشيك الحدوث، وساعد على تطور الأحداث أن الملك رعمسيس الثاني عند اعتلائه العرش كانت حدوده لا تكاد تعدو بيروت شمالاً، فأخذ يعد العدة لاستعادة الأملاك المصرية في آسيا. وفي سبيل ذلك، فقد قام قبل نهاية عام حكمه الرابع بحملة استطلاعية

(١) J.H. Breasted, Ancient Records of Egypt, vol. IV Chicago, 1907, 311.

وصل فيها حتى نهر الكلب الذي كان يمثل الحد الفاصل بينه وبين خصومه، حيث أمر بإقامة نصبين على جبل يشرف على أعالي النهر ويطل على البحر، وذلك تحدياً لخصومه الحيثيين، ثم عاد إلى مصر حيث كان الجيش قد أخذ عدته وأصبح على أهبة الاستعداد للدخول في معركة حاسمة مع الحيثيين.

وفي الجانب الآخر، فقد قام مواتاليش بتجنيد كل ما استطاع من رجال دولته، وجمّع حوله جيوشاً تنتمي ـ فيما ذكرت المصادر المصرية ـ إلى ما لا يقل عن عشرين دويلة وجنسية، وقد جاء في ذلك: «ولم يترك بلداً أجنبياً واحداً، دون أن يحضر ذلك البلد البعيد ومعهم رؤسائهم، وكل رجل معه مشاته، وكانت عجلاتهم كثيرة جداً وبدون حصر، وقد غطوا الجبال والوديان بسبب كثرتهم، وكأنهم جراد»[١].

وخرج رعمسيس الثاني من مصر في عام حكمه الخامس على رأس جيش بلغ نحو عشرين ألف مقاتل نظموا في أربعة فيالق، اتخذ كل فيلق منها اسم أحد الأرباب المصريين الكبار: آمون، رع، بتاح، ست. وفي ذلك الوقت كانت جيوش الحيثيين وحلفائهم قد اتخذت من مدينة قادش مركزاً لعملياتها الحربية، وذلك نظراً لأهميتها الطبيعية والاستراتيجية.

وتذكر النصوص المصرية الخسائر الفادحة التي مني بها الحيثيون وحلفائهم في المعركة، حتى اضطر ملكهم إلى إيفاد مبعوث إلى الملك المصري عارضاً عليه السلم ويستعطفه بعبارات لا تخلو من ألم ومذلة.

ولا تشير النصوص الحيثية إلى طلب ملكهم العفو من رعمسيس الثاني، بل ادعت أنه عندما يئس من تحقيق نصر مؤزر عليهم نزح عنهم[٢]. ومهما يكن الأمر فإن النتائج السياسية للمعركة لم تكن في مستوى النصر العسكري، حتى أن الحدود بين الدولتين بقيت في موقعها عند نهر الكلب، كما كانت قبل المعركة.

(١) A. H. Gardiner, The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, Oxford, 1960, p.8.

(٢) A. Goetze, «Hittite Historial Texts», in ANET, p. 314.

وظلت حالة الحرب قائمة بين البلدين بعد معركة قادش لمدة خمسة عشر عاماً، حيث بدأت تظهر تغيرات محلية ودولية واسعة النطاق، انعكست آثارها بشكل مباشر على القوتين المصرية والحيثية، وكان لها آثارها البعيدة في تاريخ الشرق القديم.

خاتوشيليش Khattushilish :

لم يترك مواتاليش وريثاً شرعياً يخلفه على العرش، وعلى حسب القاعدة التي ذكرت منذ أيام تيليبينوش في مثل هذه الحالة يتولى العرش الإبن البكر لعشيقة الملك، وعلى ذلك فلقد عين «أورخي ـ تشوب» ملكاً وعاونه على ذلك خاتوشيليش احتراماً للقواعد التي نصت عليها الشريعة الحيثية. ولكن دب النزاع بينهما وانتهى الأمر بإقصاء خاتوشيليش لإبن أخيه «أوخي ـ تشوب» ونفيه وإعلان نفسه ملكاً.

وحينما تولى العرش خاتوشيليش كانت العلاقات بينه وبين مصر متوترة، ولكن الظروف الدولية التي استجدت حينذاك دفعته إلى انتهاج سياسة جديدة مع مصر قائمة على الود والتفاهم، وتتمثل هذه الظروف في ظهور دولة أشور على مسرح الأحداث، وذلك في بداية العصر الأشوري الوسيط وتطلعها إلى احتلال مكان من السيادة في سورية، ويضاف إلى ذلك استمرار تدفق هجرات شعوب البحر الآرية على حوض البحر المتوسط وشواطئه، وكل من الأمرين تخوفته مصر أيضاً وخشيت منهما على اختلال توازن القوى في الشرق، وأصبحت على استعداد لاتخاذ خطوة إيجابية لتدعيم هذا التوازن الجديد.

وتذكر المصادر المصرية أن الملك الحيثي خاتوشيليش أرسل مبعوثين إلى الملك رعمسيس الثاني حيث عرضا عليه مشروع معاهدة تحالف بين مصر وخاتي، فقبلها رعمسيس من حيث المبدأ، وكتب رجاله نصاً آخر، وبعد عدة مفاوضات بين الطرفين وضعت المعاهدة في صيغتها النهائية حيث قام العاهلان

المصري والحيثي بالتوقيع عليها وذلك حوالي عام ١٢٧٠ ق. م[١].

وتبدأ المعاهدة بمقدمة وديباجة، ثم بنود المعاهدة والتي يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

١ ـ إعلان ميثاق للسلام والإخاء بين مصر وخاتي، وجاء في هذا البند: «إن خاتوشيليش رئيس خاتي العظيم قد تعاهد مع ماعت رع ستبن رع حاكم مصر العظيم على أنه بدءاً من اليوم يحل السلام والأخوة بيننا إلى الأبد».

٢ ـ الالتزام المتبادل بعدم الاعتداء بين الطرفين.

٣ ـ الالتزام باحترام المعاهدات السابقة.

٤ ـ الالتزام بالدفاع المشترك بين البلدين.

٥ ـ الالتزام بتسليم اللاجئين.

ولقد حققت المعاهدة أغراضها، فساد السلام بين الدولتين، وتبودلت الرسائل الودية بين الملكين، وتوثقت الصلات بعد ذلك بزواج رعمسيس الثاني في العام الرابع والثلاثين من حكمه من ابنة الملك خاتوشيليش.

وقد توفي خاتوشيليش بعد فترة قصيرة من زواج ابنته من ملك مصر، وتولى من بعده ابنه «تود خالياش الرابع» الذي وجه اهتمامه نحو الشؤون الدينية، ويمثل الجزء الأول من حكمه عصر سلام، وتمكن من ضم إقليم أسووا إلى دولته، ولكن لم تلبث أن ساءت الحالة هناك قبل نهاية حكمه، وفي عهد خلفه «أرنو وانداش الثالث» تدهورت الأحوال في غرب هضبة الأناضول، وحدثت تحركات ضخمة من شعوب هذه المناطق حيث تقدمت واجتاحت الأقاليم الواقعة في شرق البحر المتوسط، وتمكنت تلك الهجرات التي تعرف باسم هجرات شعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر ق. م من القضاء على الدولة الحيثية، ثم هاجمت وادي النيل، ولكن تمكن الملك رعمسيس الثالث من ردهم عنها بعد الانتصار عليهم براً وبحراً.

(١) J. Wilson, «Egyptian Treaty», In ANET, pp. 199 - 201.

الفهـارس

١ - قائمة الاختصارات

- **AJA:** American Journal of Archaeology.
- **AJSL:** American Journal of Semitic languages and literatures.
- **ANET:** Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament.
- **Ann. A.S.O.R:** Annual of the American Scholls of Oriental Research.
- **Arch. F.Or:** Archiv fur Orient Forsch ıng.
- **A. St:** Anatolian Studies.
- **Bull. ASOR:** Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
- **Bull. A.S.P.R:** Bulletin of the American School of Prehistoric Reserach.
- **CAH:** The Cambridge Ancient History.
- **CHI:** The Cambridge History of Iran.
- **HUC:** Herbew Union College Annual.
- **JCS:** Journal of Cuneiform Studies.
- **JEA:** Journal of Egyptian Archaeology.
- **JNES:** Journal of Near Eastern Studies.
- **JSS:** Journal of Semitic Studies.
- **JWH:** Journal of World History.
- **PAPS:** Proceedings of the American Philosophical Society.
- **RHA:** Revue Hittite et Asiatique.

٢ ـ قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية :
ثانياً: المراجع المترجمة :
ثالثاً: المراجع الأجنبية :

ثالثاً: المراجع الأجنبية

- Albright, (W.F.), and lambdin, (T.O.), «The Indo- Hittite Family» in CAH, vol. I, Cambridge, 1970.
- Angel, (J.L.), «The Human Skeletal Remains from Hotu Cave», in PAPS, vol. 96, no. 3, Philadelphia, 1952.
- Armajani, (Y.), Iran, New Jersy, 1972.
- Barton, (C.A.), The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1929.
- Baumgartel, (E.J.), «Predynastic Egypyt», in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Beaumont, (P.), The Middle East, A Geographical Study, London, 1976.
- Beek, (M.A.), Atlas of Mesopotamia, London, 1962.
- Blegen (C.W.), «The Geographical Distribution of Prehistoric Remains in Greece», in AJA, vol. 32 (1928).
- Bordaz (J.), «Suberde Excavations», in A. St., 15 (1965).
- Bostanci (E.y.), «Researches on the Mediterranean Coast of Anatolia, A New Palaeolithic Site at Beladibi near Antalya» in Anatolia, vol. 4 (1959).
- Botta, (P.E.), Monuments de Nineve, mesurés et dessinés par E. Flandin, Paris, 1849 - 50.
- Bottero, (J.), The Near East, The Early Civilization, London, 1967.
- Bottero, (J.), «Syria Before 2200 B.C.» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Braidwood, (R.J.), and Howe, (B.), «Prehistoric investigations in

Iraqi Kurdistan» in Oriental Institute of the University of Chicago, Series in Ancient Oriental Civilization, Chicago, 1960.
- Braidwood (R.J.), Howe, (B.), Reed, (C.A.), «The Iranian Prehistoric Project» in Science, vol. 133, no. 3458 (7 April, 1961).
- Breasted, (J.H.) Ancient Records of Egypt, vol. IV, Chicago, 1907.
- Breasted, (J.H.), La Conquête de la Civilisation, Paris, 1945.
- Brown, (E.G.), A literary History of Persia, vol. I, Cambridge, 1964.
- Bury, (J.B.), The Ancient Greek Historians, New York, 1958.
- Cameron, (G.G.), «Darius and Xerxes in Balylonia», in AJSL, Lviii, (1941).
- Caton- Thompson, (G.)., and Gardiner, (E.W.), The Desert Fayum, vol. I, London, 1934.
- Childe, (C.), New light on the Most Ancient East, London, 1964.
- Chark, (J.G.D.), «In Mesolithic Times», in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Coon, (C.S.), «Cave Explorations in Iran, 1949», in University Museum Monographs, Philadelphia, 1951.
- Coon, (C.S.), «Excavations in Hotu Cave, Iran 1951, A preliminary report», in P.A.P.S., vol. 96, no. 3, Philadelphia, 1952.
- Coon, (C.S.), Seven Caves, London, 1957.
- Cornelius, (F.), «Geographie des Hetiterreiches», in Or. N.S. 27 (1958).
- CrawFord, (V.E.), Sumerian Economic Texts from the First Dynasty of Isin, New- Haven, 1954.
- Dabbagh, (T.) «Halaf Pottery», in Sumer, 22, (1966).
- Delougaz, (P.), Pottery from the Diyala Region, Oriental Institute Publications, no. 63, Chicago, 1952.
- Dicks, (B.), The Ancient Persians, How They lived and worked, London, 1979.

- Dupree, (L.B.), «The Pleistocene Artifacts of Hotu Cave, Iran», in PAPS, vol. 96. no. 3, Philadelphia, 1952.
- Dyson, (R.H.), «Problems in the Relative Chronology of Iran, 6000- 2000 B.C.» in Chronologies in Old world Archaeology, U.S.A., 1967.
- Feigin, (S.I.), and B. Berger, «The date- list of the Balylonian Kings Samsuditana», in JNES, vol. 14, (1955).
- Fisher, (W.B.), The Middle East, A Physical, Social, and Regional Geography, London, 1966.
- Fisher, (W.B.), «Physical Geography» in The Cambridge History of Iran, vol. I, The Land of Iran, Cambridge, 1968.
- Frankfort, (H.), Archaeology and the Sumerian Problem, Chicago, 1932.
- Frankfort, (H.) Stratified Cylinder Seals from the Diyala Region, Oriental Institute Publications, no. 72, Chicago, 1955.
- Frankfort, (H.), The Art and Architecture of the Ancient Orient, (Penguin Books), 1970.
- Frankfort, (H.), The last Predynastic Period in Balylonia», in CAH., vol. I, Part. II, Cambridge, 1971.
- Frye (R.N.), The Heritage of Persia, London, 1963.
- Furness, (A.) «Some Early Pottery of Samo, Kalimnos, and Chios», in PPS, vol. 22 (1956).
- Gadd, (C.J.), «The Cities of Balylonia» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Gadd, (C.J.), «The Dynasty of Agade and the Gutian Invasion» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Gadd. (C. J.), «Hammurabi and the end of his dynasty», in CAH, vol. II, Part. I, Cambridge, 1973.
- Gardiner, (A.H.) The Kadesh Inscriptions of Ramesses II, OxFord, 1960.
- Gardiner, (A.H.), Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961.
- Garrod, (D.A.E.), «The Palaeolithic of Southern Kurdistan», in Bull. A.S.P.R., 6, (1930).

- Garrod, (D.A.E.), «Primitive Man in Egypt, Western Asia, and Europe in Palaeolithic Times», in CAH, vol. I, Part. I, Cambridge, 1970.
- Gelb, (I.J.), «Two Assyrian King lists» in JNES, 13, (1954).
- Ghirshman, (R.), Fouilles De Sialk, vol. I, Paris, 1938.
- Ghirshman, (R.), Perso- Iraniens, Medes, Achemenides, Paris, 1963.
- Ghirshman, (R.), Iran from the Earliest times to the Islamic Conquest, Translated from the French by Miss Margared Mum-Rankin, (Pelican Books), London, 1978.
- Glover, (T.R.), The Ancient World, (Pelican Books), 1948.
- Goetze, (A.), «Cilicians», in JCS, 16, 1962.
- Goetze (A.) «Hittite Historical Texts», in ANET (1971).
- Goetze (A.), «The Struggle for the Domination of Syria», (1400-1300 B.C.), in CAH, vol. II, Part II, Cambridge, 1980.
- Goetze (A.) «Anatolia from Shuppiluliumash to the Egyptian war of Muwatallist», in CAH, vol. II, Part II, Cambridge, 1980.
- Gray, (G.B.), «The Reign of Darus», in CAH, vol. IV, Cambridge, 1930.
- Gray, (G.B.), «The Foundation and Extension of the Persian Empire», in CAH., vol. IV, Cambridge, 1964.
- Gurney, (O.R.), «Anatolia C. 1750- 1600 B.C.», in CAH., vol. II, Part I, Cambridge, 1973.
- Gurney, (O.R.), The Hittites (Penguin Books), 1981.
- Guterbock, (H.G.), «The Hurrian Element in the Hittite Empire», in JWH, vol. 2, (1954).
- Guterbock, (H.G.), «The Deeds of Suppilulioma as told by his son, Mursili II», in JCS, 10 (1956).
- Guterbock, (H.G.), «Mursili's Accounts of Suppiluliuma's Dealings with Egypt», in RHA, 18 (1960).
- Guterbock, (H.C.), «The Orth- Central area of Hittite Anatolia», in JNES, vol. 20 (1961).
- Hammond, (N.G.L.), «The Battle of Salamis», in Journal of

Hellenic Studies, vol. LXXVI (1956).
- Herodotus, The Persian wars, Translated by George Rawlenson, with an introduction by Francis R. B Godolphin, New York, 1942.
- Herzfeld, (E.), Iran in the Ancient East, Oxford University Press, 1941.
- Hignett, (C.), Xerxes Invasion of Greece, Oxford, 1963.
- Hinz, (W.), «Persia C. 2400 - 1800 B.C.» in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Iliffe, (J.H.) «Persia and the Ancient World» in the Legacy of Persia, Edited by, A.J. Arberry, Oxford, 1963.
- Jackson, (A.V.W.), Zoroaster, the Prophet of Ancient Iran, N.Y,, 1919.
- Jacobsen, (T.), The sumerian King list, Assyrian studies, II, University of Chicago, 1939.
- Jacobsen, (T.), «Primitive Democracy in Ancient Mesopotamia» in JNES, vol. II, 1943.
- Jones, (H.L.), The Geography of Strabo, vol. I, London, 1960.
- Kansu (S.A.), Nouvelles découvertes Préhistoriques dans les environs D'Ankara, Istanbul, 1937.
- Kansu, (S.A.), «Stone - age Cultures in Turkey» in AJA, vol. 51 (1947).
- King, (L.W.), Chronicles concerning Early Balylonian Kings, vol. II, London, 1907.
- Knudtzon, (J.A.), Die El- Amarna Tefeln, leipzig, 1915.
- Kozay, (H.Z.), Les Fouilles D'Alaca Huyuk, Ankara, 1951.
- Kramer, (S.N.), Sumerian Mythology, Philadelphia, 1944.
- Kramer, (S.N.), Dilmun, The Land of living, in BASOR, 96, 1944.
- Kramer, (S.N.), «Newlights on the Early History of the Ancient East», in American Journal of Archaeology, vol. 52 (1948).
- Kramer, (S.N.), The Indus civilization and the Dilmun, the Sumerian Paradise land Expedition, Philadelphia, 1964.
- Kramer, (S.N.), The Sumerians, Chicago, 1970.

- Kramer, (S.N.), «The Curse of Agade» in ANET (1971).
- Kupper, (J.R.), Les Nomandes en Mesopotamie au temps de Rois de Mari, Paris, 1957.
- Kupper, (J.R.), «Norther Mesopotamia and Syria» un CAH, vol. II, Part I, Cambridge, 1973.
- Laroche, (E.) «Catalogue des Textes Hittites», in RHA, xiv 158-xvi 162.
- Larousse, Encyclopedia of Archaeology, Translated from the French by Anne Ward, London, 1983.
- Layard, (A.H.), The Monuments of Nineveh, London, 1849-53.
- Leemans, (W.F.), The Old- Balylonian Merchant, Leiden, 1950.
- Legrain, (L.), Business of the Third Dynasty of Ur, London and Philadelphia, 1947.
- Lioyd, (S.), and Safar, (F.), «Tell - Hassuna» in JNES, 4, (1945).
- Lioyd, (S.), and Safar (F.), «Tell Ugair», in JNES, vol. 2 (1943).
- Lioyed, (S.), and Safar, (F.), «Eridu» in Sumer 3 (1947).
- Liod, (S.), «Urk Pottery, A Comparative Study in Relation to Recent Finds at Eridu» in Sumer, 4, (1948).
- Lockhart, (L.), «Persia as Seen by the West», in the Legacy of Persia, Oxford, 1963.
- Luckenbill, (D.D.), Ancient Records of Assyria and Babylonia, I, Chicago, 1968.
- Mallowan, (M.E.L.), and Cruikshank, (J.R.), Prehistoric Assyria, the Excavations at Tell Arpachiyah, London, 1935.
- Mallowan, (M.E.L.), Early Mesopotamia and Iran, London, 1965.
- Mallowan, (M.), «The Development of Cities from Al- Ubaid to the End of UrK 5» in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Mallowan, (M.), «The Early Dynastic Period in Mesopotamia», in CAH, vol. I, Part II, Cambridge, 1971.
- Meek, (T.J.), «The Code of Hammurabi» in ANET, p. 163 FF.
- Mellaart, (J.) «Early Chalcolithic Pottery from Catal Huyuk», in A. st, 11 (1961).
- Mellaart, (J.), «Excavations at Hacilar: Fourth Preliminary

Report» in A. st II, (1961).
- Mellaart, (J.), Earliest Civilization of the Near East, London, 1965.
- Mellaart, (J.) «Excavations at Catal- Hüjük» in A. St. vol. 12 (1962), 13 (1963), 14 (1964), 16 (1966).
- Mellaart, (J.) «Anatolia Before 4000 B.C.» in CAH, vol. I, Part I, Cambridge, 1970.
- Mercer, (S.A.B.), The Tell - El Amarna Teblets, I - II, Toronto, 1939.
- Miller, (W.) in Xenophon Cyropaedia, vol I, London, 1960.
- Nassaouhi, (E.), «Grand liste des rois d'Assyrie», in Arch. F. Or., 4, (1927).
- Nollet, (R.)., Farzami, (S.), Iran, in larousse Encyclopedia of World Geography, London, 1967.
- Noth, (M.), The History of Israel, London, 1965.
- Olmstead, (A.T.), History of Assyria, New York, London, 1923.
- Olmsted, (A.T.), «Darius and his Behistun Inscription», in AJSL, LV, (1938).
- Olmstead, (A.T.), History of the Persian Empire, Chicago, 1970.
- Oppenhein, (A.L.), «The Sumerian King List» in ANET, (1971).
- Oppenheim, (A.L.) «Sargon of Agade», in ANET, (1971).
- Parker, (R.A.), «Darius and his Egyptian Campaign», in AJSL, LVIII, (1941).
- Perkins, (A.L.), The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia, Chicago, 1949.
- Poebel, (A.), «The Name of Elam in Sumerian, Akkadian, and Hebrew», in AJSL, vol. 48, (1931- 1932).
- Poebel, (A.), «The Assyrian King List from khorsabad», in JNES, vol. II, (1943).
- Polybius, The Histories, with an English Translation by W.R. Paton, vol.V.
- Posener, (G.), «Le Canal du Nile a la Mer Rouge», in Chronique d'Egypte, 26 (1938).

- Radice, (B.), Who's who in the Ancient World, London, 1971.
- Roux, (G.), Ancient Iraq, (Penguin Books), 1980.
- Rowton, (M.B.), «Mesopotamian Chronology and the Era of Menophres» in Iraq, vol, 8, (1946).
- Rowton, (M.B.)., «Chronology, Ancient western Asia» in CAH., vol. I, part I, Cambridge, 1970.
- Saggs, (H.W.F.), The Greatness that was Babylon, London, 1962.
- Schmidt, . (E.F.), Excavations at Tepe Hissar Damghan, Philadelphia, 1937.
- Schmidt, (H.), Tell Halaf, 1, Berlin, 1943.
- Shotwell (James, T.), The Story of Ancient History, New York, 1961.
- Smith, (S.M.A.), Early History of Assyria to 1000 B.C., London, 1928.
- Smith, (S.M.A.), «The Foundation of the Assyrian Empire», in CAH, vol. III, The Assyrian Empire, Cambridge, 1965.
- Smith, (S.M.A.), «The Superemacy of Assyria», in CAH, wol. III, Cambridge, 1965.
- Smith, (S.M.A.), «Sennachrib and Esarhaddon», in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Smith, (S.M.A.), «Ashurbanipal and the Fall of Assyria», in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Solecki, (R.S.), «A Paleolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq». Report on a Sounding at Shaindar Cave», in Sumer, vol 8, no. 2 (1952). II (1955).
- Solecki, (R.), «Three Adult Neanderthal Skeletons from Shanidar Cave, Northern Iraq» Smithsonian Report Publication (1959 - 1960).
- Sollberger, (E.), «Notes on the early inscriptions from Ur and el-Obed» in Iraq, vol. 22 (1960).
- Speiser, (E.A.), Introduction to Hurrian (Ann. A.S.O.R. 20), New Heaven, 1941.
- Speiser, (E.A.), «The Sumerian Problem Reviewd», in HUC, 23

(1950).

- Strabo, The Geography of Strabo, with an English Translation by H.L. Jones, London, 1961.
- Sunderland, (E.), «Early man in Iran», in CHI, vol. I, Cambridge, 1968.
- Thompson, (R.C.), «The New Balylonian Empire» in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Thompson, (R.C.), «Decay and Fall of Balylonia under Nabonidus» in CAH, vol. III, Cambridge, 1965.
- Wainwright, (G.A.), «The date of the rise of Meroe», in JEA., vol. 38 (1952).
- Watherlin, (L.C.), and langdon, (S.), Excavations at Kish, London, 1930 - 1934.
- Weidner, (E.F.), «Studien Zur Zeitgeschiche Tukulti- Ninurtas I», in Arch, F. or, 13 (1939 - 1941).
- Wilson, (J.), [Egyptian Treaty» in ANET (1971).
- Wiseman, (D.J.), «A New Stele of Assur- Nasir - Pal» in Iraq, vol. 14 (1952).
- Wiseman, (D.J.), «The laws of Hammurabi again», in J.S.S., vol. 7 (1962).
- Wooley, (C.L.), The Royal Cemetery (Ur Excavations, II), London, and Philadelphia 1934).
- Woolley, (C.L.), History Unearthed» Ur of the chaldees», London, 1963.
- Wright, (H.E.), and Howe, (B.), «Soundings at Barda Balka» in Sumer, 7, (1951).
- Xenophon, Anabasis, with an English Translation by C.L. Brawnson, London, 1961.
- Zeiafer, (C.), Die Keramik von dee Qala des Haggi Mohammed; Berlin, 1953.

٣ ـ قائمة الخرائط

٤ ـ قائمة الأشكال

رقم الشكل الموضوع

فهرس المحتويات

الموضوع | الصفحة

الباب الثاني

الباب الثالث